العراق

في عهد المغول الإيلخانيين

٦٥٦-٧٣٦هـ - ١٢٥٨ = ١٣٣٥م

الفتح . الإدارة . الأحوال الاقتصادية . الأحوال الاجتماعية

تأليف

الدكتور جعفر حسين خصباك

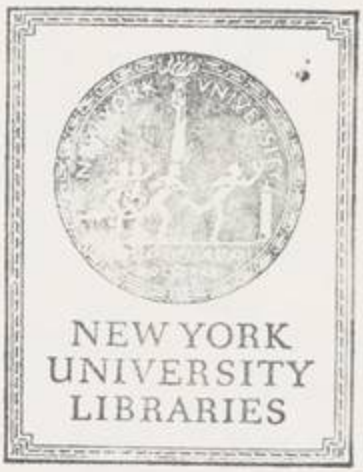
الأستاذ في كلية الآداب والمحاضر في معهد الدراسات الإسلامية العليا

في جامعة بغداد

ساعدت جامعة بغداد على طبعه

الطبعة الأولى - كانون الثاني ١٩٦٨

مطبعة العاني - بغداد



GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY

3 1142 00206 8198

DATE DUE

11503 MAR 25 77

CANCELLED MAR 2 8 1977

Beloit College
Library
21934
CIRCULATION

DEMCO 38-297

Khisbāk, Ja'far Husayn

al-Iraq fi 'ahd al-Mughūl al-Ilkhaniyin

العراق

في عهد المغول الإيلخانيين

٦٥٦ - ٧٣٦هـ - ١٢٥٨ - ١٣٣٥م

الفتح . الإدارة . الأحوال الاقتصادية . الأحوال الاجتماعية

تأليف

الدكتور جعفر حسين خصباك

الأستاذ في كلية الآداب والمحاضر في معهد الدراسات الإسلامية العليا

في جامعة بغداد

ساعدت جامعة بغداد على طبعه

الطبعة الأولى - كانون الثاني ١٩٦٨

مطبعة العاني - بغداد

Near East

DS
76
.K5
c.1

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

تقدم صفحات هذا الكتاب محاولة لدراسة تاريخ العراق فى ظل الحكم الايلخاني المغولي بين ١٢٥٨ و ١٣٣٥م ولا تعني بدراسة شيء من احوال المغول أنفسهم الا بما يتصل بهذا الغرض وحده • وقد وجد المؤلف نفسه مضطرا على العودة الى الوراء بين حين وآخر بتفصيل او اقتضاب لتصفح احوال العراق فى العهد الاخير من الدولة العباسية خصوصا ابتداء من اول حكم الناصر لدين‌الله (٥٧٥ ـ ٦٢٢هـ) او حتى من القرن الرابع الهجرى ولاقى صعوبات جمة فى استجلاء هذه الفترة لشدة غموضها وعدم كفاية الاخبار التى وصلتنا عنها بالرغم من كثرة المراجع التى تطرقت اليها • ولابد من أجل الاحاطة بها وتفهمها تفهما عميقا من البحث بين المخطوطات المعروفة والمجهولة المتوفرة فى ايران والعراق وسورية وتركيا ومصر وأوروبا وهذا مما لم يتح للمؤلف تحقيقه •

يتألف هذا الكتاب من أربعة أبواب رئيسة تمثل بالتتالى محاولات لدراسة ظروف الفتح المغولى للعراق وعملياته العسكرية والنظم الادارية التى قامت فى ظله وأحوال البلاد العامة من النواحى الاقتصادية والاجتماعية فى عهده • وقد حاولت فى جمع هذه الابواب فى كتاب واحد تقديم صورة متكاملة لتاريخ العراق فى العهد الايلخانى لما اعتقده من تفاعل بين الجوانب العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية فليس التاريخ وصفا بسيطا

للماضى بترتيب حوادثه ترتيبا زمنيا بل محاولة لاستقصاء الجذور والاسباب واستيعاب الاحوال والتعمق فى الامور وتقديم احكام وتفسيرات توضحها وتزيل اللبس والغموض عنها • وقد أرجأت الكتابة عن المظاهر الفكرية لحاجتها على ما اعتقد ـ الى دراسة خاصة بها •

ان اية دراسة لنهاية الدولة العباسية تستلزم البحث عن اسباب ضعفها وانحطاطها وهو امر يعود بجذوره الى اواخر العصر العباسى الاول ويخرج عن طبيعة هذا الكتاب أما محاولة التعرف على الاسباب المباشرة لسقوط تلك الدولة فأنه موضوع خصص اكثر الباب الاول لتوضيحه وتحليله وفى رأينا ان القاء اللوم كله على الخليفة الاخير او وزيره انما هو نتيجة لنظرة سطحية للامور وتجاهل لطبيعة الخطر الذى كان كامنا فى احوال البلاد الداخلية والظروف الدولية المحيطة بها •

وقد كثر الكلام عن التخريبات الواسعة التي أحدثها الغزو المغولي للعراق ولسنا بمجال الدفاع عن اولئك الغزاة البرابرة او النيل منهم ولكن دراستنا للنصوص التى وصلتنا عن المراجع المعاصرة والمطلعة انتهت بنا الى نتيجة تخالف نوعما ما هو شائع فالمغول لم يخربوا نظام الرى فى العراق وتخريبهم للمدن كان محدودا فى مناطق معينة أهمها بغداد والموصل اما القتل الذى اوقعوه فى بغداد فقد كان ذريعا • ولكن هولاكو لم يجر على سنة جده جنكيزخان بتخريب اكثر او كل المدن التى تقع فى طريق زحفه وقتل سكانها ويبدو لنا ان الصورة التى رسمها المؤرخون لفاتح بغداد المغولى انما هى انعكاس للاعمال التى قام بها جده فى ما وراء النهر وخراسان[1] • وقد بدأ المغول غزوهم للعالم الاسلامى فى ٦١٦هـ ولم يستولوا على العراق الا بعد أربعين سنة من ذلك نشأ خلالها جيل جديد انهالت عليه الثروة من

---

(١) انظر تفاصيل غزوات المغول لما وراء النهر وايران ايام جنكيزخان فى : ابن الاثير ، الكامل فى التاريخ (مطبعة الاستقامة) ، ج٩ ، ص٣٢٩ – ٣٤٣ •

كل جانب واحتك بالمدنيات القديمة فى الصين واواسط آسيا وايران ولذلك فانه كان أخف من آبائهفى معاملته للسكان المفتوحين وقد عهد هولاكو أمر تنظيم العراق وادارته بعد الفتح ، الى مسلمين يعرفون شؤونه ويعطفون على أهله فعملوا على اعادة تعميره ونشر الاستقرار فيه وقد وصف عطا ملك الجويني الذي حكم العراق أكثر من اثنين وعشرين سنة بأن أيامه كانت كأيام الخلفاء وسيرته من أحسن السير وأعدلها بالرعية[٢] . وبالغ كاتب آخر فقال : (كانت بغداد ايام الصاحب علاءالدين أجود مما كانت عليه ايام الخليفة)[٣] .

كثرت المراجع القديمة المعاصرة وغير المعاصرة التى تناولت بالشرح عمليات غزو المغول للعراق ونشاطهم العسكرى الى نهاية الدولة الايلخانية ولذلك فان الصورة التى وصلتنا عن هذا الامر تكاد تكون واضحة الى حد كبير أما فيما يتعلق بادارة البلاد وأحوالها الاقتصادية والاجتماعية فأن مهمة الباحث فيها أصعب وأشق لقلة الاخبار عنها وتفرقها بين صفحات وسطور مراجع عديدة وقد اضطررنا فى كثير من المواضيع الى العودة الى الفترة السابقة ودراستها دراسة جيدة للاستفادة منها فى القاء ضوء مفيد على الفترة الايلخانية يضاف الى ذلك اننا اخترنا جوانب معينة فقط من الاحوال الاقتصادية والاجتماعية نعتقد انها تمثل أهم ما فى الموضوع مثل نظام الرى والضرائب والعملة والصناعة والتجارة والاثر العنصرى الذى تركه الفاتحون فى البلاد وتوزيع القبائل العربية وأثرها فى تاريخ الفترة وتوزيع المسيحيين واليهود من السكان وعلاقتهم بالحكام ودراسة احوال البلاد الصحية ونوعية الغذاء الشائع بين السكان ودراسة مؤسسات معينة كالجامع والمدرسة والرباط باعتبارها منظمات اجتماعية لها وظائف خاصة تقوم بها فى المجتمع العراقى

---

(٢) الشيخ قطبالدين اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج٤ ، ص٢٢٤-٢٢٥ .

(٣) محمد بن شاكر الكتبى ، فوات الوفيات (تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد) ج٢ ، ص٧٥-٧٦ .

واخيرا اختتمنا الكتاب بمحاولة لمعرفة الطبقات الاجتماعية وما أصابها من تغير نتيجة للاحتلال المغولى •

ان الكثير من تنظيمات العراق الادارية والاقتصادية واحواله الاجتماعية فى ظل الايلخانيين لم تخضع لتغييرات مفاجئة او عميقة بل ان الاستمرارية ظلت واضحة فيها فكأن البلاد فقدت الخليفة العباسى ووزراءه وعددا من وظائفه ولكنها احتفظت بالكثير من نظمهم ووظائفهم الادارية وصارت جزء من امبراطورية عظيمة يرأسها الخاقان المغولى فى قره‌قورم ثم الايلخان او السلطان فى مدينتى تبريز او السلطانية • وفى هذا أمر لم يسبق له مثيل في تاريخ العراق لانه لم يخضع في أية فترة من تاريخه لحاكم قاعدته منغوليا او أواسط آسيا • ولكن الانفصال التدريجى للدولة الايلخانية (وكان العراق وايران أهم مقاطعاتها) عن الامبراطورية المغولية خصوصا فى عهد اولاد هولاكو وأحفاده ، جعل هذه الدولة تعتمد على نفسها من حيث مصادرها فى الرجال والمال واضطرها على التكيف لظروفها المحيطة بها فأخذت تذوب فى المدنية الفارسية الاسلامية وقد كان وزراء هولاكو ، مؤسس الدولة ، ومستشاروه المقربون فى الشؤون الادارية والمالية يغلب عليهم الطابع الفارسى الاسلامى منذ البداية مثل شمس‌الدين الجوينى ونصير الدين الطوسى • والحقيقة اننا لم نستطع اكتشاف أى اثر عنصري او ثقافى عميق تركه المغول فى حياة العراقيين ، بل ان التأثيرات الفارسية التى لم تختف بينهم خلال الحكم العباسى والتى اشتدت ايام السلجوقيين عادت الى الظهور فى الفترة الايلخانية وصار الحكم مغوليا فارسيا فى اول الامر ثم صار وكأنه فارسي في أواخر الدولة الايلخانية وأخذت شخصية البلاد الثقافية الناتجة من تراثها الغنى العميق تعود الى الظهور من جديد كما ظهر بنو العباس وصارت لهم نقابة خاصة بهم •

ان المراجع التى استخدمها المؤلف فى هذا الكتاب عديدة ومتنوعة بينها كتب تاريخ عامة وكتب طبقات وسير وتواريخ اشخاص ومدن وكتب سياحية وجغرافية • وكل ما نستطيع القيام به فى هذه المقدمة هو الاشارة الى عدد

مختار منها فقط لكثرتها وتنوعها ومع ان المنهج العلمي وهو الذي تمسك به المؤلف ، يتطلب دراسة جميع الروايات التى تمثل وجهة نظر جميع الاطراف التى كان لها مشاركة او تأثير فى مجرى الامور فان ضياع جانب كبير من مراجع البحث القديمة وعدم توفر بعضها بالنسبة للمؤلف حال دون تحقيق أمنية غالية طالما راودته هي دراسة النصوص التي تعكس وجهة نظر المغول انفسهم • وكل ما حصلنا عليه في هذا الشأن نصوص قليلة العدد كتبها صينيون معاصرون كان لهم اتصال مهم بالمغول وردت في مجموعة الوثائق والاخبار التى جمعها الدكتور بريشنايدر

E. Bretschneider, Medieval Resreaches from Eastern Asiatic Sources.

وخير ما فيها انطباعات صينيين معاصرين عن عدد من المدن الاسلامية خصوصا الايرانية وشيء من النصوص المفيدة عن حادثة حصار بغداد وفتحها •

ان المراجع الاسلامية تنقسم الى عربية وفارسية واكثر ما ورد فيها وصف للحملات العسكرية قبل فتح بغداد وبعدها واخبار عن شخصيات الفترة العسكرية والسياسية والاجتماعية والفكرية وأهم من تطرق الى هذه الجوانب هو : كتاب الكامل في التاريخ لعزالدين بن الاثير (ت ، ٦٣٠هـ) الذي يصل بحوادثه الى سنة ٦٢٨هـ وكان معاصرا للغزو المغولي وشديد الاتصال بأخبار العراق وقد استقى اخباره عن المغول من تجار ومسافرين بينهم شهود عيان وكان نفسه فى الموصل حينما اقترب المغول منها وقد امتدح معرفته بأخبار الغزو المغولى معاصر له كان اكثر منه اتصالا بأحداث اجتياح المغول لايران هو محمد بن أحمد النسوي (ت ، ٦٣٩هـ) بكتابه سيرة السلطان جلال‌الدين منكوبرتي وقد عمل هذا كاتبا للانشاء للسلطان المذكور ورسولا له لدى عدد من حكام المسلمين وكان مستشاره وموضع ثقته فى كثير من أمور الدولة • ومن المراجع الفارسية القديمة يعدّ كتاب عطا ملك الجويني (ت ، ٦٨١هـ) المسمى (جهانگشاي) أي فاتح العالم ، ذو أهمية كبيرة فيما يتعلق بالاحداث الاولى

من اتخاذ مانغوخان قراره بفتح البلاد الغربية ومنها العراق الى فتح بلاد الاسماعيلية كما أنه يحتوي على نصوص واوصاف مفيدة عن حياة المغول في تركستان وقد تجول المؤلف فيها ووصل الى حدود الصين ورافق هولاكو في حملته على العراق • ويعد كتاب عبدالله بن فضل‌الله الشيرازي (تجزية الأمصار وتزجية الاعصار) ، ويكثر صاحبه من استخدام لغة فارسية متكلفة مليئة بالمحسنات البديعة والامثال العربية ، مفيد فيما يتعلق بتاريخ العراق فى هذه الفترة • اما كتاب رشيدالدين فضل الله الهمذانى (ت ، ٧١٨هـ) المسمى (جامع التواريخ) فهو من خيرة ما اخرجه العهد الايلخانى من المؤلفات التاريخية وهو مثل لما حدث من تطور سياسى وفكرى سببه سيطرة المغول على امبراطورية عالمية تضم اجناسا وثقافات واديانا متعددة كالمغولية والتركية والعربية والروسية وغيرها وهو ، أى جامع التواريخ ، محاولة لتأليف كتاب عن تاريخ العالم ونسخه المتداولة بيننا الآن بالفارسية وأهم ما فيه بالنسبة لبحثنا تفصيلات مؤلفه عن فتوحات هولاكو وحياة غازان واصلاحاته الادارية والمالية وقد وضع الكتاب فى الاصل بناء على أوامر السلطان غازان ولذلك وضعت تحت تصرف مؤلفه كل المعلومات التى كان يريد الحصول عليها وقد اتصل بعدد من امراء المغول وحكامهم وحكمائهم والعارفين منهم بالاضافة الى استخدامه للعديد من المصادر الاسلامية • وقد أكمل حافظ أبرو (ت ، ٨٣٤هـ) هذا الكتاب بذيل وضعه له بدأه من حيث انتهى رشيد الدين وقص تاريخ السلطانين المتأخرين من الدولة الايلخانية اولجايتو محمد خدابنده وأبي سعيد • ولكن المهم ان هذا الكتاب وغيره من المؤلفات الفارسية القديمة تؤكد على تاريخ ايران وتفصل فيه ولا يأتي تاريخ العراق فيها الا عرضا باستثناء الاحداث العسكرية والسياسية المهمة • أما النصوص المفيدة فى تاريخ العراق الاقتصادى والاجتماعى فأنها قليلة فيها على الاغلب •

ومن المراجع العربية المفيدة فى موضوع الغزوات المغولية ما ورد فى كتاب ياقوت الحموى (ت ، ٦٢٦هـ) (معجم البلدان) وكان المؤلف فى

نيسابور عندما بدأ المغول اجتياحهم لدولة خوارزم ففر الى جهة الغرب ووصف في رسالته المنشورة في كتاب وفيات الاعيان لابن خلكان ، صورة الرعب والهلع الذي ملأ به الغزاة قلوب السكان • وهناك نصوص مفيدة عن غزوات المغول للعراق السابقة لعام ٦٥٦هـ في كتاب شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد (ت، ٦٥٦هـ) الذي تعكس اخباره شعور العراقيين عن تلك الاحداث وتحمل شيئا من الثقة الفارغة القائمة على تفاؤل لا يبرره الواقع • وفي الكتاب الموسوم بالحوادث الجامعة معلومات مفيدة ومفصلة عن نشاط المغول العسكري واحوال العراق السياسية بين ٦٢٧هـ و ٧٠٠هـ • ويبدو مما ورد في الكتاب أنه من تأليف أحد البغاددة المعاصرين الذين نقلوا الكثير عن مؤلفات لم تصلنا ، للمؤرخ العراقي ابن الساعي ، وترد كثير من اخبار هذا الكتاب في مخطوطة تنسب لابي الحسن علي بن الحسن الخزرجي (ت ، ٨١٢هـ) حتى ان بعض العبارات تتردد نفسها في الكتابين على ان الثاني منهما أوضح وأصح لانه يخلو من التصحيف ويبدو ان كليهما ينقلان من مصدر واحد هو ابن الساعي • وهناك نصوص مفيدة في كتابي ابن العبري (ت ، ٦٨٥هـ) تاريخ مختصر الدول وأصله السرياني الذي ترجم الى العربية ايضا • وفي الثاني منهما يطلق المؤلف العنان لنفسه للنيل من الاسلام والمسلمين والتعليق على اخبارهم بما يحلو له ولذلك فهو يعكس رأيه بوضوح اكثر •

هذا أهم ما أردنا بيانه عن مراجع الباب الاول من الكتاب اما الابواب الثلاثة الباقية عن الادارة والاحوال الاقتصادية والاجتماعية فقد كانت مهمتنا فيها أصعب لان المراجع التاريخية القديمة لم تهتم بافراد أبواب خاصة لهذه المواضيع ولم نجد من كتب التاريخ الادارى الاسلامى ما يقدم معلومات مفيدة مباشرة عن الفترة الايلخانية الا كتاب صبح الاعشى للقلقشندى (ت ، ٨٢١هـ) واهم ما فيه نقل او تلخيص لكتاب مؤلف آخر معاصر هو ابن فضل‌الله العمري في كتابه (مسالك الابصار) الذي اعتمد فيه على أخبار رواها له تجار وحكماء سافروا الى البلاد التى كان يحكمها الايلخانيون •

والحقيقة ان الباحث يستطيع العثور على قدر مفيد من النصوص الحضارية مبعثرة في طيات كتب التاريخ العام وتواريخ السير والطبقات والكتب الجغرافية والسياحة ومثل ذلك ان ابن الدبيثي (ت ، ٦٣٧هـ) في كتابه (التاريخ المذيل به على تاريخ ابن السمعاني) ، وابن النجار (ت ، ٦٤٣هـ) في كتابه ذيل تاريخ بغداد مدينة السلام ، يقدمان معلومات غنية في غاية الفائدة عن احوال العراق السياسية والادارية والاجتماعية في أواخر الدولة العباسية . وكذلك مخطوطة (المسجد المسبوك) الى ٦٥٦هـ ، والحوادث الجامعة الى (٧٠٠هـ) وتلخيص مجمع الآداب لابن الفوطي (ت ، ٧٢٣هـ) الذى يؤرخ للفترتين العباسية المتأخرة والايلخانية وكتب الوفيات التي وضعها ابن خلكان (ت ٦٨١هـ) وابن شاكر الكتبي (ت ، ٧٦٤هـ) وصلاح الدين الصفدى (ت ، ٧٦٤هـ) والدرر الكامنة لابن حجر العسقلانى (ت ، ٨٥٢هـ) وغيرهم .

وتؤلف كتب الجغرافية والرحلات قائمة طويلة تمتد من خلال العهد العباسى الى العهد الجلائرى الذى أعقب الايلخانيين ومع أن بينها ما يجمع النصوص والاخبار من مراجع اخرى سابقة جغرافية او غير جغرافية فأنها يجب ان تؤخذ سوية ليكمل بعضها بعضا حيث تلقي بذلك ضوء مفيدا على احوال العراق من مختلف الوجوه وأهمها ما كتبه ابن رسته (كان حيا في ٢٩٠هـ) وابن حوقل (٣٦٧هـ) والمقدسى البشارى (ت ، ٣٧٥هـ) وناصر خسرو (٤٣٨هـ) وابن جبير (ت ، ٦١٤هـ) وياقوت الحموي (ت ، ٦٢٦هـ) والمستوفى القزويني (ت ٧٤٠هـ) وأبو الفداء (ت ، ٧٣٢هـ) وابن بطوطة (ت ، ٧٧٩هـ) وماركو بولو (ت ، ١٣٢٤م) . وفيما يتعلق بالفصلين الخاصين بالمسيحيين واليهود لم نستطع العثور على العدد الكافى من المراجع القديمة التى كتبها أفراد من هاتين الطائفتين عدا ما ورد فى اخبار فطاركة كرسي المشرق لماري بن سليمان وعمرو بن متى وما كتبه ابن العبرى فى تاريخه السريانى وبنيامين التطيلى فى رحلته أما ما عدا ذلك فأن النصوص الواردة فى كتب التاريخ الاسلامى عن هذا الموضوع ليست

قليلة ولكنها تعكس وجهة نظر المسلمين ولذلك يجب ان تؤخذ بحذر •

واخيرا اختتم هذه المقدمة بأن اردد لنفسي على الاقل انني بذلت جهدا كبيرا فى الا أكون متحزبا لاية جهة او عقيدة باستثناء الهدف الذى اسعى الى تحقيقه دائما وهو الوصول الى الحقيقة اقتناعا مني ان معرفة الماضي معرفة علمية هى أقوم سبيل لتعرف الانسان على ذاته كما هى وادراك امكاناته وتفهم مشاكله اما المبالغة فى وصف الماضي او الانتقاص منه فأنها مضيعة للوقت تدفع الانسان الحاضر فى سبيل معوج ملتوي لا يوصله الا الى متاهات وضلالات وخير للامة التى تسعى الى غد مشرق ان تعرف ماضيها على حقيقته •

الباب الاول
الاحتلال المغولي للعراق

الفصل الاول

ظروف الغزو المغولي ومقدماته ومسئولية الخلفاء العباسيين عنه

- ١ -

بدأ جنكيز خان غزوه للعالم الاسلامي سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م عندما أخذت جيوشه تجتاح دولة خوارزم التي كانت تضم بلاد ما وراء النهر واكثر أقاليم الأفغان وايران وبعد اربعين سنة من ذلك أي في سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م استولى حفيده هولاكو على بغداد عاصمة العباسيين وقاعدة خليفة المسلمين . وقد كان غزو المغول للعالم الاسلامي جزء من حركة واسعة تستهدف اقامة امبراطورية مغولية عالمية نجحت فعلاً أيام مؤسسها جنكيزخان باحتلال امبراطورية الصين الشمالية واواسط آسيا وايران وجورجيا والقفقاس وروسيا وبولندة واجزاء أخرى من أوروبا الشرقية .

وقد ارتكب المغول خلال غزوهم لأقاليم دولة خوارزم المسلمة فضائع تهلع لها القلوب وتشمئز منها النفوس من تعذيب وقتل لعشرات الألوف من السكان الآمنين دونما تمييز بين الشيوخ والنساء والأطفال ونهب وتخريب كاملين أحياناً لمدن كانت عامرة مزدهرة صارت قاعاً صفصفاً حتى أشار ابن الأثير وهو مؤرخ معاصر الى ذلك وهو يعكس مشاعر أهل زمانه ومخاوفهم بقوله :

« لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها كارهاً لذكرها فأنا أقدّم اليه رجلاً وأؤخر أخرى فمن ذا الذي يسهل عليه ان يكتب نعي الأسلام والمسلمين ومن ذا الذي يهون عليه ذكر ذلك فياليت أمّي لم تلدني وياليتني متّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً الا أنّي

حثني جماعة من الاصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ثم رأيت ان ترك ذلك لا يجدي نفعاً فنقول هذا الفعل يتضمّن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عفت الايام والليالي عن مثلها عمّت الخلائق وخصّت المسلمين فلو قال قائل ان العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم الى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً »[1] .

وقد بدأ المغول يهدّدون اطراف العراق سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م وكان مصيره معلّقاً بمصير الأقاليم المحيطة به من الشرق والشمال ولاسيّما دولة خوارزم التي كانت الحصن المنيع الذي يدفع عنه الأخطار القادمة من الشرق لأن الخليفة العباسي لم يكن بأمكاناته العسكرية والسياسيّة المحدودة يستطيع وحده الصمود أمام الأمبراطورية المغوليّة التي كانت وقت سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م تضمّ أغلب بلاد الصين وتركستان وجزء من الهند واكثر ايران وآسيا الصغرى وأكثر روسيا وكانت تملك مصادر هائلة من الرجال والمال والسلاح وكان غزو المغول للعراق جزءً من غزوهم للعالم الأسلامي الشرقي الذي كان وحدة ثقافية لها وزنها العسكري والسياسي والمعنوي لو توحّدت كلمة حكّامها وتألفت قلوب ابنائها ولكن الانحلال كان يسود المنطقة بأجمعها وان من العبث النظر الى أحداث العراق باعتبارها قائمة بذاتها ومنفصلة عمّا يحيط بها .

كانت دولة الخليفة أيام المستعصم بالله العباسي (٦٤٠ - ٦٥٦هـ) (١٢٤٢ - ١٢٥٧م) تشتمل على جزء من العراق الحالي يمتدّ من تكريت الى الفاو ومن حلوان[2] الى عانة ضمّت اليها خوزستان منذ عام ٥٩١هـ/ ١١٩٤م وكانت قليلة النفوس خرب العديد من مدنها وقراهـا ومناطقها

---

(١) عز الدين محمد بن محمد بن عبدالكريم المعروف بابن الاثير ، الكامل في التاريخ (مطبعة الاستقامة بالقاهرة) ج٩ ص٣٢٩ .

(٢) حلوان : قال ياقوت الحموي : (حلوان العراق وهي في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد) ، معجم البلدان (دار بيروت ودار صادر) ج٢ ص٢٩٠ .

الزراعية نتيجة للاضطرابات السياسية التي مرّت بها منذ أواخر العصر العباسي الاول واهمال نظام الري الذي كان الاساس الاول لثروة البلاد وازدهارها ، ولكثرة ما مرّ بها من أوبئة ومجاعات[٣] .

لقد كان خلاص العراق يتوقف على أمرين : أولاً : فقدان الأمبراطورية المغولية قابليتها على الاندفاع والتوسع نتيجة لانقسامها ووقوع الخلاف بين قادتها وحكامها واندلاع نار الحرب فيما بينهم . ثانياً : قيام حلف يضم الجزء الشرقي من العالم الاسلامي أي الدول الواقعة ما بين سيحون والنيل ويستهدف توحيد وحشد القوى العسكرية في المنطقة أمام الخطر المغولي العظيم الذي كان يهدّد الجميع . ولكن لم يظهر ما يحقق أحد هذين الأمرين الى سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م أي بعد سقوط بغداد بحوالي السنتين . فقد ظلّ أباطرة المغول منذ أيام جنكيزخان يحكمون امبراطوريتهم الواسعة ويبحثون عن مناطق جديدة يخضعونها دون ان تقوم في وجوههم ثورة خطيرة أو تنشب بين اتباعهم حرب أهلية الى ان مات الامبراطور مانغوخان عام ٦٥٨هـ/١٢٥٩م أي بعد سقوط بغداد وزوال الخلافة العباسية فيها ووقوع أكثر أجزاء سورية بأيدى الجيوش المغولية الفاتحة حيث نشبت الحرب بين الاخوين قوبلاي وأرقبوقا وطلب الاول منهما مساعدة أخيه هولاكو . وقد أعقب ذلك خلاف حدث بين (بركاي خان بن جوجي) حاكم مغول القبجاق وابن عمه هولاكو أول ملوك الايلخانيين مما أدى الى وقوع سلسلة من المعارك بين الدولتين وتركيز هولاكو قواته في الجهات التي يحمي فيها ممتلكاته من الخطر الجديد ، وعدوله عن خطته في غزو مصر واتخاذه موقف الدفاع أمام دولة المماليك المسلمة التي نجحت في ايقاع الهزيمة بقوات المغول في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م وتوحيد مصر وسورية فى دولة واحدة .

أما اقامة حلف يضم الجزء الشرقي من العالم الاسلامي فقد ظلّ أمراً بعيد التحقيق بسبب الظروف السياسيّة والروحية التي كانت تسود

---

(٣) راجع الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب .

المنطقة . كان توحيد جنكيزخان للمغول قد خلق دولة عظمى لها من المصادر البشرية والمعنوية والقيادية ما أثبت أنه قادر على تحطيم جميع القوى التي وقفت أمام زحفها مما أخلّ في وقت قصير بالتوازن العسكري العالمي ما بين المحيط الهادي واواسط أوروبا في وقت كان فيه العالم الاسلامي الشرقي يمثل فراغاً عسكرياً كبيراً باستثناء دولة خوارزم التي أكمل المغول تحطيمها عام ٦٢٨هـ/١٢٣٠م وكان هذا الجانب من العالم الاسلامي يعج بعدد كبير من دول الطوائف التي نشأت على انقاض الدولتين السلجوقية والأيوبية وكان السيف على قول ابن الأثير وهو مؤرخ معاصر ، قائما بينها وكان حكامها منهمكين بالتآمر ومحاولات التوسع على حساب بعضهم البعض الى حد أعماهم عن الاحساس بخطر المغول الى ان اكتسح هؤلاء دولة خوارزم ووصلت طلائعهم الى الجزيرة واطراف بلاد الشام وكانت غالبية المسلمين في هذا الحين تنقصهم القيم الروحية التي نسميها الآن الأيديولوجية التي تشدّ بعضهم الى بعض وتثير في أنفسهم العزم على امتشاق الحسام للدفاع عن دينهم واوطانهم وأرواحهم . فقد كان الاسلام وهو أهم رابطة تجمع سكان المنطقة وتوحد فيما بينهم ، قد أضحى آنذاك مجرّد ثقافة وأسلوب في الحياة وقد فقد قوته الدافعة القديمة وغلبت على أكثر المسلمين روحيّة الاستسلام للقضاء والقدر ونشطت الصوفيّة الممتزجة بالخرافة فأبعدت الناس عن تفهّم واقعهم المرير وأشغلتهم بخيالات غريبة وأوهام مضلّلة حتى ان العلامة ابن تيميّة (ت ٧٢٨هـ/١٣٢٨م) وهو مراقب ثاقب النظر أشار الى عدد من شيوخ المتصوّفة وقال : (وكثيراً ما كنت أظنّ ان ظهور مثل هؤلاء أكبر أسباب ظهور التتار واندراس شريعة الأسلام)[٤]. وأخيراً كانت هذه الشعوب تفتقد زعيماً كصلاح الدين الأيوبي مثلاً يستطيع ان يجمع كلمة المسلمين أو يفرض نفسه على الحكّام الآخرين بالقوّة فيوفر الاستقرار والقوة العسكرية الضرورية والوحدة الأيديولوجيّة .

---

(٤) مجموعة الرسائل والمسائل تأليف شيخ الاسلام ابن تيميّة ، ج١ ص ١٧٩ – ١٨٠ .

وقد كان خلفاء بني العباس المتأخرين وهم قادة المسلمين اسمياً ، لا يتمتعون الا باحترام معنويّ خارج مملكتهم الصغيرة التي لم تكن تقدّم لهم من الأمكانات ما يساعدهم على النهوض بواجب سياسي او عسكري خطير .

كانت أقوى دولة اسلامية في الجهة الشرقية من العراق أيام الغزو المغولي هي دولة خوارزم التي نشأت على انقاض دولة سلاجقة ايران والعراق ونجحت في توحيد بلاد ما وراء النهر وايران توحيدا سطحياً وكانت تمتلك موارد عسكرية ومالية عظيمة ولكنّها كانت تخضع لسيطرة طبقة عسكرية من اتراك ماوراء النهر أثارت كراهية السكان لنهبها أموالهم وتعسفها فيهم وكان سلطانها علاءالدين محمد بن تكش (٥٩٦هـ - ٦١٧هـ = (١١٩٩ - ١٢١٩م) قد قضى على ملوك ما وراء النهر وخراسان ولم يترك في ايران من الرؤساء من يستطيع الوقوف أمام تيار الغزو المغولي . ولم يكتف بذلك بل طمع بالاستيلاء على بغداد وانتزاع السلطة من الخليفة كما فعل قبله البويهيّون والسلجوقيون فجمع قوات كبيرة وزحف على العراق سنة ٦١٤هـ/١٢١٦م ولكن عاصفة ثلجية هبّت عليه في الجبال واضطرّته على العودة . يضاف الى ذلك انه بالرغم من مقدرته العسكرية ونشاطه الكبير فان الفرصة لم تتهيأ له لتثبيت أقدامه وتنظيم دولته وخلق الوحدة اللازمة بين شعوبها . كما أنه لم يكن يدرك قوة جنكيزخان الحقيقية . وقد خاتته قواه وانهارت معنويته بعد قليل من غزو المغول لبلاده عام ٦١٦هـ/١٢١٩م ففرّ الى احدى جزر بحر الخزر ومات هناك وحيداً مريضاً تاركاً بلاده لعدوّه يدمرها تدميرا . وقد عاد جنكيزخان الى بلاده بعد فتوحاته في ايران وذلك عام ٦٢٠هـ/١٢٢٣م ومات فيها بعد أربع سنوات حيث أعقبه ابنه وخليفته (أوغوتاي) على العرش المغولي في نفس السنة .

وقد كان بأمكان المسلمين ان ينتهزوا الفرصة فيجمعوا فلولهم ويوحدوا صفوفهم ويخلقوا جبهة موحدة ربما تستطيع ايقاف عدوهم ولكنهم ظلوا منشغلين بمنازعاتهم كالسابق . وكان جلال‌الدين منكوبرتي بن

علاءالدين محمد آخر سلاطين دولة خوارزم قد عاد من الهند سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م بعد فراره أمام جنكيزخان فجمع فلول جيش ابيه وطفق يعيد سيطرته على جنوب ايران وغربها ولكنه انصرف الى محاربة امراء المسلمين وخليفتهم ونهب بلادهم وتخريبها حتى اضطروا الى محاربته كما حاربوا المغول وأخذ يغزو دولة الخليفة في نفس السنة حتى تغلغل الى (بعقوبا) و (بادرايا) و (الراذان) و (باكسايا) و (تكريت) وهو ينهب ويقتل • وقد فتح (داقوقا) وأوقع السيف في أهلها وسبى حريمهم وهتك نساءهم وأحرق بلدهم وهدم سوره[٥] • وكان عسكره على ما وصفهم الذهبي (مجمّعة لا أخباز لهم بل يعيشون على النهب والأغارة)[٦] وظلت جيوشه تجوس خلال العراقين العربي والعجمي تخرّب البلاد وتنهب الاموال حتى فعلت في أهل (خلاط) في ٦٢٦هـ/١٢٢٨م ما لم يفعله التتار من القتل والاسترقاق والنهب[٧] • فاتفق ضده صاحبها الملك الأشرف بن الملك العادل مع صاحب الروم كيقباد بن كيخسرو والتقى الفريقان في رمضان فولى الخوارزمية منهزمين وهلك غالب عسكرهم وضعف بسبب ذلك جلال‌الدين وقويت عليه التتار واسترجع الأشرف خلاطاً وهي يباب[٨]• وفي ٦٢٨هـ/١٢٣٠م هاجمه المغول وهزموه شرّ هزيمة ففر الى الجبال حيث قتله أحد الأكراد •

أما الى غرب العراق وشماله فقد كانت الجزيرة وسورية ومصر مصدراً آخر لقوة المسلمين ولكنها كانت تعاني الفوضى والانقسام بعد وفاة موحدها الملك العادل اخي صلاح‌الدين الايوبي في ٦١٥هـ/١٢١٨م فانقسمت

---

(٥) يوسف بن قزاوغلي الشهير بسبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان وتاريخ الاعيان ، ج٨ ، قسم ٢ ص ٦٣٤ •

(٦) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني الذهبي ، دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٠١ •

(٧) الملك المؤيد ابو الفداء اسماعيل ، المختصر في اخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٥٣ •

(٨) ن• م•

البلاد بين أولاده الذين انشغلوا بالمنازعات والحروب في الوقت الذي أخذ فيه المغول يخربون دولة خوارزم يضاف الى ذلك ان دويلات صليبية كانت لا تزال قائمة في سورية وفلسطين وان حملات صليبية جديدة كانت تهدد مصر وسورية • ففي ٦٢٩هـ/١٢٣١م وصل فردريك الثاني امبراطور المانيا الى الشام واضطر الملك الكامل الأيوبي صاحب مصر الى مصالحته بتسليمه مدينة القدس وبيت لحم والناصرة وجميع المدن الواقعة بين يافا وعكا وفي ٦٤٧هـ/١٢٤٩ - ١٢٥٠م أغار الصليبيون بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا على مصر وهاجموا مدينة دمياط بعد ان هجرها أهلها • وخلال ذلك مات ملك مصر وخلفه ابنه الملك المعظم تورانشاه فانتهز الصليبيون الفرصة وتوغلوا في مصر فهزمهم أهلها هزيمة كبيرة وأسروا ملكهم • ولكن المماليك البحرية وكانوا حكام البلاد العسكريين آنذاك ثاروا على سلطانهم وقتلوه ونصبّوا أحدهم المسمّى معزالدين أيبك التركماني مكانه في ٦٤٨هـ/١٢٥٠م فلم تستقر الحال في عهده حتى قتل في ٦٥٠هـ/١٢٥٢م فتولى ابنه الصغير مكانه الى ان أزيح عن العرش من قبل قائد جيوشه سيف‌الدين قطز في ٦٥٧/١٢٥٨م •

— ٢ —

لم يكن سقوط بغداد بيد هولاكو عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م حدثاً مفاجئاً بل جزءً من حركة واسعة لغزو العالم الاسلامي بدأها جنكيزخان في ٦١٦هـ/١٢١٩م واستمرت بعد سقوط بغداد باستيلاءه على سورية واستعداده لفتح مصر في ٦٥٧هـ/١٢٥٩م • وقد كانت جميع الغزوات المغولية لهذه المنطقة بعد القضاء على الدولة الخوارزميّة في ٦٢٨هـ/١٢٣٠م تصدر من ايران وتشمل منطقة واسعة تمتدّ من آسيا الصغرى الى الجزيرة والعراق وتتسم غالبيتها ما عدا الحملة على آسيا الصغرى ، بطابع السرعة والعمل على اشاعة البلبلة والفوضى والرعب في نفوس السكان من أجل النهب والسلب

وجس النبض وكانت منذ بدايتها في عام ٦١٦هـ/١٢١٩م ترتبط ارتباطا شديدا بتقلبات الحكم في بلاد المغول نفسها فقد أدت عودة جنكيز خان الى منغوليا سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م وموته في ٦٢٤هـ/١٢٢٧م الى هدوء الاحوال في المنطقة ولكن تنصيب ابنه أوغوتاي خلفاً له أدّى الى ارسال جيش جديد للقضاء على بقيّة الدولة الخوارزمية واطلاق الكتائب المغولية تنشر الرعب والخراب في البلاد المجاورة لها .

وصلت الأخبار الى بغداد في ٦١٨هـ/١٢٢١م بتقدّم المغول من قاعدتهم مراغة في أذربيجان نحو اربيل فاتزعج الناس وأمر الخليفة الناصر لدين الله بالقنوت في الصلاة وحصّن بغداد وكتب الى صاحب الموصل وصاحب اربيل يأمرهما بالاجتماع بعساكره في (دقوقا) ولكنه لم يرسل غير ثمانمائة طواشي أي مملوك ووصل الخبر الى الموصل فخاف الناس وطلب صاحب أربيل النجدة من صاحب الموصل بدرالدين لؤلؤ فأرسل هذا جمعا صالحا من عسكره اجتمع مع عساكر أربيل وعساكر الخليفة ، وكان المقدّم على الجميع مظفرالدين كوكبوري صاحب اربيل وقد رأى قلّة العسكر فلم يقدم على المغول الذين رجعوا القهقرى ظنّاً منهم ان عسكر المسلمين يتبعهم[٩] . وقد أعقبت هذه الحادثة عشر سنوات من الهدوء انتهت بهزيمة جلال‌الدين منكوبرتي آخر سلاطين الخوارزميين في ٦٢٧هـ/١٢٢٩م وقتله سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م حيث انفتح طريق العراق وغربي آسيا أمام المغول فتقدموا نحو الغرب ووصلوا ماردين ونهبوها ثم ساروا الى نصيبين ونهبوا سوادها وقتلوا من ظفروا به هناك ونهبوا جبال سنجار ودخلوا الخابور وسارت منهم طائفة على طريق الموصل حتى وصلت قرية المؤنسة[١٠] فنهبوها وقتلوا من وجدوا من أهلها[١١] ومضت منهم طائفة الى

---

(٩) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٩ ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨ ؛ العسجد المسبوك (مخطوطة مصورة) ج ٢ الورقة ١٣٢ .

(١٠) قرية على مرحلة من نصيبين للقاصد الى الموصل ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٥ ص ٢٢٨ .

(١١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٣٨٥ .

أعمال أربيل حيث نهبوا القرى وارتكبوا أعمالاً شنيعة[١٢] . وفي ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م انتشر المغول في أذربيجان وما يقاربها من النواحي حتى وصلوا بالقرب من شهرزور وكانت بلدة كبيرة من أعمال أربيل فأرسل صاحبها يستنجد الخليفة المستنصربالله فأخرج هذا الاموال وجهز العساكر وعلى رأسهم مملوكه وقائده جمال‌الدين قشتمر الناصري فالتقوا بجنود صاحب أربيل وسار الجميع نحو قرية موغان غربي المدينة ولكنهم لم يستطيعوا البقاء فيها لعدم توفر الماء العذب حيث مات خلق كثير منهم وتفرق الجنود الغرباء عن قائد جيش الخليفة ولم يتقدم المغول لمحاربتهم فعادوا الى بغداد[١٣] . وفي السنة التالية توفي صاحب أربيل واحتلت قوات الخليفة امارته وفي ٦٣٢هـ/١٢٣٤م جاء التتر الى أربيل فلاقاهم عسكرها وقتل طائفة منهم فتركوها الى أعمال الموصل[١٤] .

وفي سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٥م غزا المغول أربيل فلاقاهم عسكرها حتى قتل جماعة من الفريقين ثم تركوها الى أعمال الموصل يقتلون وينهبون ويسبون فأمر الخليفة المستنصربالله بتجهيز العساكر واستنفار الأعراب من البوادي والرّجالة من الاعمال وجعل قيادتهم لمملوكه وقائده جمال‌الدين قشتمر وتوجهوا خلفهم ولكن المغول عادوا الى بلادهم فرجع قشتمر وجيشه الى بغداد[١٥] . وفي ٦٣٤هـ/١٢٣٦م نزل المغول على أربيل والأمير المرتب فيها يومئذٍ هو مملوك الخليفة الأمير باتكين الرومي ويقدرهم ابن الأثير وهو معاصر بنحو ثلاثين ألف فارس تحت قيادة (تجتكاي) واستظهروا على جنود المسلمين واستباحوا المدينة وقتلوا كل من فيها وسبوا وفضحوا النساء وأخذوا الاموال ونتنت المدينة من كثرة الجيف وهرب الناس الى القلعة فحاصرها المغول وهلك الناس فيها عطشاً وطلب حاكم المدينة ان

---

(١٢) المسجد المسبوك ج ٢ ، الورقة ١٤٦ .
(١٣) الكتاب الموسوم بالحوادث الجامعة ، ص ٢٧ .
(١٤) شمس الدين الذهبي ، تاريخ دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٠٣ .
(١٥) الحوادث الجامعة ، ص ٨٤ ؛ غريغوريوس ابو الفرج المعروف بابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٤٩ .

يصالحوه عن المسلمين بمال يؤديه اليهم فأظهروا الاجابة ولكنهم أخذوا المال منه وغدروا به وحملوا على القلعة حملات عظيمة وزحفوا اليها زحفاً متتابعاً ونصبوا عليها منجنيقات كثيرة وسير الخليفة المستنصربالله جيوشه مع مملوكه وقائده شرف‌الدين اقبال الشرابي فسار الى تكريت فلما سمع به المغول رحلوا عن أربيل دون أخذ قلعتها وتوجهوا نحو (تبريز) وقد عجزوا عن حمل ما أخذوا من الأموال والغنائم وعاد العسكر البغدادي الى بلده[١٦] . وفي ٦٣٥هـ/١٢٣٧م غزا المغول العراق ووصلوا الى موضع يسمى (زنكاباذ) والى (سرّ من رأى) فخرج اليهم قائدا الخليفة مجاهدالدين الدويدار الصغير وشرف‌الدين اقبال الشرابي في عسكرهما فلقوهما وهزم المغول ولكن هؤلاء عادوا الى العراق في آخر السنة نفسها ووصلوا (خانقين) حيث لقوا جيوش الخليفة وكسروها وغنموا منها غنائم عظيمة[١٧] .

وفي ٦٣٩هـ/١٢٤١م حاصر القائد المغولي (جرماغون نويان) مدينة ارزن الروم وملكها وقتل الكثير من أهلها وفي السنة التالية ٦٤٠هـ/١٢٤٢م سار سلطان الروم السلاجقة غياث‌الدين كيخسرو الى أرمينية في جمع كثيف من اليونانيين والفرنج والكرج والأرمن والعرب لمحاربة المغول فالتقى الجيشان بنواحي ارزنكان وانتصر المغول وانتشروا في نواحي آسيا الصغرى يقتلون وينهبون واضطر سلطانها الى مصالحتهم على مال وخيل وغيرها يقدّمها اليهم كل سنة[١٨] . وبسقوط آسيا الصغرى صار العراق مطوقاً من الشرق والشمال . وفي ٦٤١هـ/١٢٤٣م غزا القائد المغولي يساور نويان اطراف بلاد الشام ووصل بالقرب من حلب واجتاز (ملطية) وخرّب

---

(١٦) عز الدين ابن ابي الحديد ، شرح نهج البلاغة (دار مكتبة الحياة ، بيروت) ج ٣ ، ص ٨١ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج ٨ قسم ٢ ، ص ٦٩٩ .

(١٧) ابن العبري ، مختصر الدول ، ص ٤٣٨ ؛ الحوادث الجامعة ، ص ١١٢ ـ ١٣٣ ؛ انظر ايضا العسجد المسبوك ج ٢ ، الورقة ١٥٣ ، ١٥٤ .

(١٨) تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٥١ .

بلدها وأخذ منها أموالاً عظيمة[١٩] .

وفي ٦٤٢هـ/١٢٤٤م قصد المغول شهرزور ودخلوها فجأة فانهزم أميرها ناجياً بنفسه[٢٠] . وفي ٦٤٣هـ/١٢٤٥م خرج المغول من همذان نحو العراق فأخرج الخليفة المستعصم بالله عسكره الى ظاهر بغداد بقيادة مملوكه وقائده شرف الدين اقبال الشرابي وأمر باستنفار الأعراب من البوادي والرجّالة من الأعمال وتفريق السلاح ورفع المناجيق على الأسوار وقد وصلت طائفة من جنود المغول الى (خانقين) واقتربت أخرى من بعقوبا ووصل أهل خراسان والخالص الى بغداد وكانت جواسيس المغول قد عرّفتهم بضعف حكومة بغداد وفسادها ولكن عسكر الخليفة ثبت لهم حتى حجز الليل بين الطائفتين بعد مناوشات وحملات خفيفة واوقد المغول نيراناً شديدة وارتحلوا راجعين فلما أصبح الصباح لم ير العسكر البغدادي لهم أثراً[٢١] . ثم ورد الخبر ان طائفة منهم عبرت الى دجيل فقتلوا ونهبوا ونفذ اليهم جماعة من العسكر فلما عرفوا بذلك عادوا[٢٢] . وفي ٦٤٧هـ/١٢٤٩م كبس المغول أبواب خانقين ووصلوا الى (البتّ)[٢٣] والراذان[٢٤] وقتلوا هناك مقتلة عظيمة فجفل الناس عن طريق خراسان والخالص ووصلوا بغداد وتقدّم الديوان الى الامراء والعساكر بالخروج الى ظاهر البلد والى كافة أهل بغداد برمي النشّاب والاستعداد وتعليق السلاح في الأسواق والخانات والمبيت في الأسواق ولكن المغول عادوا بعد ان قتلوا في (دقوقا) خلقا وأسروا

---

(١٩) ن٠ م٠ ص ٢٥٥ .

(٢٠) العسجد المسبوك ، الورقة ١٦٦ .

(٢١) شرح نهج البلاغة ، ج ٣ ص ٨٢ـ٨٣ ؛ العسجد المسبوك ، ج ٢ الورقة ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٢٢) الحوادث الجامعة ، ص ٢٤١ .

(٢٣) قال ياقوت : (بتّا) : من قرى النهروان من نواحي بغداد (معجم البلدان) ، ج ١ ، ص ٣٣٤ .

(٢٤) قال ياقوت : (راذان) : راذان الاسفل وراذان الاعلى كورتان بسواد بغداد تشتملان على قرى كثيرة ، ج ٣ ص ١٢ .

آخرين وارتكبوا الفواحش فدخل الجيش بغداد واطمأن الناس[٢٥] . ولم يقصد المغول العراق بعد هذا التاريخ حتى حملتهم الأخيرة عليه بقيادة هولاكو الا انهم أغاروا على بلاد الجزيرة الواقعة الى الشمال منه سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م حتى بلغوا حرّان والرها ونهبوا ديار بكر وميافارقين وصادفوا قافلة كانت متوجهة الى بغداد فأخذوا منها أموالا عظيمة وقتلوا الشيوخ والعجائز وساقوا الصبيان والنساء ووصلت الأخبار الى بغداد فخاف أهلها خوفاً شديداً ولكن المغول عادوا الى قواعدهم في أذربيجان[٢٦] .

- ٣ -

ان مسئولية سقوط بغداد بأيدي المغول عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م تقع على الخلفاء العبّاسيين الأربعة المتأخرين كلهم الناصرلدين الله والظاهر بأمر الله والمستنصر بالله والمستعصم بالله وليس على الاخير منهم وحده الذي توجه اليه معظم لوم المؤرخين . فقد كان غزو المغول لدولة خوارزم سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م بداية لغزو العالم الاسلامي الشرقي كله وقد أخذت جيوشهم تنفذ الى اطراف العراق والجزيرة وآسيا الصغرى بعد سنتين فقط من هذه الحادثة واستمرت تهاجم هذه البلاد بصورة متقطعة الى سقوط بغداد ولم يبدو على الخلفاء العباسيين ما يدلّ على اهتمام جدّي بالأمر أو ادراك عميق لطبيعة الخطر العظيم الذى كان يتهدد مملكتهم وليس هناك ما يدلّ على وضعهم سياسة واضحة المعالم لمعالجته فلم يحاولوا توحيد المسلمين في حلف عسكري يستطيع حشد الطاقات المناسبة وهم أعلى سلطة معنوية في العالم الاسلامي ولم يحاولوا نقل المعركة الى الساحة المناسبة لها وهي ايران كما

---

(٢٥) الحوادث الجامعة ، ص ٢٤١ ؛ العسجد المسبوك ، ج ٢ الورقة ١٧٦ .

(٢٦) مرآة الزمان ، المصدر المار ذكره ، ج ٨ ، قسم ٢ ، ص ٧٧٢ ؛ الحوادث الجامعة ، ص ٢٦٧ .

أنهم لم يحاولوا تعبأة المسلمين ولا سيما رعيتهم روحياً أو مادياً • وكل ما فعلوه هو جمع قوات صغيرة بصورة سريعة مرتجلة وارسالها الى مواطن الخطر القريبة والاستنجاد بملوك الاطراف القريبين ثم صرف أكثر هذه الجنود بعد تراجع العدو والانتظار الى حين ظهور الخطر من جديد • وهي سياسة اتسمت بالتردد وضيق الأفق في وقت كان المغول يشكلون فيه أعظم خطر يهدد البلاد المحيطة بهم وكانت أخبار فتوحاتهم وفضائعهم منتشرة ذائعة •

وكان الناصر لدين‌الله هو أول هؤلاء الخلفاء الذين بدأ الغزو المغولي في عهدهم وقد اشتد في أيامه انحلال الامبراطورية السلجوقية ونمت على انقاضها دولة خوارزم الجديدة الفتية فاتفق معها للقضاء على آخر بقايا السلاجقة في ايران والعراق ونجح في تحقيق ذلك في المعركة التي انتصر فيها محمد بن تكش سلطان خوارزم على آخر سلطان سلجوقي طغرل الثاني عام ٥٩٠هـ/١١٩٤م وقد احتلت قوات الخليفة بلاد خوزستان ولكن الخلاف سرعان ما نشب ما بين الحليفين الناصر لدين الله ومحمد بن تكش حول اقتسام ارث السلجوقيين فقد رغب الخليفة في توسيع ممتلكاته في ايران واستعادة سلطاته الزمنية بينما اراد سلطان خوارزم ان يحل محل السلجوقيين حتى في بغداد نفسها • وأدى الخلاف الى الحرب وهزيمة قوات الخليفة أمام جيوش خوارزم مما جعل الخليفة يلجأ الى أسلوب الدس واثارة حكام العراق العجمي على خوارزم شاه والاستعانة بملوك الاسماعيلية ضد خصومه• ويتهمه جلال‌الدين منكوبرتي آخر سلاطين خوارزم بمكاتبة المغول واثارتهم ضد أبيه بقوله : (كان السبب في هلال أبي ومجيء الكفار الى البلاد ووجدنا كتبه الى الخطا وتواقيعه اليهم بالبلاد والخيل والخلع)[٢٧] ويشير ابن الأثير الى هذا الاتهام اشارة وجل وغير متأكد ويضيف اليه ما يفيد ان الناصر كان قبيح السيرة في رعيته ظالماً متعسفاً أكثر عليهم الجواسيس

---

(٢٧) مرآة الزمان ، ج ٨ قسم ٢ ص ٦٣٤ •

واشتط في فرض الضرائب وأخذ أموال الناس حتى خرب العراق في عهده وتفرّق أهله في البلاد[٢٨] ومع ضعف التهمة الموجهة للخليفة بالتآمر على المسلمين بسبب موقفه الصريح المعادي للمغول فأن عطا ملك الجويني ، وهو كاتب معاصر ومطلع يشير الى ان الخلاف بين الناصرلدين الله ومحمد بن تكش سلطان خوارزم جعل الخليفة يبعث رسله باستمرار الى خانات القره خطاي يدعوهم الى محاربة الخوارزميين[٢٩] • ولكن يبدو ان ذلك كان قبل خضوع هؤلاء الى حكم جنكيزخان • ومع ان ابن الطقطقي يصف الناصر بالفضل والتبصر بالامور والاقدام والذكاء فأنه يشير الى رغبته في جمع المال حتى عن طريق المصادرة ويذكر عن الخليفة اشاعة خلاصتها أنه ملأ بركة بالذهب وظلّ يعوزها قليل فكان يقول أترى أعيش حتى أملأها[٣٠] • فأن صحت هذه الاشاعة صحت اتهامات ابن الأثير للناصر بأنه كان يتعسف في فرض الضرائب وأخذ أموال الناس لان المصدر الاول للذهب انما كان أموال الرعيّة ولا بدّ ان تكون اجراءات الناصر هذه سبباً في اضعاف البلاد اقتصادياً ومن ثم عسكرياً • يضاف الى ذلك ان سياسة الناصر الخارجية وان رفعت هيبة الخلافة في نفوس حكام المسلمين فأنها أضعفت دولة خوارزم التي كانت الخط الاول للدفاع عن العراق ضد الغزو المغولي • هذا وان الخليفة ضعف في أواخر حياته وأصابه الفالج فأذهب احدى عينيه وعطله عن العمل خلال السنين الثلاث الأخيرة من حياته فجمدت لذلك أحوال العراق ودب الانحلال في ادارته •

وقد أعقب الناصر ابنه الظاهر بأمر الله (٦٢٢ - ٦٢٣هـ) =

---

(٢٨) الكامل ، ج ٩ ص ٣٣١ ، ٣٦١ •

(٢٩) انظر : علاء الدين عطا ملك الجويني ، تاريخ جهانكشاى ، ج ٢ (مطبعة بريل در ليدن - ١٩١٦) ، ص ١٢٠ •

Ata-Malik Juvaini, the History of the World Conqueror, Translated by J.A. Boyle, II, P. 390.

(٣٠) محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى ، تاريخ الدول الاسلامية ، (دار صادر ، دار بيروت) ، ص ٣٢٢ •

(١٢٢٥ - ١٢٢٦م) وكان من خيرة خلفاء بني العباس سيرة ردّ على الناس ما اغتصبه منهم أبوه من الأموال وخفف الضرائب عنهم بابطاله المكوس واعادته الخراج القديم وأفاض العدل والغى مراقبة الناس وأخرج المعتقلين من السجون على الأموال الديوانية فصلحت لذلك أحوال الناس ورخصت الأسعار[٣١] ولكنه توفي بعد بضعة أشهر دون ان يعرف عنه وضعه سياسة جديدة أو اجراءات مفيدة لمعالجة الخطر المغولي .

المستنصر بالله (٦٢٣ - ٦٤٠هـ) = (١٢٢٦ - ١٢٤٢م) وقد وصف بالحكمة والشجاعة والعدل والمقدرة وورث عن جده الناصر مالاً كبيراً وكانت أحوال البلاد الاقتصادية في عهده حسنة وحكم مدة طويلة تكفي لتفهم مشاكل بلاده ووضع الحلول المناسبة لها وقد انشأ المساجد والربط وبنى المدرسة المستنصرية وتعهدها بعنايته وتشجيعه غير انه لم يظهر ما يدل على أي ادراك لعمق الخطر المغولي على العراق الذى كانت مواجهته أهم واجب يقع على حكامه وفي عهده وجه المغول حملتهم الأخيرة على آخر ما تبقى من من دولة خوارزم وهزموا سلطانها جلال‌الدين منكوبرتي حيث قتل في عام ٦٢٨هـ/١٢٣٠م وكان قتله هو الذي قرر مصير العراق لأنه أزال الجدار الذي كان يحمي آسيا الغربية منهم ولم يتحرك الخليفة المستنصربالله بينما أدرك الخطر آخرون . فقد هنأ جماعة من الاعيان الملك الاشرف صاحب دمشق على كسرة المغول لعدوه جلال‌الدين خوارزم شاه فأجابهم قائلاً : (تهنؤنني بهذا سوف ترون غب هذا والله لتكونن هذه الكسرة سببا لدخول التتر بلاد الأسلام ، ما كان الخوارزمي الاّ مثل السدّ الذي بيننا وبين ياجوج وماجوج)[٣٢] وقد أثبتت الحوادث التالية صحة قول الأشرف وبعد نظره فقد أخذت جنود المغول تهدد أطراف العراق وتتغلغل فيه طيلة حكم المستنصر بالله وذلك في السنين التالية : ٦٢٨هـ/١٢٣٠م و ٦٢٩هـ/

---

(٣١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٣٦١ ؛ شمس الدين الذهبي ، دول الاسلام ، ج ٢ ص ٩٥ .

(٣٢) مرآة الزمان ، ج ٨ ، قسم ٢ ص ٦٧١ .

١٢٣١م و ٦٣٢هـ/١٢٣٤م ٦٣٣هـ/١٢٣٥م و ٦٣٤هـ/١٢٣٦م و ٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م و ٦٣٩/١٢٤١م[٣٣] . وفي ٦٤٠/١٢٤٢م وهي آخر سني المستنصر بالله فتح المغول آسيا الصغرى فصارت لهم قواعد عسكرية على مسافة غير بعيدة من الجهة الشمالية لدولة الخليفة . ولكنهم انسحبوا منها في السنة التالية بسبب وفاة الخاقان أي الأمبراطور الحاكم (اوغوتاي) وتولية خاقان جديد هو (كيوك خان) . ويزعم الذهبي ان المستنصر بالله اتخذ عسكرا عظيما للغاية حتى بلغت جريدة جيشه نحو مائة الف فارس استعدادا لحرب التتار[٣٤] . ويقول السيوطي انه (استخدم عساكر عظيمة لم يستخدم مثلها أبوه ولا جده)[٣٥] . ولكن تكرر غزوات المغول في عهده وتغلغلهم في مملكته لا يؤيد تلك الادعاءات خصوصاً وان حملاتهم كانت صغيرة لم تؤلف حركة غزو منظمة واسعة ويبدو ان سياسة المستنصر العسكرية في معالجة الخطر المغولي لم تكن تختلف عن سياسة جده الناصر بل ربما كان وصف السيوطي لها بأنها كانت تقوم على المهادنة والمصانعة والأسترضاء[٣٦] وصفاً صحيحاً لكنها تركت لولده وخليفته المستعصم بالله ارثا مثقلا بالاخطار .

المستعصم بالله (٦٤٠ - ٦٥٦هـ) = (١٢٤٢ - ١٢٥٨م) وقد جاء الى الخلافة في احلك ظرف واجهته الدولة العباسية فقد كانت مملكته يتهددها الانحلال السياسي والاجتماعي والانقسام الطائفي والفوضى الاقتصادية وكان المغول يؤلفون أعظم خطر يتهدد سلامة البلاد ولم يكن هو لا في شخصيته ولا في قابلياته يصلح لحكم بلاده وزعامة العالم الاسلامي في ذلك الحين . كانت صفاته تجعل منه ملكاً محبوباً وربما حاكماً ناجحاً في ظروف يسيرة هادئة ولكنها كانت أبعد من ان تجعل منه رجل الساعة في الأزمة المميتة التي كان يجتازها العالم الاسلامي . كان متديناً حافظا للقرآن

(٣٣) انظر الصفحات السابقة ص ٧ - ١٢ .
(٣٤) دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١١٠ .
(٣٥) جلال الدين عبدالرحمن بن ابي بكر السيوطي ، تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين القائمين بأمر الله ، ص ٣٠٦ .
(٣٦) ن. م. ص ٣٠٩ .

عاكفاً على تلاوته عفيف اللسان والفرج لم ينكشف ذيله على حرام قط ولكنه كان لين العريكة مستضعف الرأي ضعيف التدبير والتيقظ نازل الهمة غير عارف بمشاكل عصره غير مهيب في النفوس وكان مغرما باللهو وسماع الأغاني يبلغه ان مغنية او صاحب طرب في بلد من البلدان فيراسل سلطان ذلك البلد في طلبه[٣٧] . وينسب اليه أنه كتب الى بدرالدين لؤلؤ صاحب الموصل يطلب منه جماعة من المطربين في وقت وصل فيه رسول هولاكو اليه يطلب منه منجنيقات وآلات حصار فقال بدرالدين لؤلؤ انظروا الى المطلوبين وابكوا على الأسلام وأهله[٣٨] . وكان من أسباب ضعفه عدم ممارسته الشؤون العامة قبل خلافته لانه كان مسجونا خلال حكم أبيه على عادة الخلفاء العباسيين في سجن اولياء عهودهم وكان من جوانب ضعفه ما وصف به من البخل والرغبة في جمع المال ولعل ما أخرجه منه لهولاكو عند سقوط بغداد وتعنيف هذا له على ذلك ما يؤيد التهمة[٣٩] المذكورة وينسب اليه قطب الدين اليونيني البعلبكي انه فعل مع الملك الناصر داود ابن الملك المعظم ما يدل على بخل شديد فقد كان الملك الناصر هذا صاحب دمشق طرده عنها عماه الكامل صاحب مصر والأشرف صاحب حرّان والرها وخلاط فجاء العراق واتزل الحلة وأجري عليه راتب لا يليق به وقد أودع الخليفة المستعصم بالله ما قيمته مائة ألف دينار في عام ٦٤٧هـ/١٢٤٩م ولما طالب الخليفة بها أخيراً أرسل اليه من حاسبه على جميع ما انفق عليه طيلة مكثه من خبز ولحم وغيره وقال له قد وصلك قيمة وديعتك ولم يبق لك عندنا حق فتكررت وفوده اليه وتوسله بالناس في ردها فلم يفعل في ذلك شيئا[٤٠] . وربما كان بخل الخليفة وتردده في الأنفاق على جيشه سبباً في

---

(٣٧) الأربلي ، خلاصة الذهب المسبوك ، ج٢ ، ص ٢١ ؛ ابن الطقطقي ، تاريخ الدول الاسلامية ، ص ٣٣٣ .

(٣٨) فخر الدين محمد بن احمد بن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٢٤٦ .

(٣٩) انظر ص ٥٣ ـ ٥٤ من هذا الكتاب .

(٤٠) ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ١٣ .

تفرق جنوده عنه وهجرهم البلاد في وقت كان فيه الخطر المغولي على الأبواب وكان هولاكو يتجه الى العراق ونحن نعلم انه لم يرسل الهدايا الكبيرة التي اقترح الوزير عليه ارسالها[٤١] . وقد اشتد خطر المغول في عهده في عامي ٦٤٣هـ/١٢٤٥م و ٦٤٧هـ/١٢٤٩م واقتربت جنودهم من بغداد نفسها ووصلت رسلهم الى الخليفة سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م وطلب هولاكو معاونته عندما كان يحارب الاسماعيلية وترددت الرسل بين الجانبين ومع ذلك لم يظهر على الخليفة ما يدل على ادراكه جسامه الخطر بل كان يقول (ان بغداد تكفيني ولا يستكثرونها عليّ اذا نزلت لهم عن باقي البلاد ولا أيضا يهجمون علي وأنا بها وهي بيتي ودار مقامي)[٤٢] . وقد كانت أوامر الامبراطور مانغوخان الى أخيه وقائده هولاكو الزاحف بجيشه الى الغرب تقضي بمعاملة من يخضع له دون مقاومة معاملة حسنة وسحق من يقاومه ويعصيه ويرفض الخضوع اليه ومن هؤلاء خليفة بغداد[٤٣] . وكان أمام الخليفة اما تهيأة الجيوش اللازمة والاتصال بالامارات والممالك الأسلامية القريبة والوقوف موقفاً موحداً قوياً أمام الغزاة واما الخضوع لسلطان المغول وقبول التبعية لهم كما فعلت دولة الروم السلجوقيين بعد هزيمتهم أمام الجيوش المغولية وكما سلمت لهم مدن حران والرها وحماة وحمص ودمشق[٤٤] لحقن الدماء وانقاذ البلاد من الخراب . ومع ان خضوع خليفة المسلمين لفاتح وثني كان أمراً مستحيل القبول فان اعتماده على مصادر مملكته وحدها لمواجهة الامبراطورية المغولية بنجاح كان يبدو مستحيلا أيضا ولا عبرة بهزيمة المغول في عين جالوت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م لأنها معركة وقعت بين جزء فقط من جيش هولاكو وقوات اسلامية مصرية وسورية متفوقة عليها تفوقاً كبيراً[٤٥] .

---

(٤١) انظر ص ٤٩ التالية .
(٤٢) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول (المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٥٨) ، ص ٢٥٥ .
(٤٣) انظر ص ٤٧ .
(٤٤) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٧٩ .
(٤٥) ان هولاكو ترك بلاد الشام سنة ٦٥٨هـ ـ ١٢٥٩م عندما بلغه

وكان الخليفة محاطاً بعدد غير قليل من المقربين والمستشارين كان أهمهم على ما يبدو كتلة المماليك الشراكسة والاتراك وكانوا يسيطرون على الجيش العراقي ويتمتعون بأقطاعات وموارد مالية ضخمة وقد ختن عدد من أولادهم مع أولاد الخلفاء أنفسهم[٤٦] وكان رئيسهم قبل سقوط بغداد هو أبو الميامن مجاهدالدين ايبك المستنصري الدويدار الصغير[٤٧] . وكان

موت اخيه الامبراطور مانغوخان ورحل الى المشرق تاركا وراءه احد اكبر قواده المسمى كتبوغانويان ومعه جيش قدره ابن العبري بعشرة آلاف فارس . وكانت أخبار المغول ترد الى مصر وقد دب الخوف في نفوس حكامها ويأس المسلمون من النصر لتوالي انتصارات المغول على المسلمين وغيرهم . فخرج السلطان سيف الدين قطز بعساكر مصر مع ما انضاف اليهم من عساكر الشام لمحاربة المغول فسمع بذلك القائد كتبغانويان فاستدعى الملك الاشرف وقاضي القضاة محي الدين واستشارهم بالامر فمنهم من أشار بالحرب ومنهم من أشار بالانسحاب انتظارا للمدد من هولاكو ولكن كتبغانويان قرر الثبات والحرب فكانت بذلك هزيمته وقتله لتفوق عدوه عليه .

انظر في ذلك : رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ، ج ٢ ، قسم ١ (الترجمة) ؛ ص ٣٠٨ ، ٣١١ .

ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠ ؛ تاج الدين السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، ج ٥ ، ص ٨٣ ؛ ابو الفداء ، المختصر في اخبار البشر (بيروت) ، ج ٢ ، ص ١١٢ ؛ قطب الدين اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ؛ ج ١ ، ص ٣٦٠ .

(٤٦) انظر الفصل الواحد والعشرين ص ٢٥٣ .

(٤٧) جاء في العسجد المسبوك : (مجاهد الدين ابو الميامن أيبك الدويدار المستنصري وكان ممن رزق السعادة في دنياه ولما رغب بدر الدين لؤلؤ زعيم الموصل في الوصلة اليه عظم شأنه وارتفع مكانه وملك جزيل الاموال من العين والرقيق والدواب والعقار والبساتين والضياع مما يتعذر ضبطه على الحساب وفي ليلة بنايه بزوجته نفذ الى داره من اواني الذهب والفضة والثياب والجواهر ما يزيد على تلثماية الف دينار وأنعم عليه في صبيحة تلك الليلة التي دخل بزوجته ستماية الف دينار عينا الى غير ذلك مما يطول ذكره ويتعذر وصفه وبلغ من الجاه العريض والحرمة الوافرة حتى أنه كان يترفع على وزير الدولة الذي هو نائب الخلافة وعلى شرف الدين اقبال الشرابي الذي كان مقدم العساكر ولم يركب الى أحد سوى الخليفة وكان في جماعة من أكابر الزعماء وارباب العمايم وأصحاب الكوسات والاعلام ويقصدونه فى داره خدمة وتقربا اليه وكان يصل اليه من اقطاعه واملاكه ومزارعاته زيادة على خمسماية الف دينار وقد جاوز عمره ثمانين سنة) ج٢ الورقة ١٩٢ ، انظر ايضا الفصل الواحد والعشرين من هذا الكتاب ص ٢٥٣ .

عدوا للوزير مؤيد الدين بن العلقمي وقد وقف الخليفة الى جانبه عندما اتهمه الوزير بالعمل على نقل الخلافة الى الابن الاكبر للخليفة وكان يهوّن أمر هولاكو أمام المستعصم بالله ويمنع ارسال الهدايا الكبيرة التي رأى الوزير ارسالها لصرف الفاتح المغولي عن العراق ويذكر رشيدالدين فضل‌الله انه كان يلتزم الغوغاء والسفلة الذين كانوا يقومون بأعمال السلب والنهب والاعتداء أيام فيضان عام ٦٥٤هـ[٤٨] . وقد كان مجاهدالدين هذا هو قائد جيوش الخليفة وقد خرج للقاء جيش المغول فلم يحسن التصرف ولم يبد أية كفاية فتحطم الجيش على يديه في الجانب الغربي بالقرب من بغداد[٤٩] .

كان من أهم المقربين الى الخليفة المستعصم بالله صديقه القديم عبدالغني ابن الدرنوس الذى كان في مبدأ أمره حمالا في بغداد نجح أيام المستنصربالله في ان يكون أحد برّاجي الخليفة فتوصل الى ولده أبي أحمد عبدالله الذي صار فيما بعد الخليفة المستعصم بالله وكان محبوسا آنذاك فخدمه ابن الدرنوس فلما صار خليفة قرّبه ورتّبه مقدّم البرّاجين ثم اختصه ومكّنه من دولته حتى صار يولّي ويعزل من يشاء وصار اذا دخل على الوزير ينهض له ويخلي المجلس لئلا يكون قد جاء بأمر من الخليفة وقد لقّب نجم الدين الخاص وكان صاحب الديوان يعده كل سنة بمال ليحفظ غيبه ويزكيه عند الخليفة[٥٠] . وقد استعمله الخليفة في الاتصال بالدويدار الصغير مجاهدالدين خلال الفتنة التي وقعت بين الدويدار

---

(٤٨) جامع التواريخ ، ج٢ ، قسم ١ (الترجمة) ، ص ٢٦٢-٢٦٣ .
(٤٩) انظر الصفحات التالية ص ٥١ ـ ٥٢ .
(٥٠) ابن الطقطقي ، تاريخ الدول الاسلامية ، ص ٣٧-٣٨ ؛ قال عبدالرزاق ابن الفوطي البغدادي : (كمال الدين ابو محمد يوسف بن أحمد بن السيبي القارض : قال ابن الساعي في تاريخه كان كمال الدين ابن السيبي شابا سريا لطيف الاخلاق ذا مروّة تامة وله قرب بسدة الامام المستعصم بالله بسبب ترداده الى سطوح الحمام ومعرفته بأمور الطيور) تلخيص مجمع الآداب ، ج ٥ (نشر عبدالقدوس) ص ٣٠٢ .

والوزير وكان أحد ثلاثة أرسلهم الخليفة في أحد المرات لمواجهة هولاكو عند احاطته ببغداد وكان الآخران هما الوزير وصاحب الديوان[٥١] . وكان الشائع في أواخر أيام الدولة العباسية ان ابن الدرنوس هو الحاكم الحقيقي للدولة[٥٢] .

- ٤ -

وقد اخذت مظاهر الفوضى والانحلال السياسي والاجتماعي تتزايد وتشتد بعد قليل من تولي المستعصم بالله الخلافة سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م حيث طالبت طائفة من جنود الحكومة من المماليك بزيادة أعطياتهم ولما رفض الشرابي ، قائد جيش الخليفة ذلك حاولوا الاخلال بالامن وطالبوا بأخراج المحبوسين منهم ثم خرجوا الى ظاهر بغداد وأقاموا هناك بضعة ايام مظهرين الرحيل ثم سألوا الصفح عنهم عندما اجتمع بهم أحد الشيوخ الزاهدين وعرّفهم ما في عملهم من مخالفة للشرع الحنيف[٥٣] . وقد أخذت الفتن تثور بين عوام بغداد وسكان محلاتها وتختلط بالمنازعات الطائفية بين السنيين والشيعيين وعجزت الحكومة عن ضبط الامن والنظام في العاصمة نفسها مما شجع اللصوص والسفلة على العبث بأموال الناس والاعتداء على حياتهم ففي السنة الاولى لحكم المستعصم بالله ٦٤٠هـ/١٢٤٢م نشبت الفتنة بين محلّتي المأمونية وباب الازج في بغداد بسبب العادة القديمة في صيد السباع فقتل جماعة من النظارة والمقاتلة ونهبت دور ودكاكين عديدة ولما تدخل في ذلك حاجب باب النوبي (مدير شرطة العاصمة) من أجل المحافظة على

---

(٥١) نصير الدين الطوسي ، استيلاء المغول على بغداد ، رسالة بالفارسية ترجمها الى العربية ونشرها السيد محمد صادق الحسيني ، مجلة المرشد البغدادية ، ج ٤ ص ٢٦ .

(٥٢) الحوادث الجامعة ، ص ٤٢٢ .

(٥٣) ن. م. ص ١٦٩ .

النظام ضربوه بالآجر وأخـذوا عمامته فخرج اليهم شحنة بغداد أي حاكمهـا العسكري ليكفهم ويمنعهم فلم يطاوعوه بل ان فتنتهم امتدت الى سـوق المدرسة النظامية ثم وقعت بين أهل محلّتي المختارة وسوق السلطان حتى قتل في ذلـك جماعة وخـرج جوق محلّة القريّة بالجانب الغربي وأراد الاجتياز بمحلّة قطفتا فمنعهم أهلها وحدثت لذلك فتنة عظيمة قتل فيهـا جماعة ونهب سوق القنطرة ولم تسكن الفتنة الا بعد أن أرسـل الديوان جنودا ملبسين بالعدد قاتلوا أهل الفتنة ومنعوهم من الخروج[٥٤] . وفي عام ٦٤٤هـ/١٢٤٦م كثر اللصوص في بغداد وأخذوا أموال الناس وسـرقوا مخزن المدرسة المستنصرية[٥٥] . وفي السنة التالية ٦٤٥هـ/١٢٤٧م أعادوا سرقة المدرسة المذكورة[٥٦] وفي ٦٤٨هـ/١٢٥٠م كثر اللصوص في بغداد وصاروا يحضرون جماعات وينهبـون الناس على وجـه القهر والغلبة ويدخلون بيوت الامراء ينهبون ويقتلون ومن ذلك أنهم دخلوا دار قطب الدين سنجر البكلكي لانه أشيع أنه سيرتب شحنة بغداد ونهبوها[٥٧] . وفي ٦٥٠هـ/١٢٥٢م استولى جماعة من العوام على المدرسة التاجية وأخذوا يتبايعون فيها واسكنوها النساء حتى كانت تجري فيها أمور[٥٨] . ومما زاد في ضعف سيطرة الحكومة وتردي الاحوال العامة ان الجنود أخذوا يغادرون العراق ويلحقون ببلاد الشام لانقطاع ارزاقهم[٥٩] . وفي ٦٥٣هـ/١٢٥٥م عادت حرب المحلاّت في بغداد فوقعت الفتنة بين أهل محلة الرصافة ومحلة أبي حنيفة والخضريين وقتل فيها من أهل محلة الرصافة نحو من ثلاثين نفرا وتجدد القتال بعد أيام حتى جرح بين الفريقين خلق كثير وقتل جماعـة منهم وعبر من أهل باب البصرة لمساعدة أهل الرصافة خلق كثير وعبر آخرون

---

(٥٤) ن. م. ص ١٧٥-١٧٧ .
(٥٥) ن. م. ص ١١٣ .
(٥٦) ن. م. ص ٢٢٣ .
(٥٧) ن. م. ص ٢٥٤ .
(٥٨) ن. م. ص ٢٦٢ .
(٥٩) ن. م. ص ٢٦٠ .

من أهل الكرخ لمساعدة الخضريين وحضر الشحنة وكفهم وأصلح بين الفريقين[٦٠] .

وكثر فساد العيّارين في بغداد فصاروا يسلبون عمائم الناس ويأخذون ثيابهم من الحمامات ويقتلون من يظفرون به من أتباع صاحب الشرطة وينهبون الدكاكين[٦١] . وفي نفس هذه السنة عادت الفتن الطائفية بين السنيين والشيعيين في بغداد ولم تكن في حقيقتها الا مظهرا من مظاهر حرب المحلات وضعف سيطرة الحكومة وفقدان الضبط بين جنودها حتى صاروا يشتركون في أعمال القتل والنهب ومما زاد في الامر شدة غلبة الروح الدينية على أهل العصر وسيطرة الحنابلة على عامة بغداد . وقد تميزت سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م بالنزاع الذي وقع بين محلة الكرخ الشيعية ومحلة باب البصرة السنية وكلاهما في الجانب الغربي من بغداد فلما أرسلت الحكومة جنودها لايقاف الفتنة مالوا على أهل الكرخ ونهبوا الدور المتطرفة وتجددت الفتن المذهبية بعد ذلك الى ان كفها الديوان[٦٢] . ولكن اسوء ما وقع من الفتن المذهبية ومظاهر الفوضى في هذه الفترة هو ما ذهب في التاريخ باسم واقعة الكرخ سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م وخلاصتها ان أهل محلة الكرخ قتلوا رجلا من محلة قطفتا فدخل جماعة من الخدم الى الخليفة وعرفوه بالامر وعظموه أمامه ورموا أهل الكرخ بكل سوء فأمر بردعهم فركب الجند وتبعهم العوام ونهبوا المحلة المذكورة وأحرقوا عدة مواضع منها وسبوا النساء ومنهن العلويات وسفكوا الدماء واقترفوا المنكرات الى ان خوطب الخليفة بالامر فأمر بالكف فنودي بالامان ثم تقدم جماعة من أهل الكرخ الى دورهم وقتلوا كل من وجدوا فيها من العوام وغيرهم ثم أمر الخليفة بأحضار ما نهب فكان شيئا كبيرا وحملت النساء والاسرى الى دار الرقيق ثم أعيدوا الى أربابهم وقتل الذين كانوا سبب الفتنة[٦٣] .

---

(٦٠) ن. م. ص ٢٩٨-٢٩٩ .
(٦١) ن. م. ص٢٣٨ .
(٦٢) ن. م. ص٢٦٧-٢٧٧ .
(٦٣) ن. م. ص ٣٢٤-٣٢٥ .

يضاف الى كل ما مضى ان فيضانات دجلة والفرات أخذت تتكرر في هذه الفترة وهي مظهر من مظاهر ضعف الحكومة واهمالها نظام الري وعدم عنايتها به وكانت عاملا من عوامل التـــدهور الاقتصادي والانحلال السياسي ففي ٦٤١هـ/١٢٤٣م فاضت دجلة ودخل الماء المدرسة النظاميـــة وما جاورها[٦٤] وفي ٦٤٦هـ/١٢٤٨م أغرق فيضان دجلة محلة الحربيـة ومحلة الكرخ وجزء من محلة قطفتا وهدم الدور الشطانية باسرها حتى بلغ الماء ستة أذرع في المدرسة النظامية وغرقت محلة الرصافة واكثر الجانب الغربي وهـدم سـور المشـهد الـكاظمي ودوره[٦٥] . وفي فيضان ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م خربت اكثر دور بغداد وذهبت الزروع وتلفت الاشجار فتعذرت بسبب ذلك الاقوات وغلت الاسعار[٦٦] . ولـكن اسوء فيضانات أواخـر الدولة العباسية هو ما حدث سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م وقد وقع قبل سقوط بغداد بسنتين فقط وأضعف سور المدينة فقد زادت دجلة زيادة عظيمة وأحاط الماء ببغداد وغرق الجانبان منها وامتلأت أسواق الجانب الشرقي ودار الخلافـة ودخل الماء المدرسة النظامية وزاد الفرات فغرقت عانة والحديثة والحـلة وغيرها وغرق دجيل ونهر عيسى ونهر الملك[٦٧] .

وفي عام ٦٥٣هـ/١٢٥٥م أي قبل سقوط بغداد بثلاث سنوات وقع أمر ظل أثره الى نهاية السنوات القليلة التالية التي أنهت الدولة العباسية هـو الوحشة بين قائد جيش الخليفة مجاهد الدين الدويدار الصغير ووزير الخليفة مؤيـدالدين محمـد بن أحمد العلقمي يؤيّده فلـكالدين محمـد ابن علاءالدين الطبرسي الدويدار الكبير الذي كان أحد قادة الجيش حيث وجه الاتهام الى مجاهد الدين بأنه يتآمر على خلع الخليفة وتنصيب ابنـــه الاكبر مكانه فانزعج مجاهد الدين للتهمة وأنكرها وجمع عساكره وانضم اليه اكثر المماليك وهم عامة الجيش وتعصب للوزير آخرون ووقعت بسبب

---

(٦٤) ن٠ م٠ ص ٢٦٧ .
(٦٥) ن٠ م٠ ص ٢٢٩ـ٢٣٣ .
(٦٦) ن٠ م٠ ص ٢٧٧ـ٣٠٤ .
(٦٧) ن٠ م٠ ص ٣١٧ .

ذلك فتن كبيرة بين عوام بغداد وجرح فيها خلق كثيرون واشتد خوف الناس ولم تهدأ الحال الا بعد أن وافق الخليفة على ان يكتب لمجاهدالدين الدويدار الصغير أماناً قرىء في جمع من الناس[٦٨] . ولعل هذه الوحشة كانت سببا في تفكك حكومة المستعصم بالله وعمل قائد الجيش على معارضـــة مقترحات الوزير في معالجة الخطر المغولي .

---

(٦٨) ن. م. ص ٢٩٤-٢٩٨ ، ٣٠٤-٣٠٥ ، انظر ايضا : رشيدالدين فضل‌الله ، جامع التواريخ ، ج٢ ، قسم ١ (الترجمة) ص ٢٦٢-٢٦٣ ، انظر ايضا النص الفارسي : جامع التواريخ ، ج ٢ (بكوشش دكتر بهمن كريمي) ، ص ٦٩٨-٦٩٩ .

الفصل الثاني

الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي يتهم بالخيانة

يكاد المؤرخون يتفقون في الثناء على شخصية محمد بن أحمد بن العلقمي وزير المستعصم بالله آخر خلفاء بني العباس فقد وصفوه بالعقل والعلم والادب والكفاية والوقار والنزاهة والعفة عن أموال الديوان والمعرفة بأدوات الرياسة[1] . وقد وصفه سبط ابن الجوزي الحنبلي بأنه (كان رجلا فاضلا صالحا عفيفا قارئا للقرآن)[2] . ووصفه الخزرجي بأنه (كان عالما فاضلا أديبا حسن المحاضرة دمث الاخلاق كريم الطباع خير النفس كارها للظلم خبيرا بتدبير الملك)[3] . كان مؤيد الدين اسديا من النيل قيل لجده العلقمي لانه حفر النهر المعروف بهذا الاسم . وكان خاله عضد الدين ابو نصر المبارك بن الضحاك من المعدلين بمدينة السلام رتب ناظرا بديوان الجوالي وكتب في ديوان الانشاء ونفذ رسولا الى صاحب الشام وعندما توفي الخليفة العباسي الظاهر بأمر الله بن الناصر لدين الله سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م كان هو المتولي لاخذ البيعة للخليفة الجديد المستنصر بالله وقد ظل في عهده استاذا للدار حتى وفاته سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م[4] . واشتغل محمد بن العلقمي في صباه بالادب ففاق فيه وسمع الحديث واشتغل في الحلة على عميد الرؤساء أيوب وعاد الى بغداد وأقام عند خاله عضد الدين استاذ الدار الذي عرف بالعلم والرياسة والتجربة فتخلق باخلاقه واستنابه في ديوان الابنية

---

(١) انظر تاج الدين السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، ج ٥ ص ١١٠ ؛ ابن الطقطقي تاريخ الدول الاسلاميه ص ٣٣٧-٣٣٨ .
(٢) مرآة الزمان ، ج ٨ قسم ٢ ص ٧٤٧ .
(٣) العسجد المسبوك ، ج ٢ الورقة ١٩٤ .
(٤) الحوادث الجامعة ، ص١٦ .

الى ان توفي حيث انقطع ابن العلقمي ولزم داره ولكن شمس الدين أبا الازهر أحمد بن الناقد الذي عين استاذا للدار بعد عضد الدين استدعاه الى دار التشريفات وأمره بالتردد اليها ومشاركة النواب بها وعندما عزل المستنصر بالله وزيره ابن القمي سنة ٦٢٩هـ/١٢٣١م كان ابن العلقمي مشرفا بدار التشريفات فعين بعد قليل استاذا للدار مكان شمس الدين ابن الناقد الذي عين نائبا للوزارة[٥] وعندما توفي ابن الناقد سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م عين ابن العلقمي مكانه وظل يشغل منصب الوزارة حتى سقوط بغداد ومقتل الخليفة عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م • وقد عرف ابن العلقمي بحبه للعلم والادب ومعرفته باللغة وكانت له مقدرة على نظم الشعر وكتابة النثر الجيد الحسن • وقد انشأ لنفسه مكتبة في داره في ٦٤٤هـ/١٢٤٦م نقل اليها عددا كبيرا من الكتب من انواع العلوم وصفها العدل موفق الدين القاسم ابن ابي الحديد بأبيات أولها :

رأيت الخزانة قد زينت بكتب لها المنظر الهائل[٦]

وذكر علي ابن اخت الوزير المذكور أنها كانت تشتمل على عشرة آلاف مجلد من نفائس الكتب وقد صنّفت للوزير كتب منها العباب الذى وضعه الصغاني اللغوي وشرح نهج البلاغة لعز الدين عبدالحميد ابن ابي الحديد[٧] •

ومع ذلك فقد وجه كثير من المؤرخين المسلمين الى الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي تهمة في غاية الخطورة خلاصتها انه خان سيده الخليفة المستعصم بالله ودينه الاسلام وجلب على قومه القتل والذل والخراب بمكاتبة هولاكو طاغية التتار واطماعه بفتح العراق بل دعوته لذلك وتهيأة الامور له بأساليب متعددة منها اشارته على الخليفة بتسريح أكثر جنوده وتشجيعه على

(٥) ن• م• ص٣٥ ؛ خلاصة الذهب المسبوك ، ص ٢١١ ؛ العسجد المسبوك ج٢ ، الورقة ١٩٤ •
(٦) الحوادث الجامعة ، ص٢٠٩ •
(٧) ابن الطقطقي ، ص٣٣٧ •

عدم انفاق المال في سبيل الاستعداد العسكري وتهوين أمر المغول أمامه ودعوته للخروج لمواجهة هولاكو حينما احاط هذا ببغداد للتغرير به بحجة حضور عقد نكاح ابنة هولاكو لابن الخليفة وسبب ذلك ان الوزير كان شيعيا رافضيا في قلبه غل على الاسلام وأهله وأنه كان يريد الانتقام من أهل السنة خصوصا طائفة من مستشاري الخليفة كابنه ابي بكر وقائد عسكره مجاهدالدين الدويدار الصغير لانهم اوقعوا بمحلة الكرخ الشيعية سنة ٦٥٤هـ وقتلوا العديد من أهلها وسبوا نساءها ونهبوا دورها وكان في المحلة أقارب للوزير .

ولعل من المفيد ان نستعرض اهم ما ورد من أقوال المؤرخين في هذه التهمة الخطيرة : قال ابو شامة شهاب الدين عبدالرحمن ابن اسماعيل المتوفي سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٢م عن حوادث سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ان التتار استولوا على بغداد بمكيدة دبرت مع وزير الخليفة[٨] . واعاد قطب الدين اليونيني البعلبكي المتوفي سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٥م نفس العبارة ثم أضاف اليها قوله ان هولاكو تهيأ في سنة اربع وخمسين وستمائة لقصد العراق وسبب ذلك أن (مؤيد الدين ابن العلقمي وزير الخليفة كان رافضيا وأهل الكرخ روافض وفيه جماعة من الاشراف والفتن لا تزال بينهم وبين اهل باب البصرة ... فاتفق أنه وقع بين الفريقين محاربة فشكا أهل باب البصرة وهم سنية الى ركن الدين الدواتدار والامير ابي بكر بن الخليفة فتقدما الى الجند بنهب الكرخ فهجموا ونهبوا وقتلوا وارتكبوا العظائم فشكا أهل الكرخ ذلك الى الوزير فامرهم بالكف والتغاضي وأضمر هذا الامر في نفسه وحصل بسبب ذلك عنده الضغن على الخليفة) وبعد ان اشار اليونيني الى الخليفة المستنصربالله وحال الجند في عهده عاد الى ابنه المستعصم وقال (وكاتب الوزير ابن العلقمي التتر وأطمعهم في البلاد وأرسل اليهم غلامه وأخاه وسهل عليهم ملك العراق وطلب منهم ان يكون نائبهم في البلاد فوعدوه بذلك وأخذوا في التجهيز لقصد العراق وكاتبوا بدرالدين لؤلؤ صاحب الموصل

---

(٨) تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، ص١٩٨ .

في ان يسير اليهم ما يطلبونه من آلات الحرب فسير اليهم ذلك ولما تحقق قصدهم علم أنهم ان ملكوا العراق لا يبقون عليه فكاتب الخليفة سرا في التحذير منهم وانه يعد لحربهم فكان الوزير لا يوصل رسله الى الخليفة ومن وصل الى الخليفة منهم بغير علم الوزير اطلع الخليفة وزيره على أمره) • ثم يمضي اليونيني فيصف تقدم جيش هولاكو الى بغداد وهزيمته لعسكرها واحاطته بها ثم يعود فيقول (فحينئذ أشار ابن العلقمي الوزير على الخليفة بمصانعة ملك التتر ومصالحته وسأله ان يخرج اليه في تقرير ذلك وتوثق منه لنفسه ثم رجع الى الخليفة وقال له انه قد رغب ان يزوج ابنته من ابنك الامير أبي بكر ويبقيك في منصب الخلافة كما ابقى سلطان الروم في سلطنة الروم لا يؤثر الا ان تكون الطاعة له كما كان أجدادك من السلاطين السلجوقية وينصرف بعساكره عنك فتجيبه الى هذا فأنه فيه حقن دماء المسلمين ويمكن بعد ذلك ان يفعل ما تريد فحسن له الخروج اليه فخرج في جمع من اكابر الصحابة فأنزل في خيمة ثم دخل الوزير فاستدعى الفقهاء والاماثل ليحضروا عقد النكاح فيما أظهره فخرجوا فقتلوا وكذلك صار يخرج طائفة بعد طائفة)[٩] • وقال شمس الدين الذهبي المتوفي سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م في كلامه عن وقائع سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م ما يأتي : (وأما بغداد فضعف دست الخلافة وقطعوا أخباز الجند الذين استنجدهم المستنصر وانقطع ركب العراق • كل ذلك من عمل الوزير ابن العلقمي الرافضي جهد في ان يزيل دولة بني العباس ويقيم علويا وأخذ يكاتب التتار ويراسلونه والخليفة غافل لا يطلع على الامور ولا له حرص على المصلحة)[١٠] • وقال عبدالله بن فضل الشيرازي الذي ألف كتابه حوالي ٧٢٩هـ/١٣٢٨م ما معناه ان الخليفة المستعصم بالله كان منصرفا الى الراحة واللهو وكان وزيره ابن العلقمي مستبدا بالامور حتى أنه لم يكن يحترم المقربين الى الخليفة ولا يظهر تأدبا في مخاطبته أياهم وقد تغيرت نيّته أزاء الخليفة بسبب واقعة الكرخ لان ابن الخليفة أرسل جنودا أغاروا عليها

---

(٩) ذيل مرآة الزمان ، ج١ ، ص ٨٥-٨٩ •
(١٠) دول الاسلام ، ج٢ ، ص ١١٨ •

وأسروا البنين والبنات وبينهم العلويات فبعث ابن العلقمي لذلك رسالة الى تاج الدين محمد بن نصر الحسيني أحد سادات العصر وعندما فرغ البادشاه هولاكو سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م من فتح قلاع الملاحدة وارسل بالرسل يبشرون بالنصر في المشارق والمغارب أرسل ابن العلقمي في الخفاء رسـولا الى هولاكو أظهر الاخلاص والطاعة وزين مملكة بغداد في خاطره وذم الخليفة وقال لهولاكو أنه اذا توجه بسرعة فسوف تسلم له مملكة بغداد ولكن هذا لم يعتمد على قوله لان حصانة بغداد وكثرة جنودها كانت أمرا مشهورا في الاقاليم السبعة وكان ملك العالم اوغوتاي في أول جلوسه على العرش قد أرسـل القائد جرماغون بجيش فتاك فهزم من قبل الخليفة المستنصر بالله ولذلك فأن البادشاه طلب من رسول ابن العلقمي ما يؤكد صحة أقواله ليطمأن بذلك خاطره الشريف • وعندما زحفت جيوش هولاكو على بغداد واطمأن ابن العلقمي لنجاح مكيدته قال للخليفة ان الجم الغفير من سلاطين وملوك الاطراف أظهروا والحمد لله اخلاصهم وطاعتهم وسمعة الخليفة كبيرة وحكمه نافذ وماله كثير فمن الخير توفير اموال الخزينة وعدم صرفها على الجنـد فكان الخليفة منصرفا لسماع الاغاني والاجتماع بالجواري والمغنيات وابن العلقمي يفرق الكلمة ويشرد جميع الافراد وينفر الجنود في الوقت الذي انتشرت فيه أخبار جيش المغول وكان الشرابي والدويدار يحذرون الخليفة منه وابن العلقمي يسخف أقوالهم[١١] • وقال ابن شاكر الكتبي المتوفي سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م في كلامـه عن الوزير ابن العلقمي (ولم يزل ناصحـا لاصحابه واستاذه حتى وقع بينه وبين الدواتدار لانه كان متغاليا في السـنة وعنده ابن الخليفة فحصل عنده من الضغن ما اوجب سعيه في دمار الاسلام وخراب بغداد على ما هو مشهور لانه ضعف جانبه وقويت شـوكة التتار بحاشية الخليفة •• وأخذ يكاتب التتار الى ان جرّأ هولاكو وجرّه على أخذ بغداد)[١٢] • وقال عنه ايضا (وحكي انه لما كان يكاتب التتار تخيل الى انه

---

(١١) تاريخ وصّاف الحضرة ، (طبعة الهند) ج١ ص ٢٨-٣٨ •
(١٢) فوات الوفيات ، ج٢ ، ص٣١٣ •

أخذ رجلا وحلق رأسه حلقا بليغا وكتب ما أراد عليه بالأبر ونفض عليه الكحل وتركه عنده الى ان طلع عليه شعره وغطى ما كتبه فجهزه وقال : اذا وصلت أمرهم بحلق رأسك ودعهم يقرؤون ما فيه وكان في آخر الكلام (اقطعوا الورقة) فضربت عنقه وهذا في غاية المكر والخزي)[١٣] . وقال تاج الدين السبكي المتوفي سنة ٧٧١هـ/١٣٦٩م أنه لما توفي المستنصر بالله كان اكبر الامراء وأعظمهم الدويدار والشرابي وهم الذين آثروا المستعصم لضعفه ولينه وأقاموه واستوزروا ابن العلقمي (وكان فاضلا أديبا وكان شيعيا رافضيا في قلبه غل على الاسلام وأهله وحبب الى الخليفة جمع المال والتقليل من العساكر فصار الجنود يطلبون من يستخدمهم في حمل القاذورات) ثم كرر الكاتب المذكور رواية مكاتبة ابن العلقمي للتتار وعزا ذلك الى رغبته في الانتقام من الامير أبي بكر ابن الخليفة والدويدار قائد الخليفة لانهما أوقعا بالكرخ ووصف طريقة مكاتبة التتار بما يأتي : (انه حلق رأس شخص وكتب عليه بالسواد وعمل على ذلك وآصار المكتوب كل حرف كالحفرة في الرأس ثم تركه عنده حتى طلع شعره وأرسله اليهم) . واضاف السبكي الى ذلك قوله ان الوزير كتب الى نائب الخليفة في اربيل تاج الدين محمد بن الصلايا وهو شيعي أيضا رسالة يقول فيها : (نهب الكرخ المكرّم والعترة النبوية وحسن التمثيل بقول الشاعر :

أمور تضحك السفهاء منها ويبكي من عواقبها اللبيب

فلهم أسوة بالحسين حيث نهب حريمه وأريق دمه .

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى ـ فلم يستبينوا الرشد الا ضحى الغد

وقد عزموا لا أتم الله عزمهم ولا أنفذ أمرهم على نهب الحلة والنيل بل سولت لهم أنفسهم آمرا فصبر جميل والخادم قد أسلف الانذار وعجل لهم الاعذار .

فكان جوابي بعد خطابي لا بد من الشنيعة بعد قتل جميع الشيعة ومن

---

(١٣) ن. م. ص ٣١٥ .

احراق كتاب الوسيلة والذريعة فكن لما تقول سميعا والا جرّعناك الحمام تجريعا ولآتينّهم بجنود لا قبل لهم بها ولأخرجنّهم منها أذلّة وهم صاغرون.

ووديعة مني لآل محمّد	أودعتها اذ كنت من أمناءها
فاذا رأيت الكوكبين تقاربا	في الجدي عند صباحها ومساءها
فهناك يؤخذ ثار آل محمد	لطلابها بالترك من اعدائها

فكن لهذ الأمر بالمرصاد وترقّب أول النحل وآخر الصاد)[١٤] .

وقال عبدالرحمن بن محمد بن خلدون المتوفي سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٦م ان هولاكو لما رجع الى بلاد الاسماعيلية وقصد قلعة الموت بلغته (في طريقه وصية من ابن العلقمي وزير المستعصم ببغداد في كتاب ابن الصلايا صاحب اربل يستحثه للمسير الى بغداد ويسهل عليه أمرها لما كان ابن العلقمي رافضيا هو وأهل محلته بالكرخ وتعصب عليه أهل السنة وتمسكوا بأن الخليفة والدويدار يظاهرونهم واوقعوا بأهل الكرخ وغضب ابن العلقمي ودسّ الى ابن الصلايا بأربل وكان صديقا له بأن يستحث التتر لملك بغداد وأسقط عامة الجند)[١٥] .

وعندما نصل الى أواخر القرن العاشر الهجري نجد ان قصة سقوط بغداد وخيانة الوزير ابن العلقمي تتسع الى حد غير معقول وتختلط بأقاصيص غريبة على يد الشيخ حسن الديار بكري المتوفى سنة ٩٩٠هـ/١٥٨٢م حيث كتب يقول ان الوزير (ابن العلقمي الرافضي كان قد كتب كتابا الى هولاكو ملك التتار في الدست انك تحضر الى بغداد وأنا أسلمها لك وكان قد داخل قلب اللعين الكفر فكتب هولاكو ان عساكر بغداد كثيرة فان كنت صادقا فيما قلته وداخلا في طاعتنا فرّق عساكر بغداد ونحن نحضر فلما وصل كتابه الى الوزير دخل الى المستعصم وقال ان جندك كثيرة وعليك كلفة كبيرة والعدو قد رجع من بلاد

---

(١٤) طبقات الشافعية الكبرى ، ج٥ ، ص ١٠٩-١١٢ .
(١٥) العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج٥ ، ص ١١٤٩ .

العجم والصواب انه تعطى دستورا لخمسة عشر الف من عسكرك وتوفر معلومهم فأجابه المستعصم لذلك فخرج الوزير لوقته ومحا اسم من ذكر من الديوان ثم نفاهم من بغداد ومنعهم من الاقامة بها ثم بعد شهر فعل مثل فعلته الاولى ومحا اسم عشرين الفا من الديوان ثم كتب الى هولاكو بما فعل وكان قصد الوزير بمجيء هولاكو اشياء منها أنه كان رافضيا خبيثا واراد ان ينقل الخلافة من بني العباس الى العلويين فلم يتم له ذلك من عظم شـــوكة بني العباس وعساكرهم ففكر ان هولاكو قدم يقتل المستعصم واتباعه ثم يعود الحال سبيله وقد زالت شوكة بني العباس وقد بقي هو على ما كان عليـــه من العظمة والعساكر وتدبير المملكة فيقوم عند ذلك بدعوة العلويين الرافضة من غير منانع لضعف العساكر ولقوته ثم يضع السيف في أهل السنّة فهـذا كان قصده لعنة الله ولما بلغ هولاكو ما فعل الوزير ببغداد ركب وقصدها الى ان نزل عليها وصار المستعصم يستدعي العساكر ويتجهز لحرب هولاكو وقد اجتمع أهـل بغداد وتحالفوا على قتال هولاكو وخرجوا الى ظاهر بغـداد ومضى عليهم بعساكره فقاتلوا قتالاً شديداً وصبر كلّ من الطائفتين صبراً عظيما وكثرت الجراحات والقتلى في الفريقين الى ان نصر الله تعالى عساكر بغداد وانكسر هولاكو أقبح كسرة وساق المسلمون خلفهم وأسروا منهم جماعة وعادوا بالأسرى ورؤوس القتلى الى ظاهر بغداد ونزلوا بخيمهم مطمئنين بهروب العدوّ فأرسل الوزير ابن العلقمي في تلك الليلة جمـاعة من أصحابه فقطعوا شطّ دجلة فخرج ماؤها على عساكر بغداد وهم نائمون ففرقت مواشيهم وخيامهم وأموالهم وصار السعيد منهم من لقي فرساً يركبها وكان الوزير قد أرسل الى هولاكو يعرّفه بما فعل ويأمره بالرجوع الى بغداد فرجعت عساكره على بغداد وبذلوا فيها السيف)[١٦] . وأضاف هذا الكاتب رواية جديدة عن مصير ابن العلقمي بقوله : (فلم يلبث ان أمسكه هولاكو بعد قتل المستعصم بأيام ووبّخه بالفاظ شنيعة معناها أنه لم يكن له

---

(١٦) الشيخ حسن بن محمد بن الحسن الدياربكري ، تاريخ الخميس في احوال أنفس نفيس ، ج٢ ، ص ٤٢٠ ـ ٤٢١ .

خير في مخدومه ولادينه فكيف يكون له خير في هولاكو ثم أنه قتله شرّ قتله)[١٧] .

هذه هي خلاصة النصوص التي وردت باتهام الوزير مؤيدالدين ابن العلقمي ومثل هذه التهم ليست غريبة في أيام المحن العامة والكوارث الخطيرة وقد كان سقوط بغداد بأيدي المغول الوثنيين وقتلهم خليفة المسلمين حدثاً عظيما هز العالم العالم الاسلامي وترك جرحاً عميقاً في قلوب المسلمين جعلهم يفتشون عمن كان السبب فيه وكان الوزير شيعيا في وقت كان للدين فيه سيطرة عظيمة على النفوس والمنازعات الطائفية شديد في بغداد ، وكان يحتل اسمياً المنصب الثاني في دولة الخليفة واعداؤه يتربصون به الدوائر والاحوال العامة في تدهور والمغول يطرقون أبواب البلاد دون ان يكون أمامهم استعداد عسكري واضح وقد قتل الخليفة واستبيحت بغداد فلم يقتل الوزير بل أنه كان أحد جماعة عهد اليهم اعادة تنظيم ادارة العراق فلم لا توجه اليه التهمة وقد جمع اليه الخيانة من أطرافها كما يبدو ذلك لأول وهلة . وقد سبق للخليفة الناصر الدين‌الله ان اتهمه خصومه بخيانة تشبه ما وجّه لابن العلقمي ولكنها اعظم خطراً[١٨] وأورد ياقوت الحموي اشاعة كانت تتردد في عهده هي ان علوياً كان مقدماً على أحد أبواب نيسابور قاعدة خراسان ، راسل المغول خلال غزوهم هذا الأقليم ، يتعهد فيه بتسليم البلد اليهم مقابل جعله متقدماًعليه فأجابوه الى ذلك وعندما فتحوا المدينة المذكورة كان هو أول من قتلوهم فيها[١٩] . وقد أدّت بنا دراستنا للتهمة الموجهة للوزير ابن العلقمي بعد قراءة المصادر التي أوردتها وتفهم طبيعة الغزو المغولي منذ بدايته وأحوال العراق والعالم الاسلامي المعاصر، الى رفضها بناء علىالاسباب التالية:

أولا : ان التهمة تحدد البداية التاريخية لخيانة ابن العلقمي بمراسلته هولاكو بعد استباحة محلة الكرخ الشيعية سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م خصوصا بعد

---

(١٧) ن٠م٠ ص ٤٢١ .
(١٨) انظر ص ١٤ .
(١٩) معجم البلدان ، ج٥ ص ٣٣٢ .

فراغ الفاتح المغولي المذكور من فتح قلاع الأسماعيلية أو خلال محاصرته لها في السنة المشار اليها ولكن الحقيقة هي غير ذلك لان هولاكو كان يسير الى غزو العراق قبل هذا التاريخ ببضعة سنين وانه كان يعمل طبقاً لأوامر عليا صدرت اليه قبل وصوله بلاد الاسماعيلية أي قبل وقوع حادثة الكرخ .

ولعل الأمر يتضح بدراسة النقاط الآتية :

(أ) كان غزو العراق أمراً تتضمنه طبيعة الغـزو المغولي الذي كان يستهدف السيطرة على العالم وقد استولى المغول فعلاً على أكثر الصين واواسط آسيا وايران واوروبا الشرقية وبقيت بلاد الأسماعيلية والعراق وسورية ومصر جيباً جغرافياً وعسكريا كان لابّد من الاستيلاء عليه وهذا ما قام بـه هولاكو واذا كان العراق قد سقط بأيدي المغول نتيجة لخيانة وزيره ابن العلقمي فكيف نفسر سقوط كل هذه البلاد الممتدة من المحيط الهادي الى أواسط اوروبا ومن هم الخونة الذين سلموها الى الأعداء ثم كيف نفسر احتلال هولاكو لسورية واستعداده للزحف على مصر .

ب ـ ربما تلقي ضوءً على رغبة المغول في ضم العراق الى منطقة نفوذهم قبل سنين عديدة من اسـتيلاءهم الفعلي عليه ، المقـابلة التى جرت بين الأمبراطور كيوك خان بمناسبة تنصيبه على العرش المغولي سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م ورسول الخليفة حيث هدد الخان ذلك الرسول موعداً ومنذراً[٢٠] .

جـ ـ ان زحف هولاكو على العراق واحتلاله اياه انما تم بناء على أوامر عليا أصدرها امبراطور المغول مانغوخـان سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م بفتح البلاد الغربية التي ضمنها العراق وسـورية ومصر يؤيـد ذلك التقريـر الذي رفعه (جانغ ته) الذي أرسله (مانغو خان) الى أخيه هولاكو ودوّنه أحد الصينين المسمى (ليو) المتصلين بالسفير المذكـور وما ورد في كتاب التاريخ الصيني للأسرة المغولية التي حكمت الصين والذي أمر بوضعه أحد أباطرة الصين وتم اعداده سنة ٧٧٢هـ/١٢٧٠م وقـد ورد في كلا المصدرين

---

(٢٠) انظر ص ٤٤ ـ ٤٥ .

ان مانغو خان أمر أخاه هولاكو سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م بالزحف لاحتلال البلاد الغربية واخضاع خليفة بغداد[٢١] . وقد سبق هذا التاريخ حادثة الكرخ بثلاث سنوات على أقل تقدير وقد أيد ذلك ابن العبري[٢٢] والكتاب الموسوم بالحوادث الجامعة[٢٣] ورشيدالدين فضل الله[٢٤] .

ثانيا : ان القول بأن الوزير كان يسيطر على الخليفة تماماً بحيث أنه كان يمنع الرسل الذين يحذرونه من خطر المغول ، مردود لان الادلة تشير الى ان الوزير كان ضعيفاً غير مسموع القول وليس له نفوذ على الخليفة الذي كان واقعا تحت نفوذ اعداء الوزير وخصوصا مجاهدالدين الدويدار الصغير الشركسي الذي كان قائداً للجيش والدليل على ذلك ما يأتي :

(أ) ان الخليفة لم يعهد بالوزارة الى ابن العلقمي سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م الا بعد ان عرضها على مربيه صدرالدين ابن المظفر علي بن محمد النَيّار شيخ الشيوخ فامتنع عليه[٢٥] .

(ب) ان استباحة محلة الكرخ سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م انما تمت نتيجة لأوامر الخليفة القاضية بكف الشقي الكرخي الذي قتل أحد سكان محلة (قطفتا) السنية كما ان ايقاف الاستباحة بعد انأفلت زمام الامور من يد الحكومة بتسلط الغوغاء وأهل الفوضى انما صدر من قبل الخليفة أيضاً وكان في محلة الكرخ أقارب للوزير فلو كان له أيّ نفوذ في الدولة وهو

---

(٢١)
E. Bretchneider, Medieval Reserches from Eastern Asiatic Sources, I, P. 109, 121.

يحدد عطا ملك الجويني بداية تفكير مانغوخان بفتح هذه البلاد بسنة ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م ، انظر ص ٤٥ .

(٢٢) تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٦٣ .
(٢٣) ص ٢٦٧ .
(٢٤) جامع التواريخ ، ج٢ ، قسم ١ ، (النسخة المترجمة) ، ص ٢٣٨ ، انظر النص الفارسي ، ج٢ ، ص٦٨٧ .
(٢٥) العسجد المسبوك ، ج٢ الورقة ١٩٣ .

بمنصب وزير وهو يقابل رئيس الوزراء في عصرنا ، لمنع استباحة المحلة المذكورة او لأوقفها عند حدها حفظاً لأقاربه على الأقل[٢٦] .

(ج) في الخلاف الذي وقع بين الوزير والدويدار الصغير قائد الجيش ، لم يأخذ الخليفة برأي الوزير بل أنه صفح عن الدويدار مع عظم التهمة التي نسبت اليه[٢٧] .

(د) ان هولاكو كان يراسل الخليفة ويطلب منه نجدة وينذره بالقدوم اليه منذ ان كان يحاصر قلاع الاسماعيلية وكان الخليفة يستشير الوزير والدويدار وغيره من افراد حاشيته وخواصه ، وكانت نصائح الوزير معقولة تدل على تفهم لطبيعة الخطر المغولي من جهة واحوال العراق من جهة اخرى ولم تكن تتضمن تغريرا بالخليفة ولا تآمراً عليه ولكن الخليفة كان يهمل نصائح الوزير ويأخذ برأي خصومه خصوصا الدويدار الصغير[٢٨] .

هـ ـ وفيما يتعلق بمنع الوزير للرسل من الوصول الى الخليفة ان الادلة لا تؤيد ذلك لان الخطر المغولي كان يهدد العراق منذ ايام الخليفة الناصر لدين الله أي منذ ان كان المستعصم بالله صبياً صغيراً وقد استمر أيام الظاهر بأمر الله والمستنصر بالله وأمره ذائع معروف وأخباره يعرفها الخاص والعام والمعروف ان المستشارين أيام الخطر العسكري هم العسكريون لا المدنيون ولم يكن الوزير عسكريا ، فكيف يعتمد عليه الخليفة دون قواد الجيش وأمرائه ، وقد قدمنا أن الوزير لم يكن صاحب نفوذ على الخليفة بل ان النفوذ الحقيقي كان بأيدي الفئة العسكرية وعلى رأسها الدويدار الصغير عدو الوزير ، ثم كيف كان يستطيع الوزير ان يمنع الرسل من الوصول الى الخليفة وهل كان يلقي بهم في السجن وما هي الامثلة على ذلك واذا كان يفعل هذا فهل كان يستطيع منع افراد العائلة العباسية من تحذير الخليفة او الوقوف بين رجال الدولة الاخرين كصاحب الديوان وعارض الجيش والنقباء

---

(٢٦) انظر في حوادث استباحة الكرخ ص ٢٣ .
(٢٧) انظر الصفحات السابقة ص ٢٤ ـ ٢٥ .
(٢٨) انظر موقف الوزير في ص ٤٩ ـ ٥٠ .

والمحتسب وغيرهم واخبار الخليفة بحقيقة الامر • ولو صحت هذه التهمة على الوزير لكان معناها انه كان يترأس مؤامرة كبرى يشترك فيها اكثر رجال الحكومة لكن المصادر التاريخية تبين ان المراسلات كانت قائمة بين هولاكو والخليفة فعلا وأنها لم تكن سرية لان الخليفة كان يستشير فيها حكومته وان الخليفة أرسل ابن الجوزي الى هولاكو وان هذا الرسول كان مخلصا للخليفة بدليل ان هولاكو قتله بعد فتح بغداد[٢٩] •

ثالثا : أما عن تآمر الوزير مع المغول لينصب علويا خليفة للمسلمين بدلا من المستعصم بالله فهو أمر مردود ايضا لان علاقة العلويين بالعباسيين كانت طيبة في هذه الفترة[٣٠] • وقد عرض المستنصر بالله على رضي الدين ابي القاسم علي بن موسى بن طاووس (ت ٦٦٤هـ/١٢٦٥م) ان يذهب رسولا الى سلطان التتر فرفض ذلك وعرض عليه ان يكون وزيرا ولكنه رفض ايضا[٣١] • وقد قتل المغول الفاتحون العديد من العلويين ومنهم السيد شرف الدين بن الصدر العلوي وكان محترما في الدولة العباسية وروسل به الملوك وقد قتلوا نقيب العلويين علي بن النقيب الحسن بن المختار وعمر ابن عبدالله بن المختار العلوي حاجب باب المراتب كما قتلوا نقيب مشهد موسى الكاظم[٣٢] وأحرقوا المشهد نفسه • يضاف الى ذلك كيف يرضى العلويون بتنصيب أحدهم خليفة للمسلمين من قبل المغول الوثنيين وهل كان الوزير يستطيع تدبير مثل هذا الامر الخطير بدون استشارة كبار العلويين فمن هم هؤلاء ؟؟ اما اتهام الوزير بأنه كان يعمل على اطماع المغول بالعراق ليكون نائباً لهم فهو مردود لأنه – أي الوزير – كان يشغل منصب الوزارة في دولة الخليفة وليس هناك ما يدل انه كان سيمنح منصباً أعلى من ذلك •

رابعا : اختلفت الروايات التي تعيّن رسل الوزير الى هولاكو فمنهم

---

(٢٩) انظر الحوادث الجامعة ص ٣٢٨ •
(٣٠) انظر الفصل الواحد والعشرين ص ٢٥١ – ٢٥٢ •
(٣١) رضي الدين علي بن موسى بن طاووس ، كشف الحجة لثمرة المهجة ، ص ١١٣ – ١١٤ •
(٣٢) العسجد المسبوك ، ج٢ ، الاوراق ١٩٢ ، ١٩٣ •

من قال انه أرسل أخاه ومنهم من قال انه ارسل غلامه ومنهم من قال أنه راسل هولاكو بواسطة ابن الصلايا العلوي صدر أربيل[٣٣] يضاف الى ذلك اننا نلاحظ ما يأتي :

(أ) ان كل ما قيل عن رسل الوزير انما كان مجرد ترديد لأشاعات لا تستند الى أيّ دليل فليس هناك حتى من ادعى انه رأى رسل ابن العلقمي الى هولاكو او قبض عليهم أو تحدث معهم أو شهدهم يدخلون على هولاكو .

(ب) ان هولاكو في مراسلاته مع الخليفة طلب مواجهة عدد من كبار رجال الدولة العباسية ولكنه لم يقصر طلبه على الوزير وحده في أية مرة من المرات وكان من المعقول ان يفعل ذلك لو كانت هناك اتصالات سرية بينهما[٣٤] .

(جـ) ان ابن الصلايا العلوي الذي تزعم بعض المصادر أنه كان صلة بين الوزير وهولاكو لا يمكن ان يكون قد قام بالعمل الخياني هذا لأنه أحد الناس الذين أمر هولاكو بقتلهم[٣٥] .

خامسا : ان الوضع والتكلّف يتضحان في نصوص الروايات التي تتهم الوزير فهو يحلق رأس رسوله ويكتب عليه بالأبر أو يجعل الكتابة على رأسه كل حرف كالحفرة وهو يخرج الى هولاكو ليتوثّق لنفسه ثم يعود الى الخليفة ليبلغه ان هولاكو يرغب بزواج ابنته من ابن الخليفة وان الاصلح الخروج مع أعيان الدولة لحضور عقد النكاح في وقت كان فيه الجيش المغولي يحيط ببغداد ويضربها بالمنجنيقات والمعروف ان هولاكو لم يجلب معه احدى بناته عند زحفه على العراق . وهو يبعث الى ابن الصلايا العلوي رسالة متكلفة في أسلوبها وأفكارها مثل : (فكان جوابي بعد خطابي لا بدّ من الشنيعة بعد قتل الشيعة ... الخ) . ومثل : (فكن لهذا الأمر بالمرصاد وترقب أول النحل وآخر صاد) وغير ذلك .

---

(٣٣) انظر الصفحات السابقة ص ٣٠ ـ ٣١ .
(٣٤) انظر خلاصة مراسلات هولاكو مع الخليفة في ص ٤٩ ـ ٥٠ .
(٣٥) الحوادث الجامعة ، ص ٣٣٧ .

سادسا : ان الزعم بأن الخلفاء السابقين للمستعصم بالله وخصوصاً المستنصر بالله كانوا يتخذون جيوشاً كبيرة وان الوزير ابن العلقمي عمل على صرفها وتفريقها ليسهل أمام هولاكو غزو العراق ، أمر مردود للسببين التاليين :

(أ)ليس هناك دليل يؤيد اتخاذ اولئك الخلفاء جيوشاً كبيرة بل يبدو أن العكس هو الصحيح فجيش الناصر لدين‌الله وهو أكثر الخلفاء العباسيين اهتماماً بالأمور العسكرية ورغبة في التوسع ، لم يستطع الوقوف أمام الخوارزميين ومنهم السلطان جلال‌الدين منكوبرتي الذي لم يستطع بدوره الوقوف أمام المغول لأنهم هزموه وشرّدوه فكيف يستطيع الجيش العباسي وحده الوقوف أمامهم .

يضاف الى ذلك ان غزوات المغول للعراق تكررت أيام المستنصر بالله وكان الخوف منهم يسيطر على البلاد ولو كان لدى الخليفة جيش كبير لهاجم المغول في قواعدهم وهي ايران مع انهم لم يكونوا في عهده على ما وصفهم استاذ داره غير (سرايا متفرقة وغارات متفقة)[٣٦] . ولكن قوات الخليفة التي وقفت لمحاربتهم كانت ضعيفة وقليلة العدد .

ب ـ كيف يستطيع الوزير اقناع الخليفة بصرف أكثر جنوده والاكتفاء بالقليل منهم في وقت كان الخطر المغولي يهدد الدولة العباسية والعراق وكان للخليفة مستشارون عسكريون متعددون على رأسهم الدويدار الصغير عدو الوزير ؟؟

سابعا : هناك مصادر مهمة لم ترد فيها أية اشارة الى خيانة الوزير مثل كتاب (جهانگشاي) لعطا ملك الجويني الذي هو أحد المصادر الرئيسة في تاريخ المغول وقد سرد الأحداث الى نهاية احتلال جيش هولاكو لقلاع الاسماعيلية وتدميره لدولتهم والمفروض ان مراسلات الوزير مع هولاكو انما جرت أيام تلك الأحداث ولم يشر عطا ملك الجويني الى أية مراسلات

---

(٣٦) كشف الحجة لثمرة المهجة ، ص ١٤٧ ـ ١٤٨ .

من هذا النوع مع أنه كان شديد الصلة بهولاكو وكان في رفقته عند زحفه على بغداد وقد مرّ بنا انه ـ أي الجويني ـ أورد التهمة المنسوبة الى الناصر لدين الله من أنه راسل ملوك الخطا[٣٧] . ولم ترد التهمة كذلك في الرسالة المنسوبة الى نصيرالدين الطوسي (ت٦٧٢هـ/١٢٧٣م) وقد رافق هولاكو الى بغداد وكان كبير الاطلاع على خفايا الامور . ولا يذكرها عبد الرحمن سنبط بن قنيتو الاربلي في كتابه (الذهب المسبوك) مع انه عراقي معاصر للحوادث ولا يذكرها كذلك ابو الفرج ابن العبري في كتابه (تاريخ مختصر الدول) مع أنه معاصر اتصل بالمغول وعرف أخبارهم بينما يرفض التهمة ابن الطقطقي (وضع كتابه سنة ٧٠١هـ/١٣٠١م) وفوق كل هذا يفصّل رشيدالدين فضل‌الله أحداث الفتح ويشير الى التهمة بأن مصدرها الدويدار الصغير عدو الوزير . ورشيدالدين مؤرخ عرف بصلته الشديدة بسلاطين المغول وأخبارهم وتاريخ شعوبهم وقد اطلع على المصادر الاسلامية والمغولية ولم تكن له أية مصلحة في الدفاع عن الوزير[٣٨] . ولا حجة لمن يقول ان هذه المصادر كتبت في ظل المغول وتحت ضغطهم لأن عبدالله بن فضل الله الشيرازي الذي عرف بوصاف الحضرة لمدحه سلطان المغول الايلخاني محمد خدابنده ، شدّد التهمة على الوزير وقدّم كتابه الى السلطان المذكور . كما لم يردنا من الأخبار ما يفيد ان حكام المغول كانوا يأمرون الكتّاب والمؤلفين بالدفاع عن الوزير بل هناك من المصادر الأسلامية من يزعم ان هولاكو قتل الوزير ابن العلقمي لانه خان مخدومه الخليفة[٣٩] ولم ترد التهمة في كتاب ابن الفوطي البغدادي تلخيص مجمع الآداب وهو معاصر كبير الاطلاع .

ثامنا : ان سلامة شخص الوزير وداره ومشاركته في اللجنة التي أعادت تنظيم بغداد والعراق بعد الفتح لا تقوم حجة على خيانته لأن صاحب

---

(٣٧) انظر ص ١٤ .
(٣٨) انظر ، جامع التواريخ ، ج٢ قسم ١ (الترجمة) ص ٢٧٢ ـ ٢٧٤ ؛ النص الفارسي في المرجع الاصلي ج٢ ، ص ٧٠٢ ـ ٧٠٤ .
(٣٩) انظر ص ٣٣ ـ ٣٤ .

ديوان الخليفة المستعصم‌بالله أي وزير ماليته وحاجب الباب في عهده أي مدير شرطة العاصمة قد عوملوا بنفس المعاملة كما سلم أقرب مستشاري الخليفة اليه صديقه عبدالغني بن الدرنوس وسلم الابن الاصغر للخليفة مع أخواته فاطمة وخديجة ومريم[٤٠] . وقد كان هولاكو بحاجة الى من يدبّر أمر العراق بعد فتحه وكان الوزير وصاحب الديوان وحاجب الباب خبيرين بأموره فأشركهم في لجنة عهد اليها أمر تنظيمه ومن المحتمل ان هولاكو أعجب بالوزير عند مقابلته له نيابة عن الخليفة فاستبقاه والأرجح ان شفاعة نصيرالدين الطوسي له كانت أهم سبب في نجاته[٤١] .

تاسعا : تجمع الروايات ان هولاكو لم يفرّق في استباحته لبغداد بين السنّيين والشيعيين بينما استثنى النصارى والمعقول ان ابن العلقمي لو كان قد اتفق مع المغول على تسليم بغداد لهم انتقاماً من السنيين لحفظ له المغول جميل عمله فلم يقتلوا الشيعة على الأقل .

عاشراً : أما سقوط بغداد نفسها فلم يكن للوزير أي دخل فيه لأنه تم بعد هزيمة جيش الخليفة بقيادة الدويدار واستيلاء المغول على أسوار المدينة وسبب ذلك تفوّق المغول الواضح في العدد والعدد والقيادة والمعنوية .

والخلاصة ليست هناك دلائل تدين ابن العلقمي بالخيانة وقد كان سقوط بغداد أمراً متوقعاً منذ تدمير المغول لدولة خوارزم وقتلهم آخر سلاطينها جلال‌الدين منكوبرتي سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م ولو أراد المغول فتح العراق آنذاك لما وجدوا صعوبة في ذلك وخيانة ابن العلقمي حتى لو صحت ما كانت تعمل أكثر من تشجيع هولاكو على قصد العراق وما كان هذا في حاجة الى تشجيع لانه كان يحمل أوامر عليا بالفتح اصدرها اليه الامبراطور مانغوخان ومعه جيش متفوق على عدوه تفوقاً ساحقاً في العدد والعدد لم يستطع الاسماعيلية ايقافه بالرغم من كثرة عدد حصونهم وامتناعهم في جبال

---

(٤٠) الحوادث الجامعة ، ص ٣٢٩ ـ ٣٣٢ .
(٤١) ابن الطقطقي ، تاريخ الدول الاسلامية ، ص ٣٣٨ .

عالية وقمم شاهقة بينما تقع بغداد في سهل فسيح يسهل الاحاطة بها وقطع الميرة عنها • ويبدو ان الصاق تهمة سقوط بغداد بالوزير انما غايتها تبرير الاهمال والتسيّب اللذين سيطرا على ادارة العراق منذ بداية الغزو المغولي لدولة خوارزم سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م وقد كانت الخطة الصحيحة المناسبة آنذاك هي محاربة المغول منذ أول ظهورهم في بلاد ما وراء النهر وخراسان وليس التفرّج على هجماتهم وفضائعهم وانتظارهم عند أسوار بغداد ثم اتهام الوزير بأنه السبب في سقوط المدينة •

الفصل الثالث

وقائع الفتح المغولي للعراق

كانت مطامع المغول في منطقة جنوبي غربي آسيا أمراً طبيعياً بالنسبة لحركة الغزو المغولي العالمية[1] • وكان حكام هذه المنطقة يحسون بها ويسعون الى استرضاء اباطرة المغول ومسالمتهم والتظـــاهر بطاعتهم أو الولاء لهم ففي القوريلتاي (مجلس الشورى المغولي الكبير) الذي انعقد في ربيع عام ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م لتنصيب الامبراطور الجديد كيوك خان خلفاً لأبيه أغوتاي ، حضر مندوبون فيما عدا أمراء المغول ، عن خراســـان والعراق العجمي واللـور وأذربيجان وشروان وكرجستان والروم (أي دولة الروم السلاجقة) ، كما حضر اخو الملك الناصر صاحب حلب والقاضي فخرالدين مندوباً عن خليفة بغداد وممثل عن بدرالدين لؤلؤ صاحب الموصل وآخـر عن ملك الاســـماعيلية • وفي السنة التالية انصرف كيوك‌خان الى تدبير شـــؤون الامبراطورية فعهد الى أمير اسمه (ايلجكتاي) بشؤون بلاد الروم والموصل والشام والكرج والأرمن وأمر بأن يتجه حكام وسلاطين هذه البلاد اليه في شأن الجزية التي يدفعونها • وبمثل ذلك جعل أميراً مغولياً آخـر اسمه أرغون مسؤولا عن العراق العجمي وأذربيجان وشروان واللور وكرمان وفارس والمنطقة الواقعة باتجاه الهند[2] • وخاطب الخاقان مندوب الخليفة

---

(١) انظر ص ٤٥ •

(٢) عطا ملك الجويني ، تاريخ جهان گشاي ج١ ص ٢١٣ •
A.M. Juvaini, Hist, I. P. 257.

ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٥٦ •

(خطاب واعد وموعد بل واعظ ومنذر) على قول ابن العبري[٣] . بينما يقول عطا ملك الجويني أنه بعث برسائل مليئة بالغضب الى أمير المؤمنين ، خليفة بغداد ، بسبب شكاية قدّمها ابن القائد المغولي جرماغون[٤] .

وقد قرر خليفته مانغوخان فتح البلاد الغربية ومنها العراق . ففي ٦٤٩هـ/١٢٤١م اجتمع امراء المغول من أولاد جنكيزخان وتبلاءهم وحكامهم في عاصمة الامبراطورية (قره قورم) ورفعوا مانغوخان على العرش . وانصرف الأمبراطور الجديد الى النظر في المظالم وضبط أمور المملكة وقضاء حاجات الواردين عليه من مختلف البلاد . وفكر في أمور العالم فرأى ان بعض الممالك دخلت في حوزة امبراطوريته وبعضها لم يخضع لها بعد فرأى ان يعهد بكل طرف من أطراف المملكة الى أحد أخوته ليتم اخضاعها بينما يجلس هو هادئا في عاصمته . ولذلك فأنه أقطع البلاد الشرقية والخطا وتنكوت وتبت وبلادا أخرى الى أخيه قوبلاي أغول الذي عرف بحكمته وذكائه وبعد نظره وتخيّر له عددا من ابرز قواده لمرافقته كما وضع تحت امرته جميع القادة المقيمين في تلك المناطق . أما البلاد الغربية فأنه أقطعها لأخيه هولاكو الذي اشتهر بصلابته وهيبته ويقظته وحذره وضاعف له الجنود الذين يرافقونه[٥] . وكما كانت الحال مع قوبلاي ، أمر مانغوخان ان يخصص للمسير مع هولاكو ، اثنان من كل عشرة من الجيوش المغولية الشرقية والغربية وأمر أخاه سوبتاي أغول بمرافقته . يضاف الى ذلك انه أرسل بلغاي بن سبقان وقوتار أغول وقولي ممثلين لجيوش باتو ، وتكودار اوغول بن بوخي أغول ممثلا لجغتاي ، وبوقاتيمور مع جنود قبائل الأويرات ممثلين لشيشكان بيكي ، وأرسل معه من الأقارب والقادة الكبار وغيرهم

---

(٣) تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٥٧ .

(٤) Juvaini, I, P. 258.
انظر ايضا ، جامع التواريخ ، ج٢ ، قسم ١ (النسخة المترجمة) ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ ؛ النص الفارسي ، ج٢ ، ص ٦٨٥ .

(٥) Ibid, II, pp. 596-597. ن. م.

عددا من الرؤساء يصعب تعدادهم لكثرتهم وأرسل معه من الخطا ألف بيت من صناع المنجنيقات وزارقات النفط ورماة السهام والمتخصصين بأصلاح آلات الحرب • وأرسلت الأوامر مقدماً بحجز جميع المراعي التي كان من المتوقع مرور الجيش منها بين قره‌قورم وبشبالق ومنعت جميع الحيوانات من الرعي فيهـا وأمر بحركة بايجو وجرماغون الى بلاد الروم • وصدرت الاوامر بتجهيز كل جندي من المحاربين بتغار (مائة منّ) من الدقيق وقربة من النبيذ وبدأ الأمراء والحكام المحليون الواقعون على طريق مسيرة الجيش بتهيأة العلوفات وهـدايا الطعام لتقديمهـا الى الجيش عنـد مروره بهم • ونظفت الطرق التي رسم بمرور الجيش منها من الأشواك والأحجار ونصبت الجسور على الأنهار ومجاري المياه السريعة وهيّأت القوارب والسفن في النقاط التي يحتاج اليها الجيش من أجل العبور وأرسل كتبوغانويان في المقدمة من أجل الاستطلاع مع قوة تعدادها اثني عشر ألف محارب • ومن الجهة الأخرى أقام هولاكو ولائم فاخرة في معسكراته بمناسبة البدء بحملته وأقام الأمراء الآخرون ولائم مقابلة له ومنحه الأمبراطور مانغوخان هدايـا ثمينة من الجواهر والنقود والملابس والحيوانات له ولزوجـاته واولاده والأمراء والقادة المرافقين له في حملته(٦) .

وزود مانغوخـان أخـاه هولاكو بنصـائح تتضمن السياسة التي عليه ترسّمها في فتح الأقاليم الجديدة وفيها اشارة واضحة الى خليفة بغـداد وخلاصتها : (انك على رأس جيش كبير وقوات لا حصر لها فينبغي ان تسير من توران الى ايران ••• وحافظ على تقاليد جنكيزخان وقوانينه ، في الكليات والجزئيات ، وخص كل من يطيع أوامرك ويجتنب نواهيك ، في الرقعة الممتدة من جيحون حتى أقاصي بلاد مصر – بلطفك وبأنواع عطفك وانعامك • أما من يعصيك فأغرقه في الذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه ،

---

(٦) Juvaini, II, pp, 607-609.
جامع التواريخ ، ج٢ (النص الفارسي) ، ص ٦٨٥ – ٦٨٦ •

وكل ما يتعلق به • وابدأ بأقليم قهستان في خراسان ، فخرب القلاع والحصون •

فاذا فرغت من هذه التهمة ، فتوجه الى العراق ، وأزل من طريقك اللور والأكراد ، الذين يقطعون الطرق على سالكيها • واذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة ، فلا تتعرض لـه مطلقا • أما اذا تكبر وعصى ، فألحقه بالآخرين من الهالكين • كذلك ينبغي ان تجعل رائدك في جميع الامور ، العقل الحكيم والرأي السديد ، وان تكون في جميع الأحوال يقظاً عاقلاً ، وان تخفف على الرعية التكاليف والمئون ، وان ترفه عنهم • وثق انك بقوة الله العظيم ، سوف تفتح ممالك الاعداء ، حتى يصير لك فيها مصايف ومشاتي عديدة • وشاور دوقوز خاتون في جميع القضايا والشؤون)[٧] •

وفي خريف سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م بدأ هولاكو حركته وقد أخذ معه ابناءه الكبار يشموت وأباقا لمرافقته • وأخذت جيوشه تتحرك من مختلف النقاط التي كانت ترابط فيها وخوفا من تلك الأخبار ، كما يقول عطا ملك جويني (أخذت الجبال تهتز وقلوب الملوك ترتجف) وسار الملك ببطء شديد وحينما وصل المالغ جاءت (أورغنه خاتون) لاستقباله وأقامت لـه عدة ولائم وعندما غادر تلك النواحي أسرع الوزير الأعظم مسعود بك مع أمراء خراسان وما وراء النهر بتقديم فروض الطاعة والالتحاق بركبه[٨] • وفي صيف عام ٦٥٢هـ/١٢٥٤م مرّ في المراعي الجبلية تجنباً لحرارة الشمس وفي شعبان سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م عسكر في مراعي گاني ـ گل الواقعة على أبواب سمرقند • وهناك أقام له الوزير مسعود بك خيمة من النسيج كان غطائها من الفرو الأبيض وبقي هولاكو هناك حوالي الأربعين يوماً قضاها في الشراب والمتعة • ثم تحرك زاحفاً ولم يتوقف الا عند حدود مدينة كش بالقرب من سمرقند حيث أقبل اليه الأمير أرغون وأكثر عظماء خراسان

---

(٧) جامع التواريخ ، ج٢ ، قسم ١ ، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧ ؛ انظر النص الفارسي لنفس المرجع ، ج٢ ، ص ٦٨٦ ـ ٦٨٧ •

(٨) Juvaini, II, P. 612.

وقدموا له الهدايا وظلوا في معيته مدة شهر ثم رحلوا • وقد بعث هولاكو الى ملوك وسلاطين ايران رسائل يخبرهم بعزمه – طبقا لأوامر الخان الأعظم – على فتح بلاد الملاحدة وطلب منهم مساعدته بالجيوش والعدد والآلات وهددهم في حالة عدم امتثالهم لتلك الاوامر بأنه سوف يحل بهم ما يحل بالملاحدة • وقد عبر نهر جيحون وأسرع سلاطين ايران وملوكها بالتوجه اليه لتقديم فروض الطاعة ثم أنه نزل في مرعى شفورقان على أمل عدم البقاء هناك طويلا ولكن الثلج أخذ يتساقط والبرد يشتد وكان الشتاء طويلاً وقاسياً أهلك كثيراً من الحيوانات لكن هولاكو قضى وقته هناك منصرفاً الى اللهو والاستمتاع وقد أعدّ له الأمير أرغون سرادقاً ضخماً من الكتان الناعم مثبتاً بألف مسمار وفيه صحون ذهبية وفضية وعندما بدأت طلائع الربيع بالظهور صدرت الأوامر برفع الأعلام وحشد الجيوش والزحف لتحطيم قلاع الملاحدة وكان كتبوغانويان قد سار نحوهم في مقدمة جيش هولاكو فعبر نهر جيحون وشرع في الهجوم على ولاية قهستان بينما استمر هولاكو يتبادل الرسائل مع ملك الاسماعيلية ويهدده ويشدّد على ضرورة الاستسلام في الوقت الذي كان يرسل اليه قواته تحاصر قلاعه وتخربها وتستولي عليها الواحدة بعد الأخرى الى ان اضطر ملك الاسماعيلية خورشاه الى النزول والتسليم الى هولاكو في ذي القعدة عام ٦٥٤هـ/١٢٥٦م فأرسله هذا الى الامبراطور مانغو خان الذي أمر بقتله فقتل[٩] •

وفي ربيع الأول عام ٦٥٥هـ/١٢٥٧م توجه هولاكو من ضواحي قزوين الى همذان وأرسل بايجو نويان الى بلاد الروم في حملة جديدة اشتبكت مع سلطانها غياث‌الدين كيخسرو وهزمته واستولت على جميع بلاده • ونزل هولاكو في همذان وانصرف الى ترتيب جيشه وتجهيزه وكان خلال محاصرته قلاع الاسماعيلية قد بعث رسولا الى خليفة بغداد المستعصم بالله يطلب منه نجدة تساعده في الاستيلاء على المواقع المذكورة لكن الخليفة

---

(٩) جامع التواريخ ، ج٢ قسم ١ (النسخة المترجمة) ص ٢٥١ ؛ انظر النص الفارسي في المرجع الاصلي ، ج٢ ، ص ٦٩٧ •

لم يجبه الى طلبه . وفي العاشر من رمضان عام ٦٥٥هـ/١٢٥٧م أرسل الى الخليفة يتهدده ويتوعده ويلومه على عدم ارساله المدد لقتال الاسماعيلية ويذكره بما حل بالأمم الاخرى على يد الجيوش المغولية منذ أيام جنكيز خان ويمضي في رسالته قائلا ان الخليفة اذا أطاع فليهدم الحصون ويردم الخنادق ويسلم البلاد لابنه ويحضر لمقابلته (مقابلة هولاكو) والا فليرسل كلا من الوزير وسليمان شاه ليبلغوه الرسائل فاذا استجاب فسوف تبقى له دولته وجيشه ورعيته والا فليستعد الى الحرب[١٠] . وقد بلّغ رسل المغول رسالتهم وعادوا الى بلادهم ، وعندما خرجوا من بغداد وجدوا طريقهم مليئاً بالرعاع الذين آذوهم واعتدوا عليهم وبصقوا في وجوههم وعندما وصلت أخبار ذلك الى الوزير ارسل بعض الغلمان لأبعادهم عنهم بينما أرسل الخليفة شرف‌الدين بن الجوزي ومعه بدرالدين محمود وزنكي النخجواني يحملون رسالة تتضمن رفض أوامر هولاكو بعبارات شديدة وتظاهر بالاستعداد للحرب فصرف هولاكو رسل الخليفة وبعث يعيد اليه تهديداته ويقول أنه متوجه الى بغداد بجيش كالنمل والجراد[١١] . وقد عرض الوزير الرسالة الجديدة على الخليفة فاستشاره فيما يفعل فأشار عليه ببذل المال واعداد هدايا كبيرة مناسبة لهولاكو وخواصه في صحبة رسل كفاة وتقديم الاعتذار وجعل الخطبة والسكّة له . فرضي الخليفة بهذا الرأي ولكن الدويدار الصغير بعث الى الخليفة رسالة بالاتفاق مع امراء بغداد الآخرين يقول فيها ان الوزير انما يدبّر الحيل مع التتار لمصلحته الخاصة ليسلّمنا اليهم . ولذلك عدل الخليفة عن ارسال الهدايا الكثيرة واقتصر على النزر اليسير فغضب هولاكو وقال انه لا بدّ من مجيء الخليفة نفسه أو تسيير أحد ثلاثة نفر هم الوزير أو الدويدار أو سليمان

---

(١٠) جامع التواريخ ، ج٢ قسم ١ (النسخة المترجمة) ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ ؛ انظر النص الفارسي في المرجع الاصلي ، ج٢ ، ص ٧٠٠ .

(١١) جامع التواريخ ، ج٢ ، قسم ١ (الترجمة) ، ص ٢٧٠ ـ ٢٧١ ؛ النص الفارسي في المرجع الاصلي ، ج٢ ، ص ٧٠١ .

شاه ولكن الخليفة سير غيرهم فلم يجدوا نفعا • وقد اشتد الاضطراب في الدولة العباسية وأخذ عظماء بغداد وامراؤها يجتمعون عند الوزير، مثل سليمان شاه بن برجم وفتح الدين بن كرّ ومجاهدالدين الدويدار الصغير وأخذوا يطلقون ألسنتهم في الخليفة ودعا أحدهم وهو سليمان شاه الى الاستعداد العسكري وقد بلّغ الوزير رأي هؤلاء الى الخليفة فأعجب به وطلب تعبأة الجند حتى يقوم هو بتقديم المال اللازم ففعل الوزير ذلك ولمّا طالب الخليفة بالمال اعتذر عن تقديمه فيأس الوزير واستسلم للقضاء والقدر • ثم ان الخليفة أرسل هدّية صغيرة الى هولاكو مع تحذير من خطر المس بأسرة العباسيين[١٢] •

ثم ان هولاكو أمر القائدين جرماغون وبايجونويان الذين كانت قواعدهما في بلاد الروم بالحركة الى الموصل عن طريق أربيل وعبور الجسر من هناك والزحف على الجانب الغربي من بغداد في الوقت الذي ترك هو ضواحي همدان متجهاً نحو العراق ومخترقاً الجبال المكللة بالثلوج الفاصلةبين العراقينالعجميوالعربي وكانيرافقه الامراءكوكا الكا وأرقتو نويان وأرغون آقا والخواجه نصيرالدين الطوسي وعلاءالدين عطا ملك الجويني وعندما بلغ أسد آباد أوفد رسولاً يدعو الخليفة للحضور ، بينما وصل ابن الجوزي الى دينور قادماً من بغداد ملتمساً عودة هولاكو مقابل تسليم الخليفة له المال الذي يقرره • ونزلت القوات المغولية كرمانشاه واشتغلت بالقتل والنهب ولقيت كشافة المغول أحد أمراء الخليفة المسمى أيبك الحلبي وحملته الى هولاكو فأمنه ان تكلم الصحيح فصار دليلاً لعسكره وكتب الى بعض أصحابه يخبرهم بكثرة الجيش المغولي وقوته وشدّة بأسه وبعث هولاكو رسولاً من جديد يطلب فيه حضور الوزير وسليمان شاه والدويدار الصغير ليسمعوا ما يقول ويضيف الى ذلك ان الخليفة اذا أطاع فليخرج والا فليتأهب

---

(١٢) جامع التواريخ ، ج٢ قسم ١ (الترجمة) ص ٢٧١ ـ ٢٧٦ ؛ النص الفارسي ، المرجع الاصلي ، ج٢ ، ص ٧٠٢ ـ ٧٠٣ ؛ تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠ •

للقتال • وفي التاسع من ذي الحجة سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م عسكر هولاكو على شاطىء نهر حلوان وفي التاسع من المحرم سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م وصل بايجو نويان وبوقا تيمور وسونجاق الى نواحي نهر عيسى • أما في بغداد فقد أمر الخليفة قائده مجاهدالدين الدويدار الصغير بالخروج بجيش بغداد مع فتح‌الدين بن كرّ لمواجهة هولاكو على طريق حلوان • فخرج هذا ونزل بالقرب من بعقوبا فلما بلغه اقتراب الجيش المغولي من الجانب الثاني من المدينة عبر النهر اليها ونزل حيال (حربي) وأمر الخليفة مرشداً الخصي بالخروج بباقي العسكر للقاء هولاكو فامتنع الأمراء عن المسير تحت لواءه • أما أهل السواد فقد أجفلوا أمام الجيوش المغولية ودخلوا بغداد بنساءهم وأولادهم • وفي المحرم سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م اشتبكت قوات الخليفة وكانت قليلة العدد[١٣] مع القوات المغولية بالقرب من الأنبار[١٤] فتراجعت القوات المغولية خديعة تتبعها قوات الخليفة بقيادة الدويدار الصغير واستمرت كذلك بالرغم من نصيحة القائد الآخر فتح الدين بن كرّ بضرورة ثباتها في مكانها حتى أدركها الليل وقد تجاوزت نهر بشير الذي كان فرعا من فروع نهر دجيل وأرسل المغول في جنح الظلام من فتح سدود النهر المذكور وراء جيش الخليفة فلما أسفر الصباح حملت القوات المغولية على قوات الخليفة حملة شديدة وكسرتها فتراجعت ووجدت الأرض قد غطّيت بالماء والوحل حتى عجزت الخيول عن سلوكها وهلك أكثر أفراد الجيش البغدادي الا من القى بنفسه في الماء ومن دخل البرية ومضى على وجهه الى الشام والحلة والكوفة وأفلح قائد جيش الخليفة الدويدار الصغير بالأفلات والعودة الى

---

(١٣) يقدرها ابن كثير بعشرة آلاف ، البداية والنهاية ، ج١٣ ص ٢٠١ ، ويرفعها رشيد الدين الى اكثر من ذلك فيقول ان الذين قتلوا في هذه المعركة من جيش الخليفة بلغوا اثني عشر الف رجل فضلا عمن غرق او قضى نحبه في الوحل : جامع التواريخ ، ج٢ قسم ١ (الترجمة) ص ٢٨٥ ؛ النص الفارسي ، ج٢ ، ص ٧٠٩ •

(١٤) يقدر ابن الطقطقي القوات الزاحفة على غربي بغداد بما يزيد على ثلاثين الف فارس ، تاريخ الدول الاسلامية ، ص ٣٣٥ •

بغداد مع ثلة من جنوده وهم على أقبح صورة تتبعهم الجنود المغولية يقتلونهم ويغنمون ما كان معهم حتى نزلوا في الجانب الغربي من المدينة وكان خالياً من أهله الا القليل فقتلوهم وشرعوا يرمون النشاب الى الجانب الشرقي من المدينة حتى صارت سهامهم تصل الدور الشطانية • أما هولاكو فأنه ترك خانقين وزحف بالجيش المغولي الرئيس نحو بغداد فنزل الجانب الشرقي منها في أواسط محرم سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م وأحاط بها من كل جهة وكان في عدد ضخم[١٥] يتفوق بالنظام والعدة والمعنوية والقيادة وقد أغلقت أسوار بغداد وصعد الناس يتشوّفون من أعالي السطوح والمنابر وثار الغبار من جهة بعقوبا ولاحت من تحته عساكر المغول وقد طبقّت وجه الأرض وأمر هولاكو بحفر خندق وبناء سور من ترابه يطوق المدينة نصبت عليه المناجيق وآلات الحصار والنفط وأهل بغداد يرقبون ذلك من أسوارهم وقد نصبوا عليها مناجيقهم الا أنها لم تصح ولم تنفع لنقص استعداداتهم وعدم تهيئهم للقتال وترميمهم الأسوار • ولعدم توفر الحجارة اللازمة للمناجيق في أطراق بغداد صار المغول يأتون بها من جبل حمـــرين وجلولاء ويقطعون النخيل قطعاً ويستعملونها في الرمي • وأمر هولاكو بأقامة جسر في أعلى بغداد وآخر في أسفلها ووقف القائد بوقاتيمور بعشرة آلاف من جنوده على طريق المدائن والبصرة ليمنع كل من يحاول الهرب بواسطة السفن • وقد بدأت الحرب في أواخر المحرم من سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م وكان هولاكو يتخذ قاعدته مقابل برج العجمي الواقع في الطرف الأيسر من أسوار المدينة وقد ركزت المناجيق عليه لضعفه وقصره والقيت بواسطة السهام على المدينة منشورات تعلن ان العلماء والسادة والمشايخ وكل من لا يقاتل آمن على نفسه وحريمـه اذا وضع السلاح • ولما اشتدت وطأة الحرب حاول الدويدار الصغير الهرب عن طريق النهر ولكنه عندما اجتاز قرية العقاب الى الجنوب من بغداد القى عليه جنود المغول حجارة المنجنيق ورموه بالسهام والنفط فأهلكوا من في

---

(١٥) يقدر ابن كثير عدد أفراد جيش هولاكو بمائتي الف محارب ، البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص ٢٠٠ •

سفنه واضطروه على العودة الى المدينة وفي أواخر المحرم أفلح المغول في الاستيلاء على برج العجمي وأخذوا ينتشرون منه الى بقية الاسوار يطهرونها من أعدائهم .

وخلال الحصار جرت مفاوضات بين الخليفة وهولاكو بعد ان اتضح التفوق المغولي وأخذ اليأس يدبّ في نفوس أهل بغداد وحكامهم فأرسل الوزير والجاثليق فلم ينفعوا شيئا ثم أرسل الوزير وصاحب الديوان وعدد من أعيان بغداد ولكن هولاكو أعادهم . وفي التاسع والعشرين من المحرم خرج الابن الثاني للخليفة أبو الفضل عبدالرحمن يصحبه صاحب الديوان وعدد من الاعيان ومعهم أموال كثيرة فلم تقبل منهم . وفي آخر المحرم خرج الأبن الأكبر للخليفة ومعه الوزير وجماعة من المقرّبين فلم يحققوا نفعاً وأرسل عامة بغداد شرف الدين المراغي وشهاب الدين الزنكاني ليأخذ لهم الأمان وفي غرّة صفر خرج سليمان شاه والدويدار الصغير فأعيدوا الى المدينة ليخرجا اتباعهما وقد خرج معهم عدد كبير من جند بغداد ولكن المغول قسموهم الوفاً ومائت وعشرات وقتلوهم وفي الثاني من صفر قتل الدويدار وجيء بسليمان شاه وقتل مع كافة اتباعه وقتل الأمير تاج الدين بن الدويدار الكبير وأرسلت رؤوس الثلاثة على يد الملك الصالح بن بدرالدين لؤلؤ الى الموصل . ولما رأى الخليفة ان لا بدّ من الخروج استأذن هولاكو بالحضور بين يديه فأذن له بذلك فخرج ومعه أولاده وأهله فصدر الأمر بأن تقام لهم الخيام ببوابة كلواذى في معسكر كتبوغا نويان وعهد بحراستهم الى عدد من المغول ثم دخل هولاكو بغداد ليشاهد دار الخليفة وولج الغرفة التي كانت معدة لجلوس الخليفة عندما كان يريد القراءة وأمر باحضار المستعصم بالله فحضر مع نفر من الأعيان والعلماء وقدّم جملة كبيرة من الجواهر والدرر والحلي وأواني الفضّة والثياب النفيسة وغيرها فخاطبه هولاكو خطاباً شديداً وعنفه على عدم استخدامه كنوزه في تهيأة جيش يمنع عنه عدوه[١٦] . فأجابه الخليفة ان كل ذلك كان بتقدير الله فرد عليه هولاكو بأن ما سيجري

---

(١٦) نصير الدين الطوسي ، استيلاء المغول على بغداد ، ص ٢١ ؛ ابن العبرى ، ص ٢٧١ .

عليك سيكون بتقديره . ويقول رشيدالدين ان هولاكو أمر الخليفة باخراج الدفائن فاعترف بوجود حوض مملوء بالذهب في ساحة القصر ظهر انه مليء بسبائك تزن الواحدة مائة مثقال[١٧] ثم ان هولاكو أمر بأن تفرز جميع النساء اللواتي باشرهن الخليفة وابناءه فعزلن عن غيرهن فكنّ سبعمائة امرأة اخرجن ومعهن الف وثلثمائة وصيف وخادمة ثم وضع السيف في أهل بغداد في الخامس من صفر سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م مدة لم تقل عن سبعة أيام[١٨] لم يفرّق فيها بين الرجال والنساء والاطفال حتى لم يبق من أهل البلد ومن التجأ اليهم من أهل السواد الا القليل الا النصارى فقد عيّن لهم شحان يحرسون بيوتهم والتجأ اليهم خلق كثير من المسلمين فسلموا وسلم كذلك جماعة من التجار ممن كانوا يعرفون أمراء المغول حصلوا منهم على أوامر بعدم التعرض لهم وعيّن لهم من يحرس بيوتهم والتجأ اليهم جماعة من جيرانهم فسلموا وكذلك دار الوزير ابن العلقمي ودار صاحب الديوان ابن الدامغاني ودار صاحب الباب ابن الدوامي وقد سلم فيها خلق كثير والقيت النار في معظم البلد ومنها جامع الخليفة ومشهد موسى الكاظم ومراقد الخلفاء وكانت القتلى في الأسواق والدروب كالتلول وقعت عليهم الأمطار وداستهم الخيول فتغيرت صورهم . وقد اختلفت الروايات في كيفية قتل الخليفة المستعصم بالله فيقول صاحب الكتاب الموسوم بالحوادث الجامعة ان هولاكو أمر بقتله(فقتل يوم الأربعاء رابع عشر من صفر ولم يهرق دمه بل جعل في غرارة ورفس حتى مات)[١٩] . وقال أبو الفداء انهم ، أي المغول ، قتلوه (ولم يقع الاطلاع على كيفية قتله فقيل خنق وقيل وضع في عدل ورفسوه حتى مات وقيل غرّق في دجلة والله أعلم بحقيقة ذلك)[٢٠].

---

(١٧) جامع التواريخ ، ج٢ قسم ١ (الترجمة) ص ٢٩٢ ؛ النص الفارسي ، ج٢ ، ص ٧١٣ .

(١٨) يقدرها ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ص ٢٧٢ بسبعة ايام ويقدرها ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص ٣٢٦ باربعين يوما .

(١٩) ص ٣٢٧ .

(٢٠) المختصر في أخبار البشر ، ج٢ ص ٩٩ .

ويذكر رشيد الدين قتل الخليفة بدون توضيح عن كيفيته[٢١] .

وقد ذكر المؤرخ الأرمني قيراقوز وهو معاصر (ت ٦٧١هـ/١٢٧٢م) ان هولاكو قتل الخليفة بيده[٢٢] . وكان في قوات هولاكو التي اشتركت في فتح بغداد كتيبة من الجورجيين وقد ورد طبقاً للتاريخ الجورجي الرسمي ان أحد قواد هولاكو المسمى ايلكانويان قتل الخليفة بالسيف[٢٣] . ويذكر السائح البندقي ماركو بولو الذي مرّ ببغداد بعد انقضاء الدولة الأيلخانية بقليل، قصة كانت ذائعة في عهده خلاصتها ان هولاكو بعد ان قبض على الخليفة اكتشف بغرابة شديدة ان للخليفة برجاً مليئاً بالذهب،فاستدعاه بين يديه وأنّبه لجشعه وبخله اللذين منعاه من استخدام كنوزه في تكوين جيش يدافع به عن عاصمته التي كانت مهددة منذ مدة طويلة ثم أمر بحبسه في ذلك البرج بدون طعام حيث مات هناك بين كنوزه[٢٤] .

والغريب ان عبدالله بن فضل‌الله الشيرازي أشار الى اختلاف الروايات في كيفية قتل الخليفة والى ان أحدها ذكر ان الخليفة منع عن الطعام وعندما طلب شيئاً من الموكلين به من الحراس وصل الخبر الى هولاكو فأمر ان يقدّم اليه طبق ملىء بالذهب فقال الخليفة وكيف يمكنني أكل الذهب فصدر الأمر عن طريق المترجم ان يقال له اذا كنت تعرف ان الذهب لا

---

(٢١) جامع التواريخ ، ج٢ ، قسم ١ (الترجمة) ص ٢٩٤ ؛ النص الفارسي ، ج٢ ، ص ٧١٤ .

(٢٢) كما ورد في :

John Andrew Boyle, "the Death of the Last Abbasid Caliph," Journal of Semitic Studies, Vol 6, No 2, P. 199.

(٢٣)

كما ورد في :

Histoire de la Georgia, I, (1849), P. 550.

كما ورد في : J.A. Boyle, Ibid., P. 149

(٢٤)

The Travels of Marco Polo, (Edited by Manuel Komroff), P. 31.

يؤكل فلماذا لم تفرّقه على عسكرك وأعوانك لتفدي بـه نفسـك والعـدد الكبير من معاونيك فتحفظ بذلك ملكك . فلم يحر الخليفة جواباً[٢٥] .

وقد اختلف المؤرخون أيضاً في عدد من قتل في واقعة بغداد فذكـر صاحب الحوادث الجامعة انهم زادوا على ثمانمائة الف نفس عدا من القي في الوحول من الاطفال ومن هلك في القنى والآبار وسراديب الموتى جوعـا وخوفاً[٢٦] .وقدرهم الذهبي بألف ألف وثمانمائة الف وزيادة[٢٧] .وأشار ابن كثير الى اختلاف الروايات في تقديرهم حتى قال البعض انهم بلغوا ثمانمائة ألف وقال آخرون ألف الف وثمانمائة ألف وقـال غيرهـم الف الف نسمة[٢٨] . ولكن المبالغة واضحة في هذه الارقام فأن أسوار بغداد كانت تضم الرقعة الواقعة بين باب المعظم الحالية والباب الشرقي من جهة وتمتد بعيدا عن النهر حتى مبنى متحف الأسلحة الحالي وهي مساحة صغيرة نسبيا لا يمكن ان تضم ملايين من السكان خصوصا وانها كانت تشتمل على الكثير من قصور الخليفة ودور السكنى والعبادة وغيرها ومن المؤكد ان كثيراً من أهل المدينة سلموا من القتل يدل على هذا عودة الازدهار والنشاط الـى المدينة بعد فترة قصيرة يضاف الى ذلك ان بغداد لم تكن في أواخر الدولة العباسية مدينة مزدحمة بالسكان وان الخراب كان يدب فيها وفي العراق منذ مدة طويلة قبل الاحتلال المغولي[٢٩] . أما السكان الذين لجأوا اليها فمن المستبعد انهم ظلوا فيها كلهم بعد أن أحسوا باقتراب الجنود المغولية منها وقد مرّ بنا ان هولاكو وضع مستحفظين لمنع الهاربين من المدينة ولا بد ان يكون عدد منهم من سكانها ، ولعل تقدير أحد الكتاب المحدثين بأن عـدد القتلى بلغ تسعين الفاً تقدير قريب من الصحة[٣٠] . وقد أمر هولاكو بعد

---

(٢٥) تاريخ وصاف ، ج١ ، ص ٢٩ ـ ٣٠ .
(٢٦) الحوادث الجامعة ، ص ٣٣٤ .
(٢٧) دول الاسلام ، ج٢ ، ص ١٢١ .
(٢٨) البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص ٢٠٢ .
(٢٩) انظر الفصل الثالث عشر ص ١٥٥ ـ ١٥٨ .
(٣٠) Grousset, L'Empire de Steppes, P. 299.

اعلان الأمان بتعمير بغداد ودفن أجساد الموتى من البشر والحيوان وكانت مطروحة في الطرقات[٣١] حتى تتنت وافسدت الهواء وكثر الذباب وملأ الفضاء وأخذ يسقط على المطعومات فيفسدها وصار الناس يكثرون من شم البصل اتقاء الرائحة النتنة . ورحل هولاكو عن المدينة بعد ان فوّض أمرها الى جماعة لأعادة تنظيمها وترك فيها القائدين (كوكا الكا) و (قره بوغا) مع ثلاثة آلاف محارب ، واتجه الى همدان وأمر ان تبنى عمارة عالية محكمة على ساحل بحيرة أورمية لخزن الكنوز التي غنمها في فتوحاته الأخيرة وأرسل جزءً من تلك الاموال الى القان مع بشائر الظفر[٣٢] .

وقد خضعت بقية المدن والمناطق العراقية بدون مقاومة مهمة عدا واسط وأربيل ولكن الموصل ثارت في وقت لاحق . فقد كان أهل الحلة والكوفة قد نزحوا بأولادهم وأموالهم خلال حصار بغداد ، الى البطائح وحضر أكابرهم الى هولاكو وسألوه حقن دماءهم فأجابهم الى ذلك وعيّن لهم شحنة فعادوا الى بلادهم وأرسلوا الى من في البطائح من الناس يعرفونهم بذلك فخرجوا وحملوا الى هولاكو مبلغا عظيما من المال فتصدق عليهم بنفوسهم . ثم ان القائد بوقاتيمور سار لامتحان ولاءهم وولاء أهل الكوفة بعد سقوط بغداد ، فاستقبله أهل الحلة استقبالاً حسناً وبعدما توثق منهم غادرهم في العاشر من صفر من نفس السنة نحو واسط حيث وصلها في السابع عشر من الشهر المذكور فقاومه أهلها وحاربوه ولكنه انتصر عليهم وقتل منهم حوالي الأربعين ألف ثم غادرهم نحو البصرة فأعلنت المدينة خضوعها مع منطقتها وكذلك فعلت تستر ومنطقتها خوزستان[٣٣] . أما الموصل فان أميرها بدر الدين لؤلؤ كان قد دخل في طاعة المغول وأمدّ هولاكو بالسلاح ولكنه ظل يراسل الخليفة المستعصم بالله سراً ويحذره منه وبعد واقعة

---

(٣١) الطوسي ، المصدر المار ذكره ، ص ٢٦ .
(٣٢) جامع التواريخ ، ج٢ ، قسم ١ ، ص ٣٠٠ ؛ النص الفارسي ، ج ٢ ، ص ٧١٦ – ٧١٧ .
(٣٣) ن. م. ص ٢٩٥ – ٢٩٦ ؛ النص الفارسي ، ج٢ ، ص ٧١٥ .

بغداد حضر عنده هولاكو فأحسن استقباله لكبر سنه وضعفه وأقره على أمارة الموصل ولكنه لما عاد اليها مرض أياما ومات فتولى الحكم بعده ولده الملك الصالح اسماعيل ولكن هذا أعلن الثورة على المغول سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م فأرسل اليه هولاكو قائده (سنداغو) حيث وصل المدينة وضرب حولها الحصار ونصب على أسوارها المناجيق مدة اثنى عشر شهراً وأبلى أهل الموصل وأميرهم في القتال بلاءً حسناً ونصبوا مقابل مناجيق المغول ثلاثين منجنيقاً ترميهم ليل نهار فلما رأى القائد المغولي صعوبة فتح المدينة أمسك عن القتال حتى فنيت ميرتها وتعذرت عليها الأقوات وأكل أهلها الميتة ولحم الكلاب فحينئذٍ طلب أميرها الأمان فأجابه القائد المغولي الى ذلك ولكنه لما خرج اليه قبض عليه وعلى ولده ثم قتل ولده المسمى علاءالملك وأرسل بالملك الصالح وأخيه الملك الكامل الى هولاكو فأمر بالاول منهما وكان غضبه عليه شديداً فسلخ وجهه وهو حي ثم قتل أخوه وكان طفلا[٣٤] .

ودخل الجيش المغولي المدينة في رمضان سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م فقتل غالب أهلها وأخذ الكثير منهم أسرى حتى خوت المدينة وكأن لم يبق فيها أحد ولما انتهت استباحتها ورحلت الجنود المغولية عنها عاد اليها من كان مختبئاً من أهلها في الجبال والمغارات[٣٥] . و في الوقت الذى بدأ فيه هولاكو بالزحف على بغداد أرسل قائده (أرقيو نويان) لافتتاح قلعة أربيل ولكن أهلها دافعوا عنها ببسالة فطلب القائد المغولي النجدة والمشورة من بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل فأمده بطائفة من جنوده وأشار عليه بالاستمرار في الحصار حتى الصيف حيث يلجأ سكان المدينة الى الجبال هربا من الحر فعمل بذلك وأخيراً سلمها القائد المغولي الى بدالدين لؤلؤ فهدم أسوارها واستولى عليها[٣٦] .

---

(٣٤) الحوادث الجامعة ، ص ٣٤٧ .

(٣٥) جامع التواريخ ، ج٢ ، قسم ١ (الترجمة) ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠ ؛ النص الفارسي ، ج٢ ، ص ٧٣٠ ـ ٧٣١ .

(٣٦) ن. م. ص ٢٩١ ـ ٢٩٩ ؛ النص الفارسي ، ج٢ ، ص ٧١٦ .

وهكذا اخضعت غالبية المناطق التي تكون عراق اليوم وقتل عدد كبير من سكانها وخربت أجزاء منها ، وقتل أغلب أفراد العائلة العباسية الموجودين في بغداد باستثناء قليل استطاعوا الفرار والنجاة وكان أحد هؤلاء هو أبو القاسم أحمد بن الظاهر بأمرالله الذي صار الى عرب العراق واختلط بهم فلما ملك السلطان الظاهر بيبرس عرش مصر وفد عليه مع جماعة من مشايخ العرب في رجب عام ٦٥٩هـ/١٢٦٠م فركب السلطان للقائه ومعه الوزير وقاضي القضاة والشهود والمؤذنون وغيرهم فقرر نسبه وبويع بالخلافة وصار المستنصر بالله الثامن والثلاثين من خلفاء بني العباس غير انه لم يبق في الخلافة غير بضعة اشهر قام خلالها بتقليد السلطنة للملك الظاهر بيبرس • ثم ان السلطان المذكور عني بتجهيزه وأخذه معه الى دمشق وسيره منها في الواحد والعشرين من ذي القعدة من نفس السنة نحو بغداد • وحينما وصل مدينة الرحبة وافاه عندها الأميربريد بن علي بن حذيفة من آل فضل وأخوه الأخرس في اربعمائة فارس من العرب ثم سار الجميع الى عانه حيث لحق بهم الحاكم بأمرالله وهو أمير عباسي آخر سبق ان أعلن نفسه خليفة ثم عدل عن ذلك ، مع سبعمائة فارس من التركمان جهزه بها حاكم حلب ، وقد نزل والي المدينة وناظرها وسلماها الى المستنصر بالله ثم ان الخليفة سار الى الحديثة ففتحها له أهلها • فنزل بها ثم رحل منها قاصدا هيت • ولما اتصلت أخباره بقره بوغا قائد العسكر المغولي في العراق وعلي بهادر شحنة بغداد خرج الاول منهما بخمسة آلاف رجل وقصد الانبار وأعقبه علي بهادر بمن بقي من عساكر بغداد • وقد أغلق أهل هيت أبواب مدينتهم في وجه الخليفة فحاصرها وفتحها في التاسع والعشرين من ذي الحجة سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م ثم رحل عنها وبعث طائفة من عسكره بقيادة أسد الدين محمود بن الملك المفضل موسى فباتت تجاه الأنبار ليلة الاحد الثالث من محرم سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م فلما اقترب قره‌بوغا بطليعة جيشه أمر من معه من العسكر بالعبور اليها في المخائض والمراكب ليلا وعندما أسفر الصباح تهيأ (قره بوغا) للقتال بينما رتب الخليفة جيشه وحمل بنفسه وحمل من معه فانكسر علي بهادر ووقع

معظم جيشه في الفرات ثم خرج كمين من التتار فلما رآه التركمان والعرب – وهم جيش الخليفة – هربوا وتفرقوا وأحاط الكمين بمن بقي من عسكر الخليفة ومن معه فثبت وصدق ومن معه القتال ولكنهم هزموا ولم يعثر للخليفة على أثر والارجح أنه قتل في المعركة • ولكن الامير العباسي الآخر ، الحاكم بأمر الله ، نجا مع عدد من أمراء العرب[٣٧] • وكانت هذه الحادثة آخر محاولة قام بها أمير عبّاسي لأعادة الخلافة العباسية الى بغداد •

وهنا نستنتج بناء على الروايات التي وصلت الينا ان المقاومة الجدية لغزو المغول للعراق لم تتوفر الا في مدن ومواضع معينة رئيسة هي الجانب الشرقي من بغداد ومدن أربيل وواسط ثم الموصل بعد ثورتها • ومع صعوبة تقدير الخسائر المادّية – عدا خسائر الأرواح – التي سببها هـذا الغزو للعراق فأن المصادر الأولية المطلعة تساعدنا على القاء ضوء غير قليل على سعتها وطبيعتها • ففيما يتعلق ببغداد يقول صاحب الحوادث الجامعة : (أحرق معظم البلد وجامع الخليفة ، واستولى الخراب على البلد)[٣٨] • ويقول رشيدالدين فضل‌الله : (وقد احترق أكثر الأماكن المقدسة في المدينة مثل جامع الخليفة ومشهد موسى الجواد عليه الرحمة وقبور الخلفاء)[٣٩]• ومن الجهة الأخرى كانت أهم محلات المدينة الواقعة داخل السور في الجانب الشرقي هي سوق الثلاثاء ومحلة المأمونية ومحلة باب الأزج ومحلة قراح ابن رزين والمحلة المقتدية ومحلة المختارة ومحلة قراح ظفر ومحلة قراح القاضي وقراح أبي الشحم ومحلة القبيبات ومحلة البصليّة وقطيعة العجم والظفرية وشارع دار الرقيق ونهر المعلى والجعفرية والقريـة والحلبة • ويقدم صاحب كتاب مراصد الاطلاع وقد عاش بعد الواقعة ، وصفاً عاماً لمحلات المدينة ومواقعها ويبين فيما اذا كانت موجودة أو في حالة

---

(٣٧) قطب الدين اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج١ ، ص ٩٤ – ١٢٧ •

(٣٨) انظر ص ٥٤ •

(٣٩) جامع التواريخ ، ج٢ ، قسم ١ (الترجمة) ص ٢٩٢ – ٢٩٣ ؛ النص الفارسي ج٢ ، ص ٧١٣ •

خراب في عهده لذلك فأن ما يقدمه من المعلومات في هـذا الصدد يلقي ضوءً كبير الأهمية على طبيعة ما خرب في هذه المنطقة • فهو يقول عن سوق الثلاثاء أنه (سوق بغداد من أعمر أسواقها وهو سوق البزازين)[٤٠] • ويقول عن محلة المأمونية أنها (محلة كبيرة طويلة عريضة ببغداد بين نهر المعلى وباب الأزج)[٤١] • وعن باب الأزج أنها (محلة كبيرة ذات أسواق كثيرة ومحال في شرقي بغداد)[٤٢] • وعن قراح ابن رزين (وأهل بغداد يسمون البستان قراحا • وفي بغداد عدة محال تسمى بقراح مضاف الى رجل يعرف باسمه) ثم يقول عن قراح ابن رزين أنه (أقرب المحال في وسط البلد)[٤٣] • وذكر ان محلة المقتدية في الجانب الشرقي وان محلة المختارة (بين باب ابرز وقراح القاضي ومحلة المقتدية)[٤٤] وعـن قراح ظفر أنه (ظاهر محلة الظفرية)[٤٥] • وعن محلّة قراح القاضي : (اذا خرّجت من قراح رزين على يمينك درب واسع فيه درب قراح القاضي على يسارك ثم يمتد فيه الى قراح أبي الشحم ، وفيه دروب عن يمينك وشمالك)[٤٦]• وعن محلة القبيبات انها (محلة ببغداد وراء قراح أبي الشحم)[٤٧] • وقد وردت محلة البصليّة تحت اسم البصلة وورد عنهـا انها (محلة في طرف بغداد في الجانب الشرقي متصلة بباب كلواذى)[٤٨] • وعن قطيعة العجم انها (بالجانب الشرقي في أسفل البلد بين باب الحـلبة وباب الأزج : محلة عظيمة كبيرة فيها أسواق كأنها مدينة برأسهـا)[٤٩] وعن الظفرية أنها (محلة ببغداد متصلة بالحريم الطاهري باقية الى الآن

---

(٤٠) مراصد الاطلاع ، ج١ ، (تحقيق علي البجاوي) ص ٨٩٨ •
(٤١) ن• م• ج٣ ، ص١٢٢٢ •
(٤٢) ن• م• ج١ ، ص ٦٥ •
(٤٣) ن• م• ج٣ ، ص ١٠٧١ •
(٤٤) ن• م• ص ١٢٣٩ •
(٤٥) ن• م• ص ١٠٧١
(٤٦) ن• م• ص١٠٦٦ •
(٤٧) ن• م• ص ١٠٦٦ •
(٤٨) ن• م• ج١ ، ص ٢٠٢ •
(٤٩) ن• م• ج٣ ، ص ١١١٠ •

وبها سوق)[٥٠] وعن نهر المعلى أنه محلة وأنه (من عقد الجديد الى عقدي المصطنع في الشارع الأعظم من الريحانيين وباب النوبي الى باب جامع القصر الى العقدين وفيه السوق والدكاكين)[٥١] • وعن الجعفرية أنها (محلة كبيرة مشهورة في الجانب الشرقي من بغداد)[٥٢] • وعن القرية بالتصغير ، انها (محلتان ببغداد احداهما في حريم دار الخلافة وهي كبيرة فيها محال وسوق والأخرى بالجانب الغربي)[٥٣] • وعن الحلبة أنها (محلة كبيرة ببغداد في شرقيها قرب باب الأزج)[٥٤] • وقد أورد صاحب المراصد هذه المحلات دون أن يشير الى خرابها • يضاف الى ذلك أنه أورد عدداً من الدور المهمة في بغداد مثل ما يأتي : (قصر ميدان خالص) وقال أنه بدار الخلافة ببغداد[٥٥] • ودار الريحاني وقال عنها انها (دار في دار الخلافة ••• استجدها المستنصر بالله خرب أكثر هذه الدار وبقي بستانها لا غرس فيه)[٥٦] • ودار سوق التمر حيث قال أنها (دار عظيمة من دار الخلافة مشرفة على مشرعة الأبريين)[٥٧] ودار الشجرة اذ ذكر انها : (دار بدار الخلافة ببغداد)[٥٨] والدار المربعة أنها (بدار الخلافة من عمارة المطيع)[٥٩] • يضاف الى ذلك ان الكتاب الموسوم بالحوادث الجامعة ، وهو معاصر ، يؤكد وجود دار الخلافة ودار الدويدار الكبير وجامع الخليفة وقد أحرق في الواقعة وأعيد اصلاحه بعدها والمدرسة النظامية وسوقها والمدرسة المستنصرية والمدرسة التتشية ومدرسة الأصحاب ومدارس وربط أخرى[٦٠] • وقد زار السائح المغربي ابن بطوطة المدينة سنة ٧٢٧هـ/

(٥٠) ن• م• ص ٧٧٣ •
(٥١) ن• م• ج٣ ، ص ١٤٠٦ •
(٥٢) ن• م• ج١ ، ص ٣٣٦ •
(٥٣) ن• م• ج٣ ، ص ١٤٠٦ •
(٥٤) ن• م• ج١ ، ص ٤١٧ •
(٥٥) ن• م• ج٣ ، ص ١١٠١ •
(٥٦) ن• م• ج٢ ، ص ٥٠٦ •
(٥٧) ن• م• •
(٥٨) ن• م• •
(٥٩) ن• م• ص ٥٠٨ •
(٦٠) الحوادث الجامعة ، ص ٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٣٧١ ، ٣٧٦ ، ٣٩٠ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦ •

١٣٢٦م فذكر أن فيها جسران يعبرهما الناس ليل نهـار رجـالاً ونساء والجانب الشرقي من المدينة حافل الأسواق عظيم الترتيب أعظم أسواقه يعرف بسوق الثلاثاء كل صناعة فيه على حدة وفي وسطه المدرسة النظامية وفي آخره المدرسة المستنصرية وان في هذا الجانب من المساجد التي تقام فيها الجمعة ثلاثة أحدها جامع الخليفة وهـو المتصل بقصور الخـلفاء ودورهم[٦١] . وقد وصف حمدالله المستوفي القزويني بغداد سنة ٧٤٠هـ/ ١٣٤٠م وقد عاش فيها فترة من الزمن فعدّ الكثير من المواقع المهمة فيها مثل المدرسة النظامية والمدرسة المستنصرية التي وصفها بكونها أجمل بناية في المدينة وأشار الى وجود قبور الخلفاء العباسيين في الجـانب الشرقي وغيرها من المواقع المهمة[٦٢] . وأخيراً وصف ابن فضل‌الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م بغداد فأشار الى وجود قصور الخـلافة والمدارس والأبنية العالية المطلة على دجلة ووجوه الخير من جوامع ومساجد ومدارس وخوانق وربط وبيمارستانات وغيرها[٦٣] .

ومن هذا كله يبدو ان عبارات التخريب التي أوردها المؤرخون عما جرى للمدينة أيام الفتح مبالغ فيها لان المعـالم الرئيسة للمدينة كقصور الخليفة والمدارس والأسواق وغالب المحلات بقيت دون ان يصيبها غـير تخريب محدود أمكن اصلاحه في وقت قصير ويحسن بنا اذا أردنا أن نرسم صورة صحيحة قريبة من الواقع عما أصاب المدينة في هذا المجال ان ندرس بأمعان ما كانت عليه المدينة قبل مجيء المغول فقد أشار السائح ابن جبير الذي مرّ بها عام ٥٨٠هـ/١١٨٤م الى تطرق الخراب اليها[٦٤] . ووصف ياقوت

---

(٦١) تحفة النظار ، ج١ (مطبعة مصطفى محمد علي ، ١٩٣٨) ، ص ١٤٠ ـ ١٤٢ .

(٦٢) نزهة القلوب (الترجمة الانكليزية للقسـم الجغرافي) ص ٤١ ـ ٤٢ .

(٦٣) ابن فضل الله العمري الكرماني الدمشقي ، مسالك الابصار ، كما ورد في القلقشندي ، صبح الاعشـى في قـلائد الانشـا ، ج٤ ، ص ٣٣١ ـ ٣٣٢ .

(٦٤) رحلة ابن جبير ، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ .

الحموي محلاتها وأهم معالمها وقد كتب سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م أي قبل سقوطها بواحد وثلاثين سنة وبيّنَ سعة ما كان من الخراب في الجانب الغربي منها على الأخص[٦٥] .

وقد أمر هولاكو بعد انتهاء عمليات الاستباحة بأصلاح ما خرب من المدينة وترميم أسوافها واعادة أعمال أهلها الى ما كانت عليه سابقا ورفع القتلى من الناس والحيوان[٦٦] .

أما المدن العراقية الاخرى فيبدو ان عمليات الفتح المغولي لها لم تؤد الى تخريبات خطيرة باستثناء ما جرى لاربيل والموصل وواسط لأنها قاومت الفتح أو ثارت على الفاتحين . فأربيل مثلاً يذكرها صاحب مراصد الاطلاع بأنها مدينة كبيرة ذات قلعة حصينة ولا يشير الى خرابها[٦٧] . ولكن أبا الفداء يشير الى خراب أكثرها[٦٨] . ويصف صاحب مراصد الاطلاع مدينة الموصل بالكبر والسعة وكثرة النفوس ولا يشير الى خرابها[٦٩] . وقد مرّ ابن بطوطة بمدينة واسط سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م فوصفها بالحسن وكثرة البساتين[٧٠] . والحق ان علينا ان نستعرض أحوال العراق العمرانية قبل مجيء المغول أيضا لندرك تأثيرهم في هذا الباب فالخراب كان واسعاً في العراق قبلهم[٧١] فلما فتحوا هذه البلاد اوقعوا تخريبات في عدد من مدنها يبدو أنها غير عميقة ولكن ادارتها لم تكن مستنيرة فزاد خراب البلاد عما كان عليه في السابق خصوصا بنتيجة الأهمال وعدم الاستقرار .

---

(٦٥) معجم البلدان ، ج١ ، ص ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ج٣ ص ٣٦١ ، ٣٠٧ ، ج٤ ص ٣٧٧ ، ٤٣٤ ، ٤٤٦ ـ ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ج٥ ص ٧١ .

(٦٦) الحوادث الجامعة ، ص ٣٣٣ ؛ جامع التواريخ ، ج٢ ، قسم ١ (الترجمة) ص ٥٩٥ ؛ انظر ايضا النص الفارسي ، ج٢ ص ٧١٣ .

(٦٧) ج١ ، ص٥١ .

(٦٨) انظر الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب .

(٦٩) ج٣ ، ص ١٣٣٣ .

(٧٠) تحفة النظار ، ج١ ، ص ١١٤ ، انظر ايضا ما ذكره القزويني ، آثار البلاد ، ص ٣٢٠ .

(٧١) انظر احوال العراق الاجتماعية الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب ١٥٥ ـ ١٥٨ .

الباب الثاني
الادارة الايلخانية في العراق

الفصل الرابع
نظم الادارة ووظائفها

كانت الادارة العباسية قبيل الفتح المغولي تمثل تطورا أملته الظروف التاريخية لأدارة امبراطورية عظيمة تحولت الى دولة صغيرة تشتمل على العراق العربي وأربيل وخوزستان ويرأسها حاكم هو في نفس الوقت خليفة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها لمركزه صفة شبه مقدسة تحمل معها احترام المسلمين وعطفهم ولو بصورة شكلية نظرية • وكانت بغداد في أول أمرها عاصمة العالم الاسلامي وقلبه النابض فأصبحت في آخر أمرها قبل سقوطها بأيدي هولاكو عاصمة دولة صغيرة محدودة المساحة ولكنها ظلت مع ذلك رمزا للوحدة الاسلامية • وكانت التنظيمات الادارية لدولة الخليفة في عهدها الاخير معقّدة تشتمل على دوائر كثيرة العدد تلائم ماضي الدولة أكثر من حاضرها • وكان بلاط الخليفة يقوم ـ بسعته وتعدد أقسامه والوظائف القائمة فيه وتعقد مراسيمه ـ على اشباع مركز الخليفة الأسمي العظيم أكثر من خدمة الواقع المحدود المتواضع لدولة صغيرة ضعيفة الامكانيات • ولذلك فأن تحول العراق الى مجرد ولاية من ولايات الامبراطورية الأيلخانية المترامية الأطراف استلزم اعادة النظر بطبيعة ادارته ووظائفه واستوجب تقليصها وتبسيطها وزيادة اللامركزية في ادارتها لأن ادارة امبراطورية واسعة كبيرة على الأساليب المركزية أمر مستحيل في عهد كانت أسباب المواصلات فيه بدائية ومسألة المحافظة على الأمن أمر يستوجب عناية مستمرة من الحكومة خصوصا ورأس الامبراطورية بعيد عنها في أذربيجان لذلك فأن هولاكو ترك حامية من الجنود المغولية في العراق منذ أول عهده

بالفتح وكان عدد من أمراء العائلة المالكة الأيلخانية يتخذون مقرهم العسكري في العراق ومعهم قوات مغولية غير قليلة[1] . وكانت عناية الأيلخانات متجهة منذ البداية الى التثبت من ولاء صاحب ديوان العراق والى تعيين أحد المغول بمنصب الشحنة أي الحاكم العسكري .

قرر هولاكو أسس ادارة العراق في يوم قتل الخليفة المستعصم بالله فعيّن علي بهادر الخراساني شحنة ومؤيدالدين ابن العلمقي وزير الخليفة وزيرا وفخرالدين بن الدامغاني صاحب ديوان الخليفة صاحب الديوان[2] . وحضر نجم‌الدين أحمد بن عمران وهو من أهل باجسرا بين يدي السلطان فعينه صدر الأعمال الشرقية وأقضى القضاة عبدالمنعم البندنيجي فأقرّه على القضاء وتاج‌الدين علي بن الدوامي حاجب الباب في عهد الخليفة فعيّنه صدر الأعمال الفراتية[3] . وكان جميع هؤلاء باستثناء الشحنة من أهل العراق والعارفين بشؤونه والمشتغلين بادارته في زمن الخليفة الأخير وقد فوض اليهم هولاكو أمر تنظيم ادارة العراق فاجتمعوا وقرروا أحواله ونظموها وعينوا حكامه وكبار موظفيه وقد راعى هؤلاء ظروف البلاد الجديدة فاحتفظوا بالوظائف المهمة الضرورية وألغوا وظائف أخرى أو قلصوها وعينوا في بغداد كاتب سلة ونائب شرطة وخازن ديوان وصدر وقوف وهي وظائف عباسية قديمة وقسموا البلاد الى خمسة مناطق ادارية وضعوا على رأس كل منها موظفا باسم صدر ثمّ عينوا النواب أي الموظفين ، والنّظار[4] .

وكان من الطبيعي ان يؤدي الفتح المغولي الوثني الى زوال منصب الخليفة وزوال وظائف البلاط القائمة على خدمته وخدمة منصبه الجليل . وقد كانت بغداد مركزا لدواوين عديدة تشرف على ادارة شؤون العراق العامة كديوان الزمام وديوان الانشاء وديوان الجوالي وديوان عرض

(١) الحوادث الجامعة ، ص ٤٨٦ .
(٢) جامع التواريخ ، ج٢ ، ص٧١٤ .
(٣) الحوادث الجامعة ، ص٣٣٢ .
(٤) ن٠م٠ ص٣٣٢ ـ ٣٣٣ .

الجيش وديوان التركات وديوان الأبنية وديوان الحسبة وديوان العقار وديوان المقاطعات يرأس كلا منها موظف كبير باسم صدر أو ناظر ومعه مراقب أو مفتش أو مساعد باسم مشرف • وكان في كل منطقة ادارية من مناطق البلاد ديوان يقوم على ادارتها يرأسه صدر او ناظر ومعه مشرف ويبدو أن بعضها كان له بالأضافة الى ذلك ديوان خاص في بغداد[٥] • وفي العهد الأيلخاني لم نعد نسمع عن تلك الدواوين المركزية شيئا ، ويبدو أنها ألغيت واستعيض عنها بديوان واحد واسع هو ديوان الزمام الذي كان ديوان الدواوين في أواخر العهد العباسي وكان يشرف على شؤون الدولة المالية ، وكان صدره ويسمى أحيانا صاحب الديوان أقرب الصدور الى الخليفة[٦] • وربما تطورت الأمور بشكل تدريجي فألغيت أكثر الدواوين العباسية بعد سقوط بغداد واستبقي ديوان الوزير الذي كان يسمى الديوان وبقي كذلك ديوان الزمام لوجود صدره المسمى صاحب الديوان ثم ان الديوانين أدمجا في ديوان واحد صار رئيسه يسمى صاحب الديوان • وربما حصل هذا التطور بعد وفاة مؤيدالدين ابن العلقمي وابنه عزالدين اللذين أشغلا منصب الوزارة في العراق خلال السنة الاولى من احتلال الايلخانيين للعراق ولم يكن لمنصبهما أية أهمية حقيقية • وفي ٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م ولى هولاكو علاءالدين عطا ملك الجويني صدرية هذا الديوان فصار صاحب الديوان الحاكم الاعلى في العراق • وقد خلعت شخصية الوالي الجديد يسانده أخوه شمس الدين الجويني صاحب ديوان الممالك أي رئيس وزراء الامبراطورية الايلخانية البهاء والقوة على هذه الوظيفة خصوصا وأنها كانت تشرف على ولاية ممتازة من ولايات الأيلخان ، وقد استمر علاءالدين في منصبه حوالي واحد وعشرين سنة وبضعة اشهر ،

---

(٥) ن٠م٠ ص٦٣ ، ١٤٥ ، ٢٤٤ ... الخ ، انظر ايضا مقدمة الدكتور مصطفى جواد لكتاب تاج الدين علي المعروف بابن الساعي ، الجامع المختصر •

(٦) انظر ظهيرالدين الكازروني ، مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية ، ص١٩ •

كان في أكثرها الحاكم القوي الشـــديد للعراق العربي • وكانت سلطات صاحب الديوان تتمثل فيما ذكره القلقشندي عن مسالك الأبصار في شرحه لمنصب الوزير وهي ان له (أمر متحصلات البلاد ودخلها وخرجها واليه يرجع أمر كلّ ذي قلم ومنصب شرعي ، ولـه التصرّف المطلق في الولاية والعزل والعطاء والمنع لا يشاور السلطان الا في جلّ الأمور)[٧] • وأصبح صاحب الديوان هـو الـذي يعيّن كبار الموظفين كقاضي القضاة والصدور والنظار وغيرهم وله عليهم وعلى الرعيّة حق الحياة والموت[٨] • كما أنه أخذ يقوم بواجبات أمير الحاج وهي وظيفة عباسية مهمة تقوم على النظر في تهيئة الناس للحج سنويا بمفاوضة الأعراب القائمين على الطريق وأخذ الرهائن منهم واتخاذ ما يلزم لأيصـال الحجاج سـالمين الى مكة واعـادتهم منها[٩] • ولم نسمع طيلة حكم الصـاحب علاءالدين بوجـود مشرف عليه ولكن الفترة التي أعقبت وفاته في سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م شهدت سلسلة من أصحاب الديوان لا يستمر الواحد منهم في الحكم الا مدة قصيرة ولا يبدي في ادارته ما أثبته علاءالدين من المقـــدرة • وبينما كنا نرى ان السلطان الايلخاني يعيّن صاحب ديوان بغداد أصبحنا نسمع ان أحد أمراء المغول أو صاحب ديوان الممالك هو الذي يعينه أو ينيبه عنه • فقد عيّن أمير الأمراء أي القائد العام للجيوش الايلخانية وهو الأمير بوقا أخاه أروق سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م حاكما على العراق وديار بكر فعيّن هذا بدرالدين خاص صاحب ديوان بغداد[١٠] • وفي ٦٨٨هـ/١٢٨٩م عيّن سعد الدولة اليهودي صاحب ديوان الممالك أخاه فخرالدولة صاحب ديوان العراق[١١] • وفي ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م رتب جمال‌الدين الدســـتجرداني صاحب ديوان الممالك أخـاه عمادالدين نائبا عنه في بغداد وكان قليل المعرفة بأحوال العراق فأعتمد على

---

(٧) صبح الاعشى ، ج٣ ، ص٤٢٤ ؛ انظر : الحوادث الجامعة ص٣٤٦ •
(٨) الحوادث الجامعة ، ص٣٤٣ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٧٢ •
(٩) ن•م• ص٣٥٨ •
(١٠) ن•م• ص٤٣٧ •
(١١) ن• م• ص٤٥٨ •

عزالدين محمد بن شمام في ذلك فكان هو الحاكم وعمادالدين صدره[١٢] . وبينما لم نكن نسمع بوجود مشرف على صاحب الديوان نسمع في ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م ان علي بدرالدين خاص عيّن بمنصب صاحب ديوان بغداد ورتب سعدالدين مظفر القزويني مشرفا عليه[١٣] . وبينما لم يردنا سابقا ان حكم العراق يعقد بالضمان الا مرة واحدة نسمع في ٦٩٨هـ/١٢٩٨م ان ضمانه عقد على الملك امامالدين يحيى القزويني البكري وأنه استقل بالحكم فيه[١٤] .

ونجد الى جانب وظيفة صاحب الديوان من الوظائف الجليلة ، وظيفة (كاتب السلة) وهي عباسية استمرت بعد الفتح المغولي يبدو ان صاحبها كان يشغل رئاسة كتاب ديوان الوزير في أواخر أيام الدولة العباسية وكان يسمى كاتب الديوان[١٥] . وربما كان صاحبها يقوم بواجبات صدر ديوان الانشاء أي كاتبه لاننا لا نسمع بوجود وظيفتي كاتب السلة وكاتب الانشاء سوية في العهد العباسي الاخير[١٦] ولكن اشارات قليلة وردت عن العهد الايلخاني تدل على وجود كاتب للأنشاء بالديوان يبدو انه كان يشغل وظيفة صغيرة ثانوية في أهميتها[١٧] . أما كتابة السلة فأنها كسبت أهمية كبيرة في العهد الأيلخاني حتى صارت تقابل على أقل تقدير من ندعوه الآن (سكرتير مجلس الوزراء) وكان يقوم على رأس كتاب ولاية العراق وقد أصبح بيده أسرارها وخفاياها وصار يطلق عليه أحيانا اسم (كاتب العراق) وينقل من وظيفته أحيانا ليقوم برئاسة ادارة العراق أي اشغال منصب صاحب الديوان[١٨] وكان كاتب السلة مرتبطا بصاحب الديوان ومطّلعاً

---

(١٢) ن٠م٠ ص٤٩٠ .
(١٣) ن٠م٠ ص٤٥٥ .
(١٤) ن٠م٠ ص٤٦٨ انظر ايضا : تاريخ وصاف ، ج١ ص٩٥ .
(١٥) الكازروني ، مقامة ، ص١٩ ؛ الحوادث الجامعة ، ص١١ ، ١٤ .
(١٦) انظر الحوادث الجامعة ، ص ١٥٧ ، ١٥٨ .
(١٧) ن٠ م٠ ص٣٤١ ، ٤٨٠ .
(١٨) ن٠م٠ ص٣٦٤ .

على أسرار ادارته لذلك كان يراعي الأنسجام ـ على مايبدو ـ بين من يشغل الوظيفتين فكانت نكبة صاحب الديوان تجرّ معها ـ في كثير من الأحيان ـ نكبة كاتب سلته[١٩] وتعيين صاحب ديوان جديد تجر معها تعيين كاتب سلة جديد[٢٠] حتى ان هذين الموظفين مع نوابهما ، كانا يعملان كهيئة مسؤولة تشبه الى حد ما مجلس الوزراء الذي يسقط بأجمعه اذا سقط رئيسه[٢١] .

وهناك وظيفة المشرف وهي عباسية تعني مراقب او مساعد او مفتش مالي او هذه الوظائف سـوية ، وكانت تقوم الى جانب أكثر الوظائف والدواوين المهمة كالصدر والناظر والأشراف في ديوان واسط أو أربيل واشراف البلاد الحلية أو الواسطية وقد ازدادت أهمية واتساعاً في العهد الايلخاني فصار هناك مشرف على صاحب ديوان بغداد ومشرف للعراق[٢٢]. وقد عيّن السلطان أباقا ابن هولاكو (١٢٦٤ ـ ١٢٨١م) مجدالملك اليزدى مشرفا في جميع الممالك أي لجميع الأمبراطورية الايلخانية فعيّن هذا نواباً عنه وكانت علامته مشرف الممالك[٢٣] . ولعل من أسباب تأكيد الايلخانيين على هذه الوظية رغبتهم في السيطرة على امبراطوريتهم المترامية الأطراف للمحافظة عليها من الأخطار الخارجية والداخلية التي أخذت تتهددها بازدياد وجشعهم الشديد الذي كان يدفعهم الى الحصول على أكبر كمية من المال من رعاياهم ولمعرفتهم بفساد موظفيهم وحجبهم المال عن خزينة السلطان .

وهناك منصب قاضي القضاة وهو أول من دعاهم القلقشندي أرباب الوظائف الدينية وموضوعه كما قال : (القيام بالأوامر الشرعية والفصل بين الخصوم ونصب النواب للتحدث فيما عسر عليه مباشرته بنفسه ، وهي أرفع الوظائف الدينية وأعلاها قدرا وأجلها رتبة)[٢٤] . ويقابل هذا المنصب

---

(١٩) ن٠م٠ ص٤١٩ ، ٤٤٦ .
(٢٠) ن٠م٠ ص٤١٥ ، ٤٣٧ .
(٢١) ن٠م٠ ص١٤٩ .
(٢٢) ن٠م٠ ص٢٨٧ .
(٢٣) ن٠م٠
(٢٤) صبح الاعشى ، ج٤ ، ص٣٤ ـ ٣٥ .

في عصرنا وزير العدلية • فقاضي القضاة كان يقوم بتعيين القضاة في مختلف انحاء البلاد ومراقبتهم ونقلهم وعزلهم ، وقد كان في بغداد في أواخر الدولة العباسية قاضي قضاة واقضى قضاة • وأقضى القضاة يساوي ما نعنيه اليوم قاضي من الدرجة الاولى او قاضي ممتاز كان يكلف بالقيام بوظيفة قاضي القضاة أحيانا ولكنه في الاحوال الاعتيادية لم يكن يملك صلاحيات تزيد على غيره من القضاة ولكنه كان يرشح الى منصب قضاء القضاة في كثير من الاحيان • وعندما تم احتلال المغول لبغداد عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م حضر أقضى القضاة عبدالمنعم البندنيجي عند هولاكو فأمر ان يقرّ على القضاء أي ان تكون له صلاحيات قاضي القضاة فأشغل منصبه باسم أقضى القضاة[٢٥] • ولكنه عندما توفي عام ٦٦٧هـ/١٢٦٨م احضر سراج الدين محمد بن أبي فراس الهنايسي ورتّب قاضي قضاة بغداد نقلاً عن التدريس بالمدرسة البشيرية[٢٦] • وقد كان مدرسو المدارس الدينية هم المرشحون لمناصب القضاء بحكم اشتغالهم بتدريس الشريعة الأسلامية المصدر الذي يستقي منه القضاة أحكامهم في الفصل في الخلافات الناشئة بين المسلمين • وكان لكل قاضي عدد من العدول وهم أشخاص معروفون بالتقوى وحسن الخلق والمعرفة يساعدون القاضي في مهمته بالشهادة بين يديه أو تزكية الشهود أو ترشيح الآخرين لمناصب تتعلق بتحقيق العدالة وكانوا يؤلفون هيئة محترمة بين الناس يرشح أفرادها لتولي مناصب القضاء والحسبة وادارة الاوقاف وكثير من مناصب البلاط والادارة العباسية ويبدو ان العدول كانوا موجودين في مختلف مدن العراق[٢٧] • ومع قلة المعلومات التي وصلتنا عنهم بالنسبة للعهد الايلخاني فأن الاشارات تدل على ان هذا النظام استمر خلاله بصورة

---

(٢٥) الحوادث الجامعة ، ص٣٢١ ، ٣٦٢ •

(٢٦) ن•م• ص٣٦٢ •

(٢٧) انظر

E. Tyan, "Adl," in I. of Islam, 2nd Edition, p. 209.

انظر ايضا : ابن الدبيثي ، التاريخ المذيل به على تاريخ ابن السمعاني ، ج١ (نسخة مصورة) ، ص١٢٢ ، ١٢٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٦٢ •

اعتيادية[٢٨] . يضاف الى ذلك ان الكثير من القضاة ظلوا يقومون بأعمال التدريس كالسابق كما كانت العادة في مختلف انحاء العالم الاسلامي .

أما الحسبة وصاحبها المحتسب فأنها كانت وظيفة شديدة القرب من وظيفة القاضي حتى أنه كان يكلف بها في كثير من الأحيان وموضوعها التحدث في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومراقبة المعايش والصنائع والأخذ على يد الخارج عن طريق الصلاح في معيشته وصناعته[٢٩] . وكانت واجباتها مهمة تقابل على أقرب تقدير الكثير مما تقوم به في عصرنا الحالي وزارات الشؤون الاجتماعية والصحة والبلديات وكان نظام الاحتساب قائماً في مختلف مدن العراق في العهد العباسي الأخير وتدل الأشارات القليلة المتوفرة لدينا أنه استمر على حاله في العهد الأيلخاني حيث كان هناك محتسبون مستقلون بوظائفهم لا يخضعون فيها للقضاة بينما تصلنا أخبار أخرى تدل على أن القاضي كان يجمع ما بين القضاء والحسبة . فقد رتب صاحب ديوان بغداد علاءالدين عطا ملك أحد أولاد الفقهاء المسمى علاءالدين أحمد بن عبدالله محتسبا بجانبي مدينة السلام . وولي فخر الاسلام محمد بن محمد البخاري الحسبة بجانبي بغداد في وقت آخر . وكان فخرالدين الحسيني بن شجاع‌الدين الراوندي محتسب الحلة في أواخر العهد الأيلخاني[٣٠] ومن الجهة الأخرى استناب أقضى القضاة نظام‌الدين عبدالمنعم البندنيجي فخرالدين عبدالله بن عبدالجليل الطهراني الراوي وفوّض اليه أمر الحسبة[٣١] . وفوض شرف‌الدين هرون الجويني صاحب الديوان في سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م أمر القضاء بالجانب الغربي الى بدرالدين علي بن محمد بن ملاق الرقي اضافة الى الحسبة بجانبي

---

(٢٨) تلخيص مجمع الآداب ، ج٤ قسم١ ص ٣٢٤ ، ٥٣٠ ، قسم ٢ ص ٦٩٩ ، ٧٥٥ ، ٧٥٨ ، ٩٩٣ ، الحوادث الجامعة ، ص٤٤٩ ، ٤٨٤ .
(٢٩) صبح الاعشى ، ج٤ ص٣٧ .
(٣٠) تلخيص مجمع‌الآداب ، ج٤ قسم٢ ص ٩٩٣ ، قسم٣ ، ص ١٦٠ ، ٣٦٧ ـ ٣٦٨ .
(٣١) الحوادث الجامعة ، ص٣٦٢ .

بغداد[٣٢] . أما قضايا الاوقاف ويشرف صاحبها على رزق الجوامع والمساجد والربط والزوايا والمدارس ، فقد عيّن لها صدر بعد سقوط بغداد بقليل قام بالأشراف على ترميم جامع الخليفة وفتح المدارس والربط وأثبات الفقهاء والصوفية وادرار الأخباز والمشـــاهرات عليهم . ثم ان جميـــع الاوقاف الاسلامية في الامبراطورية الايلخـانية وضعت تحـت اشـراف نصيرالدين الطوسي وانتقلت بعد وفاته الى ابنـاءه حتى ٦٨٧هـ/١٢٨٨م حيث أسـندت الى حكام بغداد ، ثم أعيدت اليهم في السنة التالية[٣٣] . وكان هؤلاء يعينون نوابا عنهم لأدارة أوقاف العراق[٣٤] . وهناك وظيفتان دينيتان ظلتا قـائمتين طيلة العهد الايلخاني هما (نقابة الطالبين) ومشيخة الشيوخ . وموضوع نقابة الطالبين كما يقول القلقشندي هو (التحدث على ولد علي بن ابي طالب كرم الله وجهه من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ... في الفحص عن انسابهم والتحدث في أقاربهم والأخذ على يد المعتدين منهم ونحو ذلك)[٣٥] . وقد كانت هذه النقابة ومعها نقابة العباسيين من الوظائف الرئيسة في العهد الأخير من الدولة العباسية تساوي كل منها على أقـرب تقدير وزارة من وزارات عصرنا الحالي وكان الخليفة هـــو الـذى يعيّن النقيب ويعزله أما في العهد الايلخاني فلم تصلنا أخبار تشبه ذلك ولـــكن العـلويين أخـذوا يكتسبون احترام حـكام بغـداد المسـلمين من أصحاب الديوان حتى صار لبعضهم نفوذ في البلاد ومع مرور الأيام أخذ أفراد من العائلة العباسية بالظهور أيضا وتكونت لهم نقابة للعباسيين من جديد ولكن أهمية النقابتين المذكورتين صارت اجتماعية أكثر منها سياسية ويبدو أنه لم يكن للحكومة الايلخانية أي رأي في تنصيب النقيب أو التدخل بشؤون أتباعه[٣٦] . أما شيخ الشيوخ فـأنه كان يقوم بالنظـر في شـؤون الربط

---

(٣٢) ن.م. ص٤٢٨ .
(٣٣) ن.م. ص٤٥٦ .
(٣٤) ن.م. ص٤٤٣ .
(٣٥) صبح الاعشى ، ج٤ ص٣٨ .
(٣٦) انظر الفصل الواحد والعشرين من هذا الكتاب ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦ .

والخوانق ومن يقيم بها من الصوفية والفقراء[٣٧] .

وبالاضافة الى ما مرّ كانت هناك وظيفتان اداريتان مهمتان استمرتا من العهد العباسي الى العهد الايلخاني هما : الصدر والناظر وأهميتهما تتبيّن خارج بغداد أي في المناطق التي تنقسم اليها البلاد اداريا . والصدر كان يطلق في العصر العباسي الاخير على رئيس احدى الدواوين الكبيرة التي تتكون منها الحكومة المركزية كصدر ديوان الزمام وصدر المخزن وصدر الوقوف وغير ذلك وعلى رئيس الوحدات الادارية التي تنقسم اليها البلاد كصدر الأعمال الفراتية وصدر الأعمال الحلية . أما في العهد الايلخاني فأنها اقتصرت على رئيس احدى الوحدات الأدارية التي أصبح العراق العربي ينقسم اليها وأصبح صاحب هذه الوظيفة يلقب بلقب ملك[٣٨] باستثناء الأوقاف التي ظلت تحت ادارة صدر الوقوف وأصبح الصدر ، رئيس الوحدة الادارية ، يتمتع باستقلال ذاتي في منطقته بدرجة أوسع مما كانت عليه خلال العهد العباسي ويشرف على ادارة القوات المسلحة القائمة على حماية الامن في منطقته[٣٩] . أما الناظر فانه كما يقول القلقشندي : (من ينظر في الأموال وينفذ تصرفاتها ويرفع اليه حسابها ينظر فيه ويتأمله فيمضي ويردّ ما يردّ ... ثم هو يختلف باختلاف ما يضاف اليه كناظر الجيش وهو الذى يتحدث في أمر الجيوش وضبطها ... أو ناظر اوقاف ...)[٤٠] ويقارب هذا ما كان يحدث في العهد الايلخاني فصاحب هذه الوظيفة موظف مالي بالدرجة الاولى ولكنه بسبب عدم وجود التخصص الواضح الشديد في الادارة كان يقوم بالاشراف على أمور ادارية أيضاً احياناً ويقوم بنفس الواجبات التي يقوم بها الصدر . فقد مرّ بنا أن المستنصر العباسي سار الى عانة في سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م فنزل اليه واليها

---

(٣٧) انظر : الحوادث الجامعة ، ص٢١٤ ، ٤٥٦ ، ٤٦٨ ، ٤٩٢ .
(٣٨) ن.م. ص٤٦٤ .
(٣٩) ن.م. ص٤٤٠ .
(٤٠) صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٤٦٥ .

وناظرها وسلماها اليه[٤١] . وقد عزل سعد الدولة بن صفي الدولة عن نظر المارستان العضدي سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م ورتب والي العراق سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م محمد بن شمام ناظراً لنهري عيسى والملك[٤٢] .

هذه أهم الوظائف المدنية أما الوظائف العسكرية فأهمها اثنتان : الشحنة ونائب الشرطة . والشحنة وظيفة كانت شائعة في البلاد الاسلامية أقرب ماتكون الى وظيفة حاكم عسكري أو مدير شرطة ولكنها صارت في العهد الايلخاني تمثل بالنسبة لشحنة بغداد أو العراق من تسمية الآن القائد العام للقوات المسلحة الذى كان من أهم واجباته المحافظة على الأمن العام في العراق بالقضاء على حوادث الثورات والعصيان وأعمال الشغب الخطيرة ومراقبة صاحب الديوان أي حاكم العراق لضمان ولائه للدولة الايلخانية ، حتى ان الشحنة أصبح عين السلطان على رؤساء ادارة العراق من الموظفين المدنيين وقد كان علي بهادر الخراساني أول شحنة للعراق في العهد الايلخاني وكان من الاوائل الذين دخلوا بغداد في العهد الأيلخاني لكنه تآمر على صاحب الديوان علاءالدين عطا ملك فقتل في سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م ونصب محله رجل مغولي هو (قرابوغا) وظل أمر هذه الوظيفة الجليلة بأيدي المغول بصورة عامة الى آخر العهد الايلخاني وكان من بينهم (توكال بخشي) و (تارقيا) و (تاولدار) وغيرهم . ويبدو ان سبب اسنادها الى مغولي يرجع الى أهمية الوظيفة والى عدم ثقة السلطان الأيلخاني بغير ابناء جنسه فيما يتعلق بالأمور العسكرية . وقد كان صاحب هذه الوظيفة يدعى احياناً شحنة العراق[٤٣]. وبينما كان هناك في العهد العباسي شحنة لكل منطقة من مناطق العراق ومدنه الكبيرة . أي مدير شرطة خاص بها مثل شحنة البلاد الحلية وشحنة واسط وشحنة البصرة[٤٥] فاننا لا نسمع بمثل ذلك في العهد الايلخاني الا في

---

(٤١) انظر ص٥٩ .
(٤٢) الحوادث الجامعة ، ص٤١٢ .
(٤٣) ن.م. ص٣٤٣ .
(٤٤) ن.م. ص٣٥٠ .
(٤٥) ن.م. ص١٧٦-١٧٩ .

نص واحد أشار الى هرب شحنة البوازيج[٤٦] . وقد يشير ذلك الى ان سلطة الشحنة انتقلت الى الصدر او رئيس الوحدة الادارية . ومما يلقي ضوء على طبيعة هذه الوظيفة ومدى صلاحياتها ان شحنة بغداد اتفق في ٦٩٠هـ/١٢٩١م مع رسل أمراء المغول ، وقد بعثوا اليه بنبأ موت السلطان أرغون وقتل وزيره سعد الدولة ، على القبض على صدر ديوان بغداد مهذب الدولة بن الماشعيري[٤٧] . وقد ورد أن الأمير أذينا شحنة بغداد ، مهد العراق بحسن سيرته[٤٨] . أما وظيفة (نائب الشرطة) فهي تقابل مدير شرطة بغداد ، وكان يقوم بها في أواخر العهد العباسي موظف يسمى (حاجب باب النوبي) زال مع زوال البلاط العباسي ووظائفه . وكان نائب الشرطة في العهد الايلخاني مسؤولاً عن المحافظة على أمن بغداد ، الا اذا حدث أمر خطير يهدّد سلامتها أو سلامة العراق ، فعندئذٍ يتدخل الشحنة . فقد ورد عن حوادث ٦٧٧هـ/١٢٧٨م أن صبيين من الشطار ظهرا في بغداد وآذا الناس وانضم اليهما الكثير من العامة ، فقام نائب الشرطة بنقل الأمر الى صاحب الديوان فوضع هذا الخطط اللازمة للقبض عليهما ونجح في ذلك فعلاً[٤٩] .

---

(٤٦) ن.م. ص٤٤٧ .
(٤٧) ن.م. ص٤٦٤ .
(٤٨) ن.م. ص٤٩٦ .
(٤٩) ن.م. ص٤٠٣ ـ ٤٠٤ .

الفصل الخامس

الاحوال الادارية العامة

أدى الفتح المغولي الى جعل المناطق التي تكوّن العراق الحالي جزء من الامبراطورية الايلخانية التى أصبح يحكمها هولاكو واولاده وأحفاده من بعده بمساعدة أمراء من المغول ووزراء وولاة من الفرس والعرب والأكراد وغيرهم وقد قتل هولاكو أكثر الذين قبض عليهم من عائلة بني العباس والقى طائفة منهم في السجون وعمل على محو أثر العائلة العباسية حتى أصبح الخطر يهدد كل من يردد ذكرهم • وكان من نتائج الفتح المغولي المباشرة ان تحطم الاساس الذي كانت تقوم عليه الدولة التي دخل العراق فيها منذ أوائل الفتوحات الاسلامية في القرن السابع الهجرى وهو الرابطة الدينية • فالدولة لم تعد دينية اسلامية تضم فريق المؤمنين بشكل وحدة سياسية يكون الاسلام فيها جنسيّة المواطن التي تزوّده بحقوقه الكاملة بصفته مسلماً يساوي أخاه المسلم ولو نظرياً وتسير حياته فيها طبقاً للأسس التي قررها القرآن واوضحتها السنة ويكون فيها غير المسلم من أهل الكتاب كالمسيحي واليهودي منتميا الى جنسيات اخرى تكون طوائف متميزة لها أسلوب الحياة الخاص الذى قررته أديانها ولا تتمتع بنفس الحقوق التي يتمتع بها المسلم وان كانت تخضع لنفس الحكومة •

وقد جاء الفتح المغولي فألغى الأساس الديني للدولة وجعل الأديان ومن ضمنها الوثنية طوائف متساوية الحقوق أمام السلطان الايلخاني ونوابه واستمر الحال كذلك حتى مجيء غازان الى العرش في ٦٩٤هـ/١٢٩٤م حيث عادت الأمور الى ما كانت عليه في السابق • والحقيقة ان المسيحيين تمتعوا خلال النصف الأول من حكم الأيلخانيين بتسامح شديد في بغداد وكان هولاكو وابنه أباقا وحفيده أرغون يعطفون عليهم أحيانا ويعملون على التقرب منهم في كثير من الأحيان خصوصاً أرغون (٦٨٣-٩٠) = (١٢٨٤-

١٢٩١م) الذى كان يخشى قوة الأسلام المتنامية في مصر وسورية ويعمل على محالفة دول الغرب المسيحية ضد دولة المماليك[١] . يضاف الى ذلك ان حكم هذا السلطان تميّز بسيطرة اليهود على ادارة الامبراطورية[٢] .

وبزوال الخلافة العباسية من بغداد سددت لفكرة الوحدة الاسلامية ضربة قاصمة وفقدت مركزها السامي باعتبارها قاعدة بلاد الاسلام وانقسم العالم الاسلامي الى قسمين رئيسين متحاربين الأول وأهم أقاليمه العراق وايران وبلاد الروم ، صار جزء من امبراطورية الايلخانيين والثاني وأهم من يمثله مصر وسورية والحجاز كان يخضع لدولة المماليك . ولكن فكرة الوحدة الاسلامية لم تمت بل ظلت حلماً يراود أفكار المسلمين تحقق بعودة الخلافة الى القاهرة بعد بضعة سنين من سقوط بغداد ولكن بشكل هزيل لا يثير الحماس في النفوس . ويشبه ذلك من بعض الوجوه سقوط روما الغربية بأيدي الجرمان في سنة ٤٧٦م وزوال الامبراطورية الرومانية من أكثر بلاد أوروبا الغربية حيث ظل الأمل يراود نفوس أهلها بعودة الامبراطورية ـ التي كانوا يظنون أنها خالدة لن تزول ـ من جديد ، حتى تحققت احلامهم في ٨٠٠م بتتويج شارلمان امبراطوراً رومانياً .

كانت الامبراطورية الايلخانية تتكون من الولايات التالية : الجزيرة الفراتية والعراق العربي وخوزستان والأهواز وفارس وكرمان وسجستان والرخج وأرمينيا وأذربيجان وأران وبلاد الجبل أي العراق العجمي وبلاد الديلم والجيل وطبرستان ومازندران وقومس وخراسان وزابلستان والغور[٣] .

وكانت المناطق التي تؤلف العراق الحالي اجزاء من ولايات كبيرة ثلاث هي :

---

(١) انظر الفصل السادس عشر ص ١٩٣ ـ ١٩٤ .
(٢) انظر الفصل السابع عشر ، ص ٢٠١ ـ ٢٠٣ .
(٣) صبح الاعشى ، ج٤ ، ص٣١٤ ، انظر ايضا تاريخ وصاف ، ج٣ ص٣٧١ ؛ وانظر الحافظ ابرو ، ذيل جامع التواريخ ، ص٥٣ ، ٥٤ ، ٧٢ .

أولاً : بلاد الجبل أو العراق العجمي وفيه مدينة شهرزور .

وثانياً : الجزيرة الفراتية وفيها الموصل وسنجار والعمادية وأربيل .

وثالثاً العراق : وهو القسم الأهم وقد أصبح ولاية ايلخانية ممتازة تمتد ما بين حديثة الموصل[٤] الى عبادان طولاً والقادسية الى حلوان عرضاً . وكان العراق أحد الولايات الايلخانية المهمة التي كانت تسمى ممالك ويدعى حكامها أحياناً ملوكاً . وكان السلطان الايلخاني يقوم بتعيين حكام هذه الولايات في أول صعوده الى العرش برأيه او بعد مشاورة أمراءه وخواتينه ووزراءه ولم يكن من الضروري ان يعيّن حاكماً خاصاً لكل ولاية بل انه قد يمنح بضعة ولايات لحاكم واحد يعيّن في كلّ منها نوّاباً. فقد منح هولاكو ممالك العراق العجمي وخراسان ومازندران لابنه اباقا وممالك أران وأذربيجان لابنه الآخر يشموت والجزيرة للأمير تودان وكرمان لتركان خاتون[٥] . ولكن العراق العربي كان يخضع لحاكم وحدا على الاكثر وكان ولاية ممتازة من ولايات الامبراطورية الايلخانية وكانت عاصمته بغداد تدعى في كتابات المعاصرين باسم مدينة السلام[٦] . ويزورها الايلخان عدة مرات كما فعل اباقا خان في ٦٦٧هـ/١٢٦٨م و ٦٧٣هـ/١٢٧٣م و ٦٨٠هـ/١٢٨١م وكانت تتميز ببعض المناسبات فقد أرسل اليها رأس مجدالملك اليزدي مشرف الممالك في عهد أباقا خان ورأس الأمير نوروز قائد جيوش السلطان غازان[٧] .

فوض هولاكو أمر العراق العربي بعد فتحه الى جماعة من العراقيين ومعهم علي بهادر الخراساني الشحنة الجديد فقسموه الى المناطق الادارية التالية : الأعمال الشرقية وهي الخالص وطريق خراسان والبندنيجين

---

(٤) حديثة الموصل : بليدة كانت على دجلة في الجانب الشرقي قرب الزاب الاعلى (مراصد الاطلاع) ، ج١ ص٣٨٧ .

(٥) جامع التواريخ ، ج٢ ، ص٧٣٤ .

(٦) تاريخ وصاف ، ج٢ ص٢٣٧ .

(٧) داستان غازان ، جامع التواريخ ، ص٤٩٤ .

وأعمال دجيل والمستنصري والأعمال الفراتية والأعمال الحلية والكوفية والأعمال الواسطية والبصرية[٨] . ولم تكن هذه الأقسام الادارية متميزة ولا ثابتة بل ان سلاطين الايلخانيين ونوابهم ومنهم صاحب ديوان بغداد كانوا يقسمون الواحدة منها الى أكثر من منطقة ادارية او يضيفون بعضها الى بعض حين تعيينهم حكامها ومن ذلك ان ناصرالدين قتلغ شاه الصاحبي رتب في الأعمال الواسطية في سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م[٩] . وان السلطان أرغون دخل بغداد في ٦٨١هـ/١٢٨٢م وطلب المال من كثير من الحكام ومنهم نواب الأعمال الحلية والواسطية والبصرية . وان فخرالدين مظفر بن الطراح ولي في ٦٩٤هـ/١٢٩٤م قوسان وواسط والبصرة وولي دولة شاه ابن سنجر الصاحبي الحلة وعزالدين محمد بن شمام ناظراً لنهري عيسى والملك في نفس السنة[١٠] . وقد يعود هذا الاضطراب الى ان ادارة العراق الايلخانية كانت استمراراً في كثير من مظاهرها للادارة العباسية في العهود المتأخرة حينما لم يكن العراق العربي يقسم الى مناطق ادارية ثابتة والى ان تولية المناصب في العهد الايلخاني لم يكن يلتزم روتينا مستقرا بل كان عرضة للأهواء الشخصية .

كانت ادارة الامبراطورية الأيلخانية لا مركزية وكان حاكم العراق مستقلاً في ادارة شؤونه مقابل تقديمه المال اللازم لخزينة السلطان والقوات العسكرية المناسبة له ساعة ظهور الخطر ولكن هذه اللامركزية لم تكن كاملة لان السلطان كان يزور العراق ليطلع على أموره بنفسه ويقضي الشتاء في ربوعه في بعض الأحيان وكان يرسل اليه مشرفاً يستقصي شؤونه عن كثب ويرفع اليه تقريرا عنه . يضاف الى ذلك ان حكام العراق كانوا يتآمرون على بعضهم البعض عند السلطان أو امرائه أو وزرائه فيؤدي تآمرهم الى تدخل السلطان في شؤونهم . ففي ٦٥٧هـ/١٢٩٩م

(٨) الحوادث الجامعة ، ص٣٣٢ ؛ انظر جامع التواريخ ، ج٢ ص٧١٤ .
(٩) الحوادث الجامعة ، ص٣٩٥ .
(١٠) ن.م. ص٤٢٤ .
(١١) ن.م. ص٤٨٢ .

توجه صاحب ديوان العراق فخرالدين بن الدامغاني الى هولاكو ومعه صدر أعمال العراق وأراد هولاكو ان يفوض اليه أمر العراق ولكن أحد الصدور وهو نجم‌الدين بن عمران وشي به عند هولاكو بأنه أطلق أحد أنساب الخليفة المستعصم من السجن فقبض عليه ومات سجيناً[١٢] . وفي ٦٧٧هـ/١٢٧٨م ورد أمر السلطان أباقا بن هولاكو الى صاحب ديوان بغداد بالقدوم الى مقره لمقابلته الى ما نسب اليه من مكاتبة سلطان مصر والشام فلما قوبل على التهمة لم تثبت عليه فأمر بقتل من وشي به[١٣] . وفي ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م اتصل سعد الدولة اليهودي بالسلطان أرغون وكشف له أحوال العراق فأرسله مع الأمير (أردوقيا) لتصفح أحواله فلما وصله اجتمع بحكامه وخفض على الناس ما قرر عليهم من القروض وأصلح أحواله ثم عاد الى السلطان[١٤] فعينه مشرفا على العراق فعاد اليه في نفس السنة فأخذ بمراقبة حكامه ومحاسبتهم ومعاقبتهم وفي ٦٩٦هـ/١٢٩٦م سيّر السلطان غازان الأمير (توختا) لتصفح أحواله وسيّر معه سعدالدين أسد ابن علي مشرفا على العراق فقدما اليه وقبضا على مشرفه السابق شرف‌الدين بن بديعا[١٥] .

كانت سلطة السلطان الأيلخاني غير محدودة تتضمن حق الحياة والموت على رعاياه ومن بينهم الامراء المغول والوزراء وبقية أفراد الرعية من الشعوب المحكومة وكان القتل مصير أكثر من يشك في ولاءهم ولم تكن للرعيّة حقوق بل واجبات أهمها الطاعة ودفع الضرائب بمختلف أنواعها . ومثال ذلك ان سراج‌الدين بن البجلي صدر واسط والبصرة كان من جملة من قصد هولاكو في ٦٥٧هـ/١٢٥٩م فوشي به أنه أخرجها وأهمل مصالحها فأمر بقتله فقتل[١٦] . وقد أخذ صاحب ديوان الممالك خطوط حكام بغداد

---

(١٢) ن٠م٠ ص٣٣٨ .
(١٣) ن٠م٠ ص٣٩٩ .
(١٤) ن٠م٠ ص٤٥١ .
(١٥) ن٠م٠ ص٤٩٢ .
(١٦) ن٠م٠ ص ٣٣٨ .

بما يفيد اساءة علي بهادر شحنة بغداد الحكم وجبايته المال من الناس من غير حق ، فأمر به في ٦٦١هـ/١٢٦٢م فقتل[١٧] . وقدم الأمير أرغون العراق في ٦٨١هـ/١٢٨٢م وطلب من أهل بغداد مساعدات مالية ثقيلة استوفيت بالعسف والجور حتى ان كل من اختفى من الناس نهبت داره وبيع ما فيها ، وفرضت مثل ذلك من المساعدات على حكام الاقاليم[١٨] . وكان نواب السلطان الايلخاني يتمتعون بالنسبة لمرؤوسيهم ورعاياهم بنفس السلطة المطلقة غير المحدودة . فقد جاء صاحب ديوان الممالك شمس الدين الجويني الى بغداد في ٦٨٠هـ/١٢٨١م للتحقيق في التهم التي نسبها الحكام الى أخيه صاحب ديوان بغداد عطا ملك الجويني ، فأمر بالقبض على صالح بن الهذيل ملك واسط أي حاكمها وطالبه بالمال وعذبه بالدوشاخة ثم أمر فطيف به في واسط فحصل على قدر يسير من المال ساعده به الناس ثم قبض على أصحابه ونوابه وطالبهم بالمال وعذبهم ثم عزل صالح بن الهذيل عن الأعمال الواسطية وسلمها الى آخر[١٩] . وفي ٦٩٠هـ/١٢٩١م سار مهذب الدولة أحد مساعدي صاحب الديوان الى واسط فقبض على ملكها أي حاكمها نورالدين عبدالرحمن وطوقه بالحديد ونفذه الى بغداد حيث القي في السجن انتظارا لقتله ولكن الخبر ورد الى بغداد بموت السلطان (أرغون) وقتل وزيره سعد الدولة وان الامراء عينوا كاتب العراق جمال الدين الدستجرداني بمنصب صدر ديوان بغداد فاتفق هذا مع الرسل وشحنة بغداد وأطلقوا نورالدين عبدالرحمن من السجن وأعادوه الى صدرية واسط وأمروه بالقبض على مهذب الدولة وحمله الى بغداد حيث القي في السجن ثم طولب بالاموال فأنكر ان يكون لديه شيء منها فضرب فلم يعترف فضرب بالسكاكين والسيوف وقتل ثم قطع اربا وتناهبه العوام وتعمم نفاط بمصرانه وطيف به في شوارع بغداد ودروبها ثم أحرق بباب جامع

---

(١٧) ن.م. ص٤٢٤ .
(١٨) ن.م. ص٣٤٩ .
(١٩) ن.م.

الخليفة ما عدا رأسه الذي سلخ وحشي تبناً وطيف به في جانبي بغداد ثم حمل الى واسط وعلق على جسرها[٢٠] .

كان من أهم خصائص حكومة العراق الايلخانية عدم الاستقرار والفساد فقد كان حكام الولايات معرضين من رئيسهم صاحب الديوان الى اصغر موظف منهم الى السجن والتعذيب والقتل والتمثيل بأبشع الصور وبشكل مفاجيء نتيجة لتغير الأدارة المركزية في الأمبراطورية بموت السلطان القائم أو قتله ومجيء سلطان يكرهه أو يختلف معه حيث يسرع الى البطش والتنكيل بالحكام السابقين ونوابهم وأصحابهم وكان دس الحكام على بعضهم سراً وعلانية عند السلطان ووزراءه مما يزيد الأحوال سوء وكانت تهمة الحصول على المال كالسيف القاطع الذي يهدد مختلف الحكام . وباستثناء علاءالدين عطا ملك الجويني صدر ديوان بغداد الذى نجح بالاحتفاظ بمنصبه لواحد وعشرين سنة لم يستطع خلفاءه الاحتفاظ بمناصبهم الا لمدد قصيرة لاتزيد بعضها على بضعة أشهر أحياناً. ومثال ذلك أن عطا ملك الجويني صدر ديوان بغداد القوي نفسه في عهد(هولاكو)وابنه(أباقا)كان هدفاً لسلسلة من المؤامرات التي كادت تودي بحياته عدة مرات وكان أشد خصومه عليه أحد الايرانيين الذي كان عاملاً لأخيه شمس‌الدين الجويني صاحب ديوان الممالك وهو المدعو (مجدالملك اليزدي بن صفي‌الملك أبي المكارم) حيث انه اتصل بالسلطان أباقا وأخذ يكيل التهم ضد الأخوين شمس‌الدين وعلاءالدين حتى أخبره بأن الأخير يسلك مسلك الملوك في حكمه العراق وانه اتخذ لنفسه تاجا مرصعاً[٢١] . وأنه جنى لنفسه أموالاً طائلة حجبها عن خزينة السلطان وأنه يكاتب ملوك مصر والشام . وفي ٦٨٠هـ/١٢٨١م أمر أباقا خان بالقبض على علاءالدين وأصحابه ونوابه وتسليمهم الى (مجدالملك اليزدي) فاستوفى هذا منهم أموالا كثيرة وباع

---

(٢٠) ن.م. ص٤٦٤ ـ ٤٦٥ .

(٢١) غياث الدين بن همام الدين المعروف بخوندمير ، دستور الوزراء ، ص٢٧٤ ـ ٢٧٥ ؛ انظر ايضا تاريخ وصاف ، ج١ ص٩١ .

من أملاك علاءالدين وأسبابه شيئا كثيرا ، ثم أمر بالقاءه مكتوفا بقميص واحد على شاطىء دجلة في بغداد وكان البرد شديداً ، بينما ضرب اتباعه واستوفيت منهم الأموال ثم حمل الى ايران . ولكن خلال ذلك حدث ان توفي السلطان أباقا ونصب مكانه (تكودار بن هولاكو) الذي تحول الى الاسلام وسمى نفسه أحمد وغلب عليه الصاحب شمس‌الدين الجويني ، وكان من أول أعمال السلطان الجديد ان أمر باطلاق‌سراح علاءالدين والقبض‌على مجدالملك اليزدي وتسليمه الى اصحاب علاءالدين حيث قتلوه قتلة شنيعة ووزعوا أطرافه على البلاد وسلخوا رأسه وشوى الخربندية لحمه وأكلوا منه وشربوا في قطعة من رأسه[٢٢] وقد كان سقوط مجدالملك سبباً في سقوط أصحابه ونوابه فقد أرسل علاءالدين بعد تحريره جماعة من أصحابه الى بغداد ومعهم رسالة يشكر فيها أهل المدينة على ولاءهم ومعهم رأس مجد الملك ، فدخل هؤلاء بغدد ونهبوا دار مجدالملك وأمروا فطيف برأسه فيها وقبضوا على أحد أصحابه صفي‌الدولة بن الجمل كاتب السلة وأصحابه ونهبوا داره وطلبوا أحد الحكام المسمى (علي جليبان) فاختفى ، وكانوا يحملون معهم اثنين من النصارى من أصحاب مجدالملك هما عبد يشوع ويعقوب ، طيف بهما في بغداد عراة والعوام يصفعونهما ويضربونهما بالآجر ثم أنهما قتلا وجرّ العوام جثتهما ثم أحرقوهما[٢٣] . وقد ثار الأمراء المغول على السلطان أحمد وقتلوه لأسلامه[٢٤] في ٦٨٣هـ/١٢٨٤م ونصبوا أرغون ابن أباقا سلطاناً فأسرع هذا بالتنكيل بأصحاب السلطان السابق وخصوصاً آل‌الجويني ففرّ شمس‌الدين صاحب ديوان الممالك ثم قبض عليه وقتل وقتل أكثر اقاربه وكان صدر ديوان‌العراق في‌هذه المرّة الخواجه هرون ابنه، فقبض عليه شحنة بغداد (تارقيا) وعلى أصحابه شمس‌الدين زرديان نائبه وعزالدين جلال المشارك في كتابة السلة ونظام‌الدين عبدالله بن قاضي

---

(٢٢) الحوادث الجامعة ، ص٤١٥ ـ ٤١٩ ؛ تاريخ وصاف ، ج١ ص١٠٧ .
(٢٣) ن.م. ص٤٢١ ـ ٤٢٢ .
(٢٤) انظر تفصيل ذلك في تاريخ وصاف ، ج١ ص١٢٥ ـ ١٣٢ .

البندنيجي وقبض على شرف‌الدين محمد بن بصلا وكيل الديوان وعذب وطولب بمال كثير ، ثم قتل نظام‌الدين قاضي البندنيجي بعد تعذيب عظيم[٢٥] . وفي ٦٩٠هـ/١٢٩١م توفي السلطان ارغون وقتل الأمراء المغول وزيره سعدالدولة اليهودي وأرسل الأمر الى بغداد بالقبض على أخيه فخر الدولة صاحب الديوان وقتله كما صدرت الاوامر بقتل أخيه الآخر أمين الدوله حاكم الموصل[٢٦] . وفي ٦٩٣هـ/١٢٩٣م أمر السلطان كيخاتو شمس‌الدين محمد التركستاني المعروف بالسكورجي بالمسير الى العراق والياً عليه لأصلاح أحواله فجاء بغداد وعمل بذلك ولكن الأمير المغولي بايدو وكان يتخذ مقره في العراق نهب بعض القرى العراقية وقتل وسبى فشكاه الوالي الى السلطان فأمر به فالقي في السجن لبضعة أيام . ولكن عددا من الامراء المغول ثاروا على السلطان (كيخاتو) وقتلوه ونصبوا مكانه (بايدو) فأسرع هذا الى اصدار أمره بالقبض على والي العراق السكورجي وقتله فقتل شر قتلة، وأمر بايدو باطلاق جمال‌الدين الدستجرداني وكان معتقلاً لايضاح بقايا العراق مع أصحاب السكورجي ، وتوليته أمر العراق فأخذ هذا بعزل طائفة من اصحاب السكورجي وتولية آخرين غيرهم[٢٧] .

وأخيراً لنا في سيرة مجدالدين صالح بن الهذيل مثال جيد لما كان يلاقيه حكام العراق من الاخطار وعدم الاستقرار في العهد الايلخاني فقد كان هذا كريماً ذا معرفة وكفاية خدم أيام الخلفاء ورتب بعد سقوط بغداد في نهر الملك وثهر عيسى ثم نقل صدرا لواسط ولقب بالملك ، ثم قبض عليه ودوشخ أي عذب بآلة تسمى الدوشاخه وطولب بأموال واسط وبيعت أملاكه وأسبابه واستوفي منه مال كثير ، ثم عين حاكماً لأربيل ثم عزل ورتب صدراً في طريق خراسان(أي منطقة لواء ديالى الحاليّة)ثم قبض عليه وخزم أنفه وطيف به في بغداد ثم عيّن ناظراً لقوسان ثم عزل ثم عين نائباً

---

(٢٥) الحوادث الجامعة ، ص٤٣٧ ـ ٤٣٨ .
(٢٦) ن.م. ص٤٦٤ ـ ٤٦٦ ؛ تاريخ الدول السرياني ، ص٣٩٤ ـ ٣٩٩ .
(٢٧) ن.م. ص٤٨١ ـ ٤٨٣ .

عن شمس الدين البروجردي في ديوان واسط ، فبقي كذلك الى ان توفي شمس الدين فعين مشرفاً لصدر ديوان واسط[٢٨] .

ترك سقوط بغداد السريع واستسلام أكثر المدن العراقية بأيدي المغول أثراً كبيراً في نفوس أهل العراق خلال السنين الاولى التي اعقبت الفتح حتى ليبدو ان الخوف قد سيطر على النفوس وقضى على كل رغبة في الثورة على الحكم الجديد بالرغم من كونه اجنبياً ووثنياً ومغولياً وان البلاد كانت قاعدة الاسلام وقد كان هذا واضحاً أيام هولاكو وابنه أباقا ولكن قبضة الحكام المغول أخذت تضعف مع الزمن وبدأ بعض العصاة يتجرأون على شق عصا الطاعة فيثيرون قلق الحكومة ويحملونها على التدخل وكانت الوضعية العامة على الحدود السورية حيث تجثم دولة المماليك العظمى أمرا يقلق بال الايلخانات خصوصا وان الصحراء الفاصلة بين سورية والعراق كانت موطناً لقبائل عربية شديدة المراس كان امراؤها يعملون على الافادة من النزاع الناشب بين الدولتين العظيمتين الايلخانية والمملوكية[٢٩] لجر المغانم لأنفسهم وكان عرب خفاجة قوة تعرقل الأمن وتنشر الخراب حول الكوفة . وكانت البطيحة في جنوب واسط ملجأ للعصاة والخارجين على الحكومة يضاف الى ذلك ان القوات المغولية الموجودة في العراق كانت في كثير من الأحيان سبباً من أسباب قلق السكان وارتباك أمن البلاد باعتداءها على الآمنين واعتيادها أيام غازان على اطلاق حيواناتها ترعى زروع الفلاحين وأراضيهم[٣٠] . أما عامة بغداد فلم يعودوا الى ما كانوا عليه في العهد العباسي من المعارك الا في أواخر أيام السلطان أباقا . ومع كل ذلك يمكن القول بصورة عامة ان الأمن كان يسود أكثر بلاد العراق خلال أغلب سني الحكم الايلخاني وان حوادث الشغب والثورات لم تصبح مهددة لمركز حكومة

---

(٢٨) ن٠م٠ ص٤٨١ ـ ٤٨٣ .

(٢٩) انظر صبح الاعشى ، ج٤ ، ص٢٠٣ ـ ٢١٠ ؛ ابو الفداء ، المختصر فى اخبار البشر ، ج٤ ، ص٨٧ .

(٣٠) انظر الحوادث الجامعة ، ص٤٩٢ .

العراق العربي أو الموصل بالشكل الذى كان يحدث في ايران مثلاً في هذا العهد ولم يحدث ان شق وال من ولاة بغداد عصا الطاعة على الحكومة الايلخانية ، ولعل هذا يفسر عودة النشاط الاقتصادي الى البلاد وانتعاش بغداد والبصرة والموصل وكانت أهم مراكز التجارة فيه .

ففي سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٤م نسمع لأول مرة عن حادثة شغب أكد المسلمون فيها أنفسهم أمام النصارى بسبب مسيحي اسلم وحاول جائليق النصارى تعزيقه[٢٧] . وفي ٦٧٧هـ/١٢٧٨م نسمع عن ظهور صبيين من الشطار انضم اليهما جماعة من الجهال فقويت شوكتهما وانتشر ذكرهما وأخذا بالتجرؤ على الناس وتكليفهم المال وتخويفهم اذا امتنعوا عن الدفاع ولكن صاحب الديوان أرسل اليهما من قبض عليهما وقتلهما[٢٨]. وفي ٦٨٠هـ/١٢٨١م نسمع عن أعراب مفسدين ظهروا في السيب واطراف واسط ، فسار اليهم جنود المغول الذين جاؤوا من سورية مهزومين من امام جيش المماليك ، فنهبوا منهم خلقاً كثيراً وعادوا بالأسرى والأموال ونزل الكثير منهم في دور بغداد وأخرجوا أهلها منها[٢٩] . وفي رمضان سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م ظهر في سواد الحلة رجل يعرف بأبي صالح ادّعى انه نائب صاحب الزمان أرسله ليعلم الناس أنه قرب ظهوره فانضم اليه خلق كثير وقصد بلاد واسط ونزل في موضع يسمى (بلد الدجلة) من أعمالها وأخذ الكثير من أموال الناس وسار الى قرية قريبة من واسط تعرف بالأرحاء فأنذره صدر واسط فخرالدين بن الطراح ، فرحل عنها وقصد الحلة فأخرج اليه صدرها (ابن محاسن) ابنه مع جماعة من العسكر فاقتتل الطرفان وقتل ابن صدر الحلة وانهزم اصحابه فكاتب هذا حكام بغداد يعرفهم بالأمر فسار شحنة العراق مع عسكره الى الثائر الذى قصد قبة

---

(٢٧) انظر الفصل السادس عشر .
(٢٨) الحوادث الجامعة ، ص٣٥٤ .
(٢٩) ن.م. ص ٤١٥ .

(الشيخ البقلي) بناحية (النجميّة) من قوسان وقتل كل من بها من الفقراء والصالحين ونهب أموال الناحية ، فوصل شحنة العراق اليهم وأحاط بهم وقتل أكثرهم وحمل رأس أبي صالح الى بغداد وعلق بها • ولكن رجلاً آخر اسمه (شامي) ظهر بقرية قرب واسط ، وادّعى ما ادّعاه أبو صالح وأمر الناس بالمعروف ونهاهم عن المنكر فمال اليه الكثير ولكن صدر واسط أرسل اليه يتهدده بالقتل ، فلما بلغه ما حلّ بأبي صالح هرب والتجأ الى العرب وتفرق جمعه[٢٩] • وفي ٦٨٤هـ/١٢٨٥م كان العداء بين الايلخانيين والمماليك سبباً في اغارة عسكر الشام على ديار بكر والموصل وأربيل وقتله وأسره الكثير ونهبه أموال التجار في قيسارية الموصل ، ويبدو ان النصارى كانوا هدفا رئيسا للاعتداء خلال فترة ضياع الأمن الذى نتج عن ذلك فقتل الكثير منهم في أربيل • ونهب الاكراد بلدتي (البوازيج) و (باصفرا) حتى هرب شحنة البوازيج وقصد بغداد وقتل جماعة من النصارى ونهبت أموالهم[٣٠] • وفي ٦٨٦هـ/١٢٨٧م دخل العرب في يوم الجمعة الى الجامع بالمحوّل[٣١] فأخذوا ثياب كل من كان فيه ثم قصدوا (الحارثية) فكبسوها ليلاً وأخذوا ما قدروا عليه وقتلوا جماعة من أهلها ، ولكن شحنة العراق ظل يفحص عنهم حتى ظفر بأكثرهم وضرب اعناقهم[٣٢] • وفي نفس السنة عادت الحرب بين محلات بغداد بسبب اهتمامهم بقتل السباع[٣٣] • وفي ٦٩٣هـ/١٢٩٣م أمر السلطان كيخاتو الأمير (بايدو) بالمسير الى بلاد واسط وسوادها لظهور جماعة من الاعراب المفسدين فيها ، فسار اليهم ولكن الاعراب لجأوا الى البطائح فلم يقدر عليهم ، فعاد مع عسكره وأخذ ينهب الأموال والجواميس والبقر والغنم وأسر الناس وسبى النساء وصادف

---

(٢٩) ن٠م٠ ص٤٣٩ ـ ٤٤١ •
(٣٠) ن٠م٠ ص٤١٥ •
(٣١) المحول : بلدة طيبة حسنة نزهة كثيرة البساتين والفواكه بينها وبين بغداد فرسخ واحد على نهر عيسى (مراصد الاطلاع ، ج٣ ، ص١٢٣٧) •
(٣٢) الحوادث الجامعة ، ص٤٥١ ـ ٤٥٢ •
(٣٣) ن٠م٠ ص٤٥٣ •

سفن التجار الواصلين من البحر فنهب بعض ما فيها من القماش ثم أنه أرسل جماعة من عسكره الى (عين التمر) و (الكنيسات) فنهبت الناس وأسرت وسبت منهم ، ثم ان بايدو عاد مع جنوده وذهب الى بغداد ومعه زيادة على ثلاثين ألف أسير ، فلما اتصل الخبر بالسلطان غضب عليه فحبسه ثلاثة أيام ثم أطلقه كما أطلق طائفة من أسراه وأرسلهم الى أهليهم[٣٤] .

(٣٤) ن٠م٠ ص٤٧٦ ـ ٤٧٧ .

الباب الثالث
الاحـــوال الاقتصادية

الفصل السادس
نظـــــام الـــرى

كانت البلاد التي تكون عراق اليوم تتألف في عهد الايلخانيين من ولاية العراق وأجزاء من ولايتي الجزيرة والعراق العجمي وكانت أهمها جميعا ولاية العراق العربي وقد حدده صاحب مراصد الاطلاع وهو معاصر بأنه كان يمتد (ما بين حديثة الموصل الى عبادان طولا وما بين عذيب القادسية الى حلوان عرضا)[1] وأشار اليه القزويني المتوفى سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م بأنه كان يمتد (من الموصل الى عبادان طولا ومن القادسية الى حلوان عرضا)[2] وفعل مثل ذلك عبدالله بن فضل الله صاحب تاريخ وصاف الذى وضع كتابه فى أوائل القرن الثامن الهجرى[3] والاشارتان الاخيرتان تمدان رقعة العراق العربى الى الشمال فتضيفان اليه جزءً من بلاد الجزيرة ، ويبدو أن سبب ذلك وقوع المنطقة الاخيرة تحت حكم الايلخانيين حالها في ذلك حال العراق ، بينما كانت المنطقتان منفصلتين عن بعضهما سياسيا واداريا خلال الفترة الاخيرة من العهد العباسي • وقد كان يشق هذه البلاد كما هو عليه الآن نهران عظيمان هما دجلة والفرات لولاهما لكانت قطعة من الصحراء • وكان أهم ما يميزهما عن الوقت الحاضر أن دجلة كانت تسير جنوب بغداد الى الغرب من مجراها الحالى فتمر بواسط وأن الفرات كان ينقسم تحت نقطة تفرع نهر كوثى منه بستة فراسخ الى فرعين يسير الغربى منهما الى الـكوفة ومنها

---

(١) مراصد الاطلاع ، ج٢ ، ص٩٢٦ •
(٢) القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ، ص٤١٩ •
(٣) تاريخ وصاف ، ج٤ ، ص٤٤٠ •

الى البطائح بينما يسير الآخر نحو الجنوب الشرقى الى مدينة بابل القديمة حيث يكوّن عمود النهر فى هذه الفترة ويتفرع عندما يتجاوزها الى عدة أنهار يمر أكبرها بمدينة النيل ويسمى بعدها بنهر الصراة ثم يصب فى دجلة[٤] عند مدينة سابس فوق واسط • وكانت تتفرع من الفرات عدة أنهر تصب فى دجلة أهمها نهر عيسى وكان يخرج من الفرات تحت مدينة الانبار ويصب فى جوف الجانب الغربى من بغداد ونهر صرصر ومخرجه من تحت نهر عيسى ومصبه فوق المدائن بأربعة فراسخ ونهر الملك ومخرجه تحت نهر صرصر ومصبه أسفل من المدائن بثلاثة فراسخ ونهر كوثى ومخرجه من تحت نهر الملك بثلاثة فراسخ ومصبه أسفل نهر عيسى بعشرة فراسخ وكان خربا فى هذا العهد على ما يقوله صاحب مراصد الاطلاع[٥] يؤيد ذلك عدم اشارة المستوفى القزوينى اليه • أما أهم الانهار التى كانت تتفرع من دجلة فهى نهر القورج فى شمالى بغداد على الجهة الشرقية منها وكان منه أكثر غرق بغداد[٦] • ومن الجهة الغربية كان يتفرع نهر دجيل من دجلة أسفل موقع مدينة القادسية جنوبى سامراء حيث تقوم عليه مدن وقرى عديدة ويصب فى دجلة[٧] بأزاء عكبراء • وكان نهر الاسحاقى الى الشمال من دجيل يخرج من دجلة جنوبى مدينة تكريت ويصب فى نفس النهر الى الشمال من مخرج نهر دجيل ويبدو أنه كان جافا فى هذه الفترة لاننا لم نعثر له الا على اشارتين ضعيفتين فى مراصد الاطلاع[٨] وصبح الاعشى[٩] • أما أهم الانهار التى كانت تنحدر من الجبال الشمالية الشرقية نحو دجلة فهى الزاب الكبير والزاب الصغير وديالى أو (تامرا)[١٠] •

وكان نهرا دجلة والفرات يدخلان البطائح بعد واسط والكوفة

---

(٤) أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص٥٤ ـ ٥٥ •
(٥) مراصد الاطلاع ، ج٣ ، ص١٠٢١ •
(٦) ن•م• ج٣ ، ص١١٣٢ •
(٧) ن•م• ، ج٢ ، ص٥١٦ •
(٨) ن•م• ، ج١ ، ص٤٢٥ •
(٩) صبح الاعشى ، ج٤ ، ص٣٢٤ •
(١٠) مراصد الاطلاع ، ج١ ، ص٢٥٠ ، ج٢ ، ص٥٤٨ •

وهى مجموعة من الاهوار كانت تمتد بين واسط والبصرة كان فيها الكثير من المواقع العالية التى ينكشف عنها الماء وتقوم عليها قرى ومزارع يكثر حواليها القصب ويزرع فيها الرز وغيره[١١] وكان النهران المذكوران يخرجان من البطائح ليلتقيان بالقرب من قرية (مطارة)[١٢] ويكونان دجلة العوراء أو شط العرب الحالى الذى كان يسير جنوبا نحو الخليج العربي[١٣] • وبينما يشير أبو الفداء الى كثرة الانهار التي كانت تتفرع من دجلة من الجانبين الشرقى والغربى حتى تبلغ فى عددها المائة الف[١٤] يقول المستوفى القزويني أن خمسة أنهر كبيرة هي (دقلة) و (غراف) و (جعفر) و (ميسان) و (ساسي) كانت تستنزف مياهه حتى لا يبقى فى مجراه بعد ذلك الا القليل الذى لم يكن يكفى لسير السفن[١٥] • يضاف الى ذلك أن أنهارا عديدة كانت تتفرع من دجلة العوراء[١٦] وتسقى المنطقة المحيطة بالبصرة ولكن الكثير منها كان خرباً[١٧] منذ أواخر العهد العباسي •

كان رخاء العراق يعتمد بالدرجة الاولى على الزراعة التى كان ازدهارها يقوم على نظام الرى لقلة الامطار التى تسقط فى هذه المنطقة ولم يكن لسلاطين الايلخانيين وحكامهم فى العراق سياسة واضحة فى هذا الشأن فلم يردنا ما يشير الى أن حكومات هذا العهد كانت تهتم بازالة ترسبات الانهار والقنوات ولا فتح قنوات جديدة الا النهر الذى أمر غازان بفتحه من الفرات من أعلى مدينة الحلة والذي سمى باسمه النهر الغازانى وربما كان هذا

---

(١١) تقويم البلدان ، ص٤٣ •
(١٢) مطارة من قرى البصرة على ضفة دجلة والفرات وملتقاهما بين المذار والبصرة (ياقوت ، معجم البلدان ، ج٥ ، ص١٤٧) •
(١٣) نزهة القلوب ، المصدر الذى مر ذكره ، ص٢٠٧ •
(١٤) أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص٥٦ ـ ٥٧ •
(١٥) نزهة القلوب ، ص٢٠٧ •
(١٦) انظر مراصد الاطلاع ، ج١ ، ص١٩٢ ، ٣٣٥ ج٢ ، ص٧٨١ ، ج٣ ص١٢٥٩ ، ١٣٩٩ •
(١٧) تقويم البلدان ، ص٥٦ ـ ٥٧ •

نفس النهر العباسي المسمى بالعلقمي ولكن غازان أعادة فتحه وتنظيفه[١٨] • وبينما يشير صاحب الكتاب الموسوم بالحوادث الجامعة اشارة مقتضبة اليه[١٩] يقدم لنا رشيد الدين فضل الله تفصيلا جيدا عنه بقوله ان غازان أمر بفتح نهر فى منطقة الحلة سمى بالنهر الغازانى أوصله الى مشهد الحسين حتى أخذ يسقى أراضى كربلاء اليابسة فأصبحت الاراضى الممتدة على جانبيه مليئة بالحدائق والبساتين واصبحت السفن القادمة من بغداد وغيرها من دجلة والفرات تستطيع الوصول الى المدينة وارتفع انتاج غلات المنطقة الى ما يقارب المائة الف طغار وأصبحت صادراتها من الحبوب والخضروات الفاخرة تصل الى بغداد واعمالها • ويضيف رشيد الدين الى ذلك ان غازان اوصل الماء فى فرع من النهر المذكور الى مشهد سيدى أبى الوفاء فى نهر سمى بالنهر الغازانى الاسفل وأوقف الكثير من الاراضى الجديدة على خدمة المشهد المذكور • وقد عمرت الاراضى الواقعة على نهر الغازانى وارتفعت أسعارها وأسعار البيوت التى انشأت عليها اضعافا مضاعفة[٢٠] • يضاف الى ذلك ان عطا ملك الجويني ، صاحب ديوان العراق فتح نهرا من الفرات الى النجف أنفق عليه اكثر من مائة الف دينار وقد زرعت الاراضى الواقعة عليه بالاشجار والمزارع[٢١] • وعلى الرغم مما كنا نسمعه من حوادث الغرق المتكررة لبغداد وكثير من مدن العراق خلال السنين الاخيرة من العهد العباسي فأن أخبار العهد الايلخانى لا تشير الا الى القليل منها فقد غرقت بغداد وانفتح القورج في ٦٧٦هـ/١٢٧٧م[٢٢] وزادت دجلة زيادة عظيمة غرقت بسببها عدة مواضع على الجانب الغربى حتى تلفت الكثير من الزروع سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م[٢٣] وزادت الفرات زيادة عظيمة

(١٨) تاريخ وصاف ، ج٤ ، ص٤٠١ •
(١٩) الحوادث الجامعة ، ص٤٩٧ •
(٢٠) داستان غازان ، ص٢٠١ ـ ٣٠٣ •
(٢١) تاريخ وصاف ، ج١ ، ص٥٩ ؛ قطب‌الدين اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ج٤ ، ص٢٢٥ •
(٢٢) الحوادث الجامعة ، ص ٣٩٤ •
(٢٣) ن•م• ص٤٤٢ •

غرقت فيها أعمال الحلة والكوفة ونهر الملك ونهر عيسى سنة ٦٨٥هـ /١٢٨٦م[٢٤] وغرقت بغداد غرقا عظيما حتى أحاط بها الماء من كل جهة سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٤م[٢٥] . وهذه حوادث قليلة متباعدة اذا قورنت بما كان يحدث فى أواخر العهد العباسى ويبدو ان الفرق بين الحالين يعود للصدفة فقط . ولابد لنا ان نلاحظ فى هذا المجال أنه بينما كان العراق العربى يكاد يكون دولة بنى العباس نفسها فى عهودهم الاخيرة ورخاؤه الاقتصادى أساس غناهم وقوتهم ، لم يعد فى العهد الايلخانى الا ولاية ممتازة فقط من ولايات عديدة تؤلف امبراطورية شاسعة وبينما كانت بغداد عاصمة العباسيين وقاعدة حكمهم أصبحت تبريز ثم السلطانية هما قاعدتا الايلخانين الرئيستان ولذلك فأن عناية هؤلاء تركزت فى ايران دون العراق الذى وقع لولاته أمر العناية الرئيسة بشؤونه التى كان من بينها أمور الرى يضاف الى ذلك ان الحكام الايلخانيين كانوا غير بعيدين عن البداوة وكان ادراكهم لامور الرى وما يرتبط بها من سياسة اقتصادية عامة محدودا . وقد زاد فى سوء الاحوال ما نشب بينهم من فتن وما حدث من تنافس وتآمر بين نوابهم من حكام العراق .

أما ما يقال عن تخريب الايلخانيين المغول المنظم لنظام الرى فى العراق فأنه أمر لا صحة له البتة لان المصادر المعاصرة لا تشير فى هذا الباب الا الى تخريبهم العمدى لنهر صغير من فروع دجيل خلال حربهم مع جيش الخليفة المستعصم بالله شمالي بغداد الغربية سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م[٢٦] . وقد كان نظام الرى العباسي الاخير قائما أيام الفتوحات الايلخانية .

---

(٢٤) ن٠م٠ ص ٤٤٩ .
(٢٥) شمس الدين الذهبى ، تاريخ دول الاسلام ، ج٢ ، ص١٧٧ .
(٢٦) الحوادث الجامعة ، ص٣٢٤ ، تاريخ وصاف ، ج١ ، ص٣٤ .

الفصل السابع
الزراعة

ليست لدينا حقائق واضحة يمكن الاطمئنان اليها عن مساحة الاراضى المزروعة فى العراق أيام الايلخانيين ولكن معرفتنا بنظام الرى القائم آنذاك وطبيعة البلاد وافادات الجغرافيين والسواح وكتاب التاريخ المعاصرين تدل على أنها كانت لا تزال كبيرة واسعة وقد كانت الزراعة تقوم بصورة رئيسة على نهرى دجلة والفرات والأنهار التى تصب فيهما وتتفرع منهما بينما كانت منطقتا الجزيرة والجبال أو العراق العجمى تعيشان على الامطار التى تتفاوت مقاديرها بين سنة وأخرى فتتفاوت المساحات الزراعية تبعا لها • يحدثنا المستوفى القزوينى ان العراق فى عهده كان يحتوى على الكثير من الاراضي غير الصالحة للزراعة بسبب كونها صحراء أو مغطاة بالاهوار وأن القوة الانتاجية للوحدة الزراعية كانت منخفضة فى عهده الى حد أنها كانت تبلغ نصف ما كانت عليه أيام الخليفة عمر بن الخطاب وأن من أسباب ذلك التدخل السيء غير الصالح من قبل الحكام فى شؤون الزراعة وبينما كانت مساحة الاراضى المزروعة والتي كان يتوفر لها الماء اللازم للزراعة تبلغ ستة وثلاثين مليون جريب في عهد الخليفة عمر بن الخطاب فانها أصبحت أصغر من ذلك فى أواخر العهد العباسي نظرا لموت مشروع النهروان وكان من أعظم مشاريع الرى فى العالم القديم وعالم القرون الوسطى وذلك أيام الملوك السلجوقية ولموت انهار وقنوات عديدة في البصرة وغيرها وتغير دجلة لمجراه الى اليمين شمالى بغداد ثم لجفاف نهر كوثى أيام الايلخانيين وأن النهر الغازانى لم يكن من السعة بحيث يعوض تلك الخسارة • ويمكننا القول باطمئنان ان المناطق الرئيسة التى كانت تقوم عليها ثروة البلاد الزراعية هى كما يلي :

أولا : منطقة ما بين النهرين دجلة والفرات الواقعة بين الحلة وبغداد

ويبدو أنها كانت أغنى بقاع العراق العربى وأكثرها انتاجا لكثرة الانهار التى كانت تجرى فيها من الفرات الى دجلة فابن جبير وقد مر بها فى ٥٨٠هـ /١١٨٤م يصف الطريق بين الحلة وبغداد بأنه أحسن طريق وأجملها تتصل به القرى يمينا وشمالا وأن الانسان لا يكاد يسير ميلا حتى يجد قنطرة على نهر يتفرع من الفرات وأن الحبوب والبساتين وحدائق النخيل تكثر فى المنطقة وأنه عند اقترابه من بغداد أصبحت دجلة تسقى شرقى المنطقة والفرات يسقى غربيّها والقرى متصلة بين النهرين[١] . ويلقى حمد الله المستوفى القزويني ضوءاً مفيدا على أحوال المنطقة فى أواخر العهد الايلخانى فى اشاراته المتكررة الى مدنها وأنهارها فهو يصف الحلة بكثرة بساتين النخيل الى حد ان مناخها أصبح رطبا بسبب ذلك ويصف غلاتها بالرخص والتشابه مع غلات بغداد[٢] ويصف منطقة نهر النيل بالقرب من الحلة بكثرة بساتين النخيل وانتاج الحنطة[٣] . ومع أنه لا يذكر نهر كوثى مما يدل على انه كان خربا فى عهده فأنه يشير الى نهر الملك بأنه كان يقوم عليه أكثر من ثلثمائة قرية تقدم لخزينة الدولة ضرائب تبلغ الخمسين ألف دينار[٤] ويصف منطقة نهر عيسى بأنها كانت تقدم مع توابعها واردات للخزينة تبلغ (٨٧٦٫٥٠٥)[٥] دينارا وعند كلامه عن منطقة بغداد يؤكد على رخص غلاتها الزراعية فى أكثر فصول السنة وتوفر الفواكه فيها ورخصها مثل التمر المكنوم والخستاوى والرمّان المسمى بالدراجى والعنب المراقى الذي لم يكن يوجد مثله في أية بلاد أخرى وزراعة القطن والحنطة والحبوب الاخرى فيها وغنى مراعيها حتى ان البقر فيها يبدو شديد السمنة وحيوانات الصيد كثيرة العدد[٦] .

---

(١) رحلة ابن جبير ، ص ٢٠٠ ـ ٢٠٣ .
(٢) نزهة القلوب ، ص٤٧ .
(٣) ن.م. ص٥٣ .
(٤) ن.م. ص٥٢ .
(٥) ن.م. ص٥٢ .
(٦) ن.م. ص٤١ .

ثانيا : منطقة البصرة : وقد وصفها أبو الفداء بكثرة البساتين والمزروعات[٧] وأشار ابن بطوطة الى المنطقةالواقعة بين ساحل البصرة والابلة حين مروره بها سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م بأنها بساتين متصلة ونخيل مظلة عن اليمين واليسار كما أشار الى مدينةالبصرة بأنها ذات بساتين كثيرة وفواكهأثيرة ليس في الدنيا أكثر نخلا منها[٨] . وزاد المستوفي القزويني على ذلك بقوله أن منطقة البصرة كثيرة البساتين الى حد يصعب معها على الانسان النظر خلالها لمسافة طويلة[٩] .

ثالثا : منطقة الفرات بين الانبار وعانة وقد وصفها رشيد الدين فضل الله في كلامه عند وصوله اليها مع السلطان محمود غازان في ٧٠٢هـ/١٣٠٢م بأنها الى سروج وحرّان فى حدائق وبساتين الظل الكثيف لا ينقطع عنها ودواليب النواعير تتحرك فيها ليل نهار[١٠] . وقد وصف ابن بطوطة المنطقة الواقعة بين الانبار وعانة عند مروره بها في ٨٤٧هـ/١٣٤٧م بأنها من أحسن البلاد وأشدها خصوبة والطريق فيها كثير العمارة كأن الماشى فيه يسير فى سوق من الاسواق وقال بأنه لم ير ما يشبه البلاد الواقعة على نهر الصين من حيث الجودة الا هذه البلاد[١١] .

رابعا : منطقة دجيل الى الشمال من بغداد بينها وبين تكريت وكانت تقوم عليها قرى كثيرة تقرب من المائة غلاتها الزراعية كبيرة أشهرها الرمان المعروف بالدراجي[١٢] .

خامسا : المنطقة الواقعة على نهر دجلة بين تكريت والموصل وقد أشار المستوفى القزويني الى شهرة ليمونها وتوفر الفاكهة فيها في تكريت[١٣] . واتفق ابن جبير وابن بطوطة على الرغم من تباعد الزمن بينهما على اتصال

---

(٧) تقويم البلدان ، ص٥٧ .
(٨) تحفة النظار ، ج١ ، ص١١٥ ، ١١٧ .
(٩) نزهة القلوب ، ص٤٥ ـ ٤٦ .
(١٠) داستان غازان ، ص١٤٤ .
(١١) تحفة النظار ، ج٢ ، ص١٧٥ .
(١٢) نزهة القلوب ، ص٤٨ ؛ مراصد الاطلاع ، ج٢ ، ص٥١٦ .
(١٣) نزهة القلوب ، ص٤٦ ـ ٤٧ .

القرى والعمائر فيها[١٤] . وأعجب الرحالة ابن سعيد ببساتين الموصل[١٥] وأكد القزوينى على توفر البساتين حول المدينة وانتفاع أهلها بدجلة انتفاعا جيدا ، مثل شقهم قناة منها نصبوا عليها النواعير ، وأقامتهم الطواحين في دجلة يديرها ماء النهر نفسه[١٦] . ويظهر من الحقائق التى قدمها صاحب مراصد الاطلاع ان القرى كانت كثيرة حوالى المدينة المذكورة والزراعة واسعة غنية[١٧] .

سادسا : طريق خراسان : وتقابل لواء ديالى فى وقتنا الحاضر ، وكانت من أغنى مناطق العراق وأكثرها سكانا وأشدها ازدحاما بالقرى الزراعية وقد كانت بساتين النخيل والفاكهة تكثر فيها خصوصا البرتقال وكانت من أهم مدنها بعقوبا وشهربان وباجسرا ومهرود وطسق والبندنيجين[١٨] .

هذه أهم مناطق العراق الزراعية أيام الايلخانيين وهناك مناطق صغيرة غيرها عرفت بجودة زراعتها ووفرة غلاتها مثل واسط وكانت معروفة بكثرة البساتين خصوصا النخيل[١٩] والكوفة وكانت مدينتها خربة في هذه الفترة ولكن المنطقة المجاورة لها معروفة بجودة محاصيلها من القطن والحنطة والحبوب الاخرى[٢٠] وأربل كانت معروفة بالحنطة والقطن[٢١] . وسنجار وكانت تقع فى منطقة غنية كثيرة البساتين غزيرة الفاكهة خصوصا الزيتون والتين والعنب الفاخر[٢٢] .

---

(١٤) رحلة ابن جبير ، ص٢١٦ ـ ٢١٩ ؛ تحفة النظار ، ج١ ، ص١٤٨ .
(١٥) كتاب بسط الارض ، ص٩٠ .
(١٦) آثار البلاد واخبار العباد ، ص٣٠٩ .
(١٧) ج١ ، ص٥٤ ، ٣١٠ ، ٣١٦ ، ٤٠٣ الخ .
(١٨) نزهة القلوب ، ص٤٩ ؛ مراصد الاطلاع ، ج٣ ، ص١٣٦١ ، ج١ ، ص٢٢٥ .
(١٩) نزهة القلوب ، ص٥٣ .
(٢٠) ن٠م٠ ص٣٧ .
(٢١) ن٠م٠ ص١٠٢ .
(٢٢) ن٠م٠ ص١٠٣ .

الفصل الثامن

ملكيات الاراضي والاقطاع

يمكن القول على ضوء النصوص المتوفرة لدينا أن الاصناف الآتية من الاراضى كانت موجودة فى العراق خلال الفترة الواقعة بين أول خلافة الناصر لدين‌الله وسقوط بغداد بأيدي المغول الايلخانيين (٥٧٥ - ٦٥٦) = (١١٧٩ - ١٢٥٨م) • (أ) أراضى الخليفة[١] (ب) أراضى الديوان أى ملكية حكومية[٢] (حـ) أراضى وقفية[٣] (د) ملكيات فردية[٤] •

ومع أنه يصعب علينا تحديد نسبة كل صنف من هذه الاصناف فأن كثرة اقطاعات الناصر لدين الله من أراضى الديوان[٥] يدل على سعة هذا الصنف من الاراضى فى عهده كما أن الاخبار الكثيرة عن الملكيات الفردية تؤكد سعتها[٦] أيضا •

ويبدو ان الخليفة الناصر لدين الله كان أكثر خلفاء بني العباس المتأخرين أقطاعا للاراضى والمدن فقد كان الامير فلك الدين الطويل الناصرى مقطع دقوقا وتكريت وبين النهرين[٧] والامير (آى ابه) بن

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج٨ ، قسم ٢ ، ص٥٦٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص٦٥ •

(٢) ابن الساعى ، الجامع المختصر ، ص١٢٩ ، ١٥٠ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ قسم ٢ ، ص ٥٢٧ •

(٣) مرآة الزمان ، ج٨ قسم ٢ ، ص ٦٨٧ ؛ الحوادث الجامعة ، ص ٦٣ - ٦٤ •

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج١٢ ، ص١٨١ - ١٨٢ ؛ عمدة الطالب فى أنساب آل ابى طالب ، ص١٥٣ - ١٥٥ •

(٥) ابن الساعى ، ج ٩ ، ص٢٧ ، ١٥٠ ، ١٨٠ ، ٢١٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٦٦ •

(٦) ابن الاثير ، الكامل ، ج١٣ ، ص١٨١ ؛ ابن كثير ، ج١٣ ، ص٦٦ ؛ الحوادث الجامعة ، ص٢٦٤ •

(٧) ابن الساعى ، الجامع المختصر ، ص٢٧ •

عبدالله التركى المعروف بالشاهين مقطع واسط[٨] مدة من الزمن والامير طغرل الناصرى مقطع اللحف والبندنيجين[٩] ومثل ذلك غيرهم . ولكننا لا نسمع في أخبار المستنصربالله الا القليل من أمثال ذلك مثل اقطاعه ككسنقر معاملة الحدادية من أعمال واسط في ٦٢٧هـ/١٢٢٩م وقوسان[١٠] في ٦٣٠هـ/١٢٣٢م والظاهر أن (قوسان) و (دقوقا) انتزعتا من مقطعيها لانهما اقطعتا بعد ذلك فى زمن غير محدد للامير الطبرسى الظاهرى المعروف بالدويدار الكبير[١٢] . وعند دراسة اقطاع هذا العهد نستطيع تمييز الخصائص الآتية فيه :

أولا : كان الاقطاع أسلوبا شائعا من أساليب الادارة العباسية يتم أحيانا بشكل ضمان يقبله المقطع ويحتفظ لنفسه بما يبقى من ايرادات اقطاعه فابن الساعي يذكر أن ضمان البصرة عقد في ٥٩٧هـ/١٢٠٠م على الامير عمادالدين طغرل بمبلغ مائة ألف وخمسة عشر ألف دينار[١٣] ثم يعود ليذكر في حوادث ٦٠٣هـ/١٢٠٦م وفاة الامير عمادالدين طغرل بن عبدالله التركي مقطع البصرة[١٤] ومما يؤكد ما ذهبنا اليه ان صاحب عمدة الطالب يذكر أن النقيب جلال‌الدين القاسم بن الزكى الثالث كان صدر البلاد الفراتية بأسرها ونقيبها أيام الناصر لدين‌الله وأنه حكم (قوسان) وكان قد ضمنها بغير اختياره لان ضمانها كان ثقيلا[١٥] .

ثانيا : يكوّن الاقطاع شكلا خاصا من أشكال التولية الادارية يختلف عن الضمان ويكون المقطع في هذه الحالة مسؤولا عن ارسال واردات

---

(٨) ن.م. ص١٢٩ .
(٩) ن.م. ص ١٣٠ .
(١٠) الحوادث الجامعة ، ص١٧ .
(١١) ن.م. ص ٤٣ .
(١٢) ن.م. ص ٢٦٤ .
(١٣) الجامع المختصر ، ج٩ ، ص٤٦ .
(١٤) ن.م. ص ١٢٥ .
(١٥) جمال‌الدين أحمد بن علي بن الحسين ، عمدة الطالب فى أنساب آل أبى طالب ، ص١٥٥ .

الاقطاعة الى الحكومة بعد أخذ نصيبه منها فقد ولّى الخليفة الناصر لدين الله الامير وجه السبع الكوفة اقطاعا في ٦٠٨هـ/١٢١١م[١٦] وأقطع مملوكه الامير علاءالدين تنامش (الدجيل) و (دقوقا) بعد أن كان الوزير ابن مهدى قد ولى المناطق المذكورة لابن ساوى النصرانى الذى أساء ادارة المنطقة فكان يأخذ لنفسه ما يريد من ايراداتها ويرسل للخليفة ما يريد[١٧].

ثالثا : ان رئيس الدولة هو المقطع (بالكسر) الوحيد وقد كان الخليفة نفسه في العراق في هذا العهد وأن الأقطاع لا يستلزم دائما حكما مباشرا من قبل المقطع (بالفتح) فقد يعمد هذا الى أنابة آخرين مكانه فى الحكم وقد يعني الاقطاع مجرد تمتع المقطع (بالفتح) بأيراد الاقطاعه دون الاشتراك فى الحكم بأى شكل من الاشكال فالامير فلك الدين أحد أمراء الناصر لدين الله كان مقطع (دقوقا) و (تكريت) و (بين النهرين)[١٨] فى نفس الوقت وهى مناطق متباعدة منعزلة عن بعضها يصعب تصور حاكمها مقيما فيها كلها فى نفس الوقت ولذلك لابد له على الاقل من انابة آخرين مكانه . ومن الجهة الثانية ورد فى أخبار بدرالدين لؤلؤ أمير الموصل المستقل أنه أمر الشاعر أبا الطيب ابن الحلاوى الموصلى أن يلازم مجلسه كسائر الندماء وأقطعه اقطاعا[١٩] . ويبدو على أقرب الاحتمال ان اقطاع الشاعر المذكور لم يكن يعنى المشاركة فى الحكم .

رابعا : ان نوعية الاقطاع كانت تتوقف على ارادة المقطع (بالكسر) فقد يكون الاقطاع اقطاع تمليك أي يتضمن حق توريث الاقطاعة والتمتع بايراداتها ما دام المقطع (بالكسر) راضيا عن المقطع (بالفتح) وأن هذا قد يخسرها متى شاء المقطع (بالكسر) . وقد كانت مصادرة موظفى الدولة ومن بينهم المقطعين أمرا شائعا . فالامير علاءالدين الطبرسى

---

(١٦) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج١ قسم ٢ ، ص٥٦٦ .
(١٧) ن٠م٠ ج٨ قسم ٢ ، ص٥٣٥ .
(١٨) الجامع المختصر ، ص٢٧ .
(١٩) ابن شاكر الكتبى ، فوات الوفيات ، ج١ ص١٣٢ .

المعروف بالدويدار الكبير كان يحب العمارات والمتنزهات وقد أقطعه الخليفة المستنصر بالله (قوسان) فاستجد بها أملاكا كانت تحمل اليه حدود الثلثمائة ألف دينار[٢٠] والمؤرخ ابن الساعي يحدثنا في حوادث ٥٦٩هـ/١١٧٣م عن وفاة فلك الدين الطويل الناصرى مقطع (دقوقا)[٢١] ويعود فى حوادث ٦٠١هـ/١٢٠٤م ليحدثنا عن القبض على الامير معين‌الدين قي آبه مقطع (دقوقا)[٢٢] وفي حوادث ٦٠٢هـ/١٢٠٥م يحدثنا عن وفاة ابنة أرغش مقطع (دقوقا) وزوجة الامير قشتمر الناصري[٢٣] . بينما يشير مصدر آخر الى وفاة تنامش بن عبدالله مملوك الناصر لدين‌الله الذى كان قد اقطعه (دقوقا) ودجيل[٢٤] ونقرأ فى الكتاب الموسوم بالحوادث الجامعة ان الامير سنقر الطويل صاحب (دقوقا) توفى فى ٦٤٤هـ /١٢٤٦م في عهد المستعصم بالله وان البلد المذكور كان قد أقطع لوالده في عهد الخليفة الناصرلدين الله فلما توفى انتقلت اليه من بعده فلما توفى هذا انتقلت الى نواب الخليفة[٢٥] . ونقل دقوقا بين مقطعين متعددين دليل واضح على امكانية انتزاع الاقطاع من ايدى المقطعين ومنحه لآخرين كما أن انتقاله الى الوارثين دليل على امكانية توريث الاقطاع في بعض الاحيان .

ان مقطعي (بالفتح) العهد العباسى الاخير الذين وردتنا أسماءهم كانوا من مماليك الخلفاء كفلك الدين الطويل الناصر وجمال الدين طغرل الناصرى وعلاء الدين تنامش الناصرى ومجد الدين طاشتكين المستنجدى وعلاء الدين الطبرسي الظاهرى وغيرهم وان أكثر الاقطاع كان من نوع الاستغلال لا التمليك أى أنه موقت لا يورث كما أن النصوص الواردة عنه ـ أى الاقطاع ـ تدل أنه لم يكن خاصة اساسية للاقتصاد العام فى ذلك الحين كما كانت عليه أحوال اوروبا الغربية آنذاك كما ان سيطرة رئيس الدولة

---

(٢٠) الحوادث الجامعة ، ص٢٦٤ .
(٢١) الجامع المختصر ، ص ٢٧ .
(٢٢) ن.م. ص ١٨٠ .
(٢٣) ن.م. ص١٨٠ .
(٢٤) مرآة الزمان ، ج٨ قسم ٢ ، ص ٥٣٥ .
(٢٥) الحوادث الجامعة ، ص ٢١٥ .

تنفي صفة الاستقلال الكامل أو الجزئي للمقطعين (بالفتح) وتشير الى أن الاقطاع كان أسلوبا اداريا واقتصاديا يناسب ظروف الأحوال القائمة يضاف الى ذلك ان أحوال العراق الاقتصادية كانت طبيعية ـ على العموم ـ فالتجارة نشطة والملكيات الفردية كثيرة والسوق هو المنظم الاساسى للاقتصاد الذى كان مفتوحا لا مغلقا كما كانت عليه الحال فى اوروبا الغربية •

واذا انتقلنا الى العهد الايلخانى نجد ان ملكيـة الاراضي احتفظت بنفس الميزات التي كانت عليهـا في العهد العباسـي الاخير باستثناء فروق محددة فالملكيات الفردية المستقلة كانت موجودة ولم نسمع أن الايلخانيين حاولوا القضـاء عليها فنقيب النقباء تاج الدين على من محمد بن رمضـان الذي كان صدر البلاد الفراتية حصل من الأموال والعقار والضياع على مالا يكاد يحصى[٢٦] وعلى بن محمد بن محمد البغدادى الرفاء أقام فى قرية اسمها (برقطا) واشترى فيها أرضا يستغل بها كفايته[٢٧]• وعطا ملك الجويني حاكم العراق المشـهور اضطر عند مضايقته والقبض عليه من قبل السـلطان الايلخانى (أباقا) بن هولاكو ان يبيع من أملاكه وأسبابه جملة طائلة[٢٨]• كما أن الاراضى الوقفية فى العراق كانت كثيرة[٢٩] وقد وضعت تحت اشراف نصيرالدين الطوسي وأولاده من بعده خلال جزء كبير من العهـد الايلخاني[٣٠] • أما الاراضي الديوانية فتدل عليها الاقطاعات المتكررة التى كان يمنحها السلاطين المغول بين حين وآخر ولم يكن ـ كما يبدو ـ هناك أى فرق بينها وبين أملاك السلطان الخاصة • وقد كانت للخليفة المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين ولافراد عائلته أملاك خاصة بهم ، وقد قتل المغول أكثرهم ولكننا لا نجد أية اشارة واضحة عما حل بأراضيهم •

---

(٢٦) عمدة الطالب فى أنساب آل أبى طالب ، ص ١٦٩ •
(٢٧) الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ١٠٤ •
(٢٨) الحوادث الجامعة ، ص٢١٥ •
(٢٩) ن•م• ص٣٣٣ ، ٣٥٠ ، ٣٥٨ ، ٣٧٥ •
(٣٠) ن•م• ص ٤٤٣ ، ٤٥٦ •

وقد أقطع سلاطين المغول أرضين وبلادا لاقاربهم وامراءهم وغيرهم ولكن النصوص الواردة عن ذلك لا تفرق تفريقا واضحا بين أقطاع التمليك واقطاع الاستغلال وان كان الصنفان قائمين فى دولتهم • فقد نزل الامير (منكوتمر بن هولاكو) جزيرة ابن عمر في ٦٨٠هـ/١٢٨١م وكان أبوه قد أقطعها لامه[٣١] • وجاء (أباقا خان) الى العراق في ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م وأقطع (المحول) في العراق لبلغان خاتون[٣٢] وفي كلام ابن فضل الله العمرى صاحب مسالك الابصار عن أرزاق امراء المغول وجنودهم ذكر ان لكل طائفة من العسكر (أرض لنزولهم توارثها الخلف عن السلف منذ ملك هولاكو البلاد ، فيها منازلهم ولهم بها مزدرع لاقواتهم ، لكنهم لا يعيشون بالحرث والزرع)[٣٣] • وأضاف الى ذلك (والذي للامراء والعسكرية لا يكتب به مرسوم لان كل طائفة ورثت مالها من ذلك عن آبائها) ثم قال أخيرا (وأما الادرارات من المبالغ والقرى فأنها تبقى لصاحبها كالملك يتصرف فيه كيف يشاء من بيع وهبة ووقف لمن أراد)[٣٤] وفى هذا اشارة الى ان اقطاعات السلاطين المغول لافرادهم كانت من نوع التمليك • وهناك نصوص أخرى تشير الى ان اقطاعات غير هذه كانت من نوع الاستغلال فقط ، أى ان المقطع (بالفتح) كان يؤدى حصة من واردات الحكومة دون ان تكون له حقوق ملكية مطلقة • فقد أقطع السلطان خدابنده بن أرغون) العالم الشيعي المعروف جمال‌الدين ابن المطهر الحلى بلادا كثيرة [٣٥] ولم يصلنا بعد ذلك ان العالم المذكور أورثها لاحد بعده ، وقد تقبل التاجر العراقي ابراهيم بن محمد المعروف بالسواملى بلادا بالعراق ـ فى هذا العهد ـ فكان يترفق بالرعية ويؤدى ما عليه[٣٦] •

---

(٣١) تقى‌الدين المقريزى ، السلوك ، ج١ ، قسم ٣ ، ص ٦٩٩ •
(٣٢) الحوادث الجامعة ، ص٣٧٥ •
(٣٣) صبح الاعشى ، ج٤ ، ص ٤٢٥ •
(٣٤) ن•م• ص ٤٢٦ ـ ٤٢٧ •
(٣٥) البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ١٢٥ •
(٣٦) الدرر الكامنة ، ج١ ، ص٥٩ •

وكاتب الامير مهنا بن عيسى امير قبائل طى المقيمة فى بادية الشام ، السلطان خدابنده فمنحه اقطاعا بالعراق هو مدينة الحلة وغيرها ، بينما استمر اقطاعه من سلطان المماليك بالشام وهو مدينة (سرمين) وغيرها وظل هو مقيما بالبرية لا يروح الى احدى الفئتين[٣٧] .

ويبدو ان الاقطاع الايلخانى كان يشبه الاقطاع العباسى من حيث كونه أسلوبا فى الادارة يتضمن قيام المقطع (بالفتح) بادارة الاقطاعة وارسال واردات للحكومة بعد قطع جزء منها لنفسه أو تقبلها بشكل ضمان يدفعه للحكومة ويحتفظ بما يزيد عن ذلك لنفسه . ومن ذلك ما مر بنا عن التاجر العراقى ابن السواملى وما جاء فى تاريخ وصاف فى الكلام عن تنظيم السلطان محمود غازان لضرائب العراق سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م حيث قال أن جميع أعمال العراق كالبصرة وواسط والحلة والكوفة والنيل والاعمال الفراتية ونهر الملك ونهر عيسى ودجيل وبعقوبا وطريق خراسان وغيرها وضع خراجها بثلاثة أشكال : ففرض على بعضها خراج مقنّن وأعطيت أخرى بشكل ضمان بينما جعلت الاجزاء الباقية بشكل أمانة باسم أحد أرباب الدولة أو ملوك الاطراف أو أحد مشاهير العصر[٣٨] . والصنف الاخير لم يكن الا نوعا من أنواع الاقطاع .

وأن أهم فرق نجده بين الاقطاعين العباسى الاخير والايلخانى ان الايلخانيين اكثروا من أقطاع المدن والبلاد من أجل تقديم خدمة عسكرية لهم أى للدولة ، وقد مر بنا فى ذلك ما أورده ابن فضل الله العمرى عن اقطاع الامراء والجنود المغوليين ويشبه ذلك ان الامير زامل بن على كان حربا على الامير عيسى بن مهنا وانه هجم على بيوته وسار الى هولاكو وأطمعه في بلاد الشام فأعطاه اقطاعا بالعراق فسار الى الحجاز ونهب وقتل ثم عاد الى الشام[٣٩] . وفي ٧١٨هـ/١٣١٨م سار الامير فضل بن عيسى الى

---

(٣٧) أبو الفداء ، المختصر فى أخبار البشر ، ج٤ ، ص٧٣ .
(٣٨) تاريخ وصاف ، ج٤ ، ص٤٠٢ .
(٣٩) المقريزى ، السلوك ، ج١ ، قسم ٢ ، ص ٥٣٥ .

السلطان الأيلخانى أبى سعيد وقائده الكبير جوبان فى بغداد ، فأعطاه هذا البصرة بينما استمرت له اقطاعاته بالشام ، وعاد الى بيوته[٤٠] . ومثل ذلك أن خدابنده أعطى الامير مهنا بن عيسى أمير العرب فى بادية الشام ، البلاد الفراتية[٤١] .

(٤٠) المختصر في أخبار البشر ، ج٤ ، ص٨٥ .
(٤١) الدرر الكامنة ، ج ٤ ، ص ٣٧٠ .

الفصل التاسع

الضـرائب

يصعب التمييز بين الضرائب الشرعية وغير الشرعية وهـو التصنيف الذى وضعه لها الفقهاء لان الضرائب الاسلامية تطورت مع تطور الدولة الاسلامية وحاجاتها النامية وظروفها المتغيرة فقد كانت مقصورة على الزكاة والغنائم والجزية في عهد الرسول (ص) وأضيفت اليها ضريبة الارض من خراج وعشور وضرائب خاصة على التجارة أيام الخلفـاء الراشـدين ثـم اتسعت اتساعا كبيرا أيام الامويين والعباسيين لاسيما ما وضـع منهـا عـلى الصادرات والواردات والاسواق والتركات • وقد أدى توقف الفتوحات الى حرمان بيت المال من مصادر مالية كبيرة ولكن سعة ارجاء الامبراطورية الاسلامية ايام عزها ووحدتها واستتباب الامن فيها وازدياد العمران والرخاء فى مدنها وريفها جعل امر فرض الضرائب على التجارات والصناعات مسألة طبيعية لا غبار عليها حتى ان تعدد الضرائب لم يكن يثقل كاهل الناس آنذاك ولكن تقلص رقعة الخلافة العباسية نتيجة لحركات الانفصال المتعددة حرم بيت المال من موارد عظيمة مفيدة يضاف الى ذلك ان انحلال الدولة منـذ تغلب الاتراك على السلطان وسيطرة البويهيين والسلجوقيين عليها كان السبب فى موجات من القلق وعدم الاسـتقرار والفوضى حتى دب الخراب الى الريف والمدينة فضعف الانتاج الزراعي والنشـاط التجارى فى الوقت الذي زاد فيه اسراف الحكام وبذخهم وعسفهم للسكان وانعكس كل ذلك على الضرائب بمختلف انواعها فتنوعت وازدادت ثقلا من حيث الكميـة واسلوب الجباية وصارت تخضع لاهواء الحاكمين وأمرهم وحاجاتهم غير المحدودة فبالاضافة لضريبة الارض من خراج وعشور وضريبة الجزيـة على أهل الذمة صارت المكوس وهي الضرائب غير الشرعية بنظر الفقهـاء تضم عددا متزايدا ومتنوعا من الضرائب • فقد كان الخليفة المهدي اول

من وضع ضريبة على الحوانيت والاسواق سنة ١٦٧هـ/٧٨٣م • ووضعت ضريبة على الارث فى خلافة المعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩هـ) = (٨٧٠ ـ ٨٩٢م) وشاعت الظرائب على البضائع المنقولة على البر والبحر فى القرن الرابع الهجرى ومنها الضرائب التي تجلبها السفن الى الموانى او تخرج بها منها واخذت الضرائب تفرض على الطـــواحين والدور والدخـــل والمراعي احيانا[١] • وهناك نوع من الضرائب ترد تحت اسم معونة وجمعها معاون وكانت في أصلها نوع من السخرة تفرض على الفلاحين لحفر الترع واقامة السدود ثم استبدلت بضريبة مالية تدفع للحكام[٢] • ومن الضرائب الثقيلة التي كانت مفروضة على أهل الريف في هذا العهد ضيافة الجنود ويحددها الفقهاء بثلاثة ايام وليالي[٣] • وكان قواد الجند يقسطون اموالا على الاهلين حينما كانت ايديهم تخلو من المال ويجبونها منهم • وفوق مـا مر كثرت المصادرات في القرون الأخيرة من العهد العباسي حتى صارت أمرا مألوفاً فكان الخلفاء يصادرون الوزراء وكبار الموظفين وهؤلاء يصادرون الرعية خصوصا وقد انتشر الفساد وصار الكثير من اموال الجباية لا يصل الى الخزينة[٤] • ومن الجهة الاخرى شاع نظام التقبل او الضمان فى جباية كثير من الضرائب بالرغم مما فيه من عسف واجحاف لدافعي الضريبة وخراب للبلاد خصوصا الاراضي الزراعية وكان يصاحبه في كثير من الاحيان تعذيب وارهاب وقـد أشار أبو يوسف بما يفيد وجود هذا النظام حتى في زمانه وهـــو معاصر للخليفة هرون الرشيد فقال ان المتقبّل اي الضامن يريد فضلا اي ربحـا يحقق لنفسه ولا يبالي باستعمال التعذيب والضرب فى سبيل ذلك[٥] •

---

(١) عبدالعزيز الدورى ، تاريخ العراق الاقتصادى في القرن الرابـــع الهجرى ، ص١٨٠ ـ ٢٠٨ •

(٢) جرجى زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامى (دار الهلال) ، ج٢ ، ص١٤٩ •

(٣) Frede Lokkegaard, Islamic Taxation in the Classic Period, P. 185-187.

(٤) انظر : زيدان ، تمدن ، ج٢ ، ص١٥٤ ـ ١٦٦ •

(٥) ابو يوسف ، كتاب الخراج ، ص١١٥ •

كان الخراج هو الضريبة الرئيسة التي تفرضها الدولة لا سيما فى العراق الذى كانت الزراعة فيه هي المصدر الاول للثروة العامة ولذلك كثر اهتمام الدولة به وتأكيدها عليه فى مختلف العهود وقد صارت اكثرية بلاد العراق خراجية فى اواخر العهد العباسي وكان الخراج يجري تبعا للمساحة ثم أصبح بالمقاسمة منذ ايام الخليفة المهدي وقد جعل الخليفة المأمون مقاسمة أهل السواد الخمسين بعد ان كانت النصف أيام الرشيد • اما الجزية فهي الضريبة المفروضة على أهل الذمة مقابل حمايتهم واعفائهم من الخدمة العسكرية وكانت حصيلتها فى تدهور مستمر بسبب الاعداد المتزايدة من أهل الذمة الذين كانوا يدخلون الاسلام • وفى أواخر العهد العباسى كان الصابئة معفوين منها حتى كأنهم فى ذلك في حكم المسلمين[٦] • وقد وردتنا اسماء لضرائب غير واضحة المعنى كانت تجبى فى ذلك العهد مثل المؤن التي يرى الاستاذ عباس العزاوي انها كانت فى أصلها هدايا اكتسبت مع مرور الزمان شكل رسوم مقررة[٧] • ولكننا نميل الى الاعتقاد الى أنها احدى الضرائب الكثيرة التي كانت مفروضة على الاسواق والمبيعات[٨] • وهناك التقسيطات التي يبدو انها ضرائب استثنائية يقسطها الحكام على الناس عند الحاجة[٩] • والتأويلات التي ربما كانت ضرائب كيفية لا سند لها غير جشع الحكام وفرضهم المال على الناس بالتأويل[١٠] • يضاف الى ذلك ما كانت تجمعه الدولة من المصادرات خصوصا بالنسبة لتركات أصحاب الغنى والثراء من الموظفين[١١] •

وبالرغم من قلة المعلومات التي وصلتنا عن الاحوال المالية في اواخر

---

(٦) الحوادث الجامعة ، ص٦٩ •
(٧) تاريخ الضرائب العراقية ، ص٢٢ •
(٨) انظر الحوادث الجامعة ، ص ١٦٢ ، ٤٠٤ ؛ العسجد المسبوك ، الورقة ١٦١ •
(٩) ن•م• ص ١٦٢ •
(١٠) انظر : ناجى معروف ، المدارس الشرابية ، ص٥١ حاشية رقم (٣) •
(١١) الحوادث الجامعة ، ص١٠٣ ، ١٩٨ ؛ عمدة الطالب ، ص١٥٥ •

العهد العباسي يبدو ان الضرائب كانت في كثير من الاحيان عرضة لنزوات الحكام وأهوائهم من حيث كمياتها وانواعها فابن الاثير وهو مؤرخ معاصر مطلع يحدثنا ان الخليفة الناصر لدين الله احدث الكثير من الرسوم الجائرة حتى رفع خراج بعقوبا من عشرة آلاف الى ثمانين الف دينار سنويا وأنه كان يأخذ أملاك الناس واموالهم فخرب العراق في عهده وتفرق أهله في البلاد فلما جاء ابنه الظاهر بأمر الله أمر باعادة الامور الى سيرتها الطبيعية قبل أبيه والغى الرسوم الجائرة وأعاد الكثير من الاموال المغتصبة الى أهلها[١٢] . وعندما ضم الخليفة المستنصر بالله أربل الى مملكته سنة ٦٣٠هـ /١٢٣٢م أرسل الامير باتكين بن عبدالله الرومي واليا عليها فأطلق هذا معظم الضمانات وأزال المكوس والضرائب[١٣] ولكن يبدو ان الضرائب عادت الى الارتفاع في ايام المستنصر بالله لان ولده وخليفته المستعصم بالله أمر في أول توليته سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م بازالة ما أحدثه عمال السوء من المكوس والتقسيطات والمؤن والتأويلات وقد أخذ الوزير حاجب باب النوبي معه عند صدور هذا الامر خوفا عليه من العوام لانه كان المسؤول عن أخذ المؤن ولانها حدثت في زمانه[١٤] .

أما أسلوب جباية الضرائب في اواخر العهد العباسي فقد كان على ثلاثة أنواع هي الاقطاع[١٥] والضمان والجباية المباشرة . وقد كان الضمان كثير الشيوع في جباية الخراج والجباية المباشرة هي الاسلوب السائد في جباية الجزية وكثير من المكوس وكان للجزية ديوان خاص يسمى بديوان الجوالي يأتي كل ذمي بنفسه حيث توزن له جزيته ويكتب له بها[١٦] . وكان الضمان سببا في زيادة أعباء الضرائب على دافعيها وسلب

---

(١٢) الكامل ، ج١٢ ، ص١٨١ ـ ١٨٣ .
(١٣) الحوادث الجامعة ، ص١٨٢ .
(١٤) العسجد المسبوك ، الورقة ١٦١ .
(١٥) انظر ص١٠٠ .
(١٦) الحوادث الجامعة ، ص١٣ .

أموالهم وأملاكهم من قبل الضامنين في كثير من الاحيان ومثال ذلك ان وزير الخليفة الناصر لدين‌الله المسمى ناصر بن مهدي ضمن قوسان للنقيب زكي الدين بمائة وعشرين ألف دينار ذهبا وهو أضعاف ضمانها السابق فعمل هذا على التهرب من الضمان ولكن ابنه جلال الدين القاسم تقبله وخرج الى قوسان وعسف بالناس بشكل لم يسمع بمثله من قبل مثل زرعه ضياع بعض الناس واستيلائه على جميع ما حصل في احدى القرى التي كانت له عداوة مع أهلها وتشدده معهم واهانتهم ثم أنه حمل جميع ما حصل عليه هناك من الغلات وحرزها والتمس من الوزير ان يمنع بيع الغلات والحبوبات مدة عشرة أيام فأجيب الى ذلك وارتفعت الاسعار حتى باع كل ما لديه خلال أسبوع ووفى ضمانه وربح لنفسه الكثير[١٧] .

اما ضرائب العهد الايلخاني فأنها كانت استمرارا للضرائب العباسية حتى اننا لا نجد ضريبة ايلخانية الا ولها سابقة في عهد ما من العهود العباسية . ولكن الضرائب الايلخانية كانت اكثر ثقلا وخضوعا لاهواء الحكام وجشعهم الذي لم يعد له حدود. وقد وردتنا أكثر الضرائب الايلخانية تحت الاسماء الآتية : ضريبة الارض او الخراج وضريبة الرؤوس وضريبة البيوت والعقارات وضرائب الاسواق والتمغات والقبجور أو ضريبة المراعي وحصة الديوان من الاوقاف وما كانت تحصل عليه الحكومة من غش النقود ومصادرة الموظفين وأخيرا ما كان ينفقه أصحاب الدور على الجنود الذين كانت تفرض اقامتهم عليهم أحيانا .

فالخراج وهو ضريبة الارض القديمة كان يؤخذ بالمقاسمة بنسبة الخمسين باستثناء النخل والشجر التي كان يؤخذ منها حسب المساحة[١٨]. وقد كان يحسب طبقا للسنة الشمسية مما كان يزيد البون اتساعا بين السنة الخراجية والسنة الهلالية حتى أن سنة ٦٩٤ الخراجية كانت تساوي سنة

---

(١٧) عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب ، ص١٥٥ .
(١٨) ابن الطقطقى ، الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص١٨٢ .

٧٠٢هـ الهلالية[١٩] أما ضريبة الرؤوس أو الجزية التى كانت تفرض على أهل الذمة فقط أيام العباسيين فأنها أصبحت تشمل الجميع دون تمييز بعد دخول العراق ضمن الدولة الايلخانية حتى أننا نسمع أن الاوامر صدرت في ٦٥٧هـ/١٢٥٨م بجمع أهل بغداد وتقرير ما يؤديه كل منهم في كل سنة على قدر حاله ما عدا الشيخ الكبير ومن هو غير بالغ[٢٠] . وهناك الضريبة المتمثلة بنقل أرث الميت الذى لا وارث له الى بيت المال والضريبة على التركات التي نجهل مقدارها ولكننا نعرف وجودها فى أوائل العهد الايلخاني من أشارة عطا ملك الجويني الذى حكم العراق بين ٦٥٧هـ - ٦٨١هـ (١٢٥٨م - ١٢٨٢م) حيث يقول (عندما عهد لى هولاكو أمر حكم العراق وجدت ضرائب الارث تؤخذ فى تلك المنطقة بأجمعها ولكنني ألغيتها .)[٢١] يضاف الى ذلك أننا نجد اشارة الى ديوان للتركات فى حوادث سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م[٢٢] مما يؤيد وجود ضريبة أو مجموعة ضرائب على التركات فى هذا العهد .

وفيما عدا ذلك نسمع لاول مرة فى أخبار العهد الايلخاني فى العراق بضريبة على البيوت والعقارات جاءت في ٦٧٧هـ/٢٧٨م في أمر ورد الى والي العراق عطا ملك الجويني بأثبات الدور في بغداد ومطالبة أربابها بالاجرة عنها شهرين[٢٣] . ونسمع فى أخبار نفس السنة بضريبة على المبيعات باسم المؤونة حيث باع أحد أهل السواد كارة من الدخن بدرهم طولب بالمؤونة عنها درهمين ولذلك تركها وانهزم[٢٤] . وقد ورد ذكر الضريبة على المراعي أو ما يسميها المغول بالقبجور أو القيجور في حوادث سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م

---

(١٩) تاريخ وصاف ، ج٤ ، ص٤٠٢ .

(٢٠) الحوادث الجامعة ، ص ٣٣٩ .

(٢١) 'Ata Malik Juvaini, The History of the World Conqueror, Op. Cit., Vol. 1, p. 34.

(٢٢) الحوادث الجامعة ، ص٤٧٨ .

(٢٣) ن.م. ص ٣٩٨ .

(٢٤) ن.م. ص٤٠٤ .

فقد رفع امراء المغول الامبراطور الجديد (مونغا) على سرير المملكة فأمر بعد ان فرغ خاطره من أمر المخالفين وتعيين الولاة ان يؤخذ من مراعي ذوات الاربع وتسمى قويجور من كل من له مائة رأس رأس واحد ومن ليس له مائة لا يؤخذ منه[٢٥] . ومعنى ذلك أن الضريبة كانت واحدا بالمائة ولكننا لم نعثر بعد وقائع السنة المذكورة وقد سبقت فتح العراق ببضعة سنين على ما يشير الى جباية مثل هذه الضريبة في العراق[٢٦]. وهناك ضريبة التمغات وليس لدينا ما يلقي ضوءً على طبيعتها ولكن يبدو أنها كانت مجموعة من الضرائب المفروضة على التجارة الداخلية في المدن وقد كان هناك ضامن لتمغات بغداد[٢٧] في هذا العهد وكان من جملة الاعمال المشكورة التي قام بها السلطان (أباقا بن هولاكو) عند وروده بغداد في ٦٧٢هـ/١٢٧٣م أصداره الاوامر بالاحسان الى الرعية وتخفيف التمغات وحذف الاثقال عنهم[٢٨] . وبينما يرى الاستاذ العزاوي ان التمغات ضريبة على الاموال التجارية الداخلية اتخذت هذا الاسم بسبب التي السمة كانت توضع بدلها على الأموال وتسمى تمغا[٢٩] يفسرها الاستاذان M. Minovi V. Minorsky بأنها ضريبة بنسبة ١/٢٤٠ كانت توضع على رأس المال وأنواع أخرى عديدة من ضرائب كانت تفرض في المدن[٣٠] . وفيما عدا هذا نقرأ عن ضرائب كانت تجبى من الناس بالقوة وترد تحت اسم المساعدات والقروض وكانت تنزل على الناس بشكل مفاجيء بين حين وآخر[٣١] .

---

(٢٥) ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٥٩ .

(٢٦) لم يرد في الكتاب الموسوم بالحوادث الجامعة ، وهو أوسع المصادر الاولية عن تاريخ العراق في القرن السابع ما يشير الى وجود هذه الضريبة في العراق .

(٢٧) الحوادث الجامعة ، ص٤٥٨ .

(٢٨) ن٠م٠ ص ٣٧٥ .

(٢٩) عباس العزاوي ، تاريخ الضرائب العراقية ، ص٣٥ .

(٣٠) "Nasir-al-Din Tusi on Finance," B. of O.S., Vol. 10, p. 78.

(٣١) الحوادث الجامعة ، ص ٣٩٨ ، ٤٢٤ ، ٤٣٠ ، ٤٥٠ .

وهناك مصادرات موظفي الحكومة بمختلف درجاتهم واختصاصاتهم وكانت كثيرة الوقوع وغير محدودة فى كميتها تصل أحيانا الى حد الاستيلاء على كل ما يملكه الموظف وتعريض حياته نفسها الى الخطر[٣٢] . وحصة الحكومة من أموال الاوقاف وليس لدينا ما يحدد كميتها وان كانت النصوص الاولية تثبت وجودها[٣٣] . وهناك ضرائب كانت تفرض على الغزل وأماكن بيع الخمر وعلى محلات الفاحشة[٣٤] وأخرى تتمثل بتلاعب الحكومة بالنقود بأصدارها عملات تقلّ فيها نسبة المعادن الثمينة وقد أمر السلطان محمود غازان عند وروده العراق في ٦٩٨هـ/١٢٩٨م بأن يعفى الذهب والفضة من الغش وتضرب الدراهم متساوية[٣٥] . ولابد لنا أخيرا ان نعد بين الضرائب ما كانت تلجأ اليه الحكومة أحيانا من فرض الجنود على البيوت[٣٦] بالزام أهلها أمر النهوض بما يحتاجون اليه من الطعام وغيره .

أما أسلوب جباية الضريبة في هذا العهد فيبدو لنا أنه كان على ثلاثة أنواع هي الضمان والجباية المباشرة والاقطاع ، فالضمان كان يتم بتعهد أحد الناس تقديم مبلغ معين للحكومة عن منطقة من المناطق مقابل جبايته ضرائبها لنفسه والاقطاع هو أن تقطع المنطقة أو المدينة أو غيرها لاحد الافراد مقابل دفع حصة معينة متفق عليها من ضرائبها للحكومة[*] أما الجباية المباشرة فهي ان يكون للحكومة موظفون مربوطون بها يقومون بجباية الضرائب طبقا لاوامرها . وقد ورد ما يشير الى هذا فيما ذكره تاريخ وصاف في ان السلطان محمود غازان نظم ضرائب العراق في سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م فجعل خراجه بثلاثة أشكال ففرض على بعض أراضيه خراجا مقننا وأعطى أخرى بشكل ضمان وعهد الباقي بشكل أمانة باسم أرباب الدولة أو ملوك الأطراف أو أحد مشاهير العصر وأصبح كل شخص يعرف ما يقع له دون

---

(٣٢) ن.م. ص ٣٤٩ ، ٣٨١ ، ٤١٥ .
(٣٣) ن.م. ص ٤٤٣ .
(٣٤) أبو الفداء ، المختصر فى أخبار البشر ، ج ٤ ، ص ١١٧ .
(٣٥) الحوادث الجامعة ، ص ٤٩٨ .
(٣٦) ن.م. ص ٤٤٣ .
(*) انظر ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

ان يختلط ما يقع تحت مسؤوليته بمسؤولية غيره وطلب من جباة الضرائب الاستمرار على هذه القاعدة في المستقبل[٣٧] .

ويبدو أن الضمان كان أكثر الاساليب شيوعا في جباية الخراج وضرائب الاسواق والتمغات والخمر والفاحشة وهي ضرائب مستقرة الى حد بعيد . والجباية المباشرة الوسيلة المتبعة في استحصال ضرائب المساعدات الاجبارية والقروض الاجبارية والضرائب على البيوت والعقارات وغيرها من الضرائب التي لم تكن ثابتة ولا مستقرة . ويبدو أن صاحب ديوان العراق او واليه في أكثر الاحيان هو الضامن العام لضرائبه الذي يقدمها للحكومة المركزية ويحتفظ لنفسه بقدر كبير منها بينما يقوم بدوره بضمان ضرائب كل منطقة لآخرين يتعهدون بتقديم ما يجب عليهم ويحتفظون بالباقي لانفسهم ومن ذلك أن الصاحب علاءالدين عطا ملك الجويني فوّض اليه أمر العراق وخوزستان على سبيل الضمان[٣٨] . وعقد ضمان العراق في ٦٩٨هـ /١٢٩٨م علي امام‌الدين يحيى القزويني البكري[٣٩] وضمنت الاعمال الواسطية لفخرالدين مظفر بن الطراح في ٦٨٣هـ/١٢٨٤م والاعمال الحلية لمجدالدين اسماعيل بن الياس ٦٨٦هـ/١٢٨٧م[٤٠] .

واذا استعرضنا وقائع العهد الايلخاني نجد أن ضرائبه كانت ثقيلة من حيث الكمية الى حد ان الضمناء أنفسهم كانوا يعجزون عن دفعها أحيانا وأنها كانت كيفية في كثير من الوجوه تخضع من حيث الكمية والنوعية ووقت الجباية لارادة الحاكم أو الضامن أو جابي الضريبة نفسه وأن طريقة الضمان كان يعقبها على الاكثر جباية الضامن الكثير من المال لنفسه اضافة لما هو مكلف بدفعه للحكومة وأن الفساد كان شائعا بين الحكام وجباة

---

(٣٧) تاريخ وصاف ، ج٤ ، ص٤٠٢ .
(٣٨) ن.م. ج١ ، ص٩٥ .
(٣٩) الحوادث الجامعة ، ص ٤٦٨ .
(٤٠) ن.م. ص ٤٥٣ ـ ٤٥٤ .

الضريبة الى حد كان يجعل أكثر الاموال في أكثر الاحوال لا يصل الى خزينة الحكومة ولعل ذلك كان من جملة الأسباب التي تدفعها الى مصادرة الحكام والضمناء والجباة وتعذيبهم والفتك بهم حيث تتعمّد غض النظر عن تصرفاتهم من أجل اتخاذهم اسفنجة تمتص بواسطتهم أقصى ما تستطيعه من أموال دافعي الضرائب للانفاق على حاجات الدولة وسلاطينها وأمرائها ، وقد اعترف السلطان محمود غازان في ديباجة القانون الذي أصدره في ٨٠٤هـ/١٣٠٣م لاصلاح أحوال الضرائب في الامبراطورية الايلخانية بأن جباة الضرائب كانوا يأخذون اضعاف ما هو مطلوب منها من الناس تحت أنواع من العلل والاسباب والاسماء لكونها - أي الضرائب - لم تكن محددة بصورة مفصلة واعترف كذلك بأن أكثر ما كان يجبى من الضرائب لم يكن يصل الى بيت المال . وقد جاء في نص القانون المذكور بأن الغاية من اصداره هي تعيين وتقرير أموال الممالك وأحوالها ودفع الجور وأنواع الكلف الديوانية وازالة الضرائب الزائدة التي كان يجمعها الجباة لانفسهم وان موظفي الضرائب أرسلوا الى جميع الممالك ليقوموا بتحديدها وتفصيلها في كل ولاية ومدينة وقرية لكي لا يظل هناك مجال للجباة بأخذ مبلغ أكثر منها وأن ميعاد دفع الضرائب سوف يحدد وكمياتها سوف تقرر وتثبت[٤١] . ونحن نشك باستمرار تطبيق هذا القانون بعد غازان . والخراج وهو أكثر الضرائب تحديدا واستقرارا ضوعف من قبل جمال الدين الدستجرداني وصدرالدين الخالدي أصحاب الديوان وأن الاول منهما أجبر أهل العراق في ٦٩٥هـ/١٢٩٥م على دفعه ذهبا فأعاده غازان الى ما كان عليه سابقا في السنة التالية كما أمر بقتل صدالدين الخالدي في ٦٩٧هـ/١٢٩٧م لمضاعفته الخراج ومبالغته في المصادرات والتثقيلات[٤٢] . وقد كان يحدث ما يشبه ذلك فيما يتعلق بالضرائب الاخرى ففي ٦٧٧هـ

---

(٤١) داستان غازان ، ص ٢٥٧ - ٢٦٤ .
(٤٢) الحوادث الجامعة ، ص ٤٩٣ - ٤٩٥ .

/١٢٧٨م صدر الامر لعلاءالدين عطا ملك الجويني بأثبات الدور في بغداد فأثبتت وطولب أصحابها بالأجرة - أي الضريبة - عنها شهرين وفي ٦٨١هـ/١٣٨٣م طولب أهل بغداد بأجرة أملاكهم عن ثلاثة أشهر واستوفيت الضريبة من أكثرهم ولكن الامر صدر بعد قليل من ذلك باعفاءهم جميعا ثم صدر في السنة التالية بوجوب دفعهم الضريبة عن مساكنهم عن ثلاثة أشهر[٤٣] . وقد فرضت ضريبة الرأس على أهل بغداد في ٦٥٧هـ/١٢٥٨م وذلك بأن يدفع كل على قدر حاله ما عدا الشيخ الكبير وغير البالغ ولكن علاءالدين عطا ملك الجويني ألغاها عند مجيئة الى بغداد واليا عليها في نفس السنة[٤٤] . ولم نعد نسمع عنها بعد ذلك . وقد طلبت الحكومة مساعدة مالية من بغداد وأعمالها في ٦٧٧هـ/١٢٧٨م جبيت بالعسف والقوة فأدت بالناس بالاضافة الى ضريبة الدور التي طلبتها في نفس السنة الي الاختفاء وغلق الاسواق فطولبت النساء بما قرر على رجالهن ولم ينج من ذلك حتى العلويين والقضاة والعدول[٤٥] . وألزم الامير أرغون بن اباقا ، أهل بغداد ، وقد حضرها في ٦٨١هـ/١٢٨٢م بالمساعدة وأحضر قاضي القضاة عزالدين بن الزنجاني وقرر عليه وعلى العدول عشرة آلاف دينار واستوفيت الضريبة من الناس بالقوة وكان كل من اختفى من الناس نهبت داره وما فيها وجرى مثل ذلك على نواب الاعمال الحلية والواسطية والبصرية[٤٦] وفي ٦٨٢هـ/١٢٨٣م وصل شرفالدين هرون ابن الصاحب شمسالدين محمد الجويني كصاحب لديوان بغداد والزم تجار بغداد بالقرض والمساعدة وضويقوا على ذلك[٤٧] . وفي ٦٨٦هـ /١٢٨٧م فى عهد السلطان أرغون ، وضع والي بغداد قتلغ شاه بن سنجر

---

(٤٣) ن٠م٠ ص ٣٩٨ ، ٤٢٤ ، ٤٣٠ .
(٤٤) ن٠م٠ ص ٣٣٩ .
(٤٥) ن٠م٠ ص ٣٩٨ .
(٤٦) ن٠م٠ ص٤٢٤ .
(٤٧) ن٠م٠ ص ٤٣٠ .

أموالا على أهل المدينة على وجه القرض قسّطها عليهم وتشدد في جبايتها ولكنها أسقطت عنهم بعدئذٍ بوصول حكام آخرين أرسلوا لتصفح أحوال العراق[٤٨] . وفي ٦٩٤هـ/١٢٩٤م كلف أرباب الاموال من أهل بغداد والتجار والتناة وغيرهم بدفع أموال على وجه المساعدة وحمل ذلك الى السلطان بايدو[٤٩] .

وبينما نجد الكثير من حكام لعراق يجمعون الاموال لانفسهم حتى تبلغ مقادير كبيرة يحجبون الكثير منها عن خزينة الدولة نجد آخرين يعجزون عن دفع ما هو مقرر عليهم لثقله ففي ٦٨٥هـ/١٢٨٦م وشى حكام العراق بصاحب الديوان علاءالدين عطا ملك الجويني الى هولاكو بأنه حصل لنفسه أموال كثيرة فأمر بتقريره فثبت عليه ذلك فأمر بقتله ولكنه عاد فعفا عنه[٥٠] . وفي ٦٦٠هـ/١٢١٦م رفع الى هولاكو أن عمادالدين القزويني أحد حكام بغداد قد استوعب لنفسه الاموال فأمر بالفحص عنه فثبتت عليه التهمة فأمر بقتله[٥١] . وفي٦١٦هـ/١٢٦٢م قتل شحنة بغداد علي بهادر وقبض على وكيله علي بن عبدوس وثقل بالحديد وطولب بالاموال فأدى عشرة آلاف دينار[٥٢] . هذا من جهة ومن جهة أخرى قدم الامير أرغون الى العراق في ٦٨١هـ/١٢٨٢م وأمر بعمل حسابه فتخلف على الضمناء شيء كثير ضويقوا عليه[٥٣] . وفي ٦٨٧هـ/١٢٨٨م عذّب الزين الحظائري ضامن تمغات بغداد فأدى مالا كثيرا وباع أملاكه وأسبابه ليقوم بما تخلف عليه من ضمان الحلة[٥٤] . وفي ٦٨٦هـ/١٢٨٧م عذب نجم الدين كاتب

---

(٤٨) ن٠م٠ ص ٤٥٠ .
(٤٩) ن٠م٠ ص ٤٨٢ ـ ٤٨٣ .
(٥٠) ن٠م٠ ص ٣٤٣ .
(٥١) ن٠م٠ ص٣٤٨ .
(٥٢) ن٠م٠ ص ٣٥٠ .
(٥٣) ن٠م٠ ص ٤٢٤ .
(٥٤) ن٠م٠ ص ٤٥٤ .

الجريدة على بقايا وجبت عليه فلما أحس العجز من نفسه عن الدفع قتل نفسه[٥٥] . وفي نفس السنة عقد ضمان الاعمال الحلية على مجدالدين بن الياس اضافة الى نيابة الديوان والحكم في بغداد فكان ذلك سببا لذهاب أمواله وأملاكه[٥٦] .

(٥٥) ن.م. ص ٤٥١ .
(٥٦) ن.م. ص ٤٥٣ .

الفصل العاشر

النظـــام النقـــدى

كان التعامل في العراق خلال السنين الأخيرة من العهد العباسي يقوم على أساس مزدوج هو الدينار الذهبي والدرهم الفضي وكانت العادة ان الدينار يساوي مثقالاً من الذهب والدرهم سبعة أعشار المثقال من الفضة وهذا هو الوزن الشرعي لهما وكانت النسبة تتذبذب بين العملتين بين العشرة الى الاثنى عشر درهما لكل دينار ولكنها كانت أكثر استقرارا حول الرقم الأخير[1] . ويبدو ان سبب ذلك يعود لنقص كمية الذهب والفضة المتوفرة في السوق واضطراب الأحوال الاقتصادية والسياسية التي قد يكون الخطر المغولي أحد أسبابها . وكانت نقوده هذه الفترة غير منسجمة من حيث العيار (أي نسبة المعدن الثمين فيها) والحجم والوزن لنفس الاسباب التي ذكرناها وكانت القراضة أي اجزاء وكسور السكة شائعة الاستعمال في السوق مما كان يسبب معاملات تقرب من الربا لذلك أراد الخليفة المستنصر بالله اصلاح النظام النقدي فمنع التعامل بالقراضة سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م واصدر بدلاً منها دراهم فضية جديدة تساوي كل عشرة منها دينارا واحدا[2] ولكن يبدو ان الدراهم الجديدة لم تحافظ على عيارها أي النسبة الصحيحة من الفضة فيها فنقص فيها في السنين التالية ورخص ثمنها وكثرت في أيدي الناس وطردت العملة الجيدة أي الذهبية من السوق ونقرأ في أخبار ٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م ان الديوان عزم على ابطال التعامل بالدراهم والتعامل بدلاً منها بالقراضة الصورية ثم اصدر دراهم جديدة جيدة كل عشرة منها بدينار وأمر أن تؤخذ الدراهم القديمة كل عشرة ونصف بدينار فتألم الناس من

---

(١) الحوادث الجامعة ص ٧٠ ـ ٧١ ، ٢٢٣ .
(٢) ن.م. ص ٧٠ ـ ٧١ .

ذلك وصدر الأمر بأخذ القديمة كل اثنى عشر درهما بدينار والجديدة كل أحد عشر ونصف بدينار[٣] .

وتبين مجموعة مسكوكات المتحف العراقي عدم انسجام السكة من حيث الوزن والحجم والعيار حتى ما صدر منها في عهد الخليفة الواحد نفسه . فهناك دينار من عهد الخليفة الناصرلدين‌الله من وزن ٢ر١٦٢غم وقطر ٢٦ مم أصدر سنة ٥٩٣هـ/١١٩٦م وآخر من وزن ٣ر٣٣٥١ غم وقطر ٢٨ مم أصدر سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م وآخر من وزن ٥ر١١٥ وقطر ٢٨ مم أصدر سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م وآخر من وزن ٢ر٧٦٥ غم وقطر ٢٨مم أصدر سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م . وهناك دينار واحد يعود لعهد الظاهر بأمرالله من وزن ١ر٦٠٠ غم وقطر ٢٧ مم أصدر سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م وآخر من عهد المستنصربالله من وزن ٤ر٨٣٠ غم وقطر ٢٦ مم أصدر سنة ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م ومن عهد المستعصم‌بالله هناك دينار من وزن ٤ر٣٠٥ غم وقطر ٢٨مم أصدر ٦٤٠هـ/١٢٤٢م وآخر من وزن ٧ر٨١٢غم وقطر ٢٧ر٦ مم أصدر سنة ٦٤١هـ/١٤٤٣م وآخر من وزن ١٠ر٨٨٤غم وقطر ٢٧ر٩ مم أصدر سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م . أما نماذج الدرهم الفضي فلدينا أحدها من وزن ٢ر٨٥١غم وقطر ٢١مم اصدر سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م وآخر من وزن ٢ر٨٥٢غم وقطر ٢١ مم أصدر سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م وكلاهما يعودان لعهد المستنصربالله وهناك درهم من وزن ٥ر٨٨٨غم وقطر ٢٨مم أصدر سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م أي في عهد المستعصم‌بالله .

وقد ضربت النقود المذكورة في بغداد وكان يشار اليها باسم (مدينة السلام) والكوفة وأربل . وتبدو الكتابة المنوشة عليها متقاربة يتلخص أكثرها بذكر اسم الخليفة القائم ثم عبارات الشهادة مثل (الامام الناصر لدين‌الله ، لا اله الا الله وحده لا شريك له ، الناصرلدين الله أمير المؤمنين) على الوجه ، وكلمات : (محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) على

---

(٣) ن.م. ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

القفا • وأكثر هذه المسكوكات بسيطة في نقوشها ولكن الكتابات كثيرة فيها على الوجه والقفا والأطواق[٤] •

أما في العهد الايلخاني فان التعامل ظل في العراق مثلما كان عليه في العهد العباسي الأخير على أساس الدينار الذهبي والدرهم الفضي وأجزائهما وأهمها الفلس وكان عملة نحاسية صغيرة • وقد حدث في ٦٨٢هـ/١٢٨٣م ان ابطلت الفلوس النحاسية وأصدرت مكانها فلوس من فضة كل اثنى عشر فلسا منها بدرهم سميت دناكش أبطلت في السنة التالية وأعيدت الفلوس النحاسية من جديد[٥] • ويبدو ان العملة كانت تؤخذ على أساس الوزن حيناً والعدد حيناً آخر والوزن والعدد في بعض الاحيان فقد أمر علاءالدين عطا ملك ، صاحب ديوان العراق سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م بضرب فلوس من النحاس تؤخذ كل اربعة وعشرين فلسا منها بدرهم وكل خمسة أرطال بدينار[٦] • وفي ٦٨٤هـ/١٢٨٥م ضربت دراهم جديدة صدر الأمر بالتعامل بها عدداً مثل الدراهم الابغانية[٧] وهي التي أصدرها السلطان أبغا بن هولاكو• وقد كانت النسبة بين الدينار والدرهم غير مستقرة بل تتذبذب تذبذبا شديدا حتى صارت تختلف أحيانا عما كانت عليه في العهود الاسلامية اختلافا كبيرا وهي عشرة دراهم للدينار الواحد الشرعي الذى هو المقياس الاعتيادي وسبب ذلك اضطراب الحياة الاقتصادية وتذبذبها بدرجة اشد مما كانت عليه في العهود السابقة ومما يؤكد ذلك شدة تباين المسكوكات من حيث العيار والوزن والحجم• ففي سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م التي مر ذكرها وصل مشرف جديد الى بغداد هو الأمير تاج الدين علي جليبان وأبطلت الدراهم المتداولة دون سبب واضح فاضطربت أمور الناس وبطلت معايشهم وضربت دراهم أخرى مكانها جعل سعرها ثمانية مثاقيل بدينار مع ان المعروف ان الدرهم يساوي سبعة أعشار المثقال وتذبذبت قيمة الدرهم السابقة بين عشرة مثاقيل بدينار واثني عشر

---

(٤) مجموعة مسكوكات المتحف العراقي •
(٥) الحوادث الجامعة ، ص ٤٣٠ ـ ٤٣١ •
(٦) ن•م• ص ٣٥٨ •
(٧) ن•م• ص ٤٤٦ •

مثقالاً بدينار فخسر الناس الكثير بسبب ذلك[٨] . وقد كانت في الموصل في هذا العهد دراهم تتكون من مزيج من النحاس والفضة ، تسمى الدراهم السواد كل أربعين درهما بدينار ، أبطلت سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م وضربت مكانها دراهم نقرة أي فضية ، وفلوس[٩] . ويشير ابن فضل‌الله العمري الذى عاصر أواخر العهد الايلخاني الى ان الدينار في العراق ، كان من نوعين ، العوال وهو اثنى عشر درهما كل درهم قيراطان وحبتان وكل قيراط ثلاث حبات وكل حبة أربعة فلوس والنوع الثاني هو الدينار المرسل وكان يساوي عشرة دراهم وكانت به أكثر معاملات أهل بغداد وتجارها[١٠] .

ويبدو أن مشكلة العملة فى العراق فى هذا العهد تشبه مشكلتها فى الولايات الايلخانية الاخرى ، فالعراق لم يعد دولة مستقلة لها حكومتها الخاصة بها التى هى السلطة الوحيدة التى تصدر النقود فيها ، بل أنه أصبح ولاية فى امبراطورية واسعة كل ولاية منها تصدر النقود في مراكز متعددة ولم تكن العملة في مختلف الولايات من نفس الوزن والحجم والنقاوة فكل من سلاطين الاطراف وملوكها فى بلاد الروم وخراسان وفارس وكرمان والجزيرة والعراق العربى وغيرها يصدر عملة كان منها الجيد ومنها الردىء الرخيص وكان الناس يخسرون القليل والكثير نتيجة لاضطراب العملة وكثرة الرخيص منها وكان التجار يتجافون مناطق العملة الرخيصة ويتطلبون العملة الجيدة[١١] . ولذلك عمل السلطان غازان على توحيد العملة فى جميع أنحاء الامبراطورية الايلخانية واصلاحها وضمان سلامتها من الغش[١٢] . ومن ذلك أنه عندما وصل بغداد في ٦٩٨هـ/١٢٩٨م أمر بضرب دراهم متساوية الوزن يتعامل بها الناس عددا وزن الواحد منها نصف مثقال ودراهم أخرى وزن الواحد منها ثلاثة مثاقيل وأخرى وزن الواحد منها مثقال واحد

---

(٨) ن٠م٠

(٩) ن٠م٠ ص٣٤٨ .

(١٠) ابن فضل الله العمري ، مسالك الابصار ، كما ورد في صبح‌الاعشى ، ج٤ ، ص٤٢٢ .

(١١) داستان غازان ، ص ٢٨٢ .

(١٢) ن٠م٠ ص ٢٨٢ ـ ٢٨٦ .

ويكون كل مثقال من الذهب يساوي أربعة وعشرين درهما من الدراهم الاعتيادية كما أنه أمر بضرب عملات أخرى من الذهب من وزن خمسة مثاقيل وثلاثة مثاقيل ومثقالان ومثقال ونصف وربع مثقال وأمر أن يعمل مثل هذا في جميع ممالك الامبراطورية[١٣] .

وفيما عدا الدينار والدرهم كانت هناك عملة مغولية متداولة في الصين تسمى البالش ، من الذهب والفضة والورق[١٤] ليس هناك ما يثبت تداولها في العراق في العهد الايلخاني . وقد أصدر السلطان (كيخاتو) عملة ورقية في ايران في ٦٩٣هـ/١٢٩٤م من فئات نصف درهم الى عشرة دنانير عليها اسمه[١٤] أجبر الناس على تداولها فاضطربت بسببها معاملاتهم وارتبكت أحوالهم الاقتصادية وأغلقوا حوانيتهم وقد أرسلت عدة أحمال منها الى بغداد مع الامير (لكزي بن أرغون آقا) ولكن خبرها وصل المدينة قبلها فاضطربت له واستعدت بالاقوات بيد ان السلطان أبطلها قبل وصولها اليها[١٥] فأمن الناس شرها .

كانت العملة تصدر خلال العقود الاولى من العهد الايلخاني باسم الخاقان رأس الامبراطورية المغولية كلها ، ومن ذلك أن نقود هولاكو تحمل اسم الامبراطور وتحته اسم هولاكو ، ولكن (أبغا) ابن السلطان المذكور وخليفته أبطل ذلك بعد مدة قصيرة من حكمه ووضع اسمه وحده وفعل مثل ذلك خلفاءه[١٦] . واذا عدنا الى نماذج العملات الايلخانية المتوفرة في المتحف العراقي نجدها تختلف من حيث الوزن والحجم ومن ذلك : هناك دينار من عهد هولاكو من وزن ٣ر٩٥٠ غم وقطر ٢٧ مم ضرب في ٦٥٨هـ/١٢٥٩م وآخر من وزن ٤ر٨٠٠غم وقطر ٢٦ مم أصدر في ٦٧٢هـ/١٢٧٣م من نفس العهد وآخر من عهد محمود غازان من وزن

---

(١٣) الحوادث الجامعة ، ص ٤٩٨ .
(١٤) تاريخ وصاف ، ج ١ ، ص ٢٢ .
(١٥) الحوادث الجامعة ، ص ٤٧٧ ـ ٤٧٨ .
(١٦) انظر مجموعة مسكوكات المتحف العراقي ؛ أنظر أيضا مسالك الابصار كما ورد في صبح الاعشى ، ج٤ ، ص ٤١٩ ـ ٤٢٠ .

٧٫٧٩٠غم وقطر ٢٥مم أصدر سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م وآخر من عهد السلطان أولجايتو محمد خدابنده من وزن ٤٫٢٥٤ غم وقطر ٢١ مم أصدر سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٧م وآخر من عهد أبي سعيد بهادر خان من وزن ٤٫٢٧٧ غم وقطر ١٢٫٢ مم أصدر سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م . ومن الدراهم الفضية هناك نموذج من عهد هولاكو من وزن ٢٫١٨٥غم وقطر ٢٢ مم سنة اصداره مجهولة وآخر من عهد أرغون من وزن ٢٫٥٢٥ غم وقطر ٢٢ مم أصدر سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٨م وآخر من وزن ٢٫٢١٠ غم وقطر ٢٣مم من عهد غازان وسنة ضربه مجهولة وآخر من وزن ٣٫٨٠٥ غم وقطر ٢٦ مم أصدر سنة ٧١٦هـ/١٣١٦م وهو من عهد اولجايتو ولدينا الكثير من دراهم السلطان أبي سعيد بعضها شديد التباين عن غيره من حيث الوزن والحجم منها ماهو من وزن ٣٫٥٦٦ غم وقطر ٢٣ مم يعود لسنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م وآخر من وزن ٢٫٥٠٠غم وقطر ٢٠ مم أصدر سنة ٧٣٥هـ/١٣٣٤م .

كانت مراكز اصدار هذه النقود أكثر تباينا مما كانت عليه في العهد العباسي الاخير فقد ضربت في العراق في بغداد والحلة وواسط والبصرة . وفي الجزيرة في الموصل وسنجار وأربل . وفي خارج هاتين الولايتين في مدن متباعدة مثل سلطانية وتبريز وساوة وشيروان وجرجان وغيرها ، وقد كان الدينار الايلخاني متوسط الحجم أو صغيره أصغر بصورة عامة من الدينار العباسي في عهوده الاخيرة وكانت نقود هولاكو أكبر حجما ـ بصورة عامة ـ وأكثر انتظاما في دوائرها وأبسط في الكتابات المنقوشة عليها من نقود السلاطين الذين أعقبوه وأقرب من غيرها شبها بالنقود العباسية . وقد كانت النقود الايلخانية تتميز بصورة عامة بكثرة النقوش التي نجد من بينها صور حيوانات كالارنب والقرد أو صور وجه انسان ، أما النصوص المنقوشة عليها فأننا نجد المضروب منها في البلاد الاسلامية يتمثل في العبارات التقليدية مثل (لا اله الا الله محمد رسول الله) وما شاكلها ، كما نجد أسماء الخلفاء الراشدين الاربعة منقوشة على الكثير منها باستثناء أكثر نقود السلطان اولجايتو محمد خدابنده حيث نجد عليها أسماء أئمة الشيعة الاثنى عشرية .

الفصل الحادى عشر

الصناعة

عرفت صناعة الفخار الملون الجميل فى العراق فى عصور ما قبل التاريخ كما وجدت فيه آثار أقدم القرى والمبانى وهناك نماذج من خوذ وأسلحة ذهبية مطعمة بالاحجار الكريمة وحلى دقيقة الصنعة وتماثيل سومرية وأكدية وآشورية كثيرة بضمنها المتحف العراقي الحالي وآثار بابل لا تزال تثبت الآن وجود فنون البناء والنحت والنقش فى العراق القديم وقد استمرت هذه الصناعات والفنون فى العصور التالية وان كانت تتذبذب في جودتها وانتشارها تبعا لتذبذب الاحوال السياسية والاقتصادية التي مر بها تاريخ البلاد وقد ورث المسلمون بعد فتحهم العراق أكثر هذه الصناعات والفنون وطوروها تبعا لحاجاتهم وطبيعة مدنيتهم • وقد أصبح العراق الحالى قاعدة مهمة من قواعد المدنية الاسلامية أيام الخلفاء الراشدين والامويين ثم غدا القاعدة الرئيسة لها خلال أكثر أيام العباسيين وقد كان الكثير من أصحاب الصناعة والعلم والفن يتقدمون اليه لعرض ما لديهم من مهارة وفن • وكان يساعد ذلك تشجيع الخلفاء والسلاطين وحاشيتهم ونشاط التجارة العالمية التى كان العراق أحد طرقها الرئيسة ومركزا لتزويدها بسلع مهمة كالمنسوجات الفاخرة والزجاج والورق وغيره وتوفر المهارة الفنية ورؤوس الاموال وقد أشار ابن الفقيه الى العراق وقد كتب فى نهاية القرن الثالث الهجرى بأنه : (قلب الارض وخزانة الملك الاعظم)[1] والى بغداد : (ثم قل فى عجائب بغداد ما شئت التى قد اجتمع فيها ما هو متفرق فى جميع الاقليم من أنواع التجارات والصناعات)[2] واذا استعرضنا أهم ما جاء به

---

(١) أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني المعروف بابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٥٢ •

(٢) ن•م•

الجغرافيون والسوّاح عن صناعة العراق في العهد العباسي نجد ابن الفقيه يؤكد على تميز أهل الكوفة بصناعة الوشى والخز والعطريات وأهل بغداد بصناعات كثيرة أهمها الثياب البيض والزجاج المحكم من أقداح وأقحاف وكاسات الغضائر الحجرية كما يفهم من كلام أورده بعد ذلك أن بغداد كانت مركزا لصناعة الورق الفاخر وأن أهل كورة دجلة والسواد وميسان ودست ميسان كانوا يتميزون بعمل الستور والبسط والفرش ونسيج الحرير[٣] . ويشير الاصطخري وقد وضع كتابه حوالي ٣٤٠هـ/٩٥١م الى صناعة قصر الثياب فى بغداد حتى ان أنواعا خاصة من الثياب التى كانت تصنع فى خوزستان كانت تحمل اليها من أجل ذلك[٤] . وقد قدم الينا المقدسي وقد وضع كتابه حوالي ٣٧٥هـ/٩٨٣م وصفا جيدا لانواع الصناعات فى العراق مع توزيعها الجغرافى فأشار الى أن البصرة كانت ذات أقطان وأن عبادان كان فيها عباد صالحون أكثرهم من صناع الحصر من الحلفاء[٥] وتكريت معدن السمسم وصناع الصوف[٦] وأن البصرة مشهورة بالخز والبز وأنها كانت معدن اللالىء والجواهر وبها يصنع الراسخت والزنجفر والزنجار والمرداسخ[٧] وأن بالكوفة عمائم الخز وببغداد الطرائف وألوان ثياب القز وأن بالنعمانية كانت تصنع أكسية وثياب صوف عسلية حسنة وبها أزر وعمائم يكاتكى رفيعة[٨] . وأشار الى شهرة الستور الواسطية والى ان من رسوم أهل العراق التجمل والتطيلس وأنهم يكثرون التنقل وتسطيل العمائم[٩] . وقد مر الرحالة المغربي ابن جبير بالعراق في ٥٨٠هـ/١١٨٤م

---

(٣) ن٠م٠ ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣ .

(٤) أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخرى المعروف بالكرخى ، مسالك الممالك ، ص ٩٣ .

(٥) شمس الدين أبو عبدالله محمد بن احمد بن أبى بكر الشامى المقدسى المعروف بالبشارى ، احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، ص١١٨ .

(٦) ن٠م٠ ص ١٢٣ .

(٧) ن٠م٠ ص١٢٨ .

(٨) ن٠م٠ ص ١٢٨ .

(٩) ن٠م٠ ص ١٣٩ .

ووصف بغداد وأهم محلاتها وأشار الى أن أحداها تسمى (العتابية) بها تصنع الثياب العتابية وهي من حرير مختلف الالوان[١٠] . وأشار ياقوت الحموى الى ان (حربى) وهى بليدة فى أقصى دجيل تنسج فيها الثياب القطنية الغليظة وتحمل الى ساير البلاد[١١] وان (الخظيرة) وهى قرية كبيرة فى جهة تكريت من ناحية دجيل ، تنسج فيها الثياب الكرباس الصفيق ويحملها التجار الى البلاد[١٢] . وأن (باقداري) وهي قرية من قرى بغداد ، تعمل بها ثياب من القطن غلاظ صفاق يضرب بها أهل بغداد المثل[١٣] . وأن (نرس) وهو نهر بنواحى الكوفة مأخذه من الفرات وعليه عدة قرى ، تنسب اليها ثياب تسمى بالنرسية[١٤] وأن (سبن) اسم موضع في العراق كانت تنسب اليه الثياب السبنية وتتخذ من الكتان وهى أغلظ ما تكون[١٥] وأن قادسية دجلة وهى قرية كبيرة من نواحى دجيل بين حربى وسامرا ، كان يعمل بها الزجاج[١٦] . وفي ٦٥٤هـ/١٢٥٦م أي قبل سقوط بغداد بسنتين مر السائح المغربى ابن سعيد بالعراق ، وأشار الى تعدد صناعات الموصل التى كان من أهمها أوانى النحاس المطعم التى تحمل الى الملوك والثياب المحررات[١٧] وهى التى يخلط غزلها بالحرير . ولدينا فى الكتاب الموسوم بالحوادث الجامعة ما يدل على وجود الصابون[١٨] فى هذه الفترة ، وهو من المستلزمات المهمة للمدنية ولابد ان تكون له صناعة فى العراق ، والتحف الذهبية والفضية من قناديل وحلى نسائية والاقمشة الفاخرة من الحرير والصوف والقطن[١٩] وفى المبنى الموجود فى بغداد الحالية والموسوم

---

(١٠) رحلة ابن جبير ، ص ٢١١ .
(١١) معجم البلدان (طبعة لايبزج) ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ .
(١٢) ن.م. ص ٢٩٢ .
(١٣) ن.م. ج ١ ص ٣٧٥ .
(١٤) ن.م. ج ٤ ، ص ٧٧٣ .
(١١٥) ن.م. ج ٣ ص ٣٥ .
(١٦) ن.م. (مطبعة السعادة) ج ٧ ، ص ٧ .
(١٧) ابن سعيد المغربى ، كتاب بسط الارض فى الطول والعرض ، ص٩٠ .
(١٨) الحوادث الجامعة ، ص ٢١٥ .
(١٩) ن.م. ص ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٤ ، ١١٨ ، ١٥٤ ، ١٩٤ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢٦٨ .

بالقصر العباسى وفى جامع مرجان والمدرسة المستنصرية نماذج عباسية لمصنوعات زجاجية وخزفية جميلة وقاشانى وأبواب وشبابيك من الخشب المزخرف بالزخارف الاسلامية التقليدية وأخيرا لابد لنا من الاشارة الى صناعة ضرب النقود الذهبية والفضية والنحاسية ولدينا الكثير منها مما يعود لايام الخلفاء العباسيين الاربعة المتأخرين •

وخلال العهد الايلخانى ، يبدو ان أكثر هذه الصناعات ، ان لم يكن جميعها استمر فى العراق • فهولاكو ، الفاتح الجديد أمر باصلاح ما خرب من بغداد واعادة أسواقها وأعمال أهلها الى ما كانت عليه سابقا ومع أنه ليس لدينا من الحقائق التاريخية ما يحدد مقدار خسارة المدينة من الايدى الماهرة فى الصناعة فأن البلاد ، كما يبدو ـ استطاعت التعويض عنها بعد فترة ليست طويلة ، ربما عن طريق هجرة أهل الخبرة من أهل القرى والمدن المجاورة الى المدن المتضررة وهى بغداد والموصل وأربل وواسط[٢٠] • أما المدن الاخرى كالبصرة والكوفة والحلة فأنها استسلمت للفاتحين دون قتال ولذلك لم تخسر الكثير من أياديها الماهرة • ويلقى زكريا بن محمد بن محمود القزويني وقد وضع كتابه حوالى ٦٧٤هـ/١٢٧٥م ضوء على طبيعة النشاط الصناعى والفنى فى بغداد بقوله أنها : (مجمع لطيبات الدنيا ومحاسنها ومعدن لارباب الغايات وآحاد الدهر فى كل علم وصنعة)[٢١] وأشار السائح المغربى ابن بطوطة الى ما يقرب من ذلك بقوله وقد مر بالعراق في ٧٢٧هـ/١٣٢٦م : (والجانب الشرقي من المدينة حافل الاسواق عظيم الترتيب أعظم أسواقه يعرف بسوق الثلاثاء كل صناعة فيه على حده)[٢٢] وقد ورد فى مراصد الاطلاع ، وهو معاصر ، ما يشير الى استمرار الكثير

---

(٢٠) انظر ما قاله صاحب مراصد الاطلاع عن بغداد بعد فتح هولاكو لها : (حتى جاء التتر اليها فخرب أكثرها وقتلوا أهلها كلهم ، فلم يبق غير احاد كانوا نموذجا حسنا وجاء أهل البلاد فسكنوها وباد أهلها) ج ١ ، ص ٢٠٩ •

(٢١) آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٢٠٩ ـ ٢١١ •

(٢٢) تحفة النظار ؛ ج ١ ص ١٤٠ ـ ١٤٢ •

من الصناعات العباسية ، فقد أشار الى (حزة) وهي بليدة قرب أربل ، بأنه ينسب اليها النصافى الحزية وهى أردية[٢٣] . والى (الحظيرة) وهى قرية على دجيل ، أنه ينسب اليها الثياب القطن التى تحمل الى البلاد[٢٤] والى (ترسخ) وهى قرية بين (باكسايا) و (البندنيجين) أن فيها ملاحة واسعة يجلب ملحها الى بغداد[٢٥] . والى (حربى) أنه تنسج فيها الثياب القطنية الغليظة التى تحمل الى البلاد[٢٦] . والى (دار القز) وهى محلة فى الجانب الغربى من بغداد منفردة في الصحراء ، بأن الكاغد كان يصنع بها ويضيف القزوينى الى ذلك ان (كرخ) وهى قرية فوق بغداد ، بها دكاكين الكاغد والثياب الابريسمية[٢٧] .

ويبدو مما كتبه السائح المغربى ابن بطوطة أن صناعة الزجاج العراقى كانت تتمتع بشهرة غير قليلة حتى أنه وجد الكثير من منتجاتها فى مدينة (العلايا) في بلاد الروم (آسيا الصغرى) أثناء مروره بها[٣٨] . وفي مدينة خوارزم[٢٩] أيضا كما يفهم من كلامه عن (دهلى) ان الاسلحة كانت تصنع في العراق ويتاجر بها في الهند[٣٠] وهو يشير في موضع آخر الى ان بغداد كانت تصنع أنواعا خاصة من الثياب الحريرية تسمى (الكمخا) تصدر الى خارج العراق[٣١] . وخلال مروره بمدينة النجف فى العراق دخل مزار الامام علي فوصف العتبة بأنها كانت مصنوعة من الفضة والقبة بأنها مفروشة بانواع البسط الحريرية وغيرها وبها قناديل الذهب والفضة الكبار والصغار وفى وسطها مسطبة مربعة مكسوة بالخشب المغطى بصفائح

---

(٢٣) مراصد الاطلاع ، ج ١ ص ٤٠٠ .
(٢٤) ن.م. ص ٤١١ .
(٢٥) ن.م. ج ١ ، ص ٢٥٨ .
(٢٦) ن.م. ج١ ، ص ٣٩٠ .
(٢٧) ن.م. ج ٢ ، ص ٥٠٧ ؛ القزوينى ، آثار البلاد ، ص٤٤٤ .
(٢٨) تحفة النظار ، ج ١ ، ص ١٨٢ .
(٢٩) ن.م. ص ٢٣٤ .
(٣٠) ن.م. ص ٨٢ .
(٣١) ن.م. ص ١٩٣ .

الذهب المنقوشة وسقف القبة مغطى بستور من الحرير[٣٢] • ومع أن الكثير مما ذكره يعود فى صناعته الى العهد العباسي فمن المحتمل جدا ان يكون بعضه خصوصا الستور والبسط من نتاج العهد الايلخانى لان السائح مر بالعراق فى أواخر العهد المذكور • وقد أشار ابن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م الى ان مملكة ايران (أي الدولة الايلخانية) وكان العراق العربى والجزيرة جزء منها ، معروفة بصناعة الاقمشة الفاخرة كالنخ والمخمل والكمخا والعتابى والنصافى[٣٣] • والنخ كما وصفه ابن بطوطة ، ثياب من الحرير والكمخا ثياب حريرية مذهبة[٣٤] • والنصافى البغدادية على ما يفهم من مسالك الابصار ثياب رفاع من القطن والكتان ومن الكتان وحده كانت مشهورة خارج العراق[٣٥] • يضاف الى ذلك أن الورق البغدادى كان أجود أصناف الورق المستعمل فى مصر فهو ثخين مع ليونة ورقة حاشية وتناسب أجزاء ولا يكتب فيه فى الغالب الا المصاحف الشريفة ويستعمل كذلك فى مكاتبة القانات وكان الورق الشامى دونه ودون ذلك الورق المصري[٣٦] • وقد مر السائح البندقى (ماركو بولو) بالعراق فى أوائل العهد الجلائرى ، وهو العهد الذى أعقب العهد الايلخانى ، فأشار الى وجود بضعة صناعات مهمة فى بغداد منها منسوجات الحرير المصنوعة بالذهب والقديفة المطرزة بصور الطيور والحيوانات والنسيج الفاخر المسمى بالدمشقي وأضاف الى ذلك ان جميع اللؤلؤ الذى يحمل من الهند الى اوروبا يثقّب ويهيء للاستعمال فى بغداد وأن الاقمشة الحريرية والمذهبة المسماة موسلين تصنع فى مدينة الموصل[٣٧] • يضاف الى ذلك أن لدينا من الاخبار

---

(٣٢) ن٠م٠ ص ١٠٩ ـ ١١٠ •
(٣٣) مسالك الابصار ، كما جاء فى صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٤٠٨ •
(٣٤) تحفة النظار ، ج ١ ، ص ١٩٣ •
(٣٥) صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ١٠٢ •
(٣٦) ن٠م٠ ج ٢ ، ص ٤٧٦ ؛ ج ٦ ، ص ١٨٩ ـ ١٩٥ ؛ انظر أيضا النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ١٣٦ •
(٣٧) The Tavels of Marco Polo, Op. Cit., p. 28-30.
ومما يؤيد ما ذكره ماركو بولو عن صناعة ثقب اللؤلؤ في بغداد ما ذكره

ما يشير الى نوع من صناعة الساعات في أواخر العهد العباسي وفي هذا العهد أيضا[٣٨] ومثل ذلك صناعة الخمور لا سيما وان الكثير من أهل الذمة والمسلمين كانوا يشربونها خلال العهدين العباسى والايلخانى .

ان دراسة صناعات العراق دراسة علمية شاملة تستلزم توفر نماذج أثرية كافية ولكن المؤسف ان بقايا العهد الايلخاني محدودة وما يتوفر لدينا منها من مبانى وخزف وزجاج ونقوش وقاشانى ومصنوعات خشبية ومخطوطات تشير الى استمرار الفن العباسى من جهة وضآلة التأثيرات المغولية من الجهة الاخرى باستثناء صناعة ضرب النقود التى نشهد فيها تغيرا واضحا يتمثل بكثرة صور الحيوان والانسان المنقوشة عليها فى العملة النحاسية بصورة خاصة . فلدينا فلس ضرب في الموصل يحمل في احدى جانبيه صورة أسد منقوشة وفى أعلاه شمس وآخر ضرب فى بغداد يحمل نقشا مدورا لوجه انسان وحواليه نقوش تتألف من ثمانية مثلثات وآخر ضرب في سنجار على احدى جانبيه صورة أرنب رافع احدى رجليه الى الاعلى وهو داخل مثلث متساوى الاضلاع ومثل ذلك الكثير ولكننا نكتفي بهذه النماذج لكثرتها وتكررها ومما يلفت النظر ان هذه الصور والنقوش تمثل شيئا غير قليل من الجمال ودقة الصنعة وقد ضربت فى جهات متعددة كبغداد والموصل وأربل وسنجار والحلة والبصرة[٣٩] .

ابن حجر العسقلانى بأن احد سكان بغداد المعروف بالسوامليي (تعلم ثقب اللؤلؤ فيها فجمع من ذلك مالا دخل به بتجارة الى الصين ، الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٥٩ .

(٣٨) الحوادث الجامعة ، ص ٤٤٤ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٩٧ .

(٣٩) مجموعة مسكوكات المتحف العراقى .

الفصل الثاني عشر

التجـــارة

يمكن القول على ضوء الحقائق التاريخية المتوفرة لدينا أن نشـاط العراق التجارى خلال العهد الايلخانى استمرار لما كان عليه فى أواخر العهد العباسى مع بعض الفروق التى يمكن اجمالها فيما يأتى :

أولا : ان الفتح المغولى خلق توجيها جديدا فى تجارة الشرق الاوسط أصبحت معه علاقات العراق مع ايران وهى القاعدة الاساسية للامبراطورية الايلخانية ، أشد مما كانت عليه فى السـابق بينما ازدادت علاقاته مع تركستان والصين ، لان الامبراطورية الايلخانية كانت ولو اسميا جزء من امبراطورية الخاقان المغولى الذي اتخذ قاعدته في منغوليا ثم الصين •

ثانيا : وتبعا لذلك ضعفت علاقات العراق التجارية مع سوريا ومصر وبلاد العرب لانها أصبحت تابعة لدولة المماليك العدو الاول للايلخانيين •

ثالثا : أصبح الطريق البرى الذى يربط العراق بأواسط آسيا يميل الى الشمال نتيجة لاختيار الايلخانيين لتبريز ثم سلطانية عاصمتين لهـم وكلاهما فى أذربيجان كما أنه اصبح أكبر أهمية من السابق بالنسبة للعراق لانه أصبح يربطه بقلب الامبراطورية المغولية التى كان العراق جزء منها •

رابعا : لم يعد هناك خليفة ولا بلاط خلفاء فى بغداد يوجه اقتصاد البلاد وتجارتها بحاجاته الكبيرة المستمرة من الاقمشة الفاخرة وأسباب الترف والاسلحة وغيرها ولكن بغداد ظلت احدى أكبر وأهم المدن الايلخانية خصوصا في عهد واليها عطا ملك الجوينى الذى حرص على اعادة مكانتها القديمة اقتصاديا وثقافيا •

كان حكام المغول يدركون ما للتجارة من أهمية بالغة فى رخاء البلاد ونشاطها الاقتصادى وأكثر المؤرخين المعاصرين يعتبرون السبب فى اقدام جنكيزخان على غزو دولة خوارزم في ٦١٦هـ/١٢١٩م هو قتل (غاير خان)

حاكم مدينة (أترار) في ما وراء النهر للتجار الذين أرسلهم جنكيزخان للحصول على طرائف وتحف تلك البلاد بعد استئذانه (محمد بن تكش) سلطان خوارزم[١] . وأن جنكيزخان أرسل للشاه بعد تلك الحادثة من يخبره بأن « من المعهود من الملوك أن التجار لا يقتلون لانهم عمارة الاقاليم وهم الذين يحملون الى الملوك ما فيه التحف والاشياء النفيسة »[٢] . وقد كان حكام المغول يهتمون ـ على العموم ـ بأمر الطرق التجارية وضرورة المحافظة على سلامتها ، حتى أن اخضاع جنكيزخان لاواسط آسيا خلق جوا من السلام والامن على طول الطرق التجارية التى كانت تصلها بالعالم الاسلامى فقد أقام على الطرق حراسا (قراقجية) يخفرون المترددين اليها[٣] . وأصدر أمره بأن جميع التجار الذين يدخلون المناطق الخاضعة لحكمه يجب المحافظة على سلامتهم وكل بضاعة يمكن أن تنال أعجابه يجب ان ترسل اليه مع أصحابها[٤] . وقد عمل السلطان محمود غازان فى أواخر القرن السابع الهجرى على تحديد مسؤولية ما يقع من قطع للطرق أو تهديد لها والقاءها على سكان المنطقة التى تقع فيها الحوادث وتعيين آلاف الحراس لمراقبة الطرق والمحافظة عليها[٥] . ويشير الى مثل ذلك السائح البندقى (ماركو بولو) فى كلامه عن سفره خلال أقليم فارس فى الفترة التالية للحكم الايلخانى حيث قال أن السكان كانوا معتادين على قتل بعضهم البعض ولا يترددون عن الحاق الاذى بالتجار والمسافرين لولا خوفهم من التتار الشرقيين ، الذين ينزلون بهم بسبب ذلك أشد العقاب ويضيف الى ذلك قوله بأن الأوامر كانت تقضي بأن على السكان في جميع الطرق التي يمكن أن ينشأ فيها خطر يهددها ، أن يقدموا أدلاء نشطين موثوق بهم الى التجار

---

(١) ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٠٠ ـ ٤٠١ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٨٢ ـ ٨٣ .
(٢) تاريخ مختصر الدول ، ص ١١٩ .
(٣) ن.م. ص ٣٩٩ .
(٤) History of the World Conqueror, I. p. 77-78.
(٥) داستان غازان ، ص ٢٧٧ ـ ٢٨١ .

الذين يطلبون منهم ذلك لقيادتهم والمحافظة على سلامتهم مقابل أجور تتناسب مع عدد الأحمال وطول المسافة[٦] .

تقسم التجارة الى نوعين داخلية وخارجية فالداخلية هى ما يجرى بصورة طبيعية بين الريف والمدينة وبين المدن نفسها والمناطق الريفية مع بعضها والتجارة الخارجية هى ما كان يقوم بين العراق والبلاد المجاورة والبعيدة . ان المدن مراكز طبيعية للمواصلات والتجارة ونشاطها يعكس لنا أحوال البلاد الاقتصادية العامة ومدى رخاءها وحيويتها وقد كانت تجارة العراق ـ فى العهد الايلخانى ـ تتركز فى بغداد بشكل رئيسى ثم فى الموصل والبصرة وواسط والنجف . وكانت تجارته الداخلية تعتمد على الطرق النهرية أكثر منها على الطرق البرية لرخصها وسهولتها . ويتكرر ذكر دجلة أكثر من الفرات فى هذا المجال وكانت تربط بين البصرة وبغداد والموصل وكان القسم الجنوبى منها أكبر أهمية من غيره لاتصاله بخليج البصرة والهند والصين . وكانت السفن والقوارب تصل من الفرات الى دجلة عن طريق القنوات العديدة التى تربط بينهما : اما التجارة الداخلية فأنها كانت تقوم على الطرق البرية والبحرية وقد ازدادت أهمية الطرق البرية فى هذه الفترة وهى نفس الطرق العباسية المعروفة مع تعديلات ثانوية وكان أهمها طريق خراسان العظيم الذى كان يمر من بغداد الى حلوان داخل العراق ومنها الى همذان فالري ومنها الى اقليم خراسان ثم الى نيسابور وطوس ومرو حتى يبلغ ضفة نهر جيحون عند آمل ثم الى بخارى فسمرقند . وينشطر الطريق فى (زامين) الى شطرين يسير الايسر منهما الى الشاش وهى (طاشقند الحالية) ثم الى (أترار) ويسير الشطر الايمن من (زامين) الى أقليم فرغانة وينتهى أخيرا الى تخوم الصين . وخلال العهد الايلخانى فتح طريق فرعى يتجه من الشمال الى السلطانية التى أصبحت قاعدة الدولة فى عهد السلطان اولجايتو محمد خدابنده وأصبحت مركزا للطرق بدلا

---

(٦) The Travels of Marco Polo, p. 40.

من مدينة الرى[٧] .. أما الطرق الاخرى ، فهناك الطريق المار بواسط الى البصرة ، وطريق الحج وكان يخرج من بغداد الغربية جنوبا الى الكوفة ومنها الى الحجاز ، وكان يخرج بالاضافة الى ذلك طريق ثانى للحج يسير فى بادىء أمره بموازاة الطريق الاول ويلتقى به أخيرا على مرحلتين من شمال مكة . وفيما عدا ذلك كان هناك طريق شمالى يصل بين بغداد والانبار على الفرات ثم يصعد مع النهر الى الرقة حيث تخرج منه طرق الى الروم شمالا ودمشق غربا ، وطريق آخر من بغداد على جانبي دجلة الى الموصل والجزيرة . وقد ازدادت أهمية طريق خراسان بسبب الاحوال السياسية الجديدة بينما خسرت الطرق المتصلة بالشام الكثير من أهميتها لكثرة المخاطر المحيطة بها بسبب العداء بين الايلخانيين والمماليك .

أما الطرق البحرية فقد كانت تصل البصرة ببغداد عن طريق نهر دجلة وكانت السفن الآتية من بحر الهند تصعد من عبادان الى الابلة ومنها فى نهر الابلة الى البصرة[٨] . وكانت عبادان تقع على جزيرة تسمى (ميان روزان) ومعناها (وسط الأنهار) تحيط بها دجلة العوراء أي شط العرب من جانبها حيث تصب في البحر في جهتين ويقع تفرق مياه دجلة المذكورة الى فرقتين عند قرية تقع على هذه الجزيرة تسمى (المحرزى) حيث تذهب فرقة الى اليمين تسير فيها السفن الى بر العرب ناحية البحرين وغيرها وفرقة الى جهة اليسار تسير فيها المراكب الى نواحى فارس فتمر بجزيرة (كيس) أو (كيش) المعروفة بمغاصات اللؤلؤ ومنها الى (سيراف) وكانت أعظم موانى فارس تزدحم بالمراكب وتعيش على التجارة ومنها كانت تصل الى (هرمز) حيث يرد التجار من مختلف أنحاء الهند يحملون معهم التوابل والأحجار الثمينة ونسيج الذهب وأسنان الفيل وغيرها من سلع تجارية مهمة

---

(٧) لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية (ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد) ص ٢٣ ـ ٢٤ .

(٨) تقويم البلدان ، ص ٥٧ .

فى ذلك الحين ، ليأخذها منهم تجار يردون من مختلف الاصقاع يبيعونها فى بلادهم[٩] .

ولابد لنا اذا أردنا ان نفهم الكثير عن طبيعة حركة هذا العهد التجارية ان نستعرض ما ورد عن مدن العراق الرئيسة لانها كانت قلب تجارته النابض ومراكزه الاقتصادية الحيوية فبغداد كانت لا تزال تحتفظ بالمركز الاول لموقعها الجغرافى الممتاز ومكانتها التاريخية والسياسية وقد زارها الرحالة ابن سعيد في ٦٥٤هـ/١٢٥٦م فذكر أن أرخص ما فيها التمر الذي يجلب من البصرة والرز وقصب السكر اللذان يجلبان من البطائح وجهات واسط وان فيها التفاح القراطيسي والعنب الرازقي والنارنج القروي والليمون البعقوبي والورق البغدادى والاقلام الواسطية وتحمل المراكب اليها بضائع الهند فى دجلة[١٠] . وأشار اليها زكريا بن محمد القزويني بأنه كان يحمل اليها كل متاع ثمين وعرض نفيس[١١] . وابن بطوطة يشير الى نشاط المدينة وامتلاء الجانب الشرقى منها بالاسواق التى كان أعظمها سوق الثلاثاء وفيه كل صناعة على حدة[١٢] . والمستوفى القزوينى يشيد بغنى المدينة ورخاءها وتوفر المواد الغذائية ورخصها فيها حتى أن كل ما يحتاجه الانسان من ضرورات الحياة المرفهة يجده تحت متناول يده[١٣] . وأخيرا يصف ماركو بولو المدينة بأنه يجرى خلالها نهر عظيم يقوم التجار بنقل بضاعاتهم بواسطته من البحر واليه[١٤] . أما البصرة فأننا لا نجد عنها الا القليل فابن بطوطة لا يقدم لنا ما يعيننا على ادراك مقدار نشاطها التجارى وان كان يشيد بسعتها

---

(٩) مراصد الاطلاع ، ج١ ، ص ٢١٦ ؛ ج ٢ ، ص ٩١٣ ، ج ٣ ، ص ١٣٤١ ؛ القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٣٤٥ ـ ٤٠٨ ؛ تحفة النظار ، ج ١ ، ص ١٧٣ ؛ رحلة ماركو بولو (بالانكليزية) ص ٢٩ ـ ٣٢ ، ٤٦ .

(١٠) كتاب بسط الارض ، ص ٩١ .

(١١) آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٢٠٩ .

(١٢) تحفة النظار ، ج ١ ، ص ١٤٠ ـ ١٤٢ .

(١٣) نزهة القلوب ، ص٤١ ـ ٤٢ .

(١٤) رحلة ماركو بولو ، ص ٢٩ .

وكثرة بساتينها وفواكهها ويشير الى أن الابلة ، وهى ميناء البصرة ، كانت مدينة عظيمة يقصدها تجار الهند وفارس ولـكنها خربت فأصبحت فى عهده قرية بها آثار قصور وغيرها تدل على عظمتها السابقة[١٥] • ويصف حمدالله القزويني البصرة بأنها مدينة متوسطة الحجم[١٦] ويفعل مثل ذلك ماركو بولو[١٧] • واذا انتقلنا الى الموصل نجد ابن سعيد يصفها بأنها قاعدة بلاد الجزيرة[١٨] ويصفها زكريا القزويني بأنها احدى قواعد بلاد الاسلام رفيعة البناء واسعة الرقعة فيها بساتين نزهة وجواسق وأهلها أهل تدقيق في الصناعة[١٩] • وهذا لا يعيننا كثيرا على ادراك طبيعة نشاطها التجارة ولكن حمد الله المستوفى القزوينى يقدم لنا صورة أوضح عن ذلك من طرف خفى بقوله ان الموصل عاصمة بلاد الجزيرة ، وأن واردات الحكومة من هذه الولاية كانت تبلغ أيام الاتابكة وبدر الدين لؤلؤ عشرة ملايين دينارا فأصبحت الآن ـ أى فى أوائل العهد الجلائرى ـ تساوى (١٫٩٢٥٫٠٠٠) دينارا[٢٠] ويعنى ذلك تدهورا كبيرا أصاب وارداتها يحتمل جدا ان يكون تناقص النشاط التجارى أحد أسبابه • وقد مر السائح المغربى ابن بطوطة بهذه المدينة وأشار الى كثرة فنادقها وأسواقها وقال أن قيساريتها مليحة لها أبواب من حديد تدور بها دكاكين وبيوت متقنة البناء بعضها فوق بعض[٢١] • ولـكن السائح البندقى ماركو بولو يبرز أهميتها التجارية بصورة أكثر وضوحا من غيره بتأكيده على أنسجتها الذهبية والحريرية وقوله أن جميع كبار التجار المعروفين بالموصليين والذين يحملون التوابل والعقاقير بكميات كبيرة بين بلاد وأخرى هم من منطقتها[٢٢] • ولابد لنا بعد هذا من ذكر

---

(١٥) تحفة النظار ، ج ١ ، ص ١١٥ ـ ١١٨ •
(١٦) نزهة القلوب ، ص ١٠٣ •
(١٧) رحلة ماركو بولو ، ص ٢٩ •
(١٨) كتاب بسط الارض ، ص ٩٠ •
(١٩) آثار البلاد ، ص ٣٠٩ •
(٢٠) نزهة القلوب ، ص ١٠٢ •
(٢١) تحفة النظار ، ج ١ ، ص ١٤٨ ـ ١٤٩ •
(٢٢) رحلة ماركو بولو ، ص ٢٩ •

مدينة واسط لانها كانت مركزا تجاريا مهما بين خليج البصرة وبغداد وزكريا القزوينى يشير من طرف الى رخاء ونشاط تجارى غير قليل فيها بقوله أنها كانت (كلها قصور وبساتين ومياه وعيبها ان حاصلها يحمل الى غيرها فلو كان حاصلها يبقى فى يد أهلها لفاقت جميع البلاد[٢٣]) ويشير ابن بطوطة أيضا الى أنها كانت مركزا تجاريا وأنها مدينة على شىء من الغنى[٢٤] • واذا انتقلنا الى طرف آخر من أطراف العراق وهو طريق الحج الجنوبى الغربى الى مكة ، نجد الكوفة ، وهى محطة رئيسة فيه ، يصفها المستوفى القزوينى بأن أكثرها خراب[٢٥] ويفعل مثل ذلك ابن بطوطة[٢٦] وسبب ذلك على قوله ، قبيلة خفاجة التى تسكن فى منطقتها وضعف حركة الحج فى هذا العهد ، وانتقال المركز التجارى من هذه المدينة ـ كما يبدو ـ الى (النجف) التى كانت تجارتها نشطة فى هذا العهد وكما يصفها ابن بطوطة من أحسن مدن العراق وأكثرها ناسا بها أسواق حسنة وأهلها تجار يسافرون فى الاقطار[٢٧] • هـذه أهم الحقائق التى وصلتنا عن مدن العراق التجارية الرئيسة وهى تشير الى أن تجارة العراق لم تكن كبيرة فى العهد الايلخانى وأن بغداد كانت مركزها الرئيس الذى تبدو المدن الاخرى الى جانبه ثانوية فى أهميتها باستثناء مدينة الموصل فى الجزيرة •

أدى الفتح المغولى للمناطق الشرقية من العالم الاسلامى ـ كما يقول عطا ملك الجويني وهو معاصر شديد الصلة بالمغول ، الى ذهاب الكثير ممن يعتقدون باله واحد الى داخل الامبراطورية المغولية حتى وصلوا أقصى أقطار الشرق واستوطنوا فيها وبلغوا هناك أعدادا لا تحصى وكان منهم من حمل الى هناك خلال فتح المغول لما وراء النهر وخراسان لكونهم من أصحاب الفنون والحرف ومن رعاة الحيوانات وآخرون جاؤا من أقصى الجهات الغربية من

---

(٢٣) آثار البلاد ، ص ٣٢٠ •
(٢٤) تحفة النظار ، ج ١ ، ص ١١٤ •
(٢٥) نزهة القلوب ، ص ٣٧ •
(٢٦) تحفة النظار ، ج ١ ، ص ١٣٧ •
(٢٧) ن•م• ص١٠٩ ـ ١١٠ •

العراقيين وسورية والاقطار الاسلامية الاخرى ، وظلوا يتجولون على الطرق التجارية يزورون كل منطقة ومدينة حيث كسبوا الشهرة واستقروا نهائيا في تلك المناطق وأنشأوا لانفسهم القصور والقـــلاع والمدارس ونشروا الاسلام[٢٨] . وقد أيد ابن بطوطة ذلك من بعيد بقوله أن (في كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون بسكناهم ولهم فيها المساجد .. وهم معظمون محترمون)[٢٩] وهو يؤكد على ما كان في الصين في عهده من الامان والاطمئنان بالنسبة للمسافرين حتى ان الانسان كان يسافر منفردا مسيرة تسعة أشهر ومعه الاموال الطائلة فلا يخاف عليها لان حكومتها وضعت في كل منزل في بلادها فندقا عليه حاكم معه جماعة من الفرسان والرجال للاشراف على ذلك[٣٠] . وابن بطوطة يلقي ضوءً مفيدا على نشاط العراقيين من التجار في كلامه عن مدينة (السرى) عاصمة امبراطورية القبيلة الذهبية بقوله ان فيها طوائف عديدة من الناس كل منها يسكن في محلة على حده والتجار الغرباء من أصل العراقيين ومصر والشام وغيرها ساكنون بمحلة عليها سور[٣٠] . وخلال سفر السائح نفسه من مدينة (السرى) الى خوارزم ، صحبه شريف من أهل كربلاء من التجار عزم على السفر معه الى الهند ، وبعد وصولهما خوارزم ، وصل من أهل كربلاء من العراق ، جماعة أخرى كانت تزمع السفر الى الصين ، فسافر التاجر المذكور معهم ، وعند وصولهم مدينة (المالق) وهي آخر البلاد التابعة لمنطقة ما وراء النهر على حدود الصين ، وصل من بلدهم تجار آخرون نزلوا معه في فندق واحد[٣١] وخلال اقامة ابن بطوطة في مدينة خوارزم ، زار قاضيها أبا حفص عمر ، في داره ، فقدم له الطعام في أوانى كان بعضها من صناعات الزجاج العراقي[٣٢] .

---

(٢٨) History of the world conqueror, I, p. 77-78.
(٢٩) تحفة النظار ، ج ٢ ، ص ١٦٠ .
(٣٠) ن.م. ج ٢ ، ص ١٦٢ .
(٣٠) ن.م. ج ١ ، ص ١٣٠ .
(٣١) ن.م. ج ١ ، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦ .
(٣٢) ن.م. ج ، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤ .

يضاف الى ذلك ان المصادر المعاصرة تطالعنا عن نتف من الاخبار عن عراقيين ذهبوا فى تجارتهم الى الصين ، مثل ابراهيم بن محمد بن سعدى الشهير بابن السواملى الذي توغل وتمول في تجارته مع الصين(٣٣) . وأحمد بن يوسف ابن أبي البدر البغدادي التاجر السفّار الذي دخل الهند مرارا والصين وأقام في تلك البلاد أكثر من عشرين سنة وتوفي في حلب في ٧٠١هـ /١٣٠١م(٣٤) ومحفوظ بن معتوق بابن البزورى الذى كان يغيب سنين كثيرة في التجارة ويدخل الهند والصين حتى توفى في دمشق سنة ٦٩٤هـ /١٢٦٥م(٣٥) وقد كان أهم ما يجلب من الصين المسك ، وكان يؤتى به من (خانفو) مدينة الصين العظمى حيث ترسو مراكب تجار المسلمين ويحمل منها الى الخليج العربي ومنه الى الابلة(٣٦) . وكان الميناءان الصينيّان الآخران اللذان يكثر ذكرهما على ألسنة التجار هما (الزيتون) و(سوسة) .

أما الهند فأن الاتصالات التجارية معها كانت أقدم وأكثر متانة من الصين ، والطريق اليها الذى تتكرر الاشارة اليه هو الطريق البحري وكان الهنود يردون الى خليج البصرة وسواحل ايران من أجل التجارة مع أهل المنطقة وكانت الخيل العراب تحمل الى الهند من البحرين واليمن والعراق اضافة الى الاقمشة الفاخرة التي كانت ترد اليها من الصين والعراق ومصر(٣٨) . وكان المسك يحمل من التبت الى الهند حيث يجمع فيها ثم يحمل منها في البحر الى سيراف ميناء فارس المهم وعمان والمناطق المجاورة(٣٩) وكانت سيراف مركزا رئيسا لالتقاء تجار العراق الواردين

---

(٣٣) ابن حجر العسقلانى ، الدرر الكامنة ، ج١ ، ص ٥٩ .
(٣٤) ن.م. ج١ ، ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩ .
(٣٥) محمد بن رافع السلامى ، منتخب المختار ، ص ١٦٥ .
(٣٦) صبح الاعشى ، ج٢ ، ص١١٥ .
(٣٧) ن.م. ج٤ ، ص ٤٨١ .
(٣٨) ن.م. ج٤ ، ص ٨١ ، ٨٤ .
(٣٩) ن.م. ج ٥ ، ص ٦٤ .

من الابلة وتجار ايران والهند والديبل على خليج السند ميناء الهند الاكبر الذي يتجمع فيه تجار المسلمين ويشحن اليه التمر من البصرة • وعندما وصل ابن بطوطة الى مدينة دهلى في ٦٣٤هـ/١٢٣٦م لقى السيد أبا الحسن العبادي العراقي الذى كان يتجر بمال سلطان المدينة ويشتري له الاسلحة والامتعة من العراق وخراسان[٤٠] • وعند مواجهته للسلطان المذكور وجد بين يديه تاجرا غنيا من شيوخ بغداد يعرف بالسامري يحترمه السلطان ويقول له والدي[٤١] • وكانت مدينة هرمز أيام ابن بطوطة مرسى الهند والسند تحمل منهما سلعهما الى العراقين وفارس وخراسان[٤٢] وكان التجار الذين يترددون اليها يحملون معهم البهارات والعطور والاحجار الكريمة واللؤلؤ ونسيج الحرير وأسنان الفيل وغيرها من السلع التي يحملها تجار آخرون الى مختلف أنحاء العالم[٤٣] •

واذا انتقلنا الى المنطقة القريبة الواقعة شمال العراق الحالي أي آسيا الصغرى أو بلاد الروم كما كانت تسمى في العهد الايلخاني تطالعنا المصادر الاولية عن علاقات تجارية غير قليلة بينها وبين العراق العربي والجزيرة فقد كانت تمتاز بأصناف جيدة ورخيصة من الغنم والماعز وكانت أكثر ذبائح أهل الشام وديار بكر والعراق وبلاد العجم مما يجلب اليها منها[٤٤] • وقد زار السائح المغربي ابن بطوطة بلاد الروم وأشار الى الزجاج العراقي في مدينة العلايا[٤٥] ومر بمدينة (كمش) الكبيرة وذكر بان التجار يأتون اليها من العراق والشام[٤٦] • وعند كلامه عن مدينة (أيا سلوق) أشار الى أن سلطانها أعطاه مملوكا روميا وثوبين من الكمخا التي وصفها

---

(٤٠) تحفة النظار ، ج٢ ، ص ٨٢ •
(٤١) ن•م• ج ٢ ، ص ٨٧ •
(٤٢) ن•م• ج١ ، ص ١٧٣ •
(٤٣) رحلة ماركو بولو ، (المصدر المار ذكره) ، ص ٤٦ •
(٤٤) مسالك الابصار كما جاء فى القلقشندى ، ج ٥ ، ص ٣٥٦ •
(٤٥) تحفة النظار ، ج ١ ، ص ١٩٣ •
(٤٦) ن•م• ج١ ، ص ١٨٩ •

بأنها ثياب حرير تصنع في بغداد وتبريز ونيسابور والصين[٤٧] . ويبدو ان نشاط التجار العراقيين كان يصل الى بلاد الارمن التي كانت تمتد ـ في هذا العهد ـ الى منطقة آسيا الصغرى الواقعة شمالي سورية . ففي ٧٣٥هـ/١٣٣٤م غزا عسكر حلب هذه البلاد وألحقوا تخريبات يبدو أنها كانت كبيرة في (طرسوس) و (أذنة) وأخذوا منها الاسرى ، فانتقم أهل (أياس) وهي احدى مدنهم ، بمن كان عندهم من المسلمين وحبسوهم في خان ثم أحرقوه عليهم ، وكان ممن قتل في تلك الحادثة نحو ألفي تاجر من البغاددة وغيرهم[٤٨] .

ويبدو ان التجارة لم تنقطع تماما بين العراق وسورية ومصر بالرغم من العداء المستحكم بين الايلخانيين والمماليك فقد كان الورق البغدادي أشهر ورق في مصر يكتب به للملوك وغيرهم[٤٩] . وفي ٦٥٩هـ/١٢٦٠م احضر السلطان الظاهر بيبرس أمراء العربان في سورية وأقطعهم وسلّمهم حفظ الدروب الى حدود العراق وأصدر منشورا أمَّرَ فيه الامير شرف الدين مهنّا على جميع العربان[٥٠] . وفي ٦٧٠هـ/١٢٧١م اتهم قاضي قضاة مصر شمس الدين محمد بن ابراهيم الحنبلي بأن لديه ودائع التجار من أهل بغداد وحران والشام بجملة كبيرة وأنهم ماتوا[٥١] . وفي ٧٠١هـ/١٣٠١م مات التاجر السفار أحمد بن يوسف بن أبي البدر البغدادي في حلب[٥٢] . وكان تاجر السلطان بالرقيق اسماعيل بن محمد السلامي المتوفى في ٧٤٣هـ/١٣٤٢م وجيها بين السلطانين محمد بن قلاوون سلطان المماليك وأبي سعيد سلطان الايلخانيين ، وكان يسعى بالصلح بينهما ويصل الى

---

(٤٧) ن٠م٠ ج١ ، ص ١٩٣ .
(٤٨) أبو الفداء ، المختصر في اخبار البشر ، ج٤ ، ص ١١٩ .
(٤٩) صبح الاعشى ، ج٢ ، ص ٤٧٦ ؛ المقريزي ، السلوك ، ج١ ، قسم ٢ ، ص ٤٩٧ .
(٥٠) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، قسم ٢ ، ص ٤٦٤ ـ ٤٦٥ .
(٥١) ن٠م٠ ص ٦٠٢ ـ ٦٠٣ .
(٥٢) الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٣٣٨ .

مملكة الأيلخـــانيين السنتين والثلاث والبريد لا ينقطع عنـه ولـه فيهـا ضياع[٥٣] .

ان أهم المشاكل التي كانت تعانيها تجارة العراق في هذه الفترة تتمثل في موقف القبائل البدوية العربية والـكردية التي كانت تقطع الطرق وتنهب التجار ، والخلاف بين دولتي الايلخانيين والمماليك ومضايقة الدولة للأغنياء طمعا بمالهم وعدم توحيد النقود في سائر أنحاء الامبراطورية الايلخانية .

فابن سعيد المغربي وقد مر بالعـراق في ٦٥٤هـ/١٢٥٦م يشـير الى أن خفاجة ، عرب العراق في عصره ، كانوا يقومون بغارات متصلة عـلى البلاد التي صارت في حوزة التتر ، وكلما طلبوا دخـلوا الصحراء . كمـا يقول أن بطائح الـكوفة كانت مأوى للعربان وقطاع الطرق[٥٤] . والسائح ابن بطوطه يشير الى انّ مدينة الـكوفة كانت خربة في عهده وأن سـبب ذلك عرب خفاجة المجاورين لها لانهم يقطعون طريقها[٥٥] . ويضيف الى ذلك أنه سافر من النجف الى البصرة ، برفقة كبيرة من عرب خفاجة ، أهل تلك البلاد ، الذين كانت لهم شوكة عظيمة حتى أنه لا سبيل الى السفر في تلك الاقطار الا في صحبتهم[٥٦] . وخلال سفرته هـذه الى جانـب الفرات ، مر قبل وصوله واسط ، بموضوع يعرف بالعذار ، فوصفه بأنه غابة في قصب وسط الماء يسكنها أعراب يعرفون بالمعادى قطاع طرق خرجوا على جماعة من الفقراء تأخروا عن الركب فسلبوهم حتى النعال[٥٧] . وفي ٦٨٠هـ/١٢٨١م ظهر أعـراب مفسدون في السيب وأطـراف واسـط فسار اليهم العسكر المغولي ونهب منهـم الكثير وعاد بالاسرى والاموال[٥٨] . وفي ٦٨٦هـ/١٢٨٧م دخل الاعراب يوم الجمعة الى الجـامع (بالمحول)

---

(٥٣) ن.م. ج ١ ، ص ٣٨١ .
(٥٤) كتاب بسط الارض ، ص ٦٥ ـ ٨٩ .
(٥٥) تحفة النظار ، ج ١ ، ص ١٣٧ .
(٥٦) ن.م. ج ١ ، ص ١١٣ .
(٥٧) ن.م.
(٥٨) الحوادث الجامعة ، ص ٤١٥ .

وهي على مسافة قصيرة من بغداد الغربية فأخذوا ثياب كل من كان فيه ثم قصدوا (الحارثية) وكبسوها ليلا وأخذوا ما قدروا عليه وقتلوا جماعة من أهلها ولكن شحنة العراق استطاع ان يظفر بأكثرهم ويضرب اعناقهم[٦٠]. وفي ٦٩٤هـ/١٢٩٣م أمر السلطان كيخاتو الامير المغولي بايدو بالمسير الى بلاد واسط وسوادها لظهور جماعة من الاعراب المفسدين ، فسار هذا اليهم ولكنهم لجأوا الى البطائح فلم يقدر عليهم فأخذ هو ينهب الاموال ويأسر الناس وسبى نساءهم ونهب سفن التجار الواصلين من البحر[٦٠] . وفي ٦٩٨هـ/١٢٩٨م سار السلطان غازان الى العراق وأرسل العسكر الى بطائح واسط حيث حصروا الاعراب وأكثروا فيهم القتل والنهب والسلب ثم عين جماعة لملازمة أعمال واسط ومنع من بقى من العرب عن الفساد[٦١] . وقد ذكر رشيدالدين فضل‌الله أن قطاع الطرق من مغول وأكراد ولوريين وشاميين وغيرهم كانوا يتطاولون على الناس وان البعض من المتنفذين وأصحاب السلطة كانوا يتفقون معهم ويغضون النظر عنهم حتى كان من الصعب القضاء عليهم حتى جاء غازان وأصلح الحال بوضع مسؤولية هذه الحوادث على سكان المنطقة وتعيين عدد كبير من حراس الطرق[٦٢]. وقد أشار ماركو بولو في كلامه عن رحلته في منطقة الموصل ، بأن الاكراد كانوا يقطنون الاجزاء الجبلية هناك وان جماعات منهم كانوا يقومون بسرقة التجار[٦٣] .

وقد كان الخلاف المزمن بين دولتي الايلخانين والمماليك سببا في ضياع الامن وقطع الطرق على التجار بين العراق والبلاد العربية المحيطة به فقد كان احتمال غزو سورية خطرا قائما حتى أواخر أيام أبي سعيد آخر سلاطين الايلخانيين وكان جنود المغول يهددون أطراف سورية ويتغلغلون حتى مدينة دمشق نفسها في بعض الاحيان وكان جنود المماليك والقبائل

---

(٥٩) ن٠م٠ ص ٤٥١ ـ ٤٥٢ ٠
(٦٠) ن٠م٠ ص ٤٧٦ ـ ٤٧٧ ٠
(٦١) ن٠م٠ ص ٤٩٨ ٠
(٦٢) داستان غازان ، ص ٢٧٧ ٠
(٦٣) رحلة ماركو بولو ، ص ٢٨ ٠

العربية التابعة لدولتهم خصوصا قبائل طي الضاربة في الصحراء السورية تهدد أطراف العراق والجزيرة وتقترب من الموصل ومن ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس جهز في ٦٦٣هـ/١٢٦٤م عسكرا كثيفا الى ناحية الفرات ليطرد التتار النازلين (بالبيرة) فلما سمع المغول بذلك ولوا مدبرين وأمنت المنطقة بعد خوف وقلق واضطراب[٦٤] وفي ٦٧١هـ/١٢٧٢م سار السلطان بيبرس الى نفس الناحية وكانت محاصرة بطائفة من من التتار فلما سمعوا به هربوا[٦٥] وفي ٦٨٤هـ/١٣٨٥م أغار عسكر الشام على ديار بكر والموصل وأربل وقتل وأسر الكثير من أهلها ونهب أموال التجار في قيسارية الموصل[٦٦] . وفي ٦٩٩هـ/١٢٩٩م أفلحت الجيوش المغولية بقيادة السلطان محمود غازان في أيقاع هزيمة كبيرة في وادى الخزندار بالقرب من حمص بقوات المماليك التي كانت تحت قيادة السلطان الناصر محمد بن قلاوون وقد دخل المغول دمشق وتراجع المماليك الى مصر ولكن غازان ما لبث ان عاد الى الموصل في طريقه الى ايران وعاد المماليك الى سورية ثم أنه عاد الى سورية بجموع كثيفة من جنوده والتقى مع السلطان الناصر في (شقحب) بالقرب من دمشق في ٧٠٢هـ/١٣٠٢م فهزم التتر هزيمة كبيرة وولوا مدبرين[٦٧] ومن الجهة الاخرى كانت الاتصالات تجري في بعض الاحيان بين الايلخانيين والمماليك لتحسين العلاقات وتسهيل سبل التجارة بينهم ففي ٦٨١هـ/١٢٨٢م أرسل أحمد ابن هولاكو الذى تحول الى الاسلام قبل قليل رسالة الى الملك المنصور قلاوون يطلب فيها انهاء حالة التوتر والحرب بين الدولتين واطلاق سبل التجار والمسافرين فأجاب المنصور قلاوون الى ذلك وأصدر أوامره بتسهيل سفر التجار[٦٨] . ولكن ذلك لم يدم الا فترة قصيرة لان المغول قتلوا السلطان

---

(٦٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٤٤ .
(٦٥) ن.م. ج ١٣ ، ص ٢٦٣ .
(٦٦) الحوادث الجامعة ، ص ٤١٥ .
(٦٧) المختصر في اخبار البشر ، ج ٤ ص ٤٤ ، ٥٠ .
(٦٨) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٥٠٨ ـ ٥٠٩ .

أحمد بن هولاكو ونصبوا الامير أرغون سلطانا عليهم في ٦٨٣هـ/١٢٨٤م فعادت العلاقات الى التوتر بين الدولتين الايلخانية والمملوكية وقد أرسل السلطان محمود غازان في أواخر حياته رسلا بينهم قاضي الموصل وخطيبها كمال الدين بن بهاءالدين الشافعي الى السلطان محمد بن قلاوون يطلب انهاء حالة الحرب بين الجانبين وما نتج عنها من تعذر سفر التجار وتوقف البضائع والاسفار[٦٩] ولكن الناصر اعتبر طلبه من باب الحيلة والخداع ولذلك رفضه . وقد ظلت العلاقات متوترة بين الجانبين حتى ٧٢٠هـ/١٣٢٠م حيث نشطت مفاوضات الصلح بينهما وانتهت بعودة العلاقات السلمية بين الدولتين في أواخر عهد السلطان ابي سعيد آخر سلاطين الايلخانيين[٧٠] .

وأخيرا يبدو أن جانبا مهما من ثقل الضرائب كان يقع على التجار فيعرقل التجارة ويؤدي احيانا الى غلق الاسواق هربا من الضريبة كما ان اضطراب النقود وعدم توحيدها في مختلف ولايات الامبراطورية الايلخانية ووجود مناطق تكثر فيها العملة الرخيصة كان يربك التجارة ويدفع بالتجار الى تجافي بعض المناطق لكثرة العملة الرخيصة فيها[٧١] .

---

(٦٩) جمال‌الدين ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ١٣٧ – ١٣٨ .

(٧٠) المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ، قسم ١ ، ص ٢١١ – ٢١٤ ، قسم ٢ ، ص ٣١٠ – ٣٧٢ .

(٧١) انظر الحوادث الجامعة ، ص ٣٩٨ ، ٤٢٤ ، ٤٣٠ ؛ داستان غازان ، ص ٢٨٢ .

الفصل الثالث عشر

السكان والمدن

(أ)

كان يتنازع سكان بلاد الرافدين من حيث تكوينها العنصري والثقافي عاملان رئيسيان هما الزحف من الغرب والجنوب ومصدره جزيرة العرب والزحف من الشرق ومصدره ايران • وقد كان العامل الاول أقدمهما واكثرهما أهمية في تكوين سكان البلاد المذكورة • فقد وضعت الموجات السامية المتعاقبة الخارجة من جزيرة العرب من اواسط الالف الرابع قبل الميلاد الى اواسط الالف الثاني قبل الميلاد من أكدية واشورية وامورية وارامية المادة الاساسية بالنسبة لاكثرية سكان بلاد الرافدين ، المادة التي ظلت متغلبة الى عهد الفتوحات الاسلامية الكبرى فى القرن السابع الميلادى بالرغم من تعدد الغزوات القادمة من ايران مثل العيلاميين والأخمينيين والفرثيين والساسانيين الذين زاد حكمهم لهذه البلاد على ثمانية قرون •

ومع ان غالبية السكان ظلت من الساميين فقد تركت الغزوات وعهود الحكم الايرانية اثرا ظل مستمرا مدة غير قصيرة بعد الفتح العربى الاسلامى فى القرن السابع الميلادى • وعند ما بدأت الفتوحات المذكورة وهى اعظم حدث فى تكوين البلاد عنصريا وثقافيا كان سكان بلاد الرافدين يتألفون من العناصر الآتية : (أ) أكثرية السكان وهم آراميون يتكلمون لغة سامية قريبة من العربية وينتشرون فى مختلف المدن والقرى من الشمال الى الجنوب (ب) العرب واكثرهم قبائل يسكنون بلاد الجزيرة اى المنطقة الواقعة بين دجلة والفرات وتسمى بلادهم ديار ربيعة لانهم ينتمون الى مجموعة القبائل التى تطلق عليها هذه التسمية • ومنهم من كان يتنقل على جانبى الفرات ويمتد الى البادية • ويبدو مما أورده ابن رستة ٢٩٠هـ (٩٠٢م) ان قبائل عربية من يشكر وباهلة وبنى عنبر كانت تجاور أرض

ميسان في جنوبي العراق قبل ان يغلبها الماء ويكون البطائح في أواخر العهد الساساني[1] (ج) الفرس وقاعدتهم المدائن على دجلة ويمتدون على النهر المذكور الى الجنوب ومن المدائن الى جبال ايران فى الشرق (د) الاكراد يبدو أنهم كانوا ينتشرون في الجبال الواقعة في المنطقة الشمالية الشرقية • يضاف الى ذلك اقلية من اليهود كانت تنتشر فى مدن وقرى عديدة فى مختلف انحاء البلاد وصابئة يعيشون فى بطائح منطقة واسط •

وقد أدت الفتوحات الاسلامية فى القرن السابع الميلادى الى تغير أساسي في تركيب السكان العنصري والثقافي فقد فتح العراق على مصراعيه امام القبائل العربية القادمة من جزيرة العرب وصارت هذه البلاد قاعدة للتوسع فى ايران والشرق ومصرت مدن جديدة مثل الكوفة والبصرة والموصل وبغداد صارت بدورها قاعدة لاجتذاب عناصر عربية وغير عربية وبوتقة عنصرية وثقافية غلبت عليها اللغة العربية والثقافة الاسلامية وكان من نتائج الفتح المذكور ان دخلت اللغة العربية فى صراع مع اللغتين الارامية والفارسية كانت الغلبة لها عليهما بينما دخل الدين الاسلامي في صراع آخر مع المسيحية واليهودية والمجوسية والصابئة انتهت بسيطرته ايضا • ولكن عملية الصراع العنصري واللغوي والديني والثقافي استمرت حتى عصرنا الحاضر ولذلك فان عناصر غير عربية كانت لا تزال تؤلف جزءا من السكان فى العراق حتى القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وربما الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ويبدو مما ذكره اليعقوبى وهو من اهل الربع الاخير من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ان سكان البلاد الممتدة بين مدينة السيروان ، وتبعد حوالي العشرة فراسخ من شرقي بغداد ، الى حلوان وهي آخر حد شرقي للعراق آنذاك ، اخلاط من العرب والعجم الذين هم من الفرس والاكراد[2] بينما يصفها الاصطخرى بشكل اكثر تحديدا فيقول بان المنطقة الواقعة وراء القوس الممتد بين الدسكرة وتقع

---

(١) الأعلاق النفسية ص ٩٣ •

(٢) البلدان (نشر مع الاعلاق النفسية لابن رستة) ص ٢٦٩ •

على النهروان ، الى تكريت وسامراء والعلث ، ومن الدسكرة الى حد عمل واسط الى الجبل الغالب عليها الاكراد والاعراب وهي مراعي لهم[٣] . وفيما يتعلق بالمنطقة الممتدة على نهر دجلة من بغداد الى المدائن ومنها الى واسط يبدو من وصف اليعقوبي أن اكثر مدنها فارسية وان واسط كانت تتكون من مدينتين على جانبي دجلة أهلها في عهده اخلاط من العرب والعجم[٤]. أما الفرات فهو في عهد الاصطخري يمتد على ديار العرب الى الكوفة ومنها الى حد واسط بينما تتنقل القبائل العربية فيما بين العراق واليمن والشام[٥] . ويذكر ابن حوقل النصيبي وهو من أهل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ان اهل الموصل عرب وان بالقرب من سنجار بين شمالها وغربها يقطن قوم من العرب مخفرين وان الجزيرة كان يسكنها قبائل من ربيعة ومضر ازاحتهم منها بطون من قيس عيلان وملكوا غير بلد وأقليم منها والمنطقة بين الزابين الاعلى والاسفل مصائف لبني شيبان ومشاتي للاكراد الهذبانية[٦] . وقال المقدسي البشاري وهو من أهل القرن الرابع الهجري أيضا ، ان العراق به مجوس كثيرون وان البطائح نبط[٧] وان البصرة سوادها كلهم عجم[٨] وان اقليم آقور اي الجزيرة ، منازل العرب في الاسلام وان ديار ربيعة فيها قصبتها الموصل[٩] .

وفي اواخر العهد العباسي لم يقدم لنا ياقوت ما يعيننا على تحديد المناطق التي كان يكثر فيها الفرس الى الشرق من المدائن وعلى مجرى نهر دجلة في الجنوب كما وان الفتح المغولي من ايام هولاكو لم يؤد الى تغير في تركيب البلاد عنصريا بل اقتصر على وضع حاميات مغولية كان

---

(٣) كتاب المسالك والممالك ص ٨٥ـ٨٨ .
(٤) البلدان ، المصدر المار ذكره ، ٢٦٩ ـ ٣٢٢ .
(٥) الاصطخري ، المصدر المار ذكره ص ١٥ ..
(٦) ابن حوقل النصيبي ، صورة الارض ، ص ٢١٤ ـ ٢٢٨ .
(٧) احسن التقاسيم ص ١٢٨ .
(٨) ن. م. ص ٤١٣ .
(٩) ن. م. ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

مجموعها في اول حكم هولاكو ثلاثة آلاف فارس[١٠] ولكن بلاد الرافدين اصبحت جزء من الامبراطورية الايلخانية التي كانت قاعدتها تبريز ثم السلطانية وكلاهما في ايران وان الثقافة الفارسية اخذت تطبع المغول وتذيبهم فيها وان الايلخانيين اعتمدوا على الكثير من الفرس فى حكم العراق[١١] . ومع ذلك يبدو ان تيار التعريب ظل طاغياً طيلة العهدين العباسي والايلخاني فالمستوفي القزويني (ت ٧٤٠هـ/١٣٤٠م) بالرغم من فارسيته لا يشير الى وجود الفرس عند كلامه عن المدن والقرى العراقية باستثناء قوله عن البصرة ان لغة سكانها عربية ولكن بعضهم يتكلم الفارسية[١٢] أما ابن بطوطة وهو معاصر للمستوفي القزويني فقد مر بواسط ، سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م ، فلم يشر الى ان الفرس جزء من سكانها ولكنه قال ان في البصرة ثلاث محلات احدها محلة العجم[١٣] .

(ب)

يتكون نظام الري في بلاد الرافدين بصورة أساسية من دجلة والفرات والأنهار التي تُصب فيهما والقنوات التي تتفرع منهما، وهو يصح الى حدٍ غير قليل دليلا لتوزيع السكان وتجمعهم لان حرفة الزراعة كانت المصدر الاول لمعيشتهم ولان وسائط الرى كانت لا تزال بدائية لا تستطيع ان تمتد بالاراضي الزراعية الى مسافات بعيدة عن الانهار باستثناء منطقة الجزيرة والجبال حيث تكثر الامطار وتتعدد الينابيع .

ويقدم لنا الاصطخرى صورة جيدة عن المناطق المهمة لتوزيع السكان تزداد وضوحا اذا اضفنا اليها ما ذكره ابن حوقل النصيبي وكلاهما من اهل القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) فهو يقول ان المنطقة الواقعة وراء الخط الممتد بين الدسكرة على النهروان وتكريت ، وسامراء الى

---

(١٠) رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ص ٧١٤-٧١٥ .
(١١) انظر ص٢٦٣ .
(١٢) حمدالله المستوفي القزويني ، نزهة القلوب ص٤٦ .
(١٣) تحفة النظار ج١ ص ١١٤-١١٥ .

مقربة من العلث من جهة وواسط من جهة اخرى ، هذه المنطقة التي تصل الى حلوان والجبال قليلة العمارة منفـردة المنازل والقرى مراع للاكـراد والاعراب ويقول كذلك ان المنطقة الممتدة بين دجلة والفرات من غربي تكريت الى الانبار ، قليلة العمارة ويضيف الى ذلك (وانما العمارة ما يحاذي سامراء اميالا يسيرة والباقي بادية)[١٤] ويقول ايضا عن المنطقة الواقعـة على نهر دجلة جنوبي المدائن انها مشتبكة العمارة[١٥] ويضيف الى ذلـك (وبين بغداد والكوفة سواد مشتبك غير متميز تخترق اليه انهـــار من الفرات)[١٦] وهو يشيد بكبر مدينة البصرة وكثرة النخيل في منطقتها[١٧] ويضيف ابن حوقل اشارات مفيدة عن بلاد الجزيرة فيقول (وللموصـل نواح عريضة ورساتيق عظيمة وكور كثيرة وغزيرة الأهل والقرى) ويعدد هذه الرساتيق فيذكر نينوى والمرج وباهدرا والخابور ومعلثايا وفيشـابور ويصفها بما يفيد الغنى وكثرة المدن[١٨] ولكنه يشير الى البلاد الواقعـة بين الزابين بما يفيد تحولها الى الخراب وخلوها من السكان بسبب غزوات البدو واشتداد الفتن[١٩] . وفي وصفه المـدن القائمـة على الفرات جنوبي عانه يعدد قرى ومدن قليلة العدد بعضها غنى وبعضها على حال متوسطـة ويضيف الى ذلك انها قد تغيرت وانتقلت الى النقص والاستحالة[٢٠] .

وقد مر السائح ابن جبير بالعراق في اواخر القرن السادس الهجري (٥٨٠ ـ ٥٨١هـ) فوصف الحلة بكثرة الخلق ووصف الطريق الممتدة بين الحلة وبغداد بانه (في بسائط من الارض وعمائر وتتصل به القرى يمينا وشمالا) ووصف تكريت بانها كبيرة غاصة بالخلق وبغداد الشرقية بانهـا

---

(١٤) كتاب المسالك والممالك ، ص ٨٥ ـ ٨٨ .
(١٥) ن. م. .
(١٦) ن. م. ص٨٥ .
(١٧) ن. م ص ٨٠ـ٨٣ .
(١٨) ابن حوقل النصيبي ، صورة الارض ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧ .
(١٩) ن. م ص ٢٢٨ .
(٢٠) ن . م ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ .

كثيرة النفوس[٢١] ولكنه لم يقدم فيما عدا ذلك ما يلقي ضوءً مفيدا على مناطق تجمع السكان كما أن اشارته الى الطريق الممتد بين الحلة وبغداد عامة لم يقدم فيها اسماء المدن التي يجب ان تكون كثيرة العدد بناء على وصفه ولا أسماء الانهار وفروعها .

واذا رجعنا الى ما كتبه ياقوت الحموي (٦٢٥هـ/١٢٢٧م) قبيل بداية العصر الايلخاني المغولي عما شهده او وصل الى علمه من المدن والقرى في هذه البلاد ، نجد ان مجموع ما ذكره من الاسماء لا يزيد على المائتين والخمسين ولكنه قال عن نهر الملك انه يشتمل على ثلاثمائة وستين قرية[٢٢] . ويبدو من دراسة ما قدمه من الاسماء ان أكبر تجمع من المدن والقرى كان حول بغداد ثم الموصل اما باقي المناطق فتظهر مراكز تجمع السكان فيها مشتتة وباعداد صغيرة ومع ان الاسماء القليلة العدد التي اوردها ياقوت عن مدن بلاد الرافدين وقراها قليلة العدد خصوصا ما ورد منها عن المناطق الجبلية ، فان مقارنتها بما ورد في كتب البلدانيين العرب كابن رستة والاصطخري والنصيبي والمقدسي البشاري وكتاب ابن الأثير المسمى (اللباب) الذي اختصر فيه كتاب السمعاني (الأنساب) مع تصحيح واضافة ما هو ضروري ، يؤيد ان عدد مدن وقرى هذه البلاد كان قليلا فعلا .

وقد وصف المستوفي القزويني (ت ٧٤٠هـ/١٣٤٠م) كثيرا من مناطق العراق والجزيرة ومدنها وصفا عاما لا يساعد الباحث على تكوين صورة واضحة عن توزيع السكان ولكنه يلقي شيئا من الضوء المفيد على عدد من المناطق . فقد قال عن حلوان ان ثلاثين قرية تتبعها وعن خالص ان ثلاثين قرية تتبعها ايضا وخانقين ان عشرين قرية تتبعها ووصف نهر دجيل بأنه منطقة كبيرة اكبر مدنها (وانه) وتحتوي على قرى يبلغ عددها حوالي المائة

---

(٢١) رحلة ابن جبير ص ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢١٩ ، ٢٢١ .
(٢٢) معجم البلدان ، ج٥ ص٣٢٤ .

وعن طريق خراسان أنه منطقة مهمة ايضا أهم مدنها بعقوبا وباجسرا وشهربان وفيه مهرود وطابق التي توجد بالقرب منها ثمانون قرية وذكر عن نهر عيسى ان سبعين قريةومزرعة انشئت على ضفافه وقال ان نهر الملك يحتوي على اكثر من ٣٠٠ قرية ومزرعة وذكر مدينة هيت وقال ان ثلاثين قرية ومزرعة تتبعها(**) . وهذا يؤيد كثرة السكان على نهري عيسى والملك وهما جزء من المنطقة الممتدة حوالي بغداد وبينها وبين الحلة ، وكذلك على نهر دجيل وطريق خراسان .

ان ما ورد من المعلومات عن سكان بلاد الرافدين وتوزيعهم وتجمعهم يجب ان يؤخذ بحذر شديد لان العالم كان قليل السكان في القرون الوسطى ولان المدن الكبيرة كانت قليلة العدد ايضا وعدد سكانها لا يمكن ان يقارب ما في مدن العالم الحديث لعدم توفر الامكانيات الاقتصادية والصناعية والصحية آنذاك ولان المعلومات التي وصلتنا ليست الا انطباعات أناس عاشوا في تلك الفترة وخضعوا لمؤثراتها الثقافية ولان بعض الكتاب كابن جبير قدموا الى العراق عن طريق الصحراء حيث تقل المدن وتندر البقع المزروعة في مساحات واسعة من اطراف العراق الغربية ولان كثرة المجاعات(٢٣) والاوبئة(٢٤) والقلق السياسي والحرب وبدائية وسائل الانتاج لم تكن تسمح

(**) نزهة القلوب (الترجمة الانكليزية) ، ص ٤٧ ـ ٥٣ .

(٢٣) انظر ص ٢٢٥ ـ ٢٢٨ .

(٢٤) انظر ص ٢١٠ ـ ٢١٣ .

لم يحقق العالم زيادة كبيرة فى السكان الا بعد التقدم العلمي والتكنولوجي الحديث الذى أدى الى زيادة انتاج المواد الغذائية زيادة كبيرة والسيطرة على كثير من الامراض خصوصا الاوبئة التي كانت تذهب بملايين النفوس . وقد قدر احد الكتاب سكان الكرة الارضية بما لا يزيد على الخمسمائة مليون نسمة فى اواخر القرن السابع عشر بينما يقارب سكان الصين السبعمائة مليون نسمة في وقتنا الحاضر (١٩٦٨) .

Julian Huxely, "World Population", in, on Population, Three Essays, A Mentor Book, p. 64.

وقال احد الكتاب ان اقصى ما بلغه سكان الامبراطورية الرومانية

بتجمع كبير في النفوس • يضاف الى ذلك لم يصل الينا من المعلـــومات ما يدل على وجود خزانات مياه على الفرات او دجلة مثل الحبانيـــة او دربندى خان مثلا تحفظ جزء كبيرا من مياه دجلة والفرات ايام الفيضانات لاستخدامها في الزراعة الصيفية مما كان يجعل حياة السكان تعتمد خلال مدة طويلة من ايام السنة ـ اى الصيف ـ على ما يبقى من المياه فى مجارى الانهار وهي قليلة لا تسمح بزرع مساحات واسعة ولا نشوء مدن وقرى مزدحمة بالسكان• ولعلنا نستطيع ان نستنتج مما وردنا من المعلومات القليلة المبعثرة ان أهم تجمع للسكان في بلاد الرافدين كان على الطريق بين بغداد والحلة لتقارب نهري دجلة والفرات وكثرة الجداول التي كانت تتفرع من الفرات وتصب في دجلة في تلك المنطقة • يلي ذلك منطقة بغداد لوجود مدينة بغداد نفسها ولتوفر المياه فيها ثم منطقة الموصل ومنطقة البصرة فطريق خراسان اي لواء ديالى الحالي أما بقية المناطق فقد كان تكاثف السكان فيها منخفضاً •

ولابد لنا من اجل الوصول الى تقدير معقول لعدد السكان وتوزيعهم في بلاد الرافدين في أواخر العصر العباسي وخلال العهد الايلخاني من ان نأخـــذ بعين الاعتبار الخـراب الـذي أخذ يدب في العـــراق ابتداء من من القرن الرابع الهجري فى المدن والقرى ونظام الرى وحياة البـلاد

خلال القرنين المسيحيين الاول والثاني هو حوالي الستين مليونا وكانت تمتد من الفرات فى العراق الى المحيط الاطلسي فى الغرب وتشتمل على آسيا الغربية وجميع سكان أفريقيا الشمالية وأوربا جنوب خط الراين ـ الدانوب مع أكثر بريطانيا •

M.I. Finely, "Manpower and the Fall of Rome", The Listener, November 18, 1965, p. 793.

وقدر كاتب آخر عدد سكان الامبراطورية العثمانية في عهد أقصى اتساعها وهو آخر ايام الوزير صقلي سنة ١٥٧٨م بانه حوالي الثلاثين مليونا وكانت آنذاك تمتد من قلب هنغاريا في الشمال الى الخليج العربي والسودان في الجنوب ومن بحر الخزر وحدود ايران في الشرق الى مقاطعة وهران في شمال افريقيا فى الغرب •

Lord Eversely, the Turkish Empire, p. 145-151.

الاقتصادية بصورة عامة . فابن حوقل يردد ذكر التلف والخراب الذي أحدثه الاعراب وبنو حمدان خاصة في الجزيرة خصوصا الموصل وبلد والحديثة وسنجار والمنطقة الممتدة بين الزابين الاعلى والاسفل[٢٥] والمقدسي البشاري يصف العراق بانه (بيت الفتن والغلا وهو في كل يوم الى ورا) ومن الجور والضرائب في جهد بلا مع ثمار قليلة وفواحش كثيرة ومؤن قليلة[٢٦] .

ويصف الكوفة بانها (بلد مختل قد خرب اطرافه وقد كان نظير بغداد)[٢٧] ويقول عن واسط بعد وصفه اياها بسعة السواد ان (سائر مدنها صغار مختلة اعمرها الطيب وقرقوب)[٢٨] ويصف بغداد بانها (كانت احسن شيء للمسلمين وأجل بلد ... حتى ضعف أمر الخلفاء فاختلت وخف أهلها فاما المدينة فخراب والجامع فيها يعمر في الجمع ثم يتخللها بعد ذلك الخراب)[٢٩] وقد قال عن جرجرايا وتقع على دجلة الجنوبية (وقد كانت عظيمة وهي اليوم مختلة متقطعة العمارة)[٣٠] وعن هيت بانها (مدينة كبيرة ... وقد خفت)[٣١] وقال عن العراق بصورة عامة (واعلم ان العراق ليس ببلد رخاء ولكن جل وعمر بهذين النهرين وما يحمل فيهما وبحر الصين المجاور له)[٣٢] . وقد مر السائح الفارسي ناصر خسرو بالبصرة في أواسط القرن الخامس الهجري (٤٤٣هـ/١٠٥٢م) فقال ان معظمها خراب والجهات العامرة فيها متباعدة جدا[٣٣] .

وابتداء من القرن الرابع الهجرى اخذ مشروع النهروان بالخراب

---

(٢٥) صورة الارض ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ ، ٢٢٨ .
(٢٦) احسن التقاسيم ص ١١٣ .
(٢٧) ن. م ص١٧ .
(٢٨) ن. م ص١١٩ .
(٢٩) ن. م ص١٢٠ .
(٣٠) ن. م ص ١٣٢ .
(٣١) ن. م ص١٢٣ .
(٣٢) ن. م ص١٢٤ .
(٣٣) سفرنامة (ترجمة يحيى الخشاب) ص٩٥ .

وكان من اعظم مشاريع الرى في عراق القرون الوسطى ، يجرى مسافة طولها حوالي ثلاثمائة متر ويبلغ عرضه في بعض اقسامه مائة وعشرين مترا بعمق عشرة امتار فى بعض النقاط ويسير ما بين القائم الى موقع الكوت الحالي[٣٤] وكان يسقي بفروعه العديدة المتفرعة الى اليمين والشمال منطقة واسعة من الاراضي الممتدة الى الشرق من دجلة تكثر فيها المدن والقرى خربت بخرابة ورحل عنها اهلها وقد وصف ياقوت هذا المشروع في عهده (٦٢٥هـ/١٢٢٧م) بانه خراب (ومدنه وقراه تلال يراها الناس بها والحيطان قائمة) واضاف الى ذلك قوله (وكان من أجمل نواحي بغداد واكثرها دخلا واحسنها منظرا وابهاها مخبرا)[٣٥] وقد زاد في الأمر سوء تحول دجلة الى مجراه الشرقي الحالي في أواخر القرن السادس الهجرى وانقطاع المياه عن المدن والقرى والمزارع القائمة عليه مما حمل الخليفة المستنصر بالله الى فتح فروع من الضفة اليسرى لنهر دجلة ومدها على محاذاة دجلة القديم أو فى وسطه لايصال المياه الى المدن والقرى الواقعة عليه[٣٦] . وقد جاء في معجم البلدان لياقوت ما يدل على ان الخراب كان يشمل عددا من المدن والقرى فى عهده فقال عن حديثة الموصل بانها بليدة كانت على دجلة بالجانب الشرقي[٣٧] . واشار الى قلعة العمرانية وهي قرية كبيرة في شرقي الموصل بانها (آلت الى الخراب ما بقى عليها شيء)[٣٨] وذكر الرحبة وهي قرية على مرحلة من الكوفة بانها خربت[٣٩] وماذرايا وتقع شمالي واسط بأنها قد خربت[٤٠] والصليق وهي مواضع في بطيحة واسط بانها خراب[٤١] وقد وصف ياقوت الجانب

---

(٣٤) احمد سوسة ، ري سامراء ج١ ص١٥٩ .
(٣٥) معجم البلدان ج٥ ص١٢٥ ؛ انظر ايضا ج١ ص١٨١ .
(٣٦) احمد سوسة ، ري سامراء ج١ ص١٨١ .
(٣٧) ياقوت ، معجم البلدان ج٢ ص٢٣٠ .
(٣٨) ن. م ج٤ ص١٥٣ .
(٣٩) ن. م ج٣ ص٣٣ .
(٤٠) ن. م ج٥ ص٣٤ .
(٤١) ن. م ج٣ ص٤٢٢ .

الغربى لمدينة بغداد والجزء الشمالي من الجانب الشرقي منها بما يفيد انه مجموعة من المحلات المتباعدة المتفرقة التي يمتد بينها خراب كثير[٤٢] ولكن الجانب الشرقي من المدينة مما هو داخل السور كان مع ذلك على جانب كبير من الازدهار[٤٣] .

وبالرغم من صعوبة تقدير السكان لعدم توفر الاحصائيات اللازمة فمن الممكن الاعتماد على اشارة واحدة مهمة في هذا الشأن مع الاخذ بنظر الاعتبار العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي كان لها دور مهم في تحديدهم للتوصل الى عدد تقريبي لهم . فقد ورد ان الخليفة عمر بن الخطاب (ت ٢٤هـ/٦٤٤م) امر بمسح السواد وهو من العلث[٤٤] وجبيَ الى عبادان وفرض الخراج وختم على خمسمائة الف انسان للجزية على الطبقات[٤٥] . ودافعو الجزية هم أهل الذمة من اليهود والنصارى والمجوس وهم سكان البلاد فيما عدا العرب القادمين من الجزيرة مع الفتوحات الاسلامية وكانوا أقلية صغيرة في ذلك الحين . فاذا استبعدنا النساء منهم وهنَ نصف السكان تقريبا وأخرجنا العجزة والصبيان والمجانين والعبيد واذا قدرنا ان دافعي الضريبة تتراوح اعمارهم بين الثامنة عشرة والخامسة والخمسين وهي سن العمل جاز لنا القول بان دافعي الجزية كانوا يؤلفون نصف عدد الذكور او ربع السكان تقريبا ولذلك فعدد سكان البلاد الممتدة من العلث الى الفاو يساوي المليونين من النفوس واذا علمنا ان المنطقة المشار اليها تؤلف الجزء الاكبر من البلاد

---

(٤٢) ن. م ج١ ص ٣٠٨ ، ج٣ ص٣٠٧ ـ ٣٦١ ، ج٤ ص ٣٧٧ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٤٧ ـ ٤٤٨ .

(٤٣) انظر وصف محلات بغداد في معجم ياقوت ج١ ص١٦٨ ، ٣١٢ ، ج٢ ص٨٢ ، ٢٩٠ ، ٣٧٧ ، ٤٢٠ ، ج٤ ص٣١٥ ، ٣٤٠ ، ٣٦١ ، ٣٧٤ ، ٣٧٧ ، ٤٠٧ .

(٤٤) العلث : قرية على دجلة بين عكبرا وسامرا (ياقوت ، معجم البلدان ج٤ ص ١٤٥) .

(٤٥) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ص١٤ ؛ ابن حوقل النصيبي كتاب صورة الارض ص٣٣٤ ؛ القاضي ابو يوسف ، كتاب الخراج ص١٢٨ .

التي تكون عراق اليوم كما انها منطقة تكاثف السكان أي السواد جاز لنا تقدير سكان البقية الباقية من البلاد مع القادمين من الجزيرة العربية بما لا يزيد عن المليونين من النفوس ايضا ـ اى ان مجموع سكان البلاد التي نسميها الآن العراق كانوا يبلغون حوالي الاربعة ملايين نسمة أيام الخليفة عمر بن الخطاب • واذا اتخذنا هذا الرقم أساسا لتقديرنا لعدد سكان البلاد في العهود التالية لابد لنا من الاستنتاج بان عدد السكان قد ازداد نتيجة لانشاء البصرة والكوفة وواسط واتساع الموصل واستقرار عدد كبير من أفراد القبائل العربية في هذه المدن وغيرها من القرى • وازداد أكثر من ذلك بعد انشاء بغداد وامتدادها على جانبي دجلة وهجرة الكثير من السكان من أطراف العالم اليها وكونها عاصمة الدولة العباسية التي ترد اليها الضرائب من مختلف انحاء الامبراطورية فتنفق فيها خاصة وفي العراق عامة وتساعد على تنشيط التجارة والصناعة والزراعة واتساع العمران ونمو وازدياد السكان ولكن أحوال البلاد العامة أخذت بالتدهور والانحطاط نتيجة لضعف الخلافة العباسية وتفكك امبراطوريتها ونشوء دول مستقلة فى مختلف جوانبها حتى لم يبق للخليفة العباسي فى اواخر ايام الدولة العباسية غير البلاد الممتدة بين تكريت والفاو بالاضافة الى خوزستان •

وقد كان لضعف السلطة المركزية أثره في استيلاء البويهيين والسلجوقيين على هذه البلاد ونشاط البدو فى غزو المدن ومحاربة بعضها البعض حتى خربت البصرة والكوفة والمنطقة الواقعة بين الزابين الاعلى والاسفل • ومما ساعد على التعجل في تدهور الاحوال العامة ثورة الزنج (٢٥٥ ـ ٢٧٠هـ) أي (٨٦٩ ـ ٨٨٣م) وثورات القرامطة التي بدأت في أواخر القرن الثالث الهجري اي التاسع الميلادي والحروب الاهلية ايام حكم السلاطين السلجوقيين في القرن السادس الهجرى (الثاني عشر الميلادي) • وقد اشتدت الضرائب وساءت اساليب جبايتها من ايام البويهيين لحاجة الدولة الى المال فساعد ذلك على تدهور نظام الزرعة التي كانت اهم مصدر لثروة البلاد وقد ضعفت العناية بنظم الرى فخرب النهروان وكان من اعظم

مشـــاريع الري وازدادت حـــوادث الفيضـــان[٤٦] وكثرت الاوبئـــة والامراض[٤٧] . ولابد أن تؤدي هـذه الحوادث والتطورات الى تدهور عدد السكان بل الى هجرة بعضهم الى خارج البلاد . وقـد قال صاحب الكتاب المرسوم بمناقب بغداد وقد عاش في أواخر العهد العباسي عن مدينة بغداد (وكأن أهلها فى سعة من الارزاق ورخص الاســـعار فانتقـل معظمهم)[٤٨] .

وقد قال ابن الاثير في معرض كلامه عن شدة الضرائب التي فرضها الخليفة الناصر لـدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢هـ) = (١١٧٩ - ١٢٢٥م) ان العراق خرب في عهده وتفرق اهله في البلاد[٤٩] ولذلك وللاسباب التي ذكرناها ربما كان سكان بلاد الرافدين لا يزيدون عن الخمســـة ملايين فى اواخر ايام الدولة العباسية وهو اكثر من الرقم الذي توصلنـا اليه عنهم ايام الخليفة عمر بن الخطاب .

وفي العهد الايلخاني ادت الغزوات المغولية وثقل الضرائب وتعسفها وضعف العناية اللازمة بنظام الري الى تدهور احوال البلاد اقتصاديا وازدياد الخراب في بعض المدن كما ان ضعف سيطرة الحكام وازدياد الخلافات فيما بينهم ساعدت على عودة القبائل البدوية الى النشـــاط وقطع الطرق التجارية والاضرار بحياة البلاد الاقتصادية[٥٠] . قال المؤيد صاحب حماة عن البصرة وانهارها (وحكي من أثق به ان البصرة وبلادها التي على هذه الانهر المذكور قد خربت حتى لم يبق منها غير قيراط واحد من اربعـــة وعشرين قيراطا)[٥١] ووصف نهر عيسى وكان اهم انهار بغـــداد بان

---

(٤٦) انظر قائمة بحوادث غرق بغداد في : الدكتور احمد سوسة - فيضانات بغداد فى التاريخ ج١ ص٣٤١-٣٤٤ .
(٤٧) انظر ص ٣٤ - ٣٧ .
(٤٨) مناقب بغداد - ص ٢٤ - ٢٥ .
(٤٩) الكامل فى التاريخ ج٩ ص٣٦١ .
(٥٠) انظر ص ٨٦ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ١٧٥ - ١٧٧ .
(٥١) تقويم البلدان ص٤١٢ .

جريانه ينقطع ايام نقص الفرات حتى (تسقي البساتين التي عليه بالدواليب من مستنقعات تبقى في النهر المذكور)[٥٢] وذكر مدينة اربيل على وصف بعض اهلها فقال انها مدينة كبيرة خرب غالبها[٥٣] وقد وصف زكريا بن محمد محمود القزويني (ت ٦٧٤هـ/١٢٧٥م) مدينة حلوان بانها كانت عامرة طيبة والآن خراب)[٥٤] ووصف المستوفي القزويني (٧٤٠هـ/ ١٣٤٠م) عددا من المدن العراقية بما يشبه ذلك فقال عن خانقين انها كانت سابقا عاصمة اقليم ولكنها في عهده ليست الا قرية[٥٥] ووصف مدن عكبرا والقادسية والنهروان بانها خراب[٥٦] وأشار ابن بطوطة وهو معاصر للمستوفي القزويني الى مدينة البصرة خلال مروره فيها في أواخر العهد الايلخاني بما يفيد خراب جزء كبير منها ووصف الابلة بانها (مدينة عظيمة يقصدها تجار الهند وفارس فخربت وهي الآن قرية بها آثار قصور وغيرها دالة على عظمتها)[٥٧] وفي استعراض المستوفي القزويني للعراق والجزيرة في المناطق التي تكون عراق اليوم لا تبدو هذه البلاد كثيرة المدن والقرى ولا مزدحمة بالنفوس ولكنه يقدم وصفه هذا بصورة عامة لا تشمل على التفصيلات الضرورية[٥٨] .

ومع ذلك كان العراق يبدو في كتابات المعاصرين على جانب غير قليل من الرخاء والازدهار ومنهم المؤيد صاحب حماة والمستوفي القزويني وابن بطوطة ورشيد الدين فضل‌الله[٥٩] مع العلم بان اوصافهم عامة وغامضة وانها تشير الى ان أحوال البلاد قد ازدادت تدهورا أيام الايلخانيين . وان اتساع الخراب العمراني والاقتصادي يتضمن في نفسه على الاغلب

---

(٥٢) ن. م. ص٥٣ .
(٥٣) ن. م. ص٤١٣ .
(٥٤) آثار البلاد واخبار العباد ص٣٥٧ .
(٥٥) نزهة القلوب ، ص٤٧ .
(٥٦) ن. م. ص ٤٧ ـ ٥٠ .
(٥٧) تحفة النظار ج١ ص ١٠٩ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١١٨ .
(٥٨) نزهة القلوب ، ص٣٢ ، ٥٣ ، ١٠٢ .
(٥٩) انظر فصل الزراعة ص ٩٥ـ٩٨ .

تدهورا في عدد النفوس التي قدرناها بحوالي الخمسة ملايين في اواخر العهد العباسي ولذلك يحق لنا القول انها اصبحت أقل من ذلك في اواخر العهد الايلخاني •

(ج)

يصعب التمييز في العهد العباسي الاخير وفي أيام الايلخانيين بين القرية والمدينة في بلاد الرافدين وان المصطلحات التي كانت تطلق على المدن لم تكن واضحة تماما ولم تكن آنذاك عادة لتسجيل عدد السكان ولكن بعض الاشارات الواردة مفيدة في هذا السبيل ، فالمقدسي البشارى قسم العراق الى ست كور سماها باسم اهم مدينة في الكورة واطلق عليها اسم مصر أو قصبة ،هذه الكور هي الكوفة والبصرة وواسط وبغداد وحلوان وسامرا • وفي بلاد الجزيرة ذكر الموصل بمثل ذلك[٦٠] ووصف هذه القصبات بما يفيد انها اكبر مدن البلاد واضاف لكل منها عددا من المدن فللكوفة حمام ابن عمر والجامعين وسورا وغيرها وللبصرة الابلة وشط عثمان ودبّا وغيرها وذكر مثل ذلك عن بقية الامصار[٦١] وقد وصف بعض المدن بانها كبار مثل قصر هبيرة ودير العاقول وجبل وعكبرا والانبار وهيت وتكريت وعلث والسن • ووصف اخرى بأنها مدن صغيرة مثل قرقوب والدسكرة والنعمانية ووصف أخرى بانها قرى مثل صرصر ونهر الملك والصرات[٦٢] • أما ياقوت الحموي (٦٢٥هـ/١٢٢٧م) وقد كتب في اواخر العهد العباسي فانه اشار الى المدن والقرى باسماء تتضمن تفريقا غير واضح ولا دقيق في عدد سكانها فسمي بعضها مدنا كبيرة وهي بغداد والموصل والبصرة وواسط وأربيل وحلة بني مزيد وأطلق على اخرى لفظة مدينة وهي سنجار والسن ودقوقا وخرزاد أردشير وبلد

(٦٠) احسن التقاسيم ص١١٣ •
(٦١) ن• م• ص ٤٧ ـ ١١٣ •
(٦٢) ن• م• ص١١٦ ـ ١٢٤ •

والأنبار والقرية وسمى أخرى بلـد او بلدة مثل تكريت والجويب وهيت والجنيد والمحلبية وحر وخانقين والبندنيجين والبوازيج وباكسايا • ووصف أخرى بلفظة بليدة وهي النيل والمشان وحديثة الموصـل والمحول والمـدائن وطابث والصافية وجبل • ووصف أخرى بلفظة قرية أو ناحية أو موضع مثل بشيلة وبلاباذ وبورى وبوصلايا ودونا وبهرسير وباخمرا •

وياقوت لا يضع أساسا في تفريقه بين هذه المصطلحات ولكنه كما يبدو يحس بوجـود فروق بين المدن والقرى من حيث عـدد النفوس وسـعة البناء ففي كلامه عن أربيل يقول ان في ربض قلعتها (مدينة كبيرة عريضة طويلة) ويقول (ومع سعة هذه المدينة فبنيانها وطباعها بالقرى أشـــبه منها بالمدن)[٦٣] وهو يصف بعقوبا بانها قرية كبيرة كالمدينة[٦٤] وفي العهد الايلخاني يقدم لنا المستوفي القزويني وقد كانت له خبرة بشئون العراق وصفا مفيدا للتمييز بين حجم المدن الصغيرة والكبيرة والمتوسطة فقال ان النجف بلدة صغيرة محيطها (٢٥٠٠) خطوة وكربلاء بلدة صغيرة محيطها (٢٥٠٠) خطوة وسنجار يبلغ محيطها (٣٢٠٠) خطوة والأنبار محيطهـا (٥٠٠٠) خطوة وتكريت بلدة متوسطة محيطها (٦١٠٠) خطوة وحربي بلدة متوسطة الحجم ومثل ذلك داقوق وعانة وقوســان والمحول ولكن الموصل عاصمة الجزيرة ومحيط سورها (٨٠٠٠) خطوة[٦٥] • وقد وصف ابن سعيد المغربي سور بغـداد الشرقية وهـي أكبر مدن البـلاد بأن طول قوسه ميلان[٦٦] • واذا اتخذنا هذه الارقام أساسا لتقديـر حجـم المـدن العراقية أيام الايلخانيين بدت لنا مدنا صغيرة ومتوسطة أي على خلاف ما كان يراها أهل ذلك العصر[٦٧] ولذلك فان المصطلحات الدالـة على سعة المدن يجب ان تؤخذ على انها نسبية تمثل احوال العصر الذي كتبت فيـه وان

---

(٦٣) معجم البلدان ج١ ص١٣٨ •
(٦٤) ن• م• ج١ ص٤٥٣ •
(٦٥) نزهة القلوب ، ص٣٧-٥٣ ، ١٠٢-١٠٤ •
(٦٦) كتاب بسط الأرض في الطول والعرض ص٩١ •
(٦٧) انظر ص ١٥٢ - ١٥٣ •

عراق أواخر الدولة العباسية وأيام الايلخانيين كان في حقيقته بلاد مدن متوسطة ومدن صغيرة وقرى .

ومن الجهة الاخرى كانت هذه المدن شبه ريفية اي ان جزء من سكانها كان يعيش على الزراعة وهذا امر طبيعي قبل نشوء الصناعة الحديثة ووسائل النقل السريعة الرخيصة التي جعلت بالامكان قيام مدن تعيش على الصناعة وحدها وينقل اليها الماء والغذاء من مناطق اخرى . وكون المدن شبه ريفية دليل على ان القلق السياسي وكثرة انقطاع الطرق وعدم سلامتها وتهديد العدو للمدن جعلها مضطرة على تكييف اقتصادها الى نوع من الاكتفاء الذاتي ليستطيع سكانها الاستمرار على المعيشة ايام انقطاعها عن الريف وهذا ما فرض على بناتها انشاءها على الانهار والعيون ومصادر الماء الاخرى أو بالقرب منها . وقد وصف ياقوت أوانا بانها بلدة كثيرة البساتين والشجر وباجسرا بانها بليدة عامرة كثيرة النخل وهيت بأنها ذات دخل كثير وخيرات واسعة والمحول بانها بليدة كثيرة البساتين والفواكه[٦٨] . واشار القزويني الى عانة بانها كثيرة الاشجار والثمار والكروم والى الموصل بأن أهلها انتفعوا بدجلة كثيرا فشقوا منه قناة ونصبوا نواعير على الماء وعندما تنقص دجلة يبقى في الجانب الشرقي ضحضاح وتظهر الارض فيزرعون فيها القثاء والخيار . وقال عن واسط بأنها وافرة الغلات كلها قصور وبساتين ومياه[٦٩] وقد وصف ابن بطوطة الحلة بان حدائق النخيل بها داخلا وخارجا ووصف البصرة بأنها ذات بساتين وفواكه كثيرة وليس في الدنيا أكثر نخلا منها[٧٠] ووصف الجانب الغربي من بغداد بأنه مصدر الفواكه للجانب الشرقي لان فيه البساتين والحدائق[٧١] وقد فاضت

---

(٦٨) معجم البلدان ج١ ص٣١٢ ، ٢٧٤ ج٢ ص ١٣٨ ـ ١٤٩ ، ٣١٦ ، ٤٥٣ .
(٦٩) آثار البلاد واخبار العباد ص٤١٨ ، ٤٧٨ .
(٧٠) تحفة النظار ج١ ص١١٥ ـ ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٥٠ .
(٧١) ن. م. ص١٤٣ .

دجلة عام (٦٨٣هـ/١٢٨٤م) فتحطمت في بغداد حيطان وبساتين[٧٢] .

لا نجد تخصصا وظيفيا واحدا بالنسبة لاكثر مدن العراق في هذه الفترة . فقد كانت بغداد مركز العراق الادارى الذى يقطن فيه الوالي المسمى صاحب الديوان ومثل ذلك الموصل بالنسبة للجزيرة ولكن حياة هاتين المدينتين لم تكن تقوم على الادارة وحدها كما لم تكن هناك مدن صناعية بالمعنى الحديث حيث تكون الصناعة المصدر الاول والوحيد لحياة السكان ولكن عددا من المدن كان يشتهر بصناعة او أخرى كشهرة بغداد بالنسيج الفاخر والورق والموصل بالنسيج وقادسية دجلة بالزجاج وحربي ينسج الثياب القطنية الغليظة[٧٣] ونحن لا نجد في بغداد محلات خاصة بالعمال ولكن ابن جبير يشير الى احدى محلاتها وهي العتابية بأن فيها تصنع الثياب العتابية[٧٤] ويشير صاحب مراصد الاطلاع الى محلة أخرى فيها اسمها دار القز بأن الكاغد كان يصنع فيها[٧٥] ويمكن ان تستثنى فيما أوردنا بعض المدن التي نشأت حول بعض المراقد المقدسة وظلت خدمتها تكون أهم غرض لها مثل الكاظمين وكربلاء والنجف ومع ذلك فهذه المدن كانت بالاضافة الى ذلك مراكز تجارية ايضا . والحقيقة ان أهم غرض كان يوجه المدن العراقية آنذاك هو التجارة أي ان المدن كانت مراكز تسويق للريف المحيط بها او لمنطقة كبيرة واسعة كما هو الامر بالنسبة للموصل التى قال ابن حوقل أنها فرضة لاذربيجان وارمينية والعراق والشام[٧٦] ، والبصرة التي كانت السفن الآتية من عبادان تصعد اليها بطريق نهر الأبلة[٧٧] وكان في موقع بغداد قبل تأسيسها من قبل ابي جعفر المنصور سوق يعقد في كل سنة .

كانت غالبية المدن العراقية مسورة وكان لبعضها قلاع خاصة بها

---

(٧٢) الحوادث الجامعة ص٤٤٢ .
(٧٣) انظر : ص ١٢٧ ـ ١٣١ .
(٧٤) رحلة ابن جبير ص٢١١ .
(٧٥) مراصد الاطلاع ج٢ ص٥٠٧ .
(٧٦) صورة الارض ص٢١٤ .
(٧٧) المؤيد صاحب حماة ، تقويم البلدان ص٥٧ .

وهذا ما كانت تقتضيه ضرورة تأمين سلامة السكان والدفاع عنهم في عهود تميزت بعدم الاستقرار والتعرض لغارات الامراء المنازعين أو البدو أو الغزاة من الاجانب فبغداد الشرقية كانت محاطة بسور يبدأ بدجلة وينتهي اليها والموصل لها سوران خرب بعضها وأربل لها قلعة على تل عال داخل السور[٧٨] وعانه لها قلعة حصينة وتكريت لها قلعة حصينة تقع على دجلة ومدينتها محاطة بسور والبصرة محاطة بسور[٧٩] ولكن الكوفة لا سور لها والحلة لم يبق من سورها الا حلق من جدار ترابي مستدير بها[٨٠] .

وكان قلب المدينة العراقية والمحور الذي تدور عليه يتألف من شيئين مهمين هما المسجد والسوق وكثيرا ما يكونان متلازمين ويكون المسجد وسط السوق فالقادسية لها سوق واحد الجامع فيه والدسكرة لها سوق واحد الجامع أسفله وقصر هبيرة جامعها في السوق وجبل جامعها في السوق ومثل ذلك النعمانية والمدائن والسن[٨١] وفي هذا يبرز الترابط بين الجانبين الروحي والمادي في حياة السكان آنذاك فالمسجد ضروري لاهل السوق والسوق يزود رواد المسجد بما يحتاجونه من لوازم العبادة . وكان في كثير من المدن قيسارية وهي سوق مغلقة تقفل مداخلها خلال الليل وتحفظ فيها البضائع الثمينة . وفي المدن الكبيرة ينتظم كل أصحاب حرفة في زقاق واحد او اكثر كما تقوم دكاكين واسواق صغيرة في المحلات البعيدة عن قلب المدينة وخير مثال لذلك بغداد نفسها التي كان الجانب الغربي منها يتكون أيام ياقوت الحموي من عدد من المحلات المتباعدة كل منها كأنه مدينة صغيرة فيها المساجد والاسواق[٨٢] .

---

(٧٨) ابو الفداء ، تقويم البلدان ص٢٨٥ ـ ٤١٣ .
(٧٩) ابن بطوطة ، تحفة النظار ج١ ص١١٥ ـ ١٨٤ .
(٨٠) رحلة ابن جبير ص١٩٩ .
(٨١) المقدسي البشاري ص١٢٠ ، ١٢٢ ـ ١٣٣ .
(٨٢) معجم البلدان ج١ ص٣١٢ ، ج٤ ص٨ ، ٣٠٧ ، ٣٤٠ ؛ انظر ابن جبير ، رحلة ص ٢١١ ـ ٢١٥ .

وفيما عدا ذلك تكثر الاشارة الى الحمامات في المدن العراقية فياقوت يصف بعقوبا في عهده بأنها قرية كبيرة فيها (عدة حمامات ومساجد)[٨٣] والسلاميّة بكونها قرية كبيرة فيها عدة حمامات[٨٤] وقد اكثر البلدانيون في الاشادة بحمامات الموصل والبصرة وبغداد وسنجار[٨٥] . وتتوزع الدروب والسكك حول المسجد بدون خطة واضحة حتى لتبدو المدينة وكأنهـــا مجموعة غير منتظمة منها واوضح مثال لذلك بغداد[٨٦] والموصل[٨٧] . والدروب الضيقة كانت تحمي السكان من حر الصيف وتؤمن السيطرة على مداخل المحلات لحمايتها من اللصوص كما أنها مناسبة في عهـد كانت الحيوانات أهم وسائط النقل داخل المدن .

---

(٨٣) معجم البلدان ج١ ص٤٥٣ .

(٨٤) ن. م. ج٣ ص٢٣٤ .

(٨٥) ابن حوقل ، صورة الارض ص٢١٤ ؛ ابن جبير ص٢٢١ ؛ ابن بطوطة ج١ ص١٤١ ؛ زكريا بن محمد بن محمود القزويني ، آثار البـلاد واخبار العباد ص٣٩٣ ؛ المقدسي البشاري ، احسن التقاسيم ص٩١٨ .

(٨٦) ياقوت ، معجم ج٢ ص٤٤٨ ، ج٤ ص٣١٥ ؛ الحوادث الجامعة ص٧٩ ، ١٢٦ - ١٢٧ .

الفصل الرابع عشر
القبائل العربيـــة

كانت مجموعات كبيرة من القبائل العربية تعيش في العراق والجزيرة أكثرها بدوى في طبيعته يتنقل وراء الكلأ تجتذبه ثروة المدن وحضارتها وما فيها من الزاد والمتاع فيسعى اليها ويندمج في سكانها مع توالي القـرون أو يغير عليها اذا أحَس بضعف الحكومات المسيطرة عليها • وكون مجموعات كبيرة من هذه القبائل احتفظت بصبغتها البدوية يجعل من الصعب تحديد ديرة كل منها لأنها قد تختلف من عهد لآخر خصوصا وان علاقات القرابة والجوار التي كانت تربطها بقبائل جزيرة العرب واطرافها ظلت متينة حتى ليبدو من الضرورى للباحث ان يعتبر الجزء الشمالي من جزيرة العرب الممتد من الحجاز غربا الى الاحساء والبحرين شرقا ومن بادية الشـــام الى الجزيرة والعراق شمالا وهو ديرة واحدة تتنقّل فيها قبائل عديدة كبيرة تعيش فروع منها في الحجاز واخرى في اطراف العراق وغيرها في بادية الشام تتحرك فيها تحت عوامل من الجذب والدفع سياسية واقتصـاديـة كأوضاع الحكومات في جوانب هذه المنطقة والمنازعات بين القبائل نفسهـا على الكلاء او خفارة الطرق او الحجاج لذلك فان تاريخ هذه القبائل غامض خصوصا وان المؤرخين لم يعنوا بذكرها الا عندما كانت تجلب انتباههـم عند قيامها بنشاط يستلفت الانظار مثل غارات على المدن او ثورات على الحكومات او قطع طرق التجارة وغير ذلك •

يقول الهمداني (ت ٣٣٤هـ/١٩٤٥م) ان ديرة بكر بن وائل تمتد من اليمامة الى البحرين الى اطراف سواد العراق من الابلة الى هيت[١] ويحدد الاصطخرى (نبغ فى ٣٤٠هـ/١٩٥١م) ديرة قبائل أسـد بأنها

---

(١) صفة جزيرة العرب ص١٦٩ •

ما بين القادسية الى الشقوق في الطول ومن السماوة الى حد بادية البصرة عرضا • ويضيف الى ذلك ان بني تميم تكون اكثر القبائل في بادية البصرة وان بادية الجزيرة فيها احياء من ربيعة واليمن اكثرهم كلب اليمن[٢] وقال ايضا ان من الجبل شرقا الى الخط الممتد بين العلث الى الدسكرة الى واسط غربا مزارع يغلب عليها الاكراد والاعراب[٣] واشار ابن حوقل (٣٦٧هـ/٩٧٧م) الى ان بالقرب من سنجار بين شمالها وغربها وادي يسكنه قوم من قشير ونمير وعقيل وكلاب[٤] وان بين الزابين الاعلى والاسفل مراع صارت مشاتي للاكراد الهذبانية ومصائف لبني شيبان[٥] •

وخلال الفترة الايلخانية المغولية تقدم النصوص الواردة فيما كتبه ابن سعيد المغربي وابن فضل الله العمري والحمداني صورة فيها شيء من الوضوح عن قبائل العراق العربية وديرة كل منها • فالقبائل العربية اما قحطانية او عدنانية فأهم قبائل العراق القحطانية في هذه الفترة هي آل ربيعة من طى بن كهلان وكانت جماعات كثيرة اهمها آل فضل وديرتهم تمتد من حمص الى قلعة جعبر ثم على سقي الفرات الى اطراف العراق ومنها الى البصرة • وقد تشعب هولاء شعبا عديدة اهمها بيت مهنا بن عيسى وبيت فضل بن عيسى • وآل عيسى كانوا ملوك البر في هذا العهد اشترك منهم مهنا بن عيسى في قتال هولاكو مع المظفر قطز سلطان المماليك في مصر وقد توفي سنة (٦٨٤هـ/١٢٨٥م) فتولى الامارة ابنه مهنا ابن عيسى الذي عاصر السلطان المملوكي محمد بن قلاوون وكان يميل مرة الى المماليك واخرى الى التتار وفى (٧١٦هـ/١٣١٦م) لحق بسلطان الايلخانيين محمد خدابنده فاكرمه واقطعه الاقطاعات في العراق ولكن

---

(٢) مسالك الممالك ص ٣٣ ـ ٧٧ •
(٣) ن• م• ص٨٦ •
(٤) صورة الارض ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ •
(٥) ن• م• ص٢٢٩ •

السلطان المذكور توفي في نفس هذه السنة فعاد مهنا الى الشام واصطلح مع السلطان الناصر محمد بن قلاوون فرد اليه امارته واقطاعه لكنه عاد فانحاز الي التتر فطرد الناصر ال فضل باجمعهم من الشام[٦] .

ومن طى من القحطانية ايضا قبيلة زبيد وديرتها ايام ابن سعيد برّية سنجار من الجزيرة الفراتية[٧] . ومن طي كذلك غزيّة وقد ذكر الحمداني انهم فى الشام والعراق والحجاز وفيما بين العراق والحجاز وذكر انهم بطون عديدة منهم قبيلة البطنين وافخاذها آل دعيج وآل رفيع وآل سريّة وآل تميم وآل شرود . ومن بطونها أيضا الاجود وافخاذهم آل منيع وآل سنيد وآل منال وآل ابي حزم وآل علي وآل عقيل وآل مسافر وقد زاد العمري على ذلك افخاذا أخرى هي أولاد الكافرة ومساعدة وبني جميل وآل ابي مالك[٨] . ومن طى ايضا سنبس وقد ذكر الحمداني انهم طائفة في البطائح في العراق[٩] . وقد ورثت طي كما ذكر ابن سعيد (٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) منازل تميم بين البصرة والكوفة واليمامة[١٠] ومن القبائل القحطانية نسبة بنو لام وهم ممن يضاف الى آل مرا من طى وكانت صولتهم ايام ابن سعيد تمتد بين المدينة والعراق[١١] . وأخيرا تضاف قبيلة آل بشار من ربيعة من القحطانية وكانت ديرتهم تمتد من سنجار الى البادية الى اطراف بغداد[١٢] .

أما أهم قبائل العراق العدنانية في هذه الفترة فهي بنو عقيل وأسد وكان كل منهما يتكون من فروع عديدة فأهم فروع عقيل بنو عامر وكانوا

---

(٦) ابن فضل الله العمرى ، مسالك الابصار ، كما جاء في القلقشندي ، صبح الاعشى ج٤ ص٢٠٤ ـ ٢٠٦ .
(٧) ابن سعيد ، كما جاء فى القلقشندي ، نهاية الارب ص٢٦٩ .
(٨) القلقشندي ، صبح الاعشى ج١ ص ٣٢٠ ـ ٣٢٣ .
(٩) ن. م. ص٢١٥ .
(١٠) ابن سعيد كما ورد فى ابن خلدون ، العبر ج٦ ص١٢ .
(١١) القلقشندي ، صبح الاعشى ج٤ ص٢٥٤ .
(١٢) ن. م. ص٢٣٢ .

يسيطرون على البحرين سنة (٦٥١هـ/١٢٥٣م) وبنو عبادة وكانوا ايام ابن سعيد في الجزيرة الفراتية فيما يلي العراق[١٣] ومن فروعهم الاجافل وكانوا أيام ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/٤٠٥م) مع بني المنتفق في البطائح ما بين البصرة والكوفة وواسط[١٤] . ومن عقيل بنو خفاجة وكانوا أهم قبائل العراق ايام الايلخانيين وديرتهم تمتد من الفرات الى البادية . وكانت خفاجة ايام ابن خلدون تتنقل ما بين دجلة والفرات[١٥] . ومن عقيل بنو المنتفق وكانوا ايام الايلخانيين يعيشون الى الشمال من البصرة ومن عقيل ايضا بنو مالك وكانوا يعيشون ايام ابن خلدون في جهات البصرة والآجام الممتدة بينها وبين الكوفة الى المنطقة المعروفة بالبطائح[١٦] أما أسد فأهم فروعها بنو خالد وقد قال الحمداني انهم متفرقون في الشام والحجاز وبغداد وفيما بين العراق والحجاز[١٧] يضاف الى ما مر ان الحمداني ذكر قبيلتين لم يحدد نسبهما هما آل بطاح وجعلهم في عرب العذار في البطائح وقال انهم يمتنعون على الخلفاء العباسيين وملوك التتار بالماء والقصب والأجم واشار الى جماعة أخرى تسمى الحبور جعلهم في عرب بطائح العراق وقال انهم كانوا يمتنعون على الخلفاء بالغياض وأجم القصب ثم صاروا أهل مدر لهم رزق مقدر عليهم[١٨] .

يتضح تأثير القبائل العربية في تاريخ بلاد الرافدين في جانبين أساسيين خطيرين الاول ايجابي والثاني سلبي . فالتأثير الايجابي وهو الاهم يتجلى في ان هذه القبائل هي التي زودت البلاد بسكانها العرب وساعدت على تعريبها وتغليب الثقافة الاسلامية فيها وهي التي حملت اليها الاسلام وكونت المادة الاساسية في سكان المدن الجديدة الكوفة والبصرة وواسط

---

(١٣) ن.م. ج١ ص ٢٣٦ ـ ٣٤٣ .
(١٤) العبر ج٦ ص٢٣ .
(١٥) العبر ج٦ ص٢٣ .
(١٦) ن. م.
(١٧) صبح الاعشى ج٤ ص٢١٥ .
(١٨) القلقشندي ، نهاية الارب ص١١٣ ـ ١٣١ .

وتغلغلت في الريف ومناطق الرعي حتى جبال ايران[١٩] وسدت جزء من الفراغ الذى كان يحصل فى نقص النفوس نتيجة الاوبئة والهجرة .

اما الناحية السلبية فتتمثل فى طبيعتها البدوية التى تتجلى فى حبها للحرية والتنقل وقطعها الطرق واعتداءها على قوافل الحجاج والتجار وغاراتها على المدن حتى انها تعتبر مسؤولة الى حد غير قليل عن خراب الكوفة والبصرة وجزء كبير من بلاد الجزيرة يضاف الى ذلك انها كانت عامل قلق بالنسبة للحكومات المسؤولة عن هذه البلاد وكانت البادية الممتدة على الجانب الغربي والبطائح الواقعة بين الكوفة وواسط والبصرة ملجأ تأوى اليه وتمتنع به عن العقاب لتخرج منه من جديد عندما تواتيها الفرصة .

يقدم ابن حوقل النصيبي وصفا عاما مفيدا لبلاد الجزيرة ويؤكد على الخراب الذى أحدثه بنو حمدان فيها خصوصا في منطقة الموصل والحديثة وبلد وسنجار وتشتيتهم للقبائل التي كانت تقطن فيها ويشير الى ان المنطقة الواقعة بين الزابين كانت عامرة فتكاثر عليها البدو ونشبت فيها الفتن حتى صارت قفارا من السكان[٢٠] وعند دخول سيف الدولة البويهي مدينة بغداد سنة ٣٧٢هـ/٩٨٢م كانت المدينة وسوادها فى خراب وبنو شيبان يقطعون الطرق[٢١] وعندما وصلت الجنود الخراسانية الجانب الشرقي من المدينة سنة ٣٩٢هـ/١٠٠١م توقفت عن العبور الى الجانب الغربي لفساد الطرق وانتشار الاعراب[٢٢] وعندما زحف السلطان السلجوقي طغرلبك على العراق سنة ٤٥١/١٠٥٩م هرب البساسيري وأصحابه فنهبت الاعراب الرجّالة منهم وعندما وصل آخرون منهم الى مدينة صرصر هاجمهم بنو شيبان وقتلوا اكثرهم وعروا نساءهم[٢٣] وفى سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م أدت الفوضى والاضطرابات التي سببتها القبائل فى اطراف بغداد الى ان اضطر عامة المدينة

---

(١٩) انظر ما سبق ذكره ص١٤٨ .
(٢٠) صورة الارض ص ٢١٤ ـ ٢٢٨ .
(٢١) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٧ ص١١٤ .
(٢٢) ن. م. ج٧ ص٢١٩ .
(٢٣) ن. م. ج٨ ص٢٠٥ .

الى حمل السلاح[٢٤] وفي ٤٨٣هـ/١٠٩٠م جمع أحد امراء بني عامر ما يزيد على عشرة آلاف من افراد القبائل وهاجم البصرة واستولى عليها ونهبها مع أصحابه[٢٥] وفي ٤٨٥هـ/١٠٩٢م اغارت خفاجة على الكوفة وقتلوا الناس وعروا الرجال والنساء فدافع أهل المدينة عن انفسهم الى ان وصل العسكر وهربت خفاجة[٢٦] وفى ٤٨٩هـ/١٠٩٥م اغارت خفاجة على النجف ودخلت المسجد فيها وتظاهرت فيه بالمنكر فأرسل عليهم سيف الدولة صدقة بن مزيد عسكرا قتل الكثير منهم عند الضريح[٢٧]. وفى ٣٩٩هـ/١١٠٥م كانت البصرة بيد سيف الدولة صدقة بن مزيد وقد استناب فيها مملوكا له مع قوة صغيرة من الجند فأحسنت ربيعة والمتفق بضعفه فهاجمت البصرة مع من انضم اليها من الاعراب ودخلت المدينة وأحرقت الاسواق والدور وظلوا كذلك فترة اثنين وثلاثين يوما حتى أرسل اليهم صدقة جيشا ففارقوها[٢٨] وفى نفس السنة وقعت الحرب بين عبادة وخفاجة بالقرب من الكوفة انهزمت فيها عبادة وغنمت خفاجة منها الخيل والابل والغنم والعبيد ولكن عبادة عادت فهاجمت خفاجة بصورة مفاجأة وقتلت الكثير منها ونهبت اموالهم فنزحت خفاجة الى نواحي البصرة وأقامت عبادة في مكانها[٢٩] ويشير كاتب مجهول من أهل أواسط القرن السادس الهجري علّق على كتاب ابن حوقل النصيبي ، الى ان سبب خراب البصرة هو ظلم الولاة وجورهم وغزوات البادية لها فى كل سنة مرة او مرتين وأكثرهم خفاجة[٣٠] وفي ٥٥٨هـ/١١٦٢م أمر الخليفة المستنجد بالله باهلاك بني أسد أهل الحلة المزيدية وكانوا منتشرين فى البطائح وأرسل اليهم احد

---

(٢٤) ن٠ م٠ ص٢٣٤ ٠
(٢٥) ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠ ص٥٨ ٠
(٢٦) المنتظم ج٩ ص٦٣٠
(٢٧) ن٠ م٠ ج٩ ص٩٧ ٠
(٢٨) ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠ ص١٥٤ ٠
(٢٩) ن٠ م٠ ص٥٠ ، ١٦٥ ـ ١٦٩ ؛ المنتظم ج٩ ص١٥٦ ٠
(٣٠) صورة الارض ص٣٣٧ ٠

قواده مع ابن معروف أمير قبائل المنتفق وكانوا بارض البصرة فزحفوا اليهم وقتلوا منهم اربعة آلاف فتفرق بنو أسد وسلمت بطحائهم وبلادهم الى بني معروف[٣١] . وفي ٥٨٨هـ/١١٦٢م أيضا هاجم بنو عامر البصرة فحاربهم اميرها مع اهل البلد فلم يقدروا عليهم فدخل بنو عامر المدينة ونهبوا الخانات الواقعة على الشاطىء وبعض محال المدينة ثم استحبوا منها لما علموا باقتراب خفاجة والمنتفق ثم انهم حاربوا هاتين القبيلتين وهزموهما وعادوا الى البصرة ونهبوها حتى فارق أهلها مدينتهم[٣٢] وفي ٦١٦هـ/١٢١٨م ازداد فساد بني معروف وهم فرع من ربيعة كانوا يقطنون آنذاك فى غربي الفرات تحت سورا وما تبقى بها من البطائح واخذوا يقطعون الطرق ويفسدون فى القرى القريبة فوجه اليهم الخليفة الناصر لدين الله جيشا هزمهم وقتل وأسر الكثير منهم ثم أنهم عادوا الى مواضعهم من البطيحة بعد ان اعتذروا وقتل عدد منهم بأمر الخليفة[٣٣] .

ومن الجهة الاخرى كانت بعض القبائل تقوم فى كثير من السنين باعتراض طريق الحجاج ونهبهم وقتل عدد منهم احيانا ففي ٤٨٥هـ/١٠٩٢م اعترضت خفاجة طريق الحجاج وهزمت أميرهم وقتلت أكثر عسكره فارسلت حكومة بغداد قوة ضدها هزمتها وقتلت الكثير منها[٣٤] وفى ٦٣١هـ/١٢٣٣م خرج حاج العراق حتى وصلوا بعض المنازل فبلغهم ان الاعراب الاجاود طموا الآبار في منزل سلمان وبالغوا في طلب المال من أجل المصالحة[٣٥] وفى ٦٤٣هـ/١٢٤٥م ورد الخبر الى بغداد ان قوما من عرب البطنين خرجوا بالحجاج عن الطريق المسلوكة حتى قرر لهم ما أرضاهم من المال[٣٦] .

---

(٣١) ابن الاثير ، الكامل ج١١ ص١١٩ .
(٣٢) ن. م. ج١٢ ص٢٤ .
(٣٣) ن. م. ج١٢ ص١٤٧ ـ ١٦٥ .
(٣٤) المنتظم ج٩ ص٦٣ .
(٣٥) الحوادث الجامعة ص٦٠ .
(٣٦) ن. م. ص ٦ ـ ٧ .

ومن الجهة الاخرى هناك من الاخبار ما يفيد بان القبائل العربية اشتركت أيام المستنصربالله (٦٢٢ - ٦٤٠هـ) = (١٢٢٥ - ١٢٤٠م) والمستعصم بالله (٦٤٠ - ٦٥٦هـ) = (١٢٤٢ - ١٢٥٨) في محاربة القوات المغولية الغازية ففي ٦٣٣هـ/١٢٣٥م غزا المغول مدينة اربيل فأمر الخليفة المستنصربالله بتجهيز العساكر واستنفار الاعراد من البادية[٣٧] وفي ٦٤٣هـ/١٢٤٥م خرج المغول من همدان نحو العراق فامر الخليفة المستعصربالله باخراج العسكر لمحاربتهم واستنفار الاعراب وتفريق السلاح[٣٨] وقد اقتربوا من بعقوبا ووقعت مناشات بينهم وبين قوات الخليفة وعبرت منهم طائفة الى دجيل يقتلون وينهبون فأرسلت نحوهم جماعة من العسكر والاعراب فلما عرفوا بهم عادوا[٣٩] وخلال جزء غير يسير من العهد الايلخاني توقف نشاط القبائل العربية بالشكل الذي ألفناه لعمق الاثر الذى تركه الغزو المغولي فى نفوس السكان ولكن ذلك انتهى سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م حيث عادت القبائل الى نشاطها القديم من غارات على المدن وقطع طريق الحجاج والمسافرين في اطراف العراق الغربية والجنوبية بينما ظلت البطائح مأوى للفارين من وجه الحكومة والثائرين عليها يضاف الى ذلك ان بعض امراء طي في بادية الشام أخذوا ينتهزون فرصة النزاع القائم بين الدولتين الكبيرتين المسيطرتين على الشرق الادنى ، الايلخانيين والمماليك فيميلون الى هذه او تلك حسب ما تقتضيه مصالحهم .

ففي ٨٦٠هـ/١٢٨١م عند وصول السلطان أباقا خان الى العراق ارسلت طائفة من الجيش المغولي الى السيب وأطراف واسط فقامت بنهب وأسر خلق كثير من أفراد قبائل كانت هناك وصفوا بانهم من الاعراب المفسدين[٤٠] وفى ٦٨٣هـ/١٢٨٤م ادعى احد الناس فى جنوب العراق بانه المهدى المنتظر

---

(٣٧) الحوادث الجامعة ص٨٤ .
(٣٨) ن. م. ص٢٠٠ .
(٣٩) ن. م. ص٢٤١ .
(٤٠) ن. م. ص٤١٥ .

وجمع جموعا ولكنه اضطر على الهرب أثر تهديد صدر واسط ولجأ الى العرب حيث تفرق عنه أصحابه[٤١] وفي ٦٨٦هـ/١٢٨٧م دخلت الاعراب يوم الجمعة الى الجامع في المحوّل وأخذوا ثياب كل من كان فيه ثم هاجموا الحارثية وقتلوا جماعة واخذوا ما قدروا عليه[٤٢] وفى ٦٨٩هـ/١٢٩٠م حج كثير من أهل العراق ولكن الاعراب نهبوا البعض منهم عند عودتهم[٤٣] وفي ٦٩٣هـ/١٢٩٣م وصل الى علم السلطان كيخاتو ان في بلاد واسط وسوادها جماعة من الاعراب المفسدين فأمر الامير بايدو بالمسير اليهم ولكن هؤلاء اعتصموا بالبطائح فلم يقدر عليهم[٤٤] وفي ٧١٦هـ/١٣١٦م قصد حميضة ابن نمى السلطان خدابنده يطلب معونته لاعادته الى حكم مكة بعد ان طرده عنها اخوه رميثة فأمر السلطان المذكور نائبه على البصرة المسمى الدرفندى بمساعدته فسافر هذا بجماعة من التتر مع خفاجة وعقيل عرب البصرة ولكن الخبر بلغهم عند رحيلهم ان خدابنده قد توفى فتفرقوا وبقي قليل منهم مع الدرفندى[٤٥] وفى ٧١٨هـ/١٣١٨م سار فضل ابن عيسى احد امراء طى الى السلطان الايلخاني ابن سعيد وقائده جوبان واجتمع بهما واهدى لهما خيولا عربية فاقطعه جوبان البصرة بينما ظلت بيده اقطاعاته فى الشام ولكن عقيل عرب الاحساء والقطيف ، تحالفوا في آخر السنة المذكورة على مهنا بن عيسى ، وطردوا أخاه عن البصرة فجمع مهنّا جموعه وقصد عقيل والتقى بهم دون ان يقع بين الطائفتين قتال وافترقا بعد ان أخذت عقيل ما يزيد على عشرة آلاف بعير من عرب منها[٤٦] وفي ٧٢٠هـ/١٣٢٠م قطع سلطان المماليك في مصر وسورية أخباز عيسى بن مهنا بن مانع بن حديثة واقام مقامه محمد بن ابى بكر بن علي بن حديثة وارسل

---

(٤١) ن٠ م٠ ص٤٤١ ٠
(٤٢) ن٠ م٠ ص٤٥١ ـ ٤٥٢ ٠
(٤٣) ن٠ م٠ ص٤٦٢ ٠
(٤٤) ن٠ م٠ ص٤٧٦ ٠
(٤٥) ابو الفداء ، المختصر في اخبار البشر ج٤ ص٨٠ ٠
(٤٦) ن٠ م٠ ج٤ ص٨٧ ٠

احد امراء المماليك المسمى سيف الدين قجليس بجموع كبيرة من العساكر الشامية والعرب وراء عيسى المذكور الى الرحبة ثم عانة فهرب عيسى الى الكبيسات وفي السنة التالية ٧٢١هـ/١٣٢١م توجه مهنا ابن عيسى الى سلطان الايلخانيين ابي سعيد مستنصرا واخذ معه هدية كبيرة من الابل والخيل والفهود[٤٧] وفى اواخر العهد الايلخاني سافر السائح المغربي ابن بطوطة من النجف الى البصرة بصحبة جماعة كبيرة من عرب خفاجة اصحاب السيطرة حينئذ فى تلك المنطقة لان السفر فى تلك البلاد لا سبيل اليه الا برفقتهم وقد مر قبل وصوله واسط ، بموضع يسمى العذار وصفه بانه غابة من قصب وسط الماء يقطنها اعراب قطاع طرق يعرفون بالمعادي خرجوا على فقراء تأخروا عن الركب فسلبوهم حتى النعال[٤٨] وفى سفرة من واسط الى قرية عبيد مركز الولي احمد الرفاعي رافقه ثلاثة من اعراب بني اسد قطان تلك الجهة[٤٩] .

---

(٤٧) ن. م. ج٤ ص٧٢ .
(٤٨) تحفة النظار ج١ ص١١٣ .
(٤٩) ن. م. ج١ ص١١٤ .

الفصل الخامس عشر

الشـــيعة

كان المسلمون من سكان بلاد الرافدين ينقسمون الى سنيين وشيعيين وبما ان السنيين كانوا أكثرية السكان ولان الفروق فيما بينهم ضئيلة لذا آثرنا ان ندرس الشيعة فقط فى هذا البحث ونقف عند مناطق توزيعهم وعلاقتهم بالسنيين •

ويبدو ان مناطق توزيع الشيعة فى هذه البلاد لم تتغير خلال الفترة الممتدة من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادى) واواخر العهـــد الايلخاني • ففي بغداد كانوا يقطنون محلة الكرخ فى الجانب الغـــربي بالاضافة الى مشهد موسى الكاظم الذى نسمع عن وجودهم فيه فى أواخر العهد العباسي اما فى جانب الرصافة فيبدو انهم كانوا كثيرين فى محلـــة المختارة مع اقليات فى محلات اخرى من هذا الجانب • وتأتي الحلة بعـد بغداد فى الاهمية من حيث كثرة الشـــيعة فيها وكونها مركزهم الثقافي الرئيسي ولكن طائفة من سكانها كانوا من السنيين • يلي ذلك كربـلاء والنجف والكوفة ثم البصرة التي يحتمل ان غالبيتهـا كانت منهم خـلال القرن الرابع الهجري ثم مدينة واسط التي كانت تنقسم بين الطائفتين السنية والشيعية • وكانت غالبية سكان المنطقة الممتدة من واسط الى البصرة الى الغرب من دجلة من الشيعة وعلى مسافة قصيرة من بغداد كان الشـــيعة غالبية سكان المدائن •

يضاف الى ذلك ان النصيرية ـ وهم غلاة لا تعترف بهم الشـــيعة الامامية ، كانوا أكثرية أهل عانة • أما القبائل العربية القاطنة في العـراق جنوبى بغداد فأنها كانت من السنيين باستثناء اكثرية قبيلة أسد التي اسس أحد امرائها سيف الدولة صدقة امارة عربية في الحلة المزيدية في القـرن

الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)[1] . أما في بلاد الجزيرة فهناك ما يشير الى انهم كانوا جزء من سكان البوازيج الواقعة على الزاب الاسفل .

قال ابن حوقل النصيبي وهو من أهل القرن الرابع الهجرى ان رؤساء مدينة البوازيج نصفهم قوم من بني يعرب من بجيلة وهم شيعة ونصفهم الآخر قوم من بني هود بن قحطان وهم سنّية ولكل منهم تبع عظيم[2] وقال المقدسي البشارى وهو من اهل القرن الرابع ايضا ان الغلبة ببغداد للحنابلة والشيعة وان الكوفة شيعية ما عدا الكناسة فانها سنية وان البصرة أكثرها قدرية وشيعية وحنبلية وان عانة كثيرة المعتزلة[3] وقد زار السائح ناصر خسرو البصرة في القرن الخامس الهجرى وقال ان فيها ثلاثة عشر مشهدا باسم أمير المؤمنين علي ابن ابي طالب يقال لاحدها مشهد بني مازن[4] . ونقرأ في سيرة دبيس بن صدقة بن منصور صاحب الحلة المزيدية انه قتل عام ٥٢٩هـ/١١٣٤م وأنه كان شيعيا مثل والده[5] وفى اواخر العهد العباسي ذكر ياقوت الحموى ان كرخ بغداد محلة سكانها كلهم شيعة امامية لا يوجد بينهم سنّي البتة وبين شرقها والقبلة محلة باب البصرة واهلها سنية كلهم وفى جنوبها محلة نهر القلائين وهم حنابلة وعن يسار قبلتها باب المحول واهلها سنية ايضا[6] وقال نفس المؤلف عن المدائن ان الغالب على أهلها التشيع على مذهب الامامية[7] وذكر في مادة (الشرطة) انها كورة كبيرة من اعمال واسط الى يمين المنحدر الى البصرة كل أهلها اسحاقية نصيرية[8] . ويبدو ان طائفة من أهل الحلة كانوا من

---

(١) انظر : ابراهيم فصيح الحيدرى ، عنوان المجد فى بيان احوال بغداد والبصرة ونجد ص١٠٤ ـ ١٠٨ .
(٢) صورة الارض ص٣٤٦ .
(٣) احسن التقاسيم ص ١٣٦ .
(٤) سفرنامة (ترجمة الاستاذ يحيى الخشاب) ص٩٧ .
(٥) صلاح‌الدين الصفدى ، الوافى بالوفيات ، مخطوطة مصورة ج٨ .
(٦) معجم البلدان ج٤ ص٤٤٨ .
(٧) ن.م. ص ٧٥ .
(٨) ن.م. ج ٣ ص ٣٣٤ .

السنيين فى القرن الرابع فقد كان علي بن عبدالله بن سليمان الحلي المتوفي سنة ٦٢١هـ/١٢٢٤م من اهل الحلة السيفية تولى القضاء مدة وكان حنفي المذهب[٩] وفى ٦٥٠هـ/١٢٥٢م عزل قاضى الحلة الحنفي وقلد مكانه قاضي شافعي[١٠] .

وقد وصف السائح ابن سعيد المغربي مدينة عانة بان الغالب على اهلها النصيرية[١١] وقال المستوفى القزوينى ان المدائن اهلها شيعة[١٢] وان ميسان كورة بين البصرة وواسط تكثر فيها النخيل والقرى واهلها شيعة[١٣] وفى الكلام عن نهر الدير المتفرع من دجلة من اسفل البطائح ذكر المؤيد صاحب حماة ٧٢١هـ/١٣٢١م ان عند فوهته مشهد لمحمد ابن الحنفية فيه مالا يحصى من الاموال لان غالبية اهل البلاد رافضي وهو معظّم عندهم للغاية[١٤] وقال المستوفي القزويني ان بغداد مدينة كبيرة فيها مسلمون كثيرون من كل شرقة ولكن أكثريتها سنية شافعية والحنابلة فيها اقوياء جدا والتابعون للمذاهب الاخرى كثيرون[١٥] واضاف الى ذلك ان اهل البصرة من الاثنى عشرية ومثل ذلك الحلة[١٦] ومع ان ابن بطوطة وصف الحلة بانهم كلهم من الاثنى عشرية وأهل كربلاء ان جميعهم امامية ورفض دخول قرية بئر ملاحة القريبة من الحلة لان اهلها روافض فانه وصف البصرة بان اهلها على مذهب اهل السنة والجماعة[١٧] وقد خالف في ذلك المقدسي البشاري والمستوفى القزويني والاخير منهما معاصر له .

---

(٩) الصفدى ، الوافى بالوفيات (مخطوطة مصورة ج١٢ ـ قسم ١ .
(١٠) العسجد المسبوك (مخطوطة مصورة) ج٢ الورقة ١٨٠ ، انظر ايضا محمد بن سعيد الدبيثي الواسطى ، التاريخ المذيل على تاريخ بغداد للسمعانى ج ١ (مخطوطة مصورة) الورقة ٦٨ .
(١١) بسط الارض ص٨٩ .
(١٢) آثار البلاد وأخبار العباد ص٤٥٣ .
(١٣) ن.م. ص٤٦٤ .
(١٤) تقويم البلدان ص٥٦ .
(١٥) نزهة القلوب ، المصدر المار ذكره ص٤٢ .
(١٦) ن.م.ص ٤٦ ـ ٤٧ .
(١٧) تحفة النظار ج ١ ص١١٦ .

وقد قال شمس الدين ابو عبدالله محمد ابو طالب الانصارى الدمشقي المتوفي سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م ان الحلة تسمى الكوفة الصغرى لكثرة ما فيها من التشيع[١٨] .

لم يكن الخلاف بين السنيين والشيعيين سببا في قيام منازعات مهمة فى اواخر العهد العباسي عدا ما وقع من حرب المحلات قبيل سقوط بغداد وكان اجتماع الشيعة للعزاء وقراءة المقتل ايام عاشوراء سببا في اثارة بعض الخلافات . ففي ٦٤١هـ/١٢٤٣ امر الخليفة المحتسب جمال الدين عبدالرحمن بن الجوزى بمنع الناس من قراءة المقتل يوم عاشوراء والانشاد فى سائر المحلات فى بغداد عدا مشهد موسى بن جعفر[١٩] وفى ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م منع اهل الكرخ والمختارة من النياحة وانشاد الاشعار فى عاشوراء وقراءة المقتل خوفا من وقوع الفتنة[٢٠] وفى ٦٥٠هـ/١٢٥٢م منع الشيعة من قراءة المقتل يوم عاشوراء الا فى مشهد موسى بن جعفر ومحلة الكرخ خوفا من الفتنة[٢١] وكان الخلاف يحدث احيانا بسبب هلال رمضان ففي ٦٥٠هـ/١٢٥٢م نفسها اختلف الناس فى ليلة سلخ شعبان فاصبح الشافعية والحنفية والمالكية مفطرين بينما صام الحنابلة والشيعة[٢٢] وقد شهدت بغداد قبل سقوطها بيدي هولاكو حربا بين المحلات سببها ضعف الحكومة وفشلها فى المحافظة على الامن وما حدث خلال ذلك من حرب طائفية لم تكن الا جانبا من جوانب حرب المحلات وليس سببا فيها ولا صفة غالبة عليها نلاحظ ذلك فى قلة عدد الفتن المذهبية السنية ـ الشيعية اذا ما قيس بما وقع من حوادث العنف وسفك الدماء بين المحلات السنية نفسها ولكن أخطر ما حدث من ذلك هو النزاع بين محلة قطفتا ومحلة الكرخ سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م وتعصب الجند والعامة لمحلة قطفتا السنية وقتلهم عددا من الناس وسبيهم النساء ونهبهم الاموال في محلة الكرخ الشيعية حتى تدخل

---

(١٨) كتاب نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ص١٨٧ .
(١٩) الحوادث الجامعة ص١٨٣ ـ ١٨٤ .
(٢٠) العسجد المسبوك ورقة ١٧٧ .
(٢١) ن.م.ص ١٨٠ .
(٢٢) ن.م.

الخليفة المستعصم بالله بالامر وأعيد الامن الى نصابه واعيدت الاموال الى اصحابها[٢٣] .

وفى المدن العراقية الاخرى يبدو ان الخلاف بين السنيين والشيعيين كان محصورا بواسط على الاغلب وانه كان سببا فى اثارة الاضطراب وسفك الدماء احيانا ففي ٤٠٧هـ/١٠١٦م استمرت الفتنة بواسط ونهبت واحرقت محلات الشيعة فيها وهرب وجوه الشيعة والعلويين منها[٢٤] وفي ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م توفى بردن أحد اكابر امراء بغداد وقد جاء فى سيرته انه كان يتشيع وانه وقعت بسببه فتنة بين السنيين والشيعيين بواسط قتل فيها جماعة[٢٥] وفى ٦٢١هـ/١٢٢٤م وقعت فتنة فى واسط بين السنيين والشيعيين على جارى عادتهم كما يصف ذلك ابن الاثير[٢٦] .

وفي فتح هولاكو لبغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م لم يفرق المغول بين السنيين والشيعيين بل انهم استباحوا المدينة واعملوا السيف فى رقاب اهلها صغارا وكبارا عدا المسيحيين ومن لجأ الى بيوت معينة كما لم يتعصب سلاطين الايلخانيين خلال حكمهم العراق لاحد الطائفتين دون الاخرى باستثناء السلطان خدابنده الذى اعتنق مذهب الشيعة الاثنى عشرية مدة من الزمن وحظي عنده أكبر علمائهم جمال الدين ابن المطهر الحلي . وقد ضرب هذا السلطان أسماء الائمة الاثنى عشرية على نقوده ولكن ميله الى الشيعة أثار فتنا واضطرابات فى بغداد واربيل وهراة واصبهان وساوة وغيرها ، ولما توفي سنة ٧١٦هـ/١٣١٦م خلفه ابنه ابو سعيد الذى سارع الى الغاء اوامره والعودة الى السنة[٢٧] .

---

(٢٣) انظر الحوادث الجامعة ص ٢٦٧ ـ ٢٧٧ ، ٣٢٤ ـ ٣٢٥ .
(٢٤) المنتظم ج ٧ ص ٢٨٣ .
(٢٥) العسجد المسبوك ، الورقة ٨٥ .
(٢٦) الكامل ج ١٢ ص ١٧٤ .
(٢٧) ابن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة ج٢ ص٧٢ .

الفصل السادس عشر

المسيحيون

ليس من السهولة وضع تاريخ محدد لاول ظهور المسيحية فى بلاد الرافدين وهناك من يرجعها للقرن الاول المسيحي ويرى انها انتشرت آنذاك فى بحور دجلة وفارس[1] وان ملوك الفرس اخذوا باضطهادها في القرون التالية وتغليب المجوسية عليها ولكن بدون جدى[2] حتى انها صارت دين اكثرية السكان بالرغم من المنازعات الداخلية والاضطهادات الخارجية ومن اسباب ذلك الحماس الديني الذى كان يتحلى به رؤساءها والمجامع الكنسيّة التي كان يعقدها البطاركة لحل الخلافات وتوحيد الرأي واتخاذ سياسة حكيمة مع ملوك الفرس وفتح المدارس الدينية في كل مدينة وقرية لتعليم اللغة الكلدانية والعلوم الدينية المسيحية وتعلق اباء الكنيسة بكرسي المدائن مقر البطريرك الاكبر ورغبتهم في رفعه الى منزلة الكراسي المسيحية الكبرى رومية وانطاكية وبيزنطة[3] . وكانت لغة المسيحيين الجنسية والطقسية هي الكلدانية التي يقال لها الآرامية ايضا وكانت لغة اكثرية السكان ايام الكلدانيين والفرس الى القرن السابع الميلادى عصر الفتوحات الاسلامية حيث دخلت فى صراع مع اللغة العربية كانت الغلبة فيها للعربية ولكن بصورة تدريجية .

وكان لظهور الدعوة الاريوسية أي مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح في اوائل القرن الرابع الميلادى وانتشارها فى مصر وسورية ان أحسّ اساقفة

---

(١) اخبار بطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل لمارى بن سليمان ص ٣ .

(٢) ن.م.ص١٩ ـ ٢١ فما بعد .

(٣) المطران ادى شير ، تاريخ كلدو وآثور ج١ ص١٦٠ .

الـكلدان بالخطر وجدّوا في مقاومته فعقدوا مجمعـا في بيت لاباط في ٨٤٤م واعتنقوا المذهب النســـطوري (اتباع نســـطوريوس بطـريرك القسطنطينية ومن اهل القرن الخامس الميلادى) وجعلوا جميع الكنائس في مملكة فارس تتبع هذه النحلة ما عدا تكريت التي تمسكت بمذهب الطبيعة الواحدة وتحولت فى القرن السادس الميلادى الى المذهب اليعقوبي (نسبة الى يعقوب البرادعي الذي هو فرع من فروع مذهب الطبيعة الواحدة) ٠

وقد كانت سياسة العرب المسلمين فى جميع البلاد التي فتحوها ومنها بلاد الرافدين هي ترك اهل الذمة ومنهم المسيحيين يمارسون دينهم وعاداتهم والاكتفاء بأخذ الجزية منهم ولكن منزلتهم القانونية لم تعد تساوى المسلمين بل صاروا بنظر الدولة الاسلامية مواطنين من الدرجة الثانية ومع ذلك فأن عرى الصداقة عقدت بين الكثير منهم والمسلمين ولقي محترفو الطب منهم ترحيبا فى بلاط الخلفاء العباسيين وفى اواخر هذه الدولة كان من اطباءهم ابو الفرج المسيحي المتوفى سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م[٤] وابو الخير المعروف بابن العطار[٥] وكان فـي ديوان بغـداد كتّاب من النصـارى طردو منه سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م ثم أعيدوا اليه فى نفس السنة[٦] وقد ورد فى رسالة كتبها ابو عبد الله محمد بن يحيى بن فضلان مدرس الطائفة الشافعية في المدرسة المستنصرية الى الخليفة الناصر لدين الله انّ من أهل الذمـــة من هم في خدمات الديوان ولهم المال والجاه ومنهم الاطباء ذوو المكاســـب الجليلة وارباب الحرف من العطارين والمخلطين والكسارين ومنهم الصاغة والجهابذة والصيارف[٧] وقد كان للكلدان النساطرة وحدهم نحو مائة دير قبل الفتح الاسلامي ازدادت عددا بعده[٨] وكانت أكثرية سكان البلاد من المسيحيين ولكنهم اخذوا بعد ذلك بالتناقص وظل عددهم كبيرا الى اواسط القرن

---

(٤) ابن الساعى ، الجامع المختصر ج ٩ ص١٣٢ ـ ١٣٣ ٠
(٥) ابن القفطي ، تاريخ الحكماء ص٣٣٢ ـ ٣٣٣ ٠
(٦) ابن الجوزي ، المنتظم ج١ ص٧٨ ٠
(٧) الحوادث الجامعة ص٦٣ ـ ٦٩ ٠
(٨) ادى شير ، تاريخ كلدو وآثور ج٢ ص٢٦٨ ٠

السادس الهجري بدليل كثرة اسماء المدن التي كانت تقوم فيها مراكز للمطارنة والاساقفة من شمال بلاد الرافدين الى جنوبها مثل الموصل وبغداد وواسط والبصرة والبوازيج وحزة وحلوان وعكبرا والأنبار وهيت وباجرمي والنعمانية وماذرايا والنيل وغيرها[٩] وكان المسيحيون يؤلفون جزء من المدن الكبيرة فى العهدين العباسي والايلخاني .

وكانت اكبر مناطق تجمعهم هي القرى المنتشرة فى منطقة الموصل مثل بعشيقا وكرمليس وقرقوش وشقلاوة وبيت سحرايا وجدال وبرطلي ولكن المدن الثلاث الاخيرة كانت تشتمل على أقليّة من المسلمين[١٠] وكانت مدينة اربيل وما يحيط بها منطقة اخرى لتجمعهم واكثرهم هنا من الاكراد[١١] وكانت اكثرية تكريت من المسيحيين فى القرن الرابع الهجرى[١٢] وربما كان نصفها منهم ايام الفتح المغولي[١٣] وقد ظلوا جزء من سكان مدن بغداد وحلوان والبصرة والمنطقة الممتدة غربي واسط[١٤]

كانت اكثرية نصارى بلاد الرافدين ايام الساسانيين من النساطرة مع أقلية من اليعقوبيين وكانت المدائن عاصمة الدولة المذكورة هي قاعدة الرئيس الاعلى لهم وقد ظل الحال على ذلك حتى مجيء العرب المسلمين وبناء بغداد حيث انتقل اليها رئيسهم ولكن المدائن ظلت مركزا روحيا يكملون فيها مراسيم تنصيب رئيسهم الديني الجديد الذى صار يسمى الجاثليق[١٥] الذي

---

(٩) أنظر : اخبار بطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل ـ لمارى بن سليمان ص٨٥ ـ ١٥٩ .

(١٠) ياقوت الحموى ، معجم البلدان ج١ ص٣٢٤ ـ ٣٨٥ ؛ مراصد الاطلاع ج١ ص ٣١٦ ، ج٣ ص١١٦١ـ١١٦٦ ؛ تاريخ الدول السريانى (ترجمة اسحق ارملة السريانى) مجلة المشرق سنة ٥٠ ص١٤١ـ١٤٤ .

(١١) انظر تاريخ الدول السريانى ، المصدر المار ذكره ص ٣٩٤ .

(١٢) الاصطخرى، مسالك الابصار ص٧٧ ؛ المقدسى البشارى ص١٢٣ .

(١٣) انظر الصفحات ص١٨٩ .

(١٤) ياقوت ، معجم البلدان ج٤ ص٣٧٨ ؛ الحوادث الجامعة ص٧٣ .

(١٥) انظر : اخبار بطاركة كرسي المشرق لمارى بن سليمان ، المصدر المار ذكره ص١١٩ .

يقوم بعد ذلك بتعيين ونقل الاساقفة والمطارنة في جميع البلاد التابعة له والتى كانت فى اواخر القرن الخامس الهجرى تشمل سورية وفلسطين ومصر وايران والصين[١٦] وكان يكتب له عهد من الخليفة العباسي يجعل سلطته رسمية على رعيته ويفرض له عليهم الطاعة ويحكم فيما بينهم بما يجيزه شرعهم ولدينا مثال على ذلك العهد الذى صدر عن الخليفة العباسي أبي جعفر القائم بامر الله (ت ٤٦٧هـ/١٠٧٤م) لعبد يشوع بجعله جاثليقا لنساطرة (مدينة السلام والاصقاع وزعيما لهم والروم واليعاقبة ولكل من تحويه ديار الاسلام من هاتين الطائفتين)[١٧] وكان مطارنة بلاد الرافدين هم مطران الموصل وآثور ومطران أربيل وحزة ومطران حلوان ومطران باجرمى ومطران البصرة وهم خمسة من بين سبعة يشتركون في انتخاب الجاثليق وكان لكل من هؤلاء المطارنة عدد من الاساقفة يخضعون لرئاسته يتراوح عددهم بين الستة الى الاثنى عشر اسقفا[١٨] .

نشطت البابوية في تبشيرها فى بلاد المشرق فى أيام الحرب الصليبية ونجحت أيام سبر يشوع الرابع ابن المسيحي صاحب كرسي المدائن وهو بغدادى وطنا (٦٢٣ - ٦٥٤ هـ) = (١٢٢٦ - ١٢٥٦ م) بتوحيد كرسيه مع الكنيسة الكاثوليكية برئاسة البابا في روما[١٩] . وقد انتخب هذا الجاثليق من قبل آباء كنيسة وولاه الخليفة الظاهر بأمرالله وعاش حتى أيام الخليفة المستعصم بالله ومات قبل سقوط بغداد بسنتين ودفن في كنيسة الكرخ وخلفه في كرسي المدائن مكيخا الثاني وهو من جوغان من اعمال نصيبين[٢٠] . وقد نصب هذا في كرسيه في آذار سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م وبعد ذلك بسنة واحدة

---

(١٦) ن. م. ص ١٢٤ - ١٢٦ .

(١٧) ن.م. ص ١٣٥ .

(١٨) اخبار بطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل تاليف عمرو بن متى ص ١٢٦ ، انظر ايضا : Marco Polo, p. 29.

(١٩) القس بطرس نصرى الكلداني ، كتاب ذخيرة الاذهان في تواريخ المشارقة والمغاربة السريان ، ج٢ ص ٦-٧ .

(٢٠) من.م. ص ٨ .

استولى هولاكو على بغداد ولكنّه (اي مكيخا الثاني) استمر بتولي امر البطاركة ثمان سنين وخمسة اشهر مات بعدها ودفن في البيعة الجديدة التي بناها في دار الخليفة وفرغ الكرسي بعده مدة سبعة اشهر ونصف حتى اختير بعده دنحا مطران أربيل سنة ٦٧٤هـ/١٢٦٥م ولما انتهى ذلك الى السلطان اباقا شرفه بالخلعة والفرمان والبايزة واستمر في كرسيه مدة ست عشرة سنة وثلاثة اشهر ومات سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م ودفن في بيعة دار الخليفة ثم فرغ كرسيه مدة سبعة اشهر وخمسة عشر يوما الى ان اختار الآباء بعده يابالاهـا الثالث وأصله من مدينة كوشنك من أعمال بكين عاصمة الصين . وكان سبب مجيئه الى بلاد الايلخانيين انه كان يقصد زيارة بيت المقدس وقد أنفذ معه خاقان المغول ثيابا ليعمدها في نهر الاردن ويمر بها على قبر السيد المسيح ولكن السلطان اباقا بن هولاكو حذره من اخطار الطريق فتوجه الى ماردنحا الجاثليق ليتبارك منه ويعود الى بلاده ولما توفي هذا فضّله الآباء على غيره لحبّ امراء المغول له ومعرفته بلغتهم وعاداتهم وقد ذهب الى اباقا في اذربيجان ففرح به وخلع عليه ثم انحدر الى بغداد فاستقبل فيها بالاكرام والتبجيل ومضى الى المدائن حيث نصب فيها بطريقا للمشرق[٢١] وقد ظل في منصبه مدة سبع وثلاثين سنة وتوفي في رمضان سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م ودفن في الدير الذى انشأه باسم مار يوحنا ولما استولى المسلمون على هذا الدير نقل جثمانه الى دير مار ميخائيل في أربيل .

لم يكن جنكيز خان مسيحيا ولا مسلما ولا حتى وثنيا ولكنه كان يحمي الدين الذى يتفق ومصالحه الآنيّة ويحقق اغراضه وقد اوصى خلفاءه بعدم تفضيل اي دين معين على غيره ولكنه كان ـ كما يبدو ـ يعتقد بوجود كائن أعظم . وقد ورث اولاده واحفاده عدم اهتمامه بالاديان ولكن

---

(٢١) اخبار بطاركة كرسي المشرق لعمرو بن متى ، المصدر المار ذكره ص١٢٣ ـ ١٢٥ .

(٢٢) ن.م. ص ١٢٥ .

من المؤكد ان المسيحية لم تكن دينا غريبا بالنسبة للمغول وان أمة القرايت ، احد الشعوب المغولية تحولت الى الديانة المسيحية خلال القرن الحادى عشر وكان النساطرة قد نشروا هذه الديانة بين القبائل التترية[٢٣] وكان كيوك خان ابن اوغتاي خان (٦٤٤ - ٦٤٦) = (١٢٤٦ - ١٢٤٨م) يعطف على المسحيين حتى انهم كثروا فى بلاطه[٢٤] وكانت ترافق هولاكو في حملته على بغداد زوجته المسيحية دوقوز خاتون • وقد أدى الفتح المغولي لبلاد الرافدين الى تحطيم الاساس الديني الذي كانت تقوم عليه الدولة العباسية واصبحت مختلف الطوائف الدينيـــة ومنها الوثنيـــون متساوية امام السلطان الايلخاني الى ان جاء محمود غازان الى العرش في ٦٩٤هـ/١٢٩٤م حيث صار الاسلام من جديد الدين الرسمي للدولة •

كانت سياسة الايلخانيين الدينية الى ايام محمود غازان هي التسامح الديني امام مختلف الاديان والطوائف بشرط خضوعهـــم التام للحكام وكان اكثر ولاتهم فى العراق والجزيرة من المسلمين باستثناء ما حـدث فى عهد سعد الدولة اليهودى[٢٥] ايام السلطان ارغون وكانت الشريعـة هي القانون السائد بين المسلمين وقد حكم الموصل ولاة من المسيحيين خلال فترات قصيرة من الزمن لكثرة المسيحيين من سكانها • وخير من عبر عن سياسة الأيلخانيين العامة في هذا الشأن برصوما اخو ابي الفرج ابن العبري حيث كتب يقول (ان المغول لما اســـتولوا على بلاد العرب لم يخصّوا بالاكرام من يستحق الاكرام •••• اذ لا فرق عندهم بين العبـــد والحر والمؤمن والكافر والمسيحي واليهودي فهم يسوسونهم بصولجان واحد واذا اختلف اليهم احد وقدّم شيئا من المال التقفوه منه وعززوه ولبوا طلبـــه مهما كان ، ســـواء كان متعلما أم جـــاهلا غبيا انما يطلبون خدمة متواصلة

---

(٢٣)
M. L'Abbe Huc, Christianity in China, Tartary an Thibet, p. 112.

(٢٤) رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ج١ ص ٥٧٠ ـ ٥٧١ •
(٢٥) انظر الصفحات التالية : ص ٢٠١ ـ ٢٠٤ •

وخضوعا وانقيادا تاما وكفى[٢٦] وسوف نستعرض فى الصفحات التالية موقف الغزاة من سكان البلاد المسلمين والنصارى كما تعكسه المصادر الموثوقة .

قام الجائليق خلال حصار بغداد ٦٥٦هـ/١٢٥٨م بجمع نصارى المدينة فى كنيسة السوق الثالث ولم يتعرض لهم الغزاة بسوء لحمايتهم من قبل زوجة هولاكو المسيحية دوقوز خاتون ، وقد نقل الكثير من اغنياء المسلمين أموالهم الى دار الجائليق طمعا بالنجاة ولكنهم قتلوا عن آخرهم[٢٧] وعندما سقطت المدينة بأيدي الجنود المغولية انعم هولاكو على الجائليق بدار علاء الدين الطبرسي الواقعة على شاطى دجلة فسكنها ودق ناقوسا فى اعلاها وعمر بيعة جديدة واستولى على دار الفلك التي كانت رباطا للنساء والتى كانت تقع مقابل دار الدويدار الطبرسي واستولى كذلك على الرباط البشري المجاور لها وازال الكتابة المرقومة على البابين وكتب عوضا عنها بالسرياني[٢٨] . وخلال عمليات الفتح ارسل نصارى تكريت الى الجائليق يطلبون منه شحنة يحرسهم فأجيبوا الى طلبهم وعندما زحف التتر الى المدينة المذكورة قاتلهم المسلمون بينما لجأ النصارى فيها الى الكنيسة الخضراء ودسّ المسلمون ، على رواية ابن العبري ، الى الشحنة بان النصارى يخفون اموالا طائلة لم يؤدوا منها شيئا ولما وقع الاستفسار عن عن ذلك أقرّ رؤساءهم بالامر ووصل الخبر الى هولاكو فأمر بقتل جميع النصارى فى تكريت ووجه لذلك احد قواده مع عدد كبير من التتر فقتل اكثر الرجال وانتزع المسلمون الكنيسة الكبرى في المدينة[٢٩] .

---

(٢٦) التاريخ السرياني ، المصدر المار ذكره ، ص٣٩٨ (توفي ابو الفرج بن العبرى فى ٣٠ تموز ١٢٨٦ وقد اكمل كتابة هذا أخوه برصوما الصفى) .

(٢٧) ن.م. ص ١٣٣ .

(٢٨) الحوادث الجامعة ص ٣٣٣ ؛ كتاب ذخيرة الاذهان ، المصدر المار ذكره ص ٩ .

(٢٩) ن.م. ص ١٣٤ ـ ١٣٥ .

وخلال ثورة حاكم الموصل الملك الصالح على هولاكو لقي النصارى مصاعب جمة واخطار كبيرة خصوصا على يد الاكراد القريبين من الموصل . فقد توفي بدر الدين لؤلؤ سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٨م وتولى الموصل بعده ابنه الملك الصالح اسماعيل بينما تولى ولده الآخر علاء الدين مدينة سنجار وفي ٦٥٨هـ/١٢٥٩م هرب علاء الدين الى مصر وأرسل الى اخيه يدعوه اليه ، بينما مضى احد امراء ابيه الى أربيل واخبر رؤساء النصارى بناحية برطلي ان الملك الصالح عزم على قتل جميع اكابر النصارى في نينوى ثم السير بعد ذلك الى الشام فصدقوه وعبر كل من استطاع العبور منهم الى اربيل وخرج الملك الصالح من الموصل الى الشام فثار بعده عوام المدينة وقتلوا من وقع بايديهم من النصارى ونزل الاكراد الى نينوى ونهبوا من تخلف فيها وقتلوا عددا وفتكوا بكثير من راهبات بيت خوريدا (قرقوش) وهاجموا دير (مار متى) فقاتلهم أهل القرية والرهبان بالحجارة والسهام ولم يتركوهم حتى تسلموا منهم كمية كبيرة من المال والتجأ اهل قرية بيت سحرايا الى دير الخنافس ثم رحلوا عنه وعبروا الى الزاب متجهين الى أربيل ولكن أحد امراء الأكراد لاقاهم واجهز عليهم . وفي ٦٥٩هـ/١٢٦٠م دخل الملك الصالح مدينة الموصل فلحقته عساكر المغول بقيادة سنداغو المحب للمسيحيين واحاطت بالمدينة واضطر الملك الصالح على الاستسلام سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م[٣٠] .

وفي بغداد سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٤م قبض الجاثليق على نصراني أسلم وحاول تغريقه فهاج المسلمون وحاصروا الجاثليق وأحرقوا داره وقاتلوا اصحابه ولكن صاحب الديوان علاء الدين عطا الملك الجويني استحضره الى داره خفية وقبض شحنة بغداد المغولي توكال بخشي على نفر من عوام بغداد وقتلهم وحبس آخرين فسكنت الفتنة وسار الجاثليق يشتكي الى الاردو اي السلطان الايلخاني فلم يحصل على طائل ولذلك توجه الى

---

(٣٠) ن. م. ص١٤١ ـ ١٤٢ ؛ انظر الحوادث الجامعة ص٣٤٥ـ٣٤٧ .

اربيل وابتنى كنيسة في قلعتها واستقر فيها[٣١] ومع ذلك فعندما توفي هولاكو عام ٦٦٣هـ/١٢٦٥م وماتت بعده بقليل زوجه المسيحية دوقوز خاتون عبّر ابن العبرى عن عطف هذين الملكين على المسيحيين بقوله (وقد شمل المسيحيين في كل العالم حزن شديد على وفاة هذين البراسين العظيمين المعززين للدين المسيحي)[٣٢] .

وقد ظل التوتر شديدا فى الموصل وأربيل بين المسلمين خصوصا الاكراد منهم والنصارى ولم تبد الحكومة المغولية رغبة كبيرة لحماية النصارى . ففي ٦٦٦هـ/١٢٦٧م فى عهد اباقاخان ابن هولاكو ولى الموصل نصراني اسمه مسعود بن برقوطا من احدى قرى اربيل وعين معه شحنة مغولي اسمه أشموط ، بينما عزل والي الموصل المسلم رضي الدين البابا[٣٣]. وفى ٦٧٢هـ/١٢٧٣م في أيام الصوم الاربعيني احبّ راهب نسطوري من دير مار ميخائيل الواقع بالقرب من الموصل امرأة مسلمة ولما افتضح امره اعلن اسلامه فارسل رهبان الدين المذكور الى القائد المغولي يخبرونه بالامر فحضر وقبض على ذلك الراهب يريد الفتك به فهاج المسلمون وحملوا العصى والمصابيح وهددوا القائد فخاف منهم واطلق الراهب المذكور فاخذه المسلمون وطافوا في المدينة مسرورين وعم النصارى غم شديد[٣٤] . وفى نفس هذه السنة رغب نصارى أربيل بالاحتفال بعيد الشعانين وقد تناهى اليهم الى المسلمين يتهيأون لالحاق الاذى بهم فاستدعوا زمرة من التتر النصارى المجاورين ليحضروا ويعاونوهم للدفاع عن انفسهم فحضر

---

(٣١) الحوادث الجامعة ص٥٤ ؛ تاريخ الدول السرياني ص١٤٧ .

(٣٢) تاريخ الدول السرياني ص١٤٤ .

(٣٣) الحوادث الجامعة ص٣٦١ . جاء فى تلخيص مجمع الآداب لابن الفوطي ما يأتى : (عمادالدين ابو محمد اسماعيل بن رضي الدين بابا بن نصرة الدين محمد الافتخارى القزوينى الامير من البيت المعروف بالرياسة والحكمة والكياسة قد ذكرنا اباه انه ولي الموصل وديار ربيعة وعمه الملك امام‌الدين يحيى ... وعمه الاكبر افتخارالدين وهم من الاعيان والملوك (ج٤ قسم ٢ ص ٦٨٣ ـ ٦٨٤) .

(٣٤) تاريخ الدول السريانى ، المصدر المار ذكره ص١٥٠ .

هؤلاء ووضعوا الصلبان على رؤوس الرماح وخرج النصارى ومعهم مطران النساطرة يتقدمهم التتر راكبين ولما اقتربوا من قلعة المدينة هاجمهم المسلمون بالحجارة فانهزموا وتشتتوا وظلوا اياما لا يجسرون على الخروج[٣٥] . وفي شتاء ٦٦٨هـ/١٢٦٩م رفع رضي الدين البابا شكوى ضد حاكم الموصل النصراني مسعود والشحنة المغولي أشموط الذى كان معه متهما اياهما بجمع المال وهيأ ضدهما شهودا زورا على رواية ابن العبرى ورشا القضاة الذين جلسوا للفصل فى الامر فحكموا له وعزلوا ذينك النصرانيين وعينوا مكانه البابا ومعه امير آخر من امراء المغول شحنة فما كان من مسعود وأشموط الا ان توجها الى السلطان أباقا سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م وعرضا عليه انهما ظلما في محاسبتهما على ضمان الموصل وان القضاة الذين حضروا مع البابا كانوا مرتشين فاصدر أباقا أمره بالتحقيق في الامر حيث صدر الحكم بعد شهر من ذلك بتجريم البابا وقضاته وقتله فقتل وأعيد مسعود واشموط لحكم الموصل وتولّى هذه المدينة ومدينة اربيل حكام مسيحيون كالسابق[٣٦] .

وفى بغداد فى عام ٦٦٨هـ/١٢٦٩م مضى علاء الدين صاحب الديوان الى صلاة الجمعة فهاجمه بالقرب من المسجد الواقع من مشرعة الابريين رجل ربما كان من الاسماعيلية وطعنه عدة طعنات بسكين فجرحه وقبض على الجاني وأشاع البعض أنه نصراني ارسله الجاثليق ويروى ابن العبرى ان الامر صدر بالقاء القبض على الجاثليق وعلى أساقفة اربيل وتعذيبهم الى ان صدر امر السلطان باطلاق سراحهم جميعا[٣٧] . وفى ٦٧٩/١٢٨٠م ثار اصحاب رضي الدين البابا على حاكم الموصل مسعود واتهموه بنهب المال وقبضوا عليه ونكلوا به تنكيلا شديدا وقتلوا ابن عمه وضربوا أحد

---

(٣٥) ن٠م٠ ص ١٤٠ .
(٣٦ ن٠ م٠ ص ٢٦٢ ؛ أنظر الحوادث الجامعة ص٣٦٧ ـ ٣٩٧ .
(٣٧) تاريخ الدول السريانى ، المصدر المار ذكره ص ١٤٨ ؛ الحوادث الجامعة ص ٣٦٦ .

اعوانه المسلمين الموصليين حتى مات وسار للقبض عليه بعض الجنود من المغول ولكنه اختفى[٣٨] . وفي السنة التالية ٦٨٠هـ/١٢٨١م رحل السلطان اباقا من بغداد الى همدان ومضى الى احدى كنائسها يوم الاحد حيث شارك النصارى سرورهم[٣٩] .

وعندما جلس السلطان احمد بن هولاكو على العرش في نفس هذه السنة بعد وفاة اباقا اظهر الاحسان لجميع رعيته ومنهم النصارى . واصدر اوامره باعفاء الاديرة والقسس والرهبان من الضرائب[٤٠] وفى ٦٨٢هـ /١٢٨٣م عندما استتب الامر لأرغون بن اباقا عيّن الحكّام على البلاد واقام مسعودا اميرا على الموصل ونواحيها ففرح بذلك المسيحيون[٤١] . ولكن التوتر استمر بين المسلمين والمسيحيين في منطقة الموصل ففي ٦٨٤هـ/١٢٨٥م اجتمع جيش من الاكراد والتركمان والعرب وانضم اليهم ثلاثمائة فارس من جنود دولة المماليك حكام سورية ومصر وغزوا القرى الواقعة في طريقهم نحو الموصل وأربيل وقتلوا وسبوا ودخلوا الموصل نفسها وقد عجز حاكمها المسيحي مسعود عن صدهم فعبر نهر دجلة والتجأ الى دير مار متي ونكّل الغزاة بالنصارى والمسلمين ونهبوا سوق البزازين في الموصل وقتلوا العديد من نصارى أربيل ثم انقلبوا عائدين الى بلادهم[٤٢] .

كان السلطان ارغون خان يسعى الى محاربة المماليك حكام سورية ومصر اقوى دولة اسلامية في عصره وأشدها عداء لدولة الايلخانيين كما كان يرغب فى انتزاع سورية منهم ولذلك كان يعطف على المسيحيين من رعيته ويرغب في اثارة حكام اوروبا ضد دولة المماليك وقد ارسل الراهب الايغوري صوما الذى جاء مع الجاثليق يابالاها من بلاد التتر الى البابا وملوك اوربا يحرضهم على محاربة المماليك وتخليص الاراضي المقدسة

---

(٣٨) تاريخ الدول السريانى ص٢٦٢ .
(٣٩) ن٠م٠ ص ٢٦٨ .
(٤٠) ن٠م٠ ص٢٦٤ .
(٤١) ن٠م٠ ص ٢٧٣ .
(٤٢) ن٠م٠ ص٣٨٦ ـ ٣٨٨ ؛ الحوادث الجامعة ص٤٤٧ .

منهم • فمضى الراهب المذكور الى القسطنطينية وايطاليا وفرنسا وقابل البابا نيقولا الرابع فأجابه هذا برسائل يثني فيها على عطف السلطان الايلخاني على المسيحيين ومساعدته للمبشرين في الشرق وكانت الوفود تتقاطر في عهد أرغون قادمة من البابا وملوك أوربا من أجل الاتفاق لمحاربة المماليك • ومن ذلك ان مائتين من الافرنج ركبوا دجلة الى الموصل ومنها الى بغداد سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م تلبية لطلب أرغون لينحدروا من هناك الى البصرة ومنها الى مصر كما ان سبعمائة من الافرنج ساروا عن طريق البر الى بغداد واقاموا فيها طيلة الشتاء[٤٣] لنفس الغرض كما يبدو ولكن ارغون توفي في عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م واعقبه كيخاتو الذي لم يتعرض للاديان بأذى ولكنه كان يؤثر النصارى على غيرهم[٤٤] وفي ٦٩٥هـ/١٢٩٥م خرج بايدو بن طرغاي بن هولاكو على كيخاتو وقتله واستولى على عرشه وكان هذا متزوجا بسيدة مسيحية ويعطف على المسيحيين ولكن الاسلام كان ينتشر في عهده بين المغول ولذلك فانه كان يقول للنصارى انه منهم وللمسلمين انه مسلم ولكنه كان لا يثق بغير المسيحيين في شؤون الدولة وحساباتها[٤٥] •

وقد تغيرت الحال تغيرا اساسيا بمجيء السلطان محمود غازان الى العرش سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤ حيث عاد الاسلام من جديد دينا رسميا للدولة • وقد بدأ غازان حكمه باضطهاد النصارى فأمر باعادة دار علاء الدين الطبرسي الدويدار الكبير الى المسلمين بعد ان استولى عليها النصارى ايام هولاكو حيث ازيلت منها التماثيل والخطوط السريانية واعيد الرباط الواقع تجاه هذه الدار للمسلمين وكان النصارى قد اتخذوه مدفنا لاكابرهم فازيلت القبور منه وصار مجلسا للوعظ جلس فيه الشيخ شرف الدين محمد بن عكبر • ويقول عمر بن متّى ان المسلمين لما اخذوا هذه البيعة

---

(٤٣) ن• م• ص٣٩٥ ـ ٤٠٠ ؛ ذخيرة الاذهان ص١٥ـ١٧ •
(٤٤) ذخيرة الاذهان ص ١٥ ـ ١٧ •
(٤٥) ن•م• ص ٤٠٥ ـ ٤١٢ •
(٤٦) الحوادث الجامعة ص ٢٨٤ •

أي الرباط المذكور نبشوا المقابر فاجتمع النصارى في رابع من ربيع الآخر سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٥م ونقلوا رفات الآباء المدفونين فيها وهم مكيخا ودنحا الى بيعة سوق الثلاثاء[٤٧] . وأمر غازان سنة جلوسه على العرش ٦٩٤هـ/١٢٩٤م ان يلبس أهل الذمة الغيار فكانت علامة النصارى شد الزنار في أوساطهم وعلامة اليهود خرقة صفراء في عمائمهم ولكن الامر صدر بعد قليل باعفاءهم من ذلك لطمع العامة والجهال فيهم[٤٨] وقد زيدت الضرائب على النصارى وأهين رؤساءهم لذلك صمم يابالاها على نقل كرسي البطريركية من بغداد الى مراغة[٤٩] . ولما قتل محمود غازان قائده نوروز المعروف بكراهيته للنصارى انزعج اصحاب القائد المذكور وصبوا جام غضبهم على نصارى اربيل فقبضوا على مطرانهم وهدموا كنائسهم ونهبوهم فعمل يابالاها الجائليق على التخفيف من حدة ذلك عن طريق تقديم الهدايا[٥٠] . ويقدم برصوما الصفي أخو ابي الفرج ابن العبري تفصيلا اوسع مما مر عن اضطهاد المسيحيين في عهد غازان فيقول في حوادث عام ٦٩٦هـ/١٢٩٦م ان الاوامر صدرت بتقويض الكنائس ومعابد اليهود وبيوت الأصنام وقتل احبار الوثنين مما اضطر النصارى الى عدم الظهور الا بالغيار وكانت الاهانات التي تنصب عليهم عديدة حتى ان رجالهم صاروا لا يجرأون على الخروج في الاسواق فاخذت نساءهم تقوم مقامهم بالبيع والشراء لانهن لم يكن يتميزن عن نساء المسلمين ثم ان غازان ارسل قوادا من المغول الى كل مدينة وبلدة يأمر بهدم الكنائس والاديرة ولكن هؤلاء كانوا يمتنعون عن ذلك اذا ما دفع لهم من المال ما يرضيهم وقد توجهوا الى اربيل ولبثوا فيها عشرين يوما ينتظرون اعياد النصارى ليهددوهم وينالوا منهم المال ولكن مطرانها لم يكترث للأمر ففسح

---

(٤٧) اخبار بطاركة كرسي المشرق ، من كتاب المجدل لعمر بن متى ص ١٢٢ .

(٤٨) الحوادث الجامعة ص٤٨٣ ـ ٤٨٤ .

(٤٩) ذخيرة الاذهان ص١٨ ـ ٢٠ .

(٥٠) عمرو بن متى ، المصدر المار ذكره ص١٢٢ .

الحكام المجال للمسلمين فوثبوا على الكنائس الثلاث الفخمة للمدينة واخربوها باجمعها ولما وصلت هذه الاخبار الى نصارى الموصل خافو خوفا عظيما فدفعوا مبالغ كبيرة من المال للمغول القادمين كان منها اواني الكنائس وامتعتها حتى لم يترك هؤلاء صليبا ولا صورة ولا مبخرة ولا انجيلا مرصّعا الا واخذوه كما انهم فرضوا مبلغا من المال على نصارى المدن والقرى فاجتمع لهم من ذلك زهاء خمسة عشر ألف دينار[٥١] . ويقول القس بطرس نصرى الكلداني ان اضطهاد النصارى اشتد في عهد خدابنده خليفة غازان فتكررت مقتلة أربيل ثماني مرات وامتدت الى تبريز والموصل حوالي عام ٧٠٥هـ/١٣٠٥م واخذت أربيل بالانحطاط منذ ذلك الحين[٥٢] ويضيف الى ذلك ان الكنائس والاديرة نهبت وقتل جمّ وافرٌ من النصارى في عهد ابي سعيد (٧١٦ - ٧٣٦هـ) = ١٣١٦ - ١٢٣٦م) خليفة خدابنده[٥٣] ويؤيد ابو الفداء طرفا من هذه الاخبار التي لا تخلو من المبالغة فيقول في حوادث عام ٧٣٤هـ/١٣٣٣م في عهد ابي سعيد ان نصارى بغداد ويهودها اجبروا على لبس الغيار وقد نقضت كنائسهم وديارتهم فاسلم منهم خلق كثير[٥٤] ويذكر المقريزي في حوادث السنة نفسها ان صاحب بغداد أي أبا سعيد الزم نصارى المدينة بلبس العمائم الزرق[٥٥] .

---

(٥١) تاريخ الدول السريانى ، المصدر المار ذكره ص٤١٢ - ٤٣٣ .
(٥٢) كتاب ذخيرة الاذهان ص ١٩ .
(٥٣) ن.م.
(٥٤) المختصر فى اخبار البشر ج ٤ ص ١١٧ .
(٥٥) السلوك ج ٢ قسم ٢ ص ٣٧٤ .

الفصل السابع عشر
اليهـــود

يبدأ تاريخ يهود العراق في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد حينما استولى الملك الآشوري سرجون على مدينة السامرة وقضى على مملكة اسرائيل ونقل طائفة من اليهود الى اعالي الفرات والقرى القريبة من موقع مدينة الموصل ولكن اهم من ذلك ما حدث في الربع الاول من القرن السادس قبل الميلاد حيث افتتح ملك الكلدانيين نبوخذ نصر مدينة القدس وخربها ونقل من أهلها حوالي الاربعين الفا أسكنهم في بابل وقد سميت هذه الحادثة بالاسر البابلي ولكن فتح كورش ملك الاخمينيين الفرس بابل عام ٥٣٨ق٠م بدأ عهدا جديدا تمتع فيه اليهود بعطف حكام بلاد الرافدين وتعاونهم معهم والسماح لهم بالعودة الى فلسطين حيث عاد قسم منهم وبقي آخرون ٠ وخلال القرنين الثالث والرابع الميلاديين اخذ مركز الحياة اليهودية يتحرك تدريجيا من فلسطين الى العراق بتشجيع من الملوك الساسانيين حتى ازداد عدد اليهود ونمت ثروتهم[٢] ٠

وقد أدت الفتوحات الاسلامية منذ القرن السابع الميلادي الى توحيد مناطق واسعة من افريقية واسيا هيأت لليهود محيطا غنيا باسباب الثروة والعمل والثقافة والتسامح انتفعوا منه انتفاعا كبيرا وازدادوا بالعدد والاهمية ليس في العراق وحده بل في ايران وفلسطين ومصر أيضا[٢] ولم يمض وقت طويل على تأسيس الكوفة حتى انحدروا اليها من الحيرة القريبة منها ٠ ولما أسست بغداد عام ١٤٩هـ/٧٦٣م قصدها الناس من مختلف الاصقاع واللغات

---

(١) S.W. Baron, A Social and Religios History of the Jews, Vol. II, p. 204.

(٢) Ibid., Vol. III, p. 99

والاديان وكان منهم اليهود وكان معظم الخلفاء العباسيين يتميز بالتسامح والتساهل فتمتع اليهود مثل غيرهم من السكان بدرجة كبيرة من الاستقرار والطمأنينة والازدهار خلال القرون الاولى من حكم الدولة العباسية ولكن عهود عدم الاستقرار التالية خصوصا ابتـــداء من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) بما فيها من حرب وفوضى واوبئة تركت أثرها فيهم وفي غـيرهم من سكان البلاد ولم يقم الحكام المسلمون في أي وقت من الاوقـات بتحديد مناطق أو محلات معينة لسكنى أية طائة من الطوائف الدينية ولكن التشابه العنصري او اللغوي او الديني او الاجتماعي كان يحمل في كثير من الاحيان بعض الفئات على التجمع في شوارع معينة في المدن مسلمة كانت ام غير مسلمة[٣] .

كان اليهود ينتشرون في مدن وقرى عديدة من شمال البلاد الرافدين الى جنوبها فقد ورد فى اخبار سنان بن ثابت الطبيب فى اوائل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادى) ان غالب اهل سورا من اليهود وان اكثر مـن حول نهر الملك منهم[٤] وجاء فى اخبار ٥٠١هـ/١١٠٧م ان بين سكان محلة ابن جردة في بغداد يهود[٥]وقد زار الرحالة اليهودي بنيامين بن يونة التطيلي الاندلسي العراق والجزيرة بين ٥٦١-٥٦٩هـ = (١١٦٥-١١٧٣م)وقدم أرقاما فيها كثير من المبالغة عن سكانها اليهود فقال ان الموصل فيها سبعمائة يهودي وحربي فيها خمسة عشر الف يهودي وعكبرا فيها نحو الفين منهم وبغداد فيها نحو اربعين الفا يعيشون بأمان في ظل الخليفة . وبينهم عدد من العلماء ولهم عشر مدارس وثمان وعشرون كنيســـة منها ما هو في جانب الكرخ ومنها ما هو في جانـب الرصافة وهناك خمسة آلاف يهودي في زيران وفي بقعة تبعد ميلا واحدا من بابل يقيم نحو عشرين ألف يهودي وفي الحلة نحو عشرة آلاف منهم لهم اربع كنائس وفي مرقد النبي حزقيال في الكفل بناء

---

(٣) Ibid., III, p. 144.

(٤) ابن ابى اصيبعة ، عيون الانباء فى طبقات الاطباء ج ١ ص٢٢٨ .

(٥) ابن الاثير ـ الكامل ج ١٠ ص١٧١ .

كبيرة فيه ستون صومعة يقطنه اليهود ويحجون اليه • وفي القوسنات وهي عربي برملاحة اي الكفل نحو ثلاثمائة يهودي • وفي الكوفة نحو سبعة آلاف يهودي وفي واسط نحو عشرة آلاف منهم ومثل ذلك في البصرة • وفي العمادية نحو خمسة وعشرين الف يؤلفون جماعات تنتشر في اكثر من مائة موقع في الجبال[٦] •

ومع اننا لم نعثر في المصادر العربية المعاصرة ما يؤيد وجود مثل هذا العدد من اليهود فهناك من الاخبار ما يؤكد كونهم منتشرين فعلا في كثير من بقاع بلاد الرافدين ولكن باعداد ليست كبيرة ففي ٥٧٣هـ/١١٧٧م شكا قوم من أهل المدائن اليهود في مدينتهم فامر الخليفة بنقض كنيستهم هناك[٧] وفي كورة ميسان في جنوب العراق قرية فيها قبر عزير النبي يقوم اليهود على خدمته ويقدمون اليه النذور ولهم عليه وقوف[٨] • وبرملاحة القريبة من الحلة فيها عدد من قبور انبياء اليهود وقديسيهم منهم باروخ استاذ حزقيل ويوسف الربان ويوشع وحزقيل المعروف بذى الكفل واليهود يأتون لزيارتها من البلاد البعيدة[٩] • وهاطرى وهي قرية دون تكريت ، يقول عنها صاحب مراصد الاطلاع بأن أكثر أهلها كانوا من اليهود[١٠] • وفي ٦٤٥هـ/١٢٤٧م هرب ثلاثة انفار محبوسين فى واسط ثقبوا الجدار فخرج الثقب فى دار يهودي[١١] • وقد ذكر المقدسي البشارى وهو من أهل القرن الرابع الهجرى ان قصر هبيرة مدينة كبيرة فيها كثير من الحاكة اليهود[١٢] وان حلوان قصبة صغيرة لها ثمانية دروب منها درب اليهود وفيها كنيسة اليهود خارج البلد[١٣]

---

(٦) رحلة بنيامين التطيلي (ترجمها عن العبرية وعلق على حواشيها عزرا حداد) ص١٢٧-١٥٤ •
(٧) ابن الجوزي ، المنتظم ج١٠ ص٢٧٥ •
(٨) معجم البلدان ج٥ ص٢٤٢ •
(٩) ن٠م٠ ج١ ص٤٠٣ •
(١٠) مراصد الاطلاع ج٣ ص١٤٤٩ •
(١١) الحوادث الجامعة ص٢١٧ •
(١٢) احسن التقاسيم ص١٢٢ •
(١٣) ن٠م٠م ص١٢٣ •

وفى بغداد وضع الغيار على اليهود عام ٥٤٠هـ/١١٤٥م فاحتموا بدار الخلافة وصدر الاذن لهم بسكناهم حتى قيل ان أهلها شكوا كثرتهم فيها ومزاحمتهم اياهم في الحمامات[١٤] وفي غرق بغداد سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٥م انشأ اليهود سكرا في رأس بين الدربين ودرب القيارة[١٥] وفي ٦٩٠هـ/١٢٩١م وردت الاخبار بقتل صاحب ديوان الممالك سعد الدولة اليهودى فنهب اليهود فى بغداد ولم يبق بلد من بلدان العراق الا وجرى على اليهود مثل ذلك[١٦] .

كان رئيس يهود بغداد يسمى رأس مشيئة اليهود او رأس الجالوت وكان نفوذه على قول بنيامين التطيلي يسري على جميع يهود العراق والجزيرة واليمن وأرمينية وبلاد اللام وسبريا والتركمان وجورجيا الى شواطىء جيحون وحدود سمرقند والتبت وكان لا يعين رؤساء اليهود في كل هذه البلاد الا بمعرفته وكانوا يقدمون الى بغداد بعد تعيينهم فى مناصبهم من أجل مقابلته وكان رأس الجالوت يستمد سلطانه من كتاب يوجه اليه من قبل الخليفة وينتقل سلطانه الى ذريته بالوراثة[١٧] . ويبدو ان ذلك لم يكن القاعدة دائما خلال السنين الاخيرة من حياة الدولة العباسية ففي ٦٤٥هـ/١٢٤٧م رتب دانيال بن شمويل بن أبي الربيع رأس مشيئة وفي ٦٤٨هـ/١٢٥٠م سأل عالي بن زخريا اليهودى ان يرتب رأس مشيئة اليهود فأجيب الى ذلك[١٨] وهنا يحسن بنا تتبع الأسلوب الذي كان يرتب فيه رئيس هذه الطائفة في منصبه ففي ٦٤٥هـ/١٢٤٧م أرسل دانيال بن شمويل من قبل الوزير محمد بن احمد العلقمي الى قاضي القضاة عبدالرحمن بن اللمغاني فأجلسه بين يديه وقال له (رتبتك زعيما على اهل ملتك ومن اهل دينك المنسوخ الذي نسخته الشريعة المحمدية لتأخذهم بحدود دينهم وتأمرهم بما أمروا به في شريعتهم وتنهاهم عما نهوا عنه فى شريعتهم وتفصل بينهم في

---

(١٤) ابن الفوطي ، تلخيص مجمع الآداب ج٤ قسم ٣ ص٢٠٦ .
(١٥) ن.م. ص٣١٨ .
(١٦) ن.م. ص٤٦٤-٤٦٦ .
(١٧) رحلة بنيامين التطيلي ص١٣١-١٣٨ .
(١٨) الحوادث الجامعة ص٢٢٤ ، ٢٤٨-٢٤٩ .

وقائعهم وخصوماتهم بموجب شريعتهم والحمد لله على الاسلام) ثم انه نهض بعد ذلك ولبس طرحته في دهليز القاضي وتوجه الى بيته ومعه جمع من اليهود واتباع الديوان[١٩] وقد كانت موارد رأس الجالوت تتغير تبعا لتقلب الاحوال السياسية ولكن يبدو أنه كان يتمتع خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع واوائل العاشر الميلاديين) بسلطة واسعة في فرض الضرائب فقد كان يتسلم درهما وثلث الدرهم عن كل حيوان يذبح طبقا للطقوس الدينية واربعة دراهم عن كل عقد زواج او طلاق او اجازة لبناء دار وكان مسؤولا عن رعاية كل اطفال اليهود غير الشرعيين[٢٠] .

وخلال استباحة الجنود المغولية لبغداد عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م لم يردنا ما يشير الى ان اليهود عوملوا معاملة خاصة بل يبدو انه نزل بهم ما حل بالمسلمين من القتل وليست لدينا عنهم في السنين التالية الا اشارات صغيرة مبعثرة تدل على وجودهم في اكثر مدن العراق[٢١] ولكنهم حققوا لانفسهم عصرا ذهبيا في ظل احدهم المسمى سعدالدولة اليهودي الذى صار صاحب ديوان الممالك في عهد السلطان ارغون (٦٨٣-٦٩٩هـ) = (١٢٨٤ - ١٢٩١) أي رئيسا لوزارة الامبراطورية الايلخانية بأجمعها وقدم مثلا باهرا لشخص ارتفع بانتهازيته ولباقته وكفايته ومقدرته في اصطناع مختلف الاساليب من منزلة متواضعة الى اعلى منصب في الامبراطورية بعد الايلخان نفسه .

كان سعد الدولة في مبدأ امره يسكن مدينة بغداد ويشتغل بالطب وقد وصل خبره الى السلطان أرغون فاختاره للبقاء في حضرته وكان سعد الدولة يتقن آداب السلاطين واسباب ارضائهم وخدمتهم ويتحلى بالكياسة والكفاية وقد خالط المغول والترك وتعلم لغاتهم وجرب الاحداث حلوها ومرها واطلع على الشؤون العامة خصوصا فى مدينة بغداد وقد ألقى فى روع ارغون ان نوابه في بغداد واعمالها يظلمون الناس ويخربون البلاد ويحجبون الاموال

---

(١٩) ن٠م٠ ص٢١٨ .

(٢٠) Baron, History of the Jews, Vol. II, p. 12.

(٢١) انظر الصفحات التالية .

ولا يرسلون منها الى خزينة السلطان الا القليل فارسله هذا لتصفح أعمال بغداد ولا سيما وارداتها في آخر سنة ٦٠٦هـ/١٢٨٧م فعاد اليه فى العام التالي بمبلغ عظيم من المال جمعه بشتى الطرق كالضرب بالعصا والتعذيب فاعجب أرغون بالمال ايما اعجاب وارتفع عنده مقام سعدالدولة • وفي عام ٦٨٨هـ/١٢٨٩م أحضر لارغون مبلغا كبيرا آخر من المال عن واردات بغداد فازداد اعجاب السلطان به فقال له سعد الدولة (لو لم يكن الكتاب يمنعوننا لكان هذا المال اضعافا مضاعفة) فصدر أمر السلطان بمعاقبة هؤلاء وفي أوائل جمادى الآخرة سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م أسند أرغون خان منصب الوزارة الى سعد الدولة وسرعان ما سيطر هذا على الامور فقد كان رجلا قديرا ماهرا في تدبير الشؤون وضبط أعمالها لم يهمل فيها شاردة ولا واردة[٢٢] • وفى نفس السنة عين أخاه فخرالدولة ايليا بن صفي‌الدين نائب الوزارة في العراق اي واليا على العراق يساعده نصر بن الماشعيرى اليهودى ورتب معه جمال الدين الدستجرداني كاتبا فوصلوا بغداد وقرروا اعمالها[٢٣] كما انه منح شمس الدولة بن منتجب الدولة ايالة فارس وعين اخا آخر له اسمه أمين الدولة قائدا عاما في الموصل وماردين وديار بكر كلها ووكل مهمة الاشراف على تبريز الى ابن عمه مهذب الدولة ابن منصور الطبيب وهكذا سيطر على الامور وارسل الى كل قطر من اقطار الدولة الايلخانية اقاربه او معارفه وصار الامراء والحكام يطيعونه ويذعنون له • وقد اطلق لسانه بالاستهانة بالمسلمين والاستهزاء بهم واحتقر الامراء ونهاهم عن الاخذ والعطاء فصاروا لا يتجرأون على قصد البلاد فى شأن من الشؤون الضارة او النافعة فى الوقت الذى ارتفع فيه شأن اليهود وصاروا يقصدونه من مختلف الاقطار ويهتفون بحياته ويقولون : انه رفع شأننا واقام لنا قرن خلاص ورجاء

---

(٢٢) تاريخ وصاف ص٢٣٥-٢٤٧ ؛ انظر ايضا : جامع التواريخ ج٢ ص٨١٣-٨٢٤ •

(٢٣) الحوادث الجامعة ص٤٥٧ • انظر عن سيرة فخرالدولة ايليا ، ابن الفوطي ، تلخيص مجمع الآداب ج٤ قسم ٣ ص١٢٨ •

ومجد[٢٤] وقد اثار ذلك غضب امراء المغول فصاروا يعيشون على مضض ويترقبون الفرصة المناسبة للايقاع به والقضاء عليه • وفى ٦٨٩هـ/١٢٩٠م كتب أعيان الناس فى بغداد محضرا يتضمن الطعن على سعد الدولة ويشتمل على آيات من القرآن الكريم واخبار نبوية خلاصتها ان اليهود طائفة أذلها الله تعالى فمن حاول اعزازهم اذله الله • فعلم سعد الدولة بذلك وأوصل خبره الى السلطان أرغون فحكمه في كاتبيه فأصدر أمره بصلب جمال‌الدين الحلاوي ضامن تمغات بغداد[٢٥] •

ولكن الامر لم يدم لسعد الدولة طويلا فقد مرض أرغون مرض الموت وأحس الوزير بالخطر بعد ان يأس من شفائه فأسرع الى ارسال اوامره بكشف الظلامات واطلاق الصدقات وفك سراح المسجونين ومن جملة ما عمله اصداره الاوامر باطلاق ثلاثين الف دينار كانت على اهل بغداد وقد فعل مثل ذلك فى مختلف ارجاء المملكة • وقد توفى ارغون سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م وسرعان ما قبض امراء المغول على سعد الدولة وبطشوا به وأرسلوا الاوامر بالقبض على اخوته وانسابه واوثقوهم بالقيود ونهبوا اشيائهم وقبضوا على ابنائهم وبناتهم وخدامهم وجواريهم واذلوا اليهود فى مختلف انحاء المملكة • وفي بغداد وردت الرسل من معسكرات الامير المغولي بايدو تعلن وفاة السلطان وقتل سعدالدولة • وكان مهذب‌الدولة بن الماشعيري قد قبض على ملك واسط نور الدين تاشان وارسله الى بغداد ليقتل فيها لانه قال ان سعدالدولة قد قتل • فلما وصلت الرسل الى جمال‌الدين الدستجرداني كاتب العراق ومعها تفويض له بأمر العراق والقبض على فخر الدولة أخي سعدالدولة قبض على مهذب‌الدولة بن الماشعيري حيث حوكم في الديوان وقتل وقطع اربا اربا وتناهبه العوام كما قتل يهودي اسمه ابن فلالة وقطعت أعضاءه وارسل الامير بايدو الى الموصل من قبض على أمين‌الدولة اخي سعدالدولة

---

(٢٤) تاريخ وصاف ص٢٣٥-٢٣٧ ؛ تاريخ الدول السريانى ، ص٣٩٤-٣٩٩ •

(٢٥) الحوادث الجامعة ص٤٦١-٤٦٢ •

وقتله • وقد شاع بين الناس ان الامراء فسحوا فى نهب اليهود فنهبت دورهم ودكاكينهم وقصدوا محلتهم فناهضهم اليهود ونشبت بين الفريقين معركة وقع فيها قتلى من الجانبين وذل اليهود ذلا شديدا حتى صار كما يقول برصوما الصفي من يحل ويربط ويرفل بالحلل الملكية يرتدى ثيابا خلقة ويداه قذرتان اى صار دباغا او مستجديا أكف الناس بعد ان كان كاتبا أو آمرا مسلطا[٢٦] • وقد نظم زين‌الدين علي بن صاعد الواعظ الدمشقي ابياتا بهذه المناسبة عبر فيها عن مشاعر المسلمين نقتطف منها ما يأتي :

نحمد من دار باسمه الفلك ... هذى اليهود القرود قد هلكوا
وقارن النحس سعد دولتهم ... وافتضحوا فى البلاد وانتهكوا
وشتت الله شمل ملكهم ... وبالحسام الصقيل قد سبكوا
كم حكموا في‌البلاد لا حكموا ... وارتكبوا الموبقات وانتهكوا
ابكاهم الله عاجلا أسفا ... من بعد ما في زمانهم ضحكوا[٢٧]

كان عامة يهود العراق يمارسون حرفا متواضعة مثل غيرهم من فقراء الطوائف الاخرى ومتوسطى الحال منهم فكان بينهم دباغون وصباغون وأساكفة وقصابون ولكن ظهر منهم كتاب وعلماء واطباء وتجار وصرافون وموظفون اداريون • ففي عام ٥٠٠هـ/١١٠٦م كان ابن فضلان اليهودي ناظرا لواسط[٢٨] وفى ٥٧٣هـ/١١٧٧م وقع خلاف بين المسلمين واليهود في المدائن نهبت فيه دكاكين المخلطين لان اكثرهم يهود[٢٩] وفى ٦٠١هـ/١٢٠٤م مات أبو طاهر بن شبر جهبذ الديوان العزيز وكان رئيس اليهود[٣٠] • وفي ٦٤٥هـ/١٢٤٧م توفى فخر الدولة ابو الفتح اسحق بن ابى الحسن بن

---

(٢٦) تاريخ الدول السريانى ص٣٩٤-٣٩٩ ؛ الحوادث الجامعة ص٤٦٤-٤٦٦ •
(٢٧) تاريخ وصاف ص٢٤٧ •
(٢٨) ابن الدبيثي - ذيل تاريخ بغداد ج١ الورقة ٣٨ •
(٢٩) ابن الجوزي ، المنتظم ج١ ص٢٧٥ •
(٣٠) ابن الساعى ، الجامع المختصر ج٩ ص١٦٢ •

الشويخ البغدادي رأس المشيئة وكان حبرا عالما باحكام التوراة عارفا بالنجوم والحساب درس النحو واللغة وكان محترما نافذ الكلمة عند صاحب ديوان بغداد[٣١] . وفى ٦٤٩هـ/١٢٥١م قتل أحد المسلمين صيرفيا يهوديا معه مال[٣٢] . وفي العهد الايلخاني عين مجدالدين بن الاثير الذي كان مشاركا فى الحكم لصاحب ديوان بغداد فى ٦٨٣هـ/١٢٨٤م مهذب الدولة نصر بن الماشعيري اليهودي نائبا عنه في الديوان[٣٣] وفى نفس هذه السنة شاع فى بغداد ان عز الدين بن كمونة اليهودي صنف كتابا اسمه (الابحاث فى الملل الثلاث) تعرض فيه الى النبوات فهاج عليه العوام وحاولوا قتله فانقذه الحكام بارساله الى الحلة حيث كان ولده كاتبا فيها[٣٤] وفي ٦٨٧هـ/١٢٨٨م وصل بغداد جماعة من يهود تفليس عينوا ولاة على تركات المسلمين فأساءوا السيرة وثار عليهم الناس واضطروهم على الفرار والعودة حيث قتلهم الاكراد فى الجبال[٣٥] .

وفي ٦٨٨هـ/١٢٨٩م رتب سعد الدولة اليهودي العراقي صاحب ديوان الممالك فرفع اليهود الى اعلى المناصب وظل في منصبه سنتين ثم قتل وذل بعده اليهود .

---

(٣١) ابن الفوطي ، تلخيص مجمع الآداب ج٤ قسم٣ ص١١٢-١١٣ .
(٣٢) الحوادث الجامعة ص٢٥٥ .
(٣٣) ن.م. ص ٤٣٨ .
(٣٤) ن.م. ص٤٤١-٤٤٢ .
(٣٥) ن.م. ص٤٥٥ .

الفصل الثامن عشر
الاحـــوال الصحية

كان العراق يتعرض لهجمات شديدة من الامراض الوبائية والمتوطنة وكانت الملاريا والتيفوئيد تتحول في بعض السنين الى اوبئة فتاكة يصعب معها على الباحث التميز بينها وبين الاوبئة الطارئـــة لان ظروف البـــلاد الاقتصادية والمعاشية وانخفاض مستوى الطب الانساني آنذاك كانت تســاعد على ذلك • ولعل العوامل الآتية مهمة لادراك احوال البلاد الصحيـــة :

١ ـ ان العراق لم يعد بلاداً غنية منذ العصور العباسية المتأخرة بل صار يعتمد على مصادره الخاصة منذ انقطعت عنه موارد الامبراطوريـــة الاسلامية تلك المصادر التي قامت بالدرجة الاولى على الزراعة وكانت بدائية لا تكاد تؤمن غير الكفاف للسكان[1] • وكانت البلاد تتعرض لسنين من القحط والضيق الاقتصادى نتيجة لقلة الامطار او تعـدد الفيضانات وهجمات الجراد وامراض الحيوانات والآفات الزراعيـــة فتقل المواد الغذائية الضرورية للجسم الانساني نباتية كانت ام حيوانية وتنتشر المجاعات[2] وتضعف مقاومة الاجسام للامراض فتنتشر بينهـم وتفتك بهم •

٢ ـ الاهوار والمستنقعات والمياه الآسنة • ومع اننا لا نستطيع تحديد سعتها ومواقعها ولكن الاشارات التاريخية تدل على انهـــا لم تكن قليلة خصوصا وانه ليس هناك ما يدل على توفر نظام لتصريف المياه في المدن • وكانت اهم الاهوار في هذا العهد هي البطائح وهي سلسلة

---

(١) انظر الصفحات السابقة ص١٥٢ـ١٥٩ •
(٢) انظر الفصل التالى ص٢٢٥ـ٢٢٨ •

من البحيرات والمستنقعات كانت تغمر مساحات واسعة من البلاد الممتدة بين الكوفة وواسط والبصرة ، يتجمع البعوض في الكثير من اجزائها وكانت الفيضانات تزيد من مساحتها وتوجد بقاعا جديدة منها فى اطراف المدن والقرى وقد اشار المقدسي البشارى الى كثرة البق فى البطائح وقال ان اهلها ينامون فى الكلل[٣] ووصف البصرة بانها متقلبة الهواء عفنة[٤] وقال ياقوت الحموى في وصف تل أعفر ان ماءها فيه عذوبة ولكنه وبيء ردىء[٥] كما وصف حلوان بانها وبئة ردية الماء[٦] وخلال العهد الايلخاني وصفت الطاهرية وهي قرية من قرى بغداد ان فيها مستنقع يجتمع فيه السمك عند زيادة دجلة كل سنة فيظهر فيها سمك البني ويضمنه السلطان بمال وافر[٧] وكانت المشان بليدة قريبة من البصرة وخمة جدا وكثيرة المرض لذلك كان ينفى اليها من يسخط عليه حكام بغداد من اجل تأديبه[٨] وقد وصف القزويني الموصل بكثرة البساتين وكون خريفها كثير الحمى تأتي سنة سليمة وسنة موبئة يموت فيها عدد كبير من الناس[٩] . وقال عن واسط انها عذبة المياه ولكن كثيرا ما تهب عليها الريح من البطائح فتفسد هواءها[١٠] وفي أواخر العهد الايلخاني مر السائح ابن بطوطة بالبصرة واشار الى ان هواءها غير جيد والوان أهلها مصفرة كاسفة[١١] . وأشار صاحب مراصد الاطلاع الى قرية تسمى سريا

---

(٣) احسن التقاسيم ص٣٢٥ .
(٤) ن٠م٠ ص١١٨ .
(٥) معجم البلدان ج٢ ص٣٥ .
(٦) ن٠م٠ ص٢٩٠ .
(٧) القزويني ، آثار البلاد ص٤٠٣ ؛ ابو الفداء ، تقويم البلدان ص ٢٩٦ .
(٨) القزويني ، المصدر المار ذكره ص ٤٦٠ .
(٩) ن٠م٠ ص ٤٦١ .
(١٠) ن٠م٠ ص٤٧٨ .
(١١) تحفة النظار ج١ ص١١٧ .

قريبة من البصرة تقع وسط القصب كثيرة البق[١٢] .

٣ ـ كثرة المقابر داخل المدن والدفن في الدور والربط والمساجد والترب الخاصة المتصلة بالمساجد والدفن في مدن اخرى بعيدة او قريبة ودفن الميت ثم اخراجه ودفنه في مكان آخر وما شاكل ذلك من اساليب غير صحية تساعد على نشر الامراض خصوصا ايام الوباء يضاف الى ذلك ان بغداد مثلا كانت تتميز بكثرة مقابرها وانتشارها الكثير داخل محلاتها[١٣] وفيما يلي امثلة عن نقل الموتى الى مدن اخرى لدفنهم فيها :

ففي ٦٠٢هـ/١٢٠٥م توفي الامير مجد الدين طاشتكين المستنجدي بتستر وحمل الى مشهد علي ودفن فيها[١٤] وفي ٦٠٤هـ/١٢٠٧م توفي الامير فلك الدين اقسنقر بن عبدالله التركي وصلي عليه بالنظامية ثم نقل الى مشهد الحسين ودفن فيه[١٥] وفي ٦٥٠هـ/١٢٥٢م توفي الشيخ ابو الفضائل الحسن بن محمد الصغاني ودفن في داره في بغداد ثم نقل الى مكة[١٦] وفي ٦٦٠هـ/١٢٦١م توفي عماد الدين ابو الخير مهدي في الحلة ونقل الى مشهد علي ودفن هناك[١٧] وفي ٦٨٢هـ/١٢٨٣م دفن عماد الدين زكريا بن محمود القزويني قاضي

---

(١٢) ج٢ ص٧١٢ .

(١٣) انظر الاخبار الكثيرة التي جاءت في كتاب ابن الدبيثي ، ذيل تاريخ بغداد ج١ الاوراق ١٣ ، ١٤ ، ١٩ ، ٣٢ ، ٤٢ ، ٩٢ ، ١٦٦ الخ ... وعن الدفن في دور بغداد انظر نفس المؤلف ج١ الاوراق : ٩٢ ، ١٢٨ ، ٢٠١ ، الخ ... وعن الدفن في الدور في واسط انظر نفس المؤلف ج١ الورقة ١١٦ وعن الدفن في الدور في الموصل نفس المؤلف ايضا ج١ الورقة ١٠٧ وعن الدفن في الربط والمساجد والترب الخاصة الواقعة فيها او القريبة منها انظر نفس المؤلف : ج١ الورقة ٥٧ ، ١٧٨ ، ٢٥٦ ، ٢٨٤ . ج٢ الورقة ١٩٢ ، ٢٠٤ .

(١٤) ابن الساعي ، الجامع المختصر ج٩ ص١٨٦ .

(١٥) ن.م. ص٢٤٨ .

(١٦) الحوادث الجامعة ص٢٦٣ .

(١٧) ابن الفوطي ، تلخيص مجمع الآداب ج ٤ قسم ٢ ص٨٧١ .

واسط وحمل الى بغداد ودفن في مقبرة الشونيزى[١٨] وفي ٦٩٥هـ/١٢٩٥م توفى احد المشايخ فى بغداد ونقل الى النهروان حيث دفن هناك[١٩] .

٤ ـ كان مستوى الطب بدائيا بمقياسنا الحالي من حيث المقدرة على تشخيص الامراض وعلاجها وكان عدد البيمارستانات قليلا جدا والعناية بها محدودة وموقتة ولم تكن هناك محاولات للقضاء على مسببات الامراض او العوامل المساعدةلها بردم المستنقعات والبرك الآسنة او تحسين التغذية العامة مما لم يكن معروفا فى تلك الايام كما انه لم تكن هناك ـ كما يبدو ـ محاولات لحصر الاوبئة ومنع الناس من مغادرة مناطق الوباء .

ومحاولتنا تحديد الامراض الشائعة فى هذه الفترة متوطنة كانت ام وافرة تقف امامها مصاعب جمة تحملنا على الاكتفاء بالحدس والتخمين لا سيما ولسنا من اصحاب الاختصاص كما انه ليس لدينا من حيث وفرة المعلومات او دقتها ما يكفي للخروج باحكام قاطعة ولعل اهم اسباب ذلك يلي :

١ ـ ان معلوماتنا عن الامراض وصلتنا عن طريق ما ذكره مؤرخون غير متخصصين بالطب مثل ابن الجوزي وابن الاثير وابن الساعي وابن الفوطي ممن يقدمون اوصافا غير دقيقة عن اسماء الامراض وطبائعها ومدى فتكها بالسكان ولو وجدت مثل هذه المعلومات فيما كتبه اطباء مثل الرازي والمجوسي او ابن سينا لكانت أكثر وضوحا ونفعا .

٢ ـ ان اخبار الامراض وصلتنا في اطار مسميات عامة غامضة مثل الوباء او الطاعون او الحمى التي لم تكن تمثل مصطلحات دقيقة في دلالتها والوباء كما وردنا في اخبار المؤرخين هو انتشار اي مرض معدى بشكل واسع مهلك كالملاريا او التايفوئيد او الطاعون .

---

(١٨) الحوادث الجامعة ص٤٣٣ .
(١٩) تلخيص مجمع الآداب ج٤ قسم ٢ ص٨١٦ .

٣ ـ ان اخبار الامراض التي وصلتنا قليلة مختصرة لابد ان تكون في حقيقتها اوسع واكثر انتشارا لان ظروف البلاد الاقتصادية والصحية كانت تساعد على انتشارها . وسوف نقوم في السطور الآتية باستعراض وتحليل ما وردنا من اخبار الامراض ابتداء من وقت مبكر سابق للفترة الايلخانية لاعتقادنا ان نفس الامراض الشائعة في تلك العصور ظلت تتكرر في القرون التالية لعدم تغير الاحوال العامة وتقدم الطب الطب الانساني تقدما مؤثرا .

ففي ٣٢٦هـ/٩٣٧م وقع الوباء في البقر وظهر عند الناس جرب وبثور[٢٠] وفي ٣٢٩هـ/٩٤٠م كانت السنة غير ممطرة وجاء الربيع فوقع المرض فى المواشي والناس وكثرت فيهم الحمى ووجع المفاصل[٢١] وفي ٣٤٣هـ/٩٥٤م انتشرت بين الناس امراض وحميات ونزلات واوجاع الحلق[٢٢] وفي ٣٤٤هـ/٩٥٥م فى اول المحرم انتشرت في اصبهان علة مركبة من الدم والصفراء وطرأت في بغداد وواسط حتى كان يموت فى كل يوم الف نفس[٢٣] وفى ٣٤٦هـ/٩٥٧ فى التشرينين اي في الخريف حيث يتقلب المناخ ويميل الى البرودة اصابت الناس اورام الحلق والماشرى وكثر بينهم الموت الفجاءة فمن افتصد في هذين الشهرين أما مات او اشرف على الموت[٢٤] وفى ٣٧٦هـ/٩٨٦م كثر الموت بالحميات الحادة حتى هلك

---

(٢٠) المنتظم ج٦ ص٢٩٣ .

(٢١) ن٠م٠ ج٦ ص٣١٩ ، ربما يدل اقتران الحمّى بوجع المفاصل على انتشار نوع من الانفلونزة فهى تسبب ارتفاعا فى درجة حرارة الجسم وبعضها يسبب التهابا فى المفاصل .

(٢٢) ن٠م٠ ص٣٧٥ ، ان الكثير من النزلات الشعبية تسبب التهابا فى الحلق .

(٢٣) ن٠م٠ ص٣٧٧ .

(٢٤) ن٠م٠ ص٣٨٤ قال علي بن العباس المجوسى (اما الامراض الحارة التى تعرض فى الدماغ فمنها المعروف بالماشرا اما الماشرا فانه ورم دموى يعرض للدماغ والشرايين والوجه وجميع ما فيه يرم حتى يظن بالشؤون انها ستنفرق ويعرض فى ذلك وجع شديد دائم وحمرة فى الوجه ونتوء فى العينين ويتبع ذلك غثيان بسبب مشاركة الدماغ للمعدة) كامل الصناعة الطبية ، ج١ ص٣٢٧ـ٣٢٨ .

الكثير من الناس فيها[٢٥] وفي ٤٠٦هـ/١٠١٥م جاءت الاخبار بوقوع الوباء في البصرة حتى عجز الحفارون عن حفر القبور[٢٦] . وفي ٤٧٦هـ/١٠٨٣م جلا اهل السواد من سكان أسافل دجلة حتى هلك اكثرهم بالوباء وخرجوا بنساءهم واولادهم الى نهر الملك ومنهم من التجأ الى واسط[٢٧] وفي ٤٧٨هـ/١٠٨٥م بدأ الطاعون في بغداد ونواحيها وكان غالب المرض هو الصفراء فبينما الرجل في عمله تأخذه رعدة فيخر على وجهه ويعرض له شناج وبرسام وصداع وكان المرض من الاتساع بحيث يظل الميت يوما او يومين لعدم وجود المغاسل والحامل والحافر وكان الحفارون يحفرون طول الليل ليكفي ذلك بمن يقبر نهارا وفرغت قرى من اهلها منها المحول ومات أهل باب البصرة وحربي وعم هذا المرض خراسان والشام والحجاز واعقبه موت الفجاءة ثم انتشر الجدري في الاطفال واعقب ذلك موت الوحوش في البرية والدواب والمواشي ثم انتشرت بعد ذلك بين الناس الخوانق والاورام والطحال[٢٨] .

---

(٢٥) ن٠م٠ ج٧ ص٤٣ .

(٢٦) ن٠م٠ ج٧ ص٢٧٦ ، ان عدم وزود اخبار عن انتشار الوباء في غير البصرة في هذه السنة يدل على انه مرض متوطن انتشر في السنة المذكورة لظروف طارئة وقد يكون نوعا من الملاريا ومنطقة البصرة لم تكن بعيدة عن البطائح ومستنقعاتها المعروفة بكثرة البق .

(٢٧) ن٠م٠ ج٨ ص٢٩٤ .

(٢٨) المنتظم ج٩ ص١٤ ـ ١٥ ، ٢٧ ، قال الشيخ الرئيس ابن سينا (الحمّى الصفراوية ثلاث غب دائرة وغب لازمة ومحرقة فالغب الدائرة اما خالصة وتكون عن صفراء خالصة واما غير خالصة ... وللغب الغير الخالصة نوبة واحدة وهذه الغير الخالصة ربما طالت مدة طويلة وقريبا من نصف سنة وربما ادت الى الترهل والى عظم الطحال واما المحرقة فانها من جنس اللازمة الا ان تفاوت اشتدادها وفتورها غير محسوس واعراضها شديدة ... وفي الدائمة تكون مبثوثة في عروق البدن التي تبعد عن القلب وشدة العطش والقلق والارق والهذيان والغشيان وحرارة الفم ... والصداع يكثر في الحميات الصفراوية) ويبدو ان وصف ابن سينا هذا ينطبق على الملاريا ، اما الحمى المحرقة التي ربما كانت التايفوئيد فقد قال عنها ما يأتي : (علاماتها اللزوم وخفاء الفترات وشدة الاعراض من خشونة اللسان ومن اصفراره اولا ومن اسوداده ثانيا ومن احتباس العرق الا عند البحران وشدة العطش) القانون ج٣ ص٣٣ـ٣٤ ، ٣٨ .

وفى ٤٩٣هـ/١٠٩٩م فى اواخر شعبان كثر الجرف والوباء في العراق وعدمت الادوية والعقاقير وشوهد نعش عليه ستة موتى[٢٩] وفي ٥١٨هـ/ ١١٢٤م وقع جرف أي وباء وأمراض عمّت بغداد الى البصرة[٣٠] وفي ٥٢٥/ ١١٣٠م توفى ابن الخليفة المسترشد بمرض الجدرى[٣١] وفى ٥٣١هـ/ ١١٣٦م انتشر الموت فى الناس[٣٢] وفى نفس السنة كثرت الامراض ببغداد والموت فجأة فى اصفهان وهمدان[٣٣] وفي ٥٤١هـ/١١٤٦م ظهرت علّة انتفاخ الحلق حتى مات فيها خلق كثير[٣٤] وفى ٥٤٤/١١٤٩م اشتدت فى الناس علة برسامية وسرسامية انتشرت في الناس فكان المرضى لا يتكلمون ولا يطول بهم الامر[٣٥] وفي ٥٥٢هـ/١١٥٧م وقع المرض في أيار لكثرة المطر وبرودة الجو التي جعلته كانه شتاء وساعد على ما أصاب الناس من متاعب ومصاعب نتيجة للحرب بين خليفة بغداد وسلطان السلاجقة فانتشر الجدري في الصغار والامراض الحادة في الكبار[٣٦] وفي ٥٦٩هـ/١١٧٣م دخل ايلول فاصاب الناس نزلات وسعال بشكل عام[٣٧] وفى ٥٧٤هـ/١١٧٨م انقطعت الامطار وكان الغلاء عاما فى الديار الشامية والجزيرة العراقية والديار بكرية والموصل وبلاد الجبل وغيرها ودام ذلك الى آخر سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م وتبع ذلك موت عام وكان المرض شيئا واحدا وهو السرسام

---

(٢٩) المنتظم ج٩ ص١١٣ ٠
(٣٠) ن٠م٠ ٢٤٨ ٠
(٣١) ن٠م٠ ج١٠ ص١٢٠ ٠
(٣٢) ن٠م٠ ج١٠ ص٦٨ ٠
(٣٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج١١ ص٢٢ ٠
(٣٤) ابن الجوزي ، المنتظم ج١ ص١٢٠ ٠
(٣٥) ن٠م٠ ج١٠ ص١٣٨ ـ قال الشيخ الرئيس ابن سينا (والبرسام هو فارسي والبرهو الصدر والسام هو الورم والسرسام ايضا فارسي ، والسرهو الراس والسام هو الورم والمرض) القانون ج٢ ص٤٤ ٠ وقال ابن سينا ايضا (قد يعرض فى الحجب والصفاقات والعضل التى فى الصدر ونواحيها والاضلاع اورام دموية موجعة جدا تسمى شوصة وبرساما وذات جنب) القانون فى الطب ج٢ ص٢٣٨ ٠
(٣٦) المنتظم ج١٠ ص١٧٦ ٠
(٣٧) ن٠م٠ ص٢٤٣ ٠

وكان الناس لا يلحقون ان يدفنوا موتاهم[٣٨] وهذه هي نفس السنة التي تولى فيها الناصر لدين الله الخلافة فانكشف على قول مؤرخ معاصر ما ألمّ بالناس من جدب ووباء اتى على اكثرهم وافنى عامتهم[٣٩] وفى ٦٠٢هـ/١٢٠٥م توفى ابو عبيد الله محمد بن الوزير ابي الفتح بمرض السل وتوفيت ابنة أرغش مقطع دقوقا بنفس المرض في نفس السنة ايضا[٤٠] وفى ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م وقعت مجاعة فى الموصل وديار بكر والجزيرة واشتد معها الوباء فكان يحمل فى النعش الواحد عدة من الموتى[٤١] . وفى ٦٤٠هـ/١٢٤٢م فى آخر ايام المستنصر بالله كثر المرض والموت في بغداد حتى سماه احد المؤرخين وباء[٤٢] وفى ٦٤٦هـ/١٢٤٨م انتشرت فى بغداد امراض فى الحلوق وخوانيق ومات في ذلك خلق كثير[٤٣] وفى ٦٥٦هـ/١٢٥٨ عند استباحة المغول لبغداد وقع المرض فيمن نجا من القتل في المدينة بسبب الروائح وشرب الماء الممتزج بالجيف وكثر الذباب حتى ملأ الفضاء[٤٤] وانتشر الوباء فى العراق والجزيرة وبلاد الروم[٤٥] وفى ٦٧٨هـ/١٢٧٩م فسد الهواء في أكثر بلاد العجم والموصل وبغداد والحلة والكوفة وواسط والبصرة وجميع نواحي العراق وكثر السعال في الناس[٤٦] وفي ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م كثر المرض والموت فى بغداد[٤٧] .

---

(٣٨) ابن الاثير ، الكامل ج١١ ص١٨٤ .
(٣٩) ابن الدبيثي ذيل ، الورقة ١٦٩ .
(٤٠) ابن الساعى ، الجامع المختصر ج٩ ص١٧٨-١٨٠ .
(٤١) الخزرجى ، العسجد المسبوك مخطوطة مصورة ص١٣٥ .
(٤٢) الحوادث الجامعة ص٢٢٥ .
(٤٣) قال ابن سينا (العرض العام لجميع اصناف الخوانيق ضيق النفس وبقاء الفم مفتوحا وصعوبة الابتلاع وجحوظ العينين وخروج اللسان فى الشديد منه مع ضعف حركته .. وان اشتد الوجع فربما انتفخت الرقبة كلها والوجه وتدلى اللسان) القانون فى الطب ج٢ ص٢٠٠ .
(٤٤) الحوادث الجامعة ص٣٣١ .
(٤٥) ابن العبرى ، تاريخ الدول السريانى ، المصدر المار ذكره ، ص ١٣٤ .
(٤٦) الحوادث الجامعة ص٢٣١ .
(٤٧) ن.م. ص٤٤٩ .

المارستانات : وهي مستشفيات تلك العصور وكانت تختلف من حيث سعتها وتنظيمها وعدد اطبائها ودرجة العناية بمرضاها • وتعيش على هبات واوقاف يمدها بها اصحاب اليسار من الخلفاء والملوك والامراء والاغنياء ولكنها لم تكن مؤسسات ضرورية تستطيع تأدية الخدمات التي تقوم بها مستشفيات العصر الحالي وذلك بسبب انخفاض مستوى الطب الانساني آنذاك وكان عددها لذلك ضئيلا والعناية بها ليست مستمرة ولا على مستوى واحد فتارة تكون شديدة وتارة يسيطر عليها الاهمال فتغلق ويطويها النسيان دون ان تثير اهتماما كبيرا في نفوس المؤرخين وكان عددها في العراق صغيرا ولكنه ربما كان أكثر مما وصلتنا الاخبار عنه ولعل المارستانات الآتية اهم ما انشىء في بغداد وخارجها :

كانت مدرسة جنديسابور ومارستانها وهي في خوزستان عاملا موجها اساسيا عند انشاء اول مارستانات العراق ومدارسها الطبية ايام العباسيين • فقد عهد الخليفة هرون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ) = (٧٨٦-٨٠٩م) الى جبرائيل بن بختيشوع وهو أحد الاطباء النصارى في جنديسابور بتأسيس مارستان في بغداد فاقيم على نهر كرخايا فى الجنوب الغربي من مدينة المنصور[٤٧] ولكن لم يصلنا ما يحدد مدى استمراره كما اننا لا نسمع عنه خلال القرنين السادس والسابع الهجريين وفى ٣٠٢هـ/٩١٤م انشأ الوزير ابو الحسن بن الجراح مارستانا فى محلة الحربية الواقعة شمال مدينة المنصور[٤٨] وفى المحرم سنة ٣٠٦هـ/٩١٨م فتح ابو سعيد سنان بن ثابت مارستان السيدة ام المقتدر في سوق يحيى على نهر دجلة[٤٩] وفى ٣١٣هـ/٩٢٥م قلد الوزير الخاقاني الحكيم ابا الحسن ثابت بن سنان بن قرة المارستان الذي انشأه ابن الفرات[٥٠] في درب الفضل ويمكن تقديره

---

(٤٧) انظر مادة (بيمارستان) فى دائرة المعارف الاسلامية ، انظر ايضا : احمد عيسى بك ، تاريخ البيمارستانات فى الاسلام ص١٧٨ •

(٤٨) احمد عيسى بك ، تاريخ البيمارستانات فى الاسلام ص١٧٩ •

(٤٩) ن•م• ١٨٢ - ١٨٣ •

(٥٠) ن•م• ص ١٨٤ •

حجم هذه المؤسسات من نفقاتها فقد كان يصرف على المارستان المقتدري مبلغ مائتي دينار شهريا وعلى مارستان السيدة مبلغ ٦٠٠ دينار شهريا[٥١] ولكن جميع هذه المارستانات عفا عليها الزمن فلم نعد نسمع عنها شيئا في العصور العباسية المتأخرة .

ولكن اهم مارستانات بغداد والعراق بصورة عامة كان المارستان العضدى الذي انشأه الملك البويهي عضدالدولة سنة ٣٧٢هـ/٩٨٢م وجهزه بالاطباء والوكلاء والخزان والخدم والادوية والاشربة والعقاقير وكان فيه كحالون اى اطباء عيون وجرائحيون وهم الاختصاصيون بالجراحة ومجبرون وقد ذكر ان الراتب الشهرى لاحد اطباءه وهو جبرائيل ابن عبدالله الذى كانت نوبته فى العمل يومين وليلتين فى الاسبوع مقـــداره ٣٠٠ درهم وكانت المحاضرات الطبية تلقى فيه وتقرأ فيه المؤلفات الطبية التي نعرف احدها وهـو الاقرباذين لسابور بن سهل الجنديسابوري[٥٢] ولكن الاهمال كان يسيطر عليه فى عهود القلق والاضطراب حتى اننا نسمع فى اخبار عام ٤٤٩هـ/١٠٥٧م فى ايام السلطان السلجوقي طغرلبك انه خلا من الدواء والشراب فهناك مريض بيده بصلة يشمها ومريض آخر نهض الى الماء فوجد فيه حمأة وسبب ذلك ان احد اليهود استولى على اوقافه . ولكن الاوامر صدرت بتجهيزه بما يحتاج من الادوية والفرش والاطبـاء والطباخين[٥٣] وقـد مر ابن جبير ببغداد ٥٨٠هـ/١١٨٤م ووصف المارستان العضدي بأنه يقع في الجانب الغربي من المدينة على نهر دجلة يتفقده الاطباء كل يوم اثنين وخميس للنظر فى أحوال المرضى وتخصيص ما يحتاجون اليه وفيه قومـة يطبخون الادويـة والاغذية وهو قصر كبير يدخل اليه الماء من دجلة وفيه جميع مرافق البيوت الملكية[٥٤] وقد وردت اشارة اليه فى حوادث سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م بانه لا زال

---

(٥١) انظر مادة (بيمارستانات) فى دائرة المعارف الاسلامية .
(٥٢) ن.م.
(٥٣) احمد عيسى بك ، تاريخ البيمارستانات فى الاسلام ص١٨٧ – ١٩١ .
(٥٤) رحلة ابن جبير ص٢١٢ .

قائما وله خازن وطبيب وقوام وحجرة للمجانين[٥٥] وفي ٦٤٤هـ/١٢٤٦م تم ختان ولدين من اولاد الخليفة المستعصم بالله وقد باشر الختان ساعور المارستان العضدى اي رئيس اطباءه الحكيم مسعود بن القس[٥٦] وفى ٦٧٩هـ/١٢٨٠م أي أيام الايلخانيين قتل مملوك سيده فسمّر ثم حطّ بعد عدّة أيام وعولج في المارستان فسلم[٥٧] وفي ٦٧٢هـ/١٢٨٣م عزل سعد الدولة بن صفي الدولة اليهودي عن نظر المارستان العضدى[٥٨] . ولكن يبدو ان الاهمال اخذ يستولي على هذا المارستان فعندما مر السائح المغربي ابن بطوطة في بغداد في أواخر العهد الايلخاني وصفه بأنه (قصر كبير خرب بقيت منه الآثار)[٥٩] .

ولكن المارستان العضدي لم يكن الوحيد في بغداد في أواخر العهد العباسي فقد اسس المملوك خمارتكين المتوفي سنة ٥٠٨هـ/١١١٤م المارستان الذي بباب الأزج في الجانب الشرقي من بغداد نسبة الى سيده الملك تاج الدولة تتش بن ألب ارسلان بن داود بن سلجوق وقد وصفه ياقوت الحموي سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م بانه والسوق الواقعة قرب المدرسة النظامية والمدرسة الواقعة بالقرب من السوق وكلها تنسب لتتش ايضا موجود معمور في زمانه جارى على احسن نظام له الوكلاء الذين يجبون امواله ويصرفونها في وجوهها[٦٠] ولكننا لم نسمع ما يؤيد استمرار هذا المارستان ايام الايلخانيين وقد ورد فى شروط المدرسة المستنصرية عند اول تأسيسها ان يرتب فيها طبيب حاذق مسلم وعشرة من المسلمين يشتغلون بعلم الطب ينفق عليهم من اوقاف المدرسة وان يقوم الطبيب بفحص من يقع له مرض ويجهز المريض بما يوصف له من الادوية والا شربة وغيرها[٦١]

---

(٥٥) الحوادث الجامعة ص١-٢ .
(٥٦) العسجد المسبوك ، الورقة ١٦٩ .
(٥٧) الحوادث الجامعة ص٤١٣ .
(٥٨) ن.م. ص ٤٣٣ .
(٥٩) تحفة النظار ج١ ص١٤١ .
(٦٠) معجم البلدان ج٢ ص١٥ .
(٦١) الحوادث الجامعة ص٥٩ .

ويبدو ان مثل ذلك لم يستمر ايام الايلخانيين لان المصادر المعاصرة لا تشير اليه ومنها سياحة ابن بطوطة .

أما عن خارج بغداد فهناك اشارات قليلة عن مارستانات في عدد من المدن فقد زار ابن جبير مدينة الموصل سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م وذكر ان فيها مارستانين أحدهما في ربض المدينة وهو مارستان حفيل وآخر في داخل البلد[٦٢] وزارها ابن بطوطة سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م فاشار الى وجود مارستان في داخل المدينة . وفي البصرة أمر الخليفة سنة ٦٢٩هـ/١٢٣١م زعيم المدينة المذكورة اي واليها شمس الدين باتكين بانشاء مارستان فيها ينفق عليه من مال الخليفة وتوقف عليه وقوف سنية وافرة[٦٣] وفي واسط فتح مؤيد الملك ابو علي الحسن الرخجي وزير شرف الدولة مارستاناً في المدينة سنة ٤١١هـ/١٠٢٠م وجهزه بالادوية والاشربة وعيّن له الاطباء والخزان والوكلاء وأوقف عليه الوقوف وقد وردنا في حوادث ٩٥٩هـ/١١٩٨[٦٥] و ٦١١هـ/١٢١٤م[٦٦] ما يدل على وجود هذا المارستان ولكننا لم نعد نسمع به بعد ذلك . وفي العهد الايلخاني المغولي وردنا من أخبار مجد الدين اسماعيل بن الياس الكتبى احد حكام بغداد المتوفى سنة ٦٨٨/١٢٨٩ انه أنشأ مارستانا على شاطىء الفرات فى الحلة[٦٧] .

كان الطب احد الميادين التي برع فيها العرب وحققوا فيها شهرة كبيرة في عالم القرون الوسطى خصوصا في اوربا وكان الخلفاء والحكام شديدى العناية باخبار اطبائهم وتوفير ما يحتاجون اليه من الدواء وكان اشهر الاطباء العرب الرازي ٢٣٦ - ٣٢٠هـ (٨٥٠ - ٩٣٢م) واهم كتبه (الحاوى)

---

(٦٢) رحلة ابن جبير ص٢٢١ .
(٦٣) الحوادث الجامعة ص٣٣ .
(*) تحفة النظار ، ج١ ، ص١٤٨ .
(٦٤) ابن الجوزي ، المنتظم ج٨ ص٨ ، ١٠٠ ، ١٠١ .
(٦٥) ابن الساعى ، الجامع المختصر ج٩ ص٢٢ .
(٦٦) ابن الدبيثي ، ذيل ج١ الورقة ١٤٢ .
(٦٧) ابن الفوطي ، تلخيص مجمع الآداب ج٥ (نشر محمد بن عبدالقدوس) ص١١٢ .

وعلى بن العباس المجوسى (ت ٨٤٠هـ/٩٩٤م) وقد عرف بكتابه المسمى (الملكي) او (كامل الصناعة الطبية) والشيخ الرئيس ابن سينا (٣٧٠ - ٤٢٩هـ) (٩٨٠ - ١٠٣٧م) واهم مؤلفاته (القانون فى الطب) وقد اعتمدت هذه المؤلفات على ما كتبه اليونانيون واضافت اليها ما توصل اليه اطباء الهند والفرس وغيرهم وصنفت ذلك فى مؤلفات جليلة جمعت اليها الخبرات الطبية التي نشأت في ظل المدنية الاسلامية فاشار ابن سينا في كتابه (القانون) الى عدوى السل الرئوى وانتقال الامراض بالماء والهواء وبين الرازي لاول مرة الفرق بين الجدري والحصبة وقال بالعدوى الوراثية . ولكن المؤلفات الطبية الشهيرة لم تكن تمثل حقيقة ما كان يمارسه الاطباء والمتطببون كما لم يكن هناك نظام دائم تفرضه السلطات المسؤولة وتجبر من يريد احتراف الطب على ضرورة تلقي دروس معينة على ايدى اطباء مشهود لهم بالكفاءة في حقول تخصصهم كما لم تكن هناك امتحانات ضرورية يجتازها من يريد ممارسة الطب قبل دخوله الحياة العملية بل كانت العادة السائدة ان يقرأ طالب المهنة بعض كتب الطب بنفسه او على ايدى اطباء نابهين ثم يزاول التطبيب عندما يعجبه ذلك بدون قيد او شرط الا ما حدث ايام الخليفة العباسي المقتدر بالله الذي تولى الخلافة سنة ٢٩٥هـ/٩٠٧م والذي فرض على من يريد معاناة التطبيب اداء امتحان للحصول على أجازة تخوله حق ممارسة المهنة . ولكن ذلك لم يستمر في العصور العباسية المتأخرة بل لدينا ما يؤيد عكس ذلك من الرسالة التي وجهها ابو عبدالله محمد بن يحيى بن فضلان المتوفي ٦٣١هـ/١٢٣٣م الى الخليفة الناصرلدين‌الله وأشار فيها الى الاطباء من أهل الذمة وقال : (ويخرج الصبي منهم ولم يقرأ غير عشر مسائل حنين وخمس قوائم من تذكرة الكحالين وقد تقمص ولبس العمامة الكبيرة وجلس فى مقاعد الاسواق والشوارع على دكة حتى يعرف وبين يديه المكحلة والملحدان يؤذي هذا في بدنه ويجرب على ذا في عينيه فيفتك من اول النهار الى آخره ويمضي آخر الليل الى منزله ومكحلته مملوءة قراضة فاذا عرف بتعوده على

---

(٦٨) احمد عيسى ، تاريخ البيمارستانات فى الاسلام ص٤٢ .

الدكة وصار له الزبون قام يدور ويدخل الدور)[٦٩] . كان الطب يقوم في اكثره على الادوية النباتية التي يمكن وصفها بالمسكنات ولم يكن الاطباء يلجأون الى الادوية المركبة المعقدة التي يسمونها الترياق الا في الاحوال المستعصية وكانت اكثر اساليب المعالجة شيوعا هي الفصد والحجامة والاسهال . ولنستمتع الى ما قاله احد اكبر مؤلفي الطب العربي وهو على بن العباس المجوسي في مداواة الجدري والحصبة (ينبغي اول علامات ما يظهر الجدري والحصبة من يوم الى ثلاثة أيام ان يبادر الى فصد صاحبه من الاكحل ويخرج له الدم الى ان يغشى عليه اذا ساعدت القوة والمزاج والسن والوقت الحاضر من أوقات السنة وان كان العليل صبيا فليحجم من الكاهل ويخرج له من الدم مقدار ما يصلح ان يخرج لمثله ويعطيه بعد الفصد ماء الشعير قد طبخ فيه عناب وسيستان وعدس مثل ثلث الشعير ويسقيه اياه بشراب الخشخاش او شراب العناب ان كان هناك سعال والم في الحلق وان لم يكن هناك سعال فماء الرمان ... الخ) .

وفي عهد الايلخانيين كان ملوك المغول يهتمون بالاطباء ويشجعون علم الطب وقد بلغ سعد الدولة اليهودي الطبيب العراقي اعلى منزلة في امبراطوريتهم وهي صاحب ديوان الممالك[٧١] ومثل ذلك المؤرخ والطبيب المشهور رشيد الدين فضل الله الهمداني (ت ٧١٨هـ/١٣١٨م) وقد وردتنا اسماء بعض الاطباء في عهدهم مثل شمس الدين الصباغ (ت ٦٨٣هـ/١٢٨٤م) وقد مات وعمره مائة وست سنين وكان مبرعا بعلم الطب[٧٢] والطبيب النصراني أبو منصور المعروف بكتيفات (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٣م) ومجدالدين سنجر البغدادي الذي ولي المستنصرية ومات سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م[٧٤] وقد

---

(٦٩) الحوادث الجامعة ص٦٦ ، ٦٧ .
(٧٠) كامل الصناعة الطبية ج٢ ص١٩٣ انظر ايضا ما قاله في علاج ذات الرئة ن.م. ص٣١٧ .
(٧١) انظر الصفحات السابقة ص٢٠١-٢٠٣ .
(٧٢) الحوادث الجامعة ص٤٤٥ .
(٧٣) ن.م. ص٤٨١ .
(٧٤) الدرر الكامنة ص١٧٣ .

ورد في سيرته انه قدم بغداد سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م ايام أرغون ومعه امر سلطاني باعتبار أطباء العراق وصيادلته فمن ارتضاه أقره على عمله ومن لم يرضه يستبدله بغيره ممن يعرف تدبير العلاج وحفظ الصحة(٧٥) • ولعل خير ما يمثل مستوى الطب في العهد الايلخاني ما أورده ابن الفوطي في سيرة احد معاصريه وهو مجدالدين ابو عبدالله نوفل بن محمد بن دهجان البصري الطبيب حيث قال عنه (كان طبيبا حاذقا له معرفة بالمزاج والعلاج قرأت بخطه فى رسالة كتبها لبعض تلاميذه قال جالينوس ما دخل الرمان جوفا قط فاسدا الا أصلحه وما دخل التمر جوفا صالحا الا افسده وقال بقراط : الجسد كله يعالج جملة على خمسة اضرب ما فى الرأس بالغرغرة وما فى المعدة بالقيء وما فى اسفل المعدة باسهال البطن وما بين الجلدين بالعرق وما فى داخل العرق باخراج الدم(٧٦) •

والحقيقة ان الطب الانسانى كله ظل متخلفا غير قادر على كشف اسباب الامراض وطبيعتها الا بعد التوصل الى صنع المجهر وكشف المكروبات والاشعة والاهتداء الى العلاج باللقاح المضاد للجدري والطاعون والهيضة وغيرها بالمركبات المضادة • ولم يتحقق ذلك الا بصورة بطيئة وصعبة ابتداء من القرنين السادس عشر والسابع عشر اما قبل ذلك فان الامراض كانت تفتك بالأنسان ولم تكن تحميه منها الا قوته الجسمية وظروفه الطبيعية وما أشبه ذلك •

---

(٧٥) ابن الفوطي ، تلخيص مجمع الآداب ج٥ (نشر محمد بن عبد القدوس) ص١٢٢-١٢٣ •

(٧٦) ن•م• ص٢٦٤-٢٦٥ •

الفصل التاسع عشر
الغذاء والمجاعات

(أ)

كانت مادة الغذاء الاساسية بالنسبة لغالبية سكان بلاد الرافدين هى الخبز واهم مادة كان يصنع منها هى الحنطة او الشعير اما الرز فانه لم يكن مادة اساسية من مواد الطعام كما هو عليه الآن الا فى المناطق التى تكثر فيها زراعته واهمها كما يبدو البطائح الممتدة على مسافة من واسط والبصرة • ولكنه كان مادة ثانوية شائعة في كثير من انحاء البلاد وقد عد ابن سعيد المغربى الغلات الرخيصة فى بغداد فذكر بينها الرز الذى يجلب من البطائح وجهات واسط[١] واشار القزويني الى كسكر بأنها ناحية على طرف البطيحة تجلب منها عدة حاجات احدها الرز الجيد[٢] وعندما زار السائح ابن بطوطة قرية ام عبيد التى يقوم فيها قبر الولي احمد الرفاعى قدم اليه سماط كان فيه خبز الرز[٣] ويبدو ان التمر كان مادة غذائية اساسية بين فقراء السكان وليست تؤكل بشكل حلوى فقط ولهذا تكثر الاشارة اليه في اخبار المجاعات والغلاء وليس ذلك غريبا لان النخل نبات عراقى قديم قليلا ما يتأثر بالجفاف الذي يهلك الغلات الاخرى وقد كان الخبز والتمر مادة غذائية أساسية في ايام البابليين[٤] •

---

(١) بسط الارض ص٣٩ •
(٢) آثار البلاد واخبار العباد ص٤٤٦ •
(٣) تحفة النظار ج١ ص١٠٩ •
(٤) George Contenau, Every Day Life in Babylon and Assyria, pp. 71-76.

وكان اهم ادام للخبز هو اللحم او السمك وتأتي اخبار الاول منها كثيرة فى ذكر المجاعات وايام الغلاء ويبدو ان الفقراء كانوا لا يتناولون الا كميات قليلة منه وانهم كانوا يطبخونه مع الخضروات فيكون غذاء رخيصا يسمونه الطبيخ اما السمك فانه كان متوفرا لان اغلب المدن كانت تقع على الانهار ولان الاهوار كانت مخزنا كبيرا للاسماك • فالمقدسي البشارى يصف البصرة بكثرة الاسماك والتمور وواسط بانها معدن السمك والصليق الواقعة على بحيرة تتصل بسواد الكوفة بأن عيش اهلها ضيق وأدامها السمك[٥] وخلال واقعة بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م جلب اهل الحلة الغلات الى بغداد ومنها الخبز والتمر والسمك[٦] وقد قال القزويني عن البطيحة انها منابت القصب ومصيد السمك وطير الماء[٧] وكان السماط الذى قدم لابن بطوطة فى قرية ام عبيد يتكون من خبز الارز والسمك واللبن والتمر[٨] ويحتل السكر مكانا بارزا في أخبار الغلاء والاوبئة لانه كان مادة أساسية في صنع الادوية كما تكثر الاشارة اليه بشكل الحلويات التى كانت عنصرا اساسيا فى طعام الاغنياء وربما الطبقات المتوسطة فعندما عادت ام الخليفة المستعصم بالله من الحج سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م جهزت الاقامات لتلقيها وكان ابرز ما ورد فيها الحلوى فقد خرج صدر المخزن ومشرفه لتلقي محفتها وكان فيما يحملان تسعة الاف ومائتان قطعة خشكنان واقراص كبار وستماية وثلاثة وستون بطة حلوا صابونية[٩] وعندما قدم وزير صاحب دمشق الى بغداد فى نفس السنة المذكورة خرج موكب ديوان بغداد الى استقباله حاملا اليه صناديق فيها (٢٨٠٠) قطعة خشكنان واقراص وثلاثون صحنا حلاوة صابونية وعشرة امناء سكر بلوج وغيرها[١٠] اما الفاكهة فأنواعها عديدة وكانت متوفرة في

---

(٥) احسن التقاسيم ص١١٨ ـ ١١٩ •
(٦) الحوادث الجامعة ص٤٤٦ـ٤٤٧ •
(٧) آثار البلاد ص٤٤٦ •
(٨) تحفة النظار ج١ ص١١٤ •
(٩) العسجد المسبوك ، الورقة ١٦٤ •
(١٠) ن•م• الورقة ١٩٦٥ •

العراق والجزيرة وقد مر بنا ان مدن العراق كانت شبه ريفية وان البساتين والاشجار تكثر فيها الى ذلك من اوصاف المعاصرين[١١] ولكن الفواكه لم تكن مادة اساسية فى غذاء الفقراء عدا التمر لكثرته ورخصه وقد أكد المستوفي القزويني على توفر الفاكهة ورخصها فى منطقة بغداد وذكر منها التمر المكتوم والخستاوي والرمان والدراجي والعنب المراقي[١٢] وقد ابتنى عطا ملك الجويني صاحب ديوان بغداد أيام هولاكو وخليفته اباقا قصرا كبيرا مقابل باب الظفرية والحلبة واحاطه ببستان عظيم غرس فيه النخل والاشجار والاثمار[١٣] .

وفيما يلى نقدم نماذج من اخبار الطعام الذى كانت تتناوله مختلف الطبقات لتوضيح الصورة التى حاولنا رسمها عن هذا الموضوع . وقعت مجاعة فى ٣٣١هـ/٩٢٣م جلبت فيها كميات كبيرة من الجراد بيعت كل خمسين رطلا بدرهم وساعدت الفقراء فى شدتهم[١٤] وفى ٥٥٦هـ/١١٦٦٠م وقع خلاف بين قبيلة خفاجة وحكومة بغداد فارسلت خفاجة تقول انها قنعت بلبن الابل وخبز الشعير ولكن الحكام منعوها رسومها[١٥] وفي ٦٠٤هـ/١٢٠٧م فى شهر رمضان امر الخليفة الناصر لدين الله باقامة دور ضيافة لفطور الفقراء فى شرقى بغداد وغربيها يجرى فيها لكل فقير فى كل يوم رطلين من الخبز الجيد وقدح طبيخ فيه نصف رطل لحم ضأن[١٦] وفى ٦٣١هـ/١٢٣٣م افتتحت المدرسة المستنصرية وعين فيها للمدرسين وللمعيدين والطلبة والقراء وغيرهم وظائف من الطعام حسب اهميتهم فللمدرس كل يوم عشرون رطلا من الخبز وخمسة ارطال من اللحم مع خضرها وللمعيد فى كل يوم سبعة ارطال من الخبز وعرقان من الطبيخ وكان فى دار القرآن فى المدرسة

---

(١١) انظر ص١٦٤ .
(١٢) نزهة القلوب ص٤١ .
(١٣) الحوادث الجامعة ص٣٥٧ .
(١٤) ابن الجوزي ، المنتظم ج٦ ص٣٣١ .
(١٥) ابن الاثير ، الكامل ج١١ ص١١٢ .
(١٦) ابن الساعى ، الجامع المختصر ج٩ ص٢٩ .

شيخ يلقن القرآن ومعيد وثلاثون صبيا يكون للشيخ فى كل يوم خمسة ارطال خبز وعرقان طبيخ وللمعيد فى كل يوم اربعة ارطال خبز وعرق طبيخ ولكل صبى ثلاثة ارطال خبز وعرق طبيخ[١٧] وفى ٦٤٤هـ/١٢٤٦م ختن احد اولاد الخليفة المستعصم بالله وحملت الى الوليمة التى اقيمت بالمناسبة كميات كبيرة من الطعام اهمها ٢٢٠٫٠٠٠ رطلا من الخبز الفائق و٢٩٠٠ قطعة دجاج و١٥٠٠ رأس غنم مشوى و٥٩٠٫٠٠٠ بيضة و٤٠٠ رطلا من السكر البلوج وثلاثة أكرار خشكنان و١٧٠٠ صحنا من الحلوى الرطبة و١٥٠٠ صحنا من الحلوى اليابسة وكمية من ماء الورد وخمسة وخمسون صحنا من المهلبية و٩٠٠ رطلا من الفستق والبندق و٣٠٠ سلة من الفاكهة وكميات من ماء الورد وماء الليمون والنشاء وماء الحصرم وحب الرمان والمربى والزعفران وماء الاترج[١٨] وفي ٦٥١هـ/١٢٥٣م توفى أحد فقهاء الشافعية بالمدرسة المستنصرية وكان شحيحا يأكل مرتين فى اليوم فقط دون شبع رطلا ونصف من الخبز ونصف رطل من اللحم[١٩] وفى نفس السنة دخل حارسان على سجين فى ديوان الزمام فى بغداد يحملان اليه غـذاءه وهو الخبز والماء فلم يجداه[٢٠] وعندما اقترب ابن بطوطة من الكوفة سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م نزل موضعا يسمى واقصة ، يتلقى فيه الكثير من أهل الكوفة الحاج حاملين اليهم الدقيق الخبز والتمر والفاكهة[٢١] وعند دخول السائح المذكور مدينة النجف اشار الى مدرستها الكبيرة وقال ان لكل وارد فيها ضيافة ثلاثة ايام من الخبز واللحم والتمر مرتين فى اليوم[٢٢] وفى سفره من البصرة الى الابلة ركب قاربا صغيرا وكانت الاشجار تمتد على طول

---

(١٧) العسجد المسبوك ، الورقة ١٤٩ .
(١٨) ن.م. الورقة ١٦٩ .
(١٩) ن.م. الورقة ١٨٣ .
(٢٠) ن.م. ص١٨٢ .
(٢١) تحفة النظار ج١ ص١٠٩ .
(٢٢) ن.م.

طريقه والباعة فى ظلالها يحملون الخبز والسمك والتمر واللبن والفاكهة[٢٣] .

(ب)

كانت المجاعات حوادث اعتيادية متكررة في تاريخ العراق منذ القرن الرابع الهجرى سببها نقص او تلف محاصيل الحنطة والشعير والرز وهى مادة الغذاء الرئيسة حيث ترتفع اسعار الخبز ويمتد ذلك الى الغلات الاخرى كالتمر والمواد الغذائية الاخرى كاللحم والسمك ربما نتيجة لزيادة الطلب عليها تعويضا عن نقص الخبز .

واسباب الغلاء عديدة اهمها ان اقتصاد البلاد كان اقتصاد كفاف يندر ان تفيض منه كميات كبيرة عن حاجة المستهلكين الا فى بعض السنين ويندر ان تكون الزيادة كافية لحماية السكان فى السنين العجاف يضاف الى ذلك ان التجارة العالمية لم تكن تقوم بصورة رئيسة على تبادل المواد الثقيلة كالحنطة والشعير والرز الا فيما بين البلاد المتجاورة بل على الاتجار بالمواد الخفيفة الغالية كالانسجة والعطور والزجاج والورق والأحجار الكريمة لذلك كانت اكثر بلاد العالم تعتمد على محاصيلها نفسها فى تغذية سكانها وكانت الجزيرة تمون العراق بالحبوب فتزيد فى كمياتها فيه ولكن الجفاف كان كثيرا ما يضرب بلاد الرافدين فيميت ـ ما بين دجلة والفرات ـ الغلات او يقلل من كمياتها . وكانت الاضطرابات السياسية وهي مرض لازم العراق منذ العهد البويهي تؤدي الى ضياع الامن وتشجيع رجال القبائل على قطع الطرق وغزو المدن وتجميد الحركة التجارية وأشاعة القلق فى انفس الفلاحين يضاف الى ذلك ان الجراد والامراض النباتية والحيوانية كانت كثيرا ما تهاجم المحاصيل وحيوانا تالحقل فتفتك بها وتقلل من كمياتها وتجعل مقادير اللحوم الضرورية للطعام غير كافية فاذا اضفنا الى كل ذلك الاوبئة

---

(٢٣) ن٠م٠ ص١١٦ .

التى كان يتكرر حدوثها فتقتل اعدادا كبيرة من السكان وتضعف من بقي منهم فتؤدي الى نقص الايدي العـــاملة اللازمة للزراعة كانت الفيضانات وهى ظاهرة كثيرة التكرار خلال السنين الاخيرة من تاريخ الدولة العباسية تزيد فى الخراب بغمرها الحقول واتلافها المحاصيل والاشجار وليس من موضوعنا التفصيل فيما حدث ايام الدولة العباسية من المجاعات ولكننا سوف نشير الى اهمها فيما يلى ابتداء من القرن الرابع الهجرى (القرن العاشر الميلادى) لاعتقادنا انها صارت ميّزة مهمة من مميزات اقتصاد البلاد استمرت حتى وقت متأخر كما انها من الجهة الاخرى تلقى ضوءا قويا على طبيعة الظروف التى كانت تعيشها غالبية سكان بلاد الرافدين ٠

اشتد الغلاء سنة ٣٢٩هـ/٩٤٠م وأكل الناس النخـــالة والحشيش واستمر الغلاء في السنين التالية ٣٣٠هـ/٩٤١م و ٣٣١هـ/٩٤٢م و ٣٣٢هـ/٩٤٣م وأكل الناس الكلاب والجراد وعاد الغلاء سنة ٣٣٤هـ/٩٥٨م وظهر جراد اتلف الغلات الصيفية والثمار فى بغداد والكثير من الغلات الصيفية فى بلاد مصر وفى ٣٥٨هـ/٩٦٨م وقع الغلاء وقل الخبز وفى ٣٦٤هـ/٩٧٤م غلت أسعار الدقيق والسكر والتمر وفى ٣٧٣هـ/٩٨٣م زادت الاسعار زيـادة مفرطة وأحاقت بالناس مجاعة عظيمة ومات قوم من الضعفاء جوعا على الطريق وفي ٣٧٦هـ/٩٨٦م كثر المرض وأعقب ذلك غلاء وفي ٣٧٧هـ/٩٨٧م ارتفعت الاسعار وجلا الناس عن بغداد وفى ٣٩٣هـ/١٠٠٢م غلت الاسعار وعدمت الحنطة[٢٤] وفى ٥٥٢هـ/١١٥٧م وقع الخلاف بين الخليفة العباسى وسلطان السلاجقة واضطرب الامن وظهر مرض فى الكبار والصغار وغلت الاسعار وتعذر اللحم[٢٥] وفى ٥٧٤هـ/١١٧٨م انقطعت الامطار فى العراق والجزيرة واكل الناس الميتة ودام ذلك الى اخر السنة التالية وصحب ذلك وباء شديد[٢٦] وفي ٦٢٢هـ/١٢٢٥م وقع الغلاء في الجزيرة فأكل الناس

---

(٢٤) ابن الجوزي ، المنتظم ج٦ ص٣١٨ ، ٣٢٦ ، ٣٣١ ، ٣٣٥ ، ٣٣٤ ج٧ ص٧٦ ، ١٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ج٨ ص١٦٨–١٧٦ ٠

(٢٥) ن٠م٠ ص١٧٦ ٠

(٢٦) ابن الاثير ، الكامل ج١١ ص ١٨٤ ٠

الميتة والكلاب والسنانير وغلا الطعام من كل شيء كالشيرج والحنطة والدقيق والارز[٢٧] وفى ٦٤٠هـ/١٢٤٢م وقع وباء فى العراق فى اخر ايام المستنصر وغلا السكر الادوية[٢٨] وفي ٦٤٣هـ/١٢٤٥م اقترب التتر من بعقوبا فغلت اسعار الحنطة والشعير والارز والتمر والسكر والسمسم[٢٩] وفى ٦٤٤هـ/١٢٤٦م و ٦٤٥هـ/١٢٤٧م كانت الاسعار متصاعدة وفى ٦٥٤هـ/١٢٥٦م زادت مياه دجلة والفرات وحدث فيضان وارتفعت الاسعار خصوصا اسعار الحنطة[٣٠] وفى نفس السنة حدث غرق كبير فغلا الخبز وتعذر الدقيق[٣١] وقد كان العهد الايلخانى استمرارا لما كان يحدث فى العهد السابق فى هذا المجال مع تناقص فى الزرع حتى ان الاسعار كانت متوسطة فى الغالب لا تكاد ترخص وقد ذكر ابن فضل الله العمرى وهو معاصر في سؤال له لاحد المطّلعين (عن السبب في قلة الغلال في بلاد العراق مع امتداد سوادها فقال : قلة الزروع مع ما استهلكه القتل زمن هولاكو وجيزه للعراق وما جاوره من البلاد)[٣٢] . وفي ٦٧٥هـ/١٢٧٦م ارتفعت الاسعار ووقع غلاء ومجاعات وكان السلطان اباقا قد نزل بغداد ليشتي فيها[٣٣] وفى ٦٧٨هـ/١٢٧٩م ادى انقطاع المطر الى ارتفاع الاسعار وموت الماشية كما انتشر السعال وغلا الماش والعدس والحمص والسلق لمدة شهور[٣٤] وفى ٦٧٩هـ/١٢٨٠م و ٦٨٠هـ/١٢٨١م اشتد الغلاء ببغداد وتعذر الخبز في الاسواق[٣٥] وفى ٦٨٤هـ/١٢٨٥م ادى تلاعب الحكام بالنقود بابطال الدراهم وضرب دراهم جديدة الى ارتباك الاحوال الاقتصادية فغلت الاسعار

---

(٢٧) ن٠م٠ ج١٢ ص١٨٥ ؛ العسجد المسبوك ، الورقة ١٣٥ .
(٢٨) ابن كثير ، البداية والنهاية ج١٣ ص١٦١ .
(٢٩) الحوادث الجامعة ، ص٢٠٢ .
(٣٠) العسجد المسبوك ، الورقة ١٨٥ ، ١٨٦ .
(٣١) ن٠م٠ الورقة ١٨٧ .
(٣٢) مسالك الابصار ، كما جاء فى القلقشندى ، صبح الاعشى ج٤ ص٣٣٢ .
(٣٣) ابن العبرى، تاريخ الدول السريانى ، المصدر المار ذكره ص٥٠٠ .
(٣٤) الحوادث الجامعة ، ص٤٠٧ ـ ٤٠٨ .
(٣٥) ن٠م٠ ص٣٦٦ ـ ٤١٤ .

وارتفع سعر الحنطة والشعير ارتفاعا كبيرا ووصل من الموصل دقيق وخبز مرقق وباع بعض الفقراء اولادهم والقت امرأة نفسها فى دجلة واكل الناس ورق الجزر والسلجم والبصل واوراق القصب والبردى والحلفاء وغيرها من نبات الارض ولقي الناس شدة من الغلاء وكسر الدراهم[٣٦] واستمر الحال على هذا المنوال الى السنة التالية ٦٨٥هـ/١٢٨٦م مع كثرة الامراض والموت فى بغداد[٣٧] الى ان تحسنت الامور وفى ٦٨٨هـ/١٢٨٩م غلت الاسعار فى بغداد[٣٨] وفى ٧١٨هـ/١٣١٨م غلت الاسعار فى ديار بكر والموصل وسنجار واربيل وبغداد ووقعت مجاعة وكثر الوباء والموت وكان اشد ذلك فى الجزيرة ومنها الموصل واربيل واكل الناس الجيف وباعوا اطفالهم وصارت الجزرة التى تباع بفلس واحد تباع بدرهم وخلت اربيل ودثرت قرى وبيع الولد بخمسين درهما او اقل وكانت المرأة تصرخ بانها نصرانية ليشترى منها ولدها فتأمن عليه وتجد من يطعمه وتأكل هى بثمنه ولكن الغلاء كان اخف فى العراق فلم يأكلوا الميتة ولم يبيعوا اولادهم وكان من اسباب هذه المجاعة جفاف وجراد عظيم حل فى الجزيرة[٣٩] وفى ٧٢٥هـ/١٣٢٤م حصل غرق كبير فى بغداد فغلت فيها الاسعار ووقع النهب[٤٠] .

---

(٣٦) الحوادث الجامعة ص٤٤٦ ـ ٤٤٧ .
(٣٧) ن.م. ص٤٤٩ .
(٣٨) ن.م. ص٤٦١ .
(٣٩) الذهبى ، دول الاسلام ج٢ ص١٧١ .
ابن كثير ، البداية والنهاية ج١٤ ص٨٦ .
المقريزي ، السلوك ج٢ قسم ١ ص١٨٠ .
(٤٠) الذهبى ، دول الاسلام ج٢ ص١٧٧ .

الفصل العشرون
نظم ورسوم

(أ)

كان الخليفة فى أواخر سنى الدولة العباسية أميرا للمؤمنين ورئيسا للدولة ورمزا لمؤسسات البلاد الدينية وقمة فى الهرم الاجتماعى ومركزا للوحدة الوطنية والولاء الذى يضم عناصر البلاد المختلفة ضمن الرابطة العملية الوحيدة القائمة فى عهده وهى الدين • وقد ترك زواله فراغا روحيا وسياسيا لم تستطع الاجيال التالية سده • وكانت اولى واجباته كأمير للمؤمنين ورئيس للدولة حماية الاسلام من اعدائه فى الخارج والداخل والسهر على تطبيق شعائره الدينية كالصلاة والصوم والحج وصيانة مؤسساته كالمساجد والمدارس والربط • وكان اول رمضان مناسبة تتجدد كل سنة تعرض فيها التهانى له وتفتح دور الضيافة فى جانبى بغداد ليفرق فيها الخبز واللحم على الفقراء وتوزع الوظيفة الرمضانية من الدقيق والغنم والمال على المساجد والمدارس والربط والمشاهد وزوايا الفقراء[1] مما كان يعود بالخير على الكثير من الناس من الفقراء والمعدمين • وكان اليوم الاول من عيد الفطر وعيد الاضحى مناسبات مهمة تستعرض فيها قطع من الجيش العباسي فى عمود البلد حيث يخرج القواد فى تجمل كبير مع اعداد كبيرة من الجنود وهم يرتدون اجمل اللباس وبينهم المماليك الترك ومماليكهم • وقد بلغ عدد المستعرضين بمناسبة عيد الفطر لسنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م اكثر

---

(١) انظر العسجد المسبوك ـ الاوراق ١٦٦ ، ١٧١ ، ١٧٦ ، ١٨٦ •

من خمسة الاف صلوا صلاة العيد ظاهر البلد ثم عادوا الى الديوان وقد اجتمع فيه الوزير وكبار رجال الدولة[٢] .

وكانت رعاية الخليفة للمساجد والربط من الامور المألوفة ففى ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م فتح الرباط الذى امر الخليفة المستنصر بالله بانشاءه بدار الروم[٣] وفى ٦٤٠هـ/١٢٤٢م بمناسبة المبايعة للخليفة الجديد المستعصم بالله وزع الذهب والدراهم فى جامع المنصور وجامع السلطان وجامع فخر الدولة بن المطلب وجامع بهليقا . كما قام الخليفة الجديد بزيارة مراقد الصالحين والاولياء فى بغداد فلم يترك رباطا ولا مشهدا منسوبا اليهم الا وزاره وكذلك المدرسة المستنصرية[٤] وفى ٦٥٠هـ/١٢٥٢م فتح الرباط المسمى بالمستجد الذى امرت باقامته أم الخليفة المستعصم بالله وحضر الافتتاح الوزير وكافة ارباب الدولة وكان الخليفة على سطحه وقد خلع على كافة من تـــولى عمارته[٥] . وكانت زوجة الخليفة المستعصم بالله المسماة باب بشير معروفة بالبر والمعروف وقد انشأت المدرسة البشيرية ودارا للقرآن ورباطا للنساء اوقفت الوقوف عليها جميعا[٦] .

وكان الخليفة يقوم كل سنة بتعيين أمير للحج يجمع اليه الحجاج ويقودهم الى مكة ويحميهم من هجمات الاعراب وكان سفر الحجاج كل سنة من المناسبات الدينية والاجتماعية المثيرة بالنسبة لجمهور السكان[٧] .

وبحلول الحكم المغولى الايلخانى لم نعد نسمع عن تهانى تقدم لرئيس الدولة بمناسبة شهر رمضان ولا دور ضيافة تفتح للفقراء ولا وظائـف رمضانية توزع على الجوامع والربط ولا بالجيش يستعرض فى بغداد ايام

---

(٢) ن٠م٠ الاوراق ١٧١ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٨٥ .
(٣) الحوادث الجامعة ص٩٤ .
(٤) ن٠م٠ ص ١٧٠ .
(٥) ن٠م٠ ص٢٦١ .
(١) العسجد المسبوك ، الورقة ١٨٦ .
(٧) الحوادث الجامعة ص٢٥ ، ٥٣ ، ٦٠ ، ٨٨ ، ١٨٧ .

الاعياد ولكن الحكومة الجديدة احترمت الاسلام كدين لغالبية السكان واساس في تفكيرهم ونمط حياتهم واعاد حكام بغداد تعمير الجوامع والمدارس والربط وانفاق موارد الاوقاف المحبوسة عليها وعينوا نصيرالدين الطوسي صدرا لجميع اوقاف المسلمين في الامبراطورية الايلخانية فعين له نوابا في بغداد يقومون على خدمتها وتوجيهها لتحقيق الاغراض التي وقفت من اجلها[٨] . والحقيقة ان الحكم الجديد كان يشتمل على عدة مقومات لابد من اخذها بعين الاعتبار لتفهم طبيعة الامور انذاك فقد اصبح رئيس الدولة مغوليا وثنيا فتح البلاد وقتل خليفة المسلمين واتخذ بلادا اخرى قاعدة له ولذلك فان شعور الحب والولاء الذي يكنه السكان لرئيس دولتهم قد تلاشى وحل محله شعور بالخوف والرهبة وعدم الاطمئنان . ومن جهة أخرى كان الحكم الايلخاني غير مباشر أي ان السلطان المغولي فوض حكم البلاد للمسلمين على الاغلب ممن يثق باخلاصهم وولاءهم وخير مثال لذلك علاءالدين عطا ملك الجويني صاحب ديوان العراق الذي بلغ حكمه مدة اثنين وعشرين سنة وبضعة اشهر أيام هولاكو واباقا وأحمد . وكان هؤلاء الحكام المسلمين يعرفون أحوال البلاد ويحترمون مؤسساتها وأكثرهم يدين بدينها ولذلك فانهم وفروا الاستمرارية اللازمة وتعهدوا عادات البلاد وتقاليدهم ومؤسساتها الدينية يضاف الى هذا ان المغول خالطوا المسلمين خصوصاً في ايران وزوجوهم وتزوجوا وأخذوا مع الايام يذوبون في ثقافتهم ويجرون على عوائدهم حتى جاء غازان وجعل الاسلام دين الدولة الرسمي[٩] .

امر صاحب الديوان علاء الدين عطا ملك سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م بانشاء رباط في مشهد علي حبس عليه وقوفا وادرارات كثيرة[١٠] كما انه أمر في نفس السنة بقتل الخشكري الشاعر لانه قال امورا تنافي الشرع

---

(٨) ن.م. ص ٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٣٧١ ، ٤٥٦ .
(٩) انظر في ذلك ابن فضل الله العمري ، مسالك الابصار ، كما جاء في صبح الاعشى ، ج٤ ، ص٤٢٦ .
(١٠) الحوادث الجامعة ، ص٣٥٨ .

وفضل شعره على القرآن[11] وفي ٦٧٤هـ/١٢٧٥م أمر بحصب رجل وامرأة وجدا في حمام على فاحشة في شهر رمضان فحصبا ظاهر سور بغداد[12]. وفي ٦٨٠هـ/١٢٨١م انشأ ناصرالدين قتلغ شاه الصاحبي أحد حكام بغداد رباطا في مشهد سلمان الفارسي اوقف عليه قرى ومواضع واسكن به جماعة[13] وفي ٦٩٦هـ/١٢٩٦م زار السلطان غازان العراق وقصد مشهد علي - ع - وزار الضريح الشريف وأمر للعلويين المقيمين هناك بشيء كثير من المال وزار مشهد الحسين - ع - وفعل مثل ذلك وزار مشهد سلمان الفارسي وأمر للفقراء المقيمين هناك بمال كثير[14]. وفي ٦٩٨هـ/١٢٩٨م أعاد غازان زيارة العراق وقصد المشاهد الشريفة فيه وأمر للعلويين المقيمين فيها بمال كثير[15]. وقد عاد الحجاج العراقيون الى السفر الى مكة بصورة متقطعة فقد سافروا اليها في ٦٦٥هـ/١٢٦٦م و ٦٦٩هـ/١٢٧٠م و ٦٧٨هـ/١٢٧٩م و ٦٨٦هـ/١٢٨٧م و ٦٨٧هـ/١٢٨٨م و ٦٨٨هـ/١٢٨٩م و ٦٨٩هـ/١٢٩٠م[16] ووصف موقف الحجاج في عرفات سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م بأنه كان عظيما لم يعهد مثله وكان مع العراقيين منهم محامل كثيرة قوم ما كان على أحدها من الذهب والفضة بمبلغ ألف دينار[17].

(ب)

ان المساجد والمدارس والربط مؤسسات دينية وثقافية واجتماعية كان لها تأثير عظيم في تشكيل شخصية العراقي المسلم توجيهها فهي دور

---

(١١) ن.م. ص٣٥٩.
(١٢) ن.م. ص٣٨٦.
(١٣) ن.م. ص٤١٧.
(١٤) ن.م. ص٤٩٣.
(١٥) ن.م. ص٤٩٧.
(١٦) ن.م. ص٣٦١ - ٤٦٢.
(١٧) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص٩٧-٩٨؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١، ص٥٠١.

عبادة تقام فيها الصلاة وتمارس فيها الشعائر الدينية وهي مؤسسات تعليمية يتلقى فيها الناس علوم العصر وهى مراكز لالتقاء مختلف فئات المسلمين وطبقاتهم من أشدهم فقرا الى اعظمهم ثروة ومكانة تقوم بدور يشبه ما تقوم به النوادى والصالونات والمقاهي فى اشباع دافع حب الاجتماع عند الناس والترفيه النفسي عنهم وتعريف بعضهم بمشاكل بعض وتكوين رأي عام في القضايا الدينية والسياسية وغيرها والتقليل من الفروق الطبقية بين السكان كما انها كانت ملاجىء ودور عجزة ومقابر يأوى اليها الفقراء والمعوزون والمتعطلون والجائعون والمرضى واليتامى وغيرهم فيصيبون فيها المأوى والطعام والكساء ويدفن فيها بعضهم عند وفاته يضاف الى ذلك انها كانت في كثير من الاحيان دور ضيافة وفنادق يلجأ اليها الكثير من المسافرين خصوصا من طلاب العلم والفقهاء والفقراء • ولذلك من الخطأ تقديرها بما تقوم به الآن من الخدمات المحدودة لان اكثر واجباتها امتصتها مؤسسات جديدة نشأت في العصور التالية • وان جسامة الدور الذى كانت تلعبه هذه المؤسسات يفسر لنا مشكلة العناية التي كانت تتلقاها من الحكام واصحاب الثراء والمتزهدين حيث كانت الأوقاف تخصص لتأسيسها وصيانتها والقيام بأود من يعيش فيها ويلجأ اليها تلك الاوقاف التي يبدو انها كانت ضخمة وواسعة بالنظر لكثرة عدد هذه المؤسسات وانتشارها فى كل مدينة وقرية وشدة تأثيرها على النفوس حتى ليجدر بنا ان نقارن ما كان يصرف عليها بما تنفقه حكومات عصرنا على المدارس من دور الحضانة الى الجامعات وعلى دور السياحة والخدمات الصحية والاجتماعية • ولكن الكثير من قطان هذه المؤسسات والمشرفين عليها لم يكونوا يقومون بواجباتهم ولا بخدمات مفيدة لمجتمعهم بل كانوا عبئا عليها وسببا من أسباب ضياع كثير من الجهود الاقتصادية والاجتماعية خصوصا وان الاوقاف لم تكن تدار بصورة تتضمن الكفاءة والمقدرة •

كان المسجد ويسمى الجامع ايضا اهم هذه المؤسسات واكثرها عدد لا تخلو منه مدينة او قرية • وقد كان في بغداد ايام ابن جبير ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م من المساجد التي تقام فيها صلاة الجمعة أحد عشر مسجدا جامعا

عدا المساجد التي كانت تغص بها محلات بغداد الشرقية والغربية[١٩] . والمسجد كثيرا ما كان يضم بالاضافة للامام صبيانا يدرسون القرآن وقارئا للحديث النبوي وخزانة للكتب وفرشا وقناديل[٢٠] . وكان محمد بن محمد بن هبة الله الواعظ (ت ٥٧٣هـ/١١٧٧م) يلزم في آخر حياته مسجدا فى الجانب الشرقي من بغداد يجلس فيه للوعظ والحديث والرواية[٢١] وكان لعمر بن ابي المعالي الزاهد (ت ٥٩٣هـ/١١٩٦م) حلقة بجامع القصر يجتمع فيها الناس حوله[٢٢] ولمحمد بن معالي ابن شدقيني (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م) موضع خاص فى جامع المنصور يجلس فيه كل جمعة يأتي اليه الناس فيفسر لهم رؤياهم[٢٣] وكان اسماعيل بن علي بن الحسين (ت ٦١٠هـ/١٥١٣م) يدرس فى مسجد فى محلة المأمونية فى الجانب الشرقي وله حلقة للمناظرة بجامع القصر الشريف[٢٤] . وكان المسجد بالاضافة الى ذلك مأوى للفقراء والمتزهدين والمنقطعين والمسافرين وكانت خطب الجمعة مدرسة لصقل النفوس وتهذيبها وتعليم الناس اللغة والاخبار والدين وقد اورد ابن جبير صورة حية لذلك في زيارته لبغداد[٢٥] وفي العهد الايلخاني استمر المسجد على تأدية وظائفه القديمة وكان صاحب ديوان بغداد علاء الدين عطا ملك الجويني يركب الى صلاة الجمعة ومجد الدين ابو الخير عبدالصمد بن احمد القطفتي البغدادي يخطب فى جامع الخليفة وقد صنف خطبا بليغة سماها (صنوف الضيوف فى الخطب المرتبة على الحروف) وعندما توفى سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م صلى عليه بجامع بهليقا وجامع المنصور واقيمت تعزيته

---

(١٩) رحلة ابن جبير ، ص٢١١ .
(٢٠) خير مثال لذلك ما ورد فى صفحات الكتاب المسمى الذيل على تاريخ بغداد لابن الدبيثي ، ج١ و ج٢ .
(٢١) ابن الدبيثي ، ج١٥ ، الورقة ١٢١ .
(٢٢) ابن النجار ، ذيل تاريخ بغداد (مصورة) الورقة ١٢٣ .
(٢٣) ابن الدبيثي ، ج١ ، الورقة ١٤٣ .
(٢٤) ن٠م٠ ج٢ ، الورقة ١٠٥ .
(٢٥) رحلة ابن جبير ص٢١١ .

في المدرسة المستنصرية[٢٦] . وقد سكن عزالدين أبو الفضل يونس بن يحيى الخالدي (ت ٦٩٣هـ/١٢٩٣م) بغداد واستوطن المسجد المجاور لدار القرآن بالمستنصرية[٢٧] وعَمّر عمادالدين فتح بن عبدالله المستعصمي (ت ٧١٠هـ/١٣١٠م) مسجدا الى جانب داره وجعل فيه المؤذن والامام واوقف عليه الوظائف والمشاهرات وجعل فيه العدل جمالالدين الآنسي يقرأ الاحاديث النبوية[٢٨] وفي ٧٢٧هـ/١٣٢٦م زار ابن بطوطة مدينة بغداد وسمع مسند عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي على يد الامام سراجالدين عمر بن علي القزويني جامع الخليفة[٢٩] .

والمدرسة مؤسسة لم تكن تختلف كثيرا عن المسجد من حيث الوظائف التي تقوم على خدمتها سوى ان اهم غاية انشأت من اجلها هي تدريس القرآن والحديث والعلوم المرتبطة بهما والمتفرعة عنها وقد وجد ابن جبير في بغداد سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م ثلاثين مدرسة كلها في الجانب الشرقي لها عقارات عظيمة واوقاف محبسة تصرف على المدرسين والطلبة[٣٠] وقد كان عدد المدارس كبيرا في اواخر العهد العباسي وهي تتراوح بين مؤسسات لا تعدو ان تكون مسجدا صغيرا ومدرسة تكاد تكون جامعة صغيرة كالمستنصرية . وعندما توفي الحسن بن عبدالله الرومي سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢ وكان يسكن الجانب الغربي من بغداد ، نقل الى الجانب الشرقي وصلى عليه بمدرسة الشيخ ابي نجيب السهروردي ودفن في مقبرة الخيزران[٣١] وعندما توفي علي بن محمود النجار سنة ٦١١هـ/١٢١٤م صلي عليه بالمدرسة التاجية ودفن بمقبرة باب ابرز[٣٢] وفي العهد الايلخاني توفي فخرالدين المعروف بابن

---

(٢٦) تلخيص مجمع الآداب ج٥ (نشر محمد بن عبدالقدوس) ص١٦٣ ؛ الحوادث الجامعة ، ص٣٦٦ .
(٢٧) تلخيص مجمع الآداب ج٤ قسم ١ص ٣٩٣ .
(٢٨) ن٠م٠ ج٤ قسم٢ ص٨٠٥ـ٨٠٦ .
(٢٩) تحفة النظار ج١ ص٢١٥ .
(٣٠) رحلة ابن جبير ، ص٢١٥ .
(٣١) ابن الدبيثي ، ج٢ ، الورقة ١٧٨ .

قاضي دقوقا سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م ودفن بدار القرآن التي انشأها مقابل مدرسته التي اقامها في باب الازج في بغداد الشرقية [٣٣] وكان فخر الاسلام محمد بن محمد البخاري يدرس في المدرسة المغيثية سنة ٦٧٧هـ/١٢٧٨م [٣٤] وكان عمادالدين علي بن فخرالدين الواسطي الفقيه أحد الفقهاء الذين اثبتوا في المدرسة التي انشأها رشيد الدين فضل الله في بغداد سنة ٧١٣هـ/ ١٣١٣م [٣٥] وكان محب‌الدين ابو العباس أحمد بن يوسف العلوي ت ٧٢١هـ/١٣٢٣م شيخا لدار القرآن المعروفة بالبشيرية الواقعة في الجانب الغربي من بغداد [٣٦] وعندما زار ابن بطوطة مدينة النجف سنة ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م قال ان بازاء الحضرة مدرسة عظيمة يسكنها الطلبة والصوفية من الشيعة [٣٧] وفي زيارته لمدينة واسط قال ان فيها مدرسة عظيمة فيها نحو ثلاثمائة خلوة ينزلها الغرباء القادمون لتعلم القرآن تجري فيها لكل متعلم نفقته في كل يوم وتعطى له كسوة في السنة [٣٨] وفي زيارته لبغداد في نفس السنة أكد كثرة المدارس فيها الا انه قال انها خربت ولكنه تكلم عن النظامية بما يفيد جودتها واشاد بالمستنصرية وقال ان فيها المدرسين وحماما للطلبة ودارا للوضوء [٣٩] . أما المستوفي القزويني وهو معاصر لابن بطوطة فقد اشار الى كثرة مدارس بغداد والى ان اهمها النظامية وقال ان المستنصرية اجمل بناية في بغداد [٤٠] .

الربط والزوايا : الرباط منشأة صوفية واسعة الانتشار في هذا العصر يلجأ اليها المتزهدون من الصوفية والفقراء ويقوم في كثير من الاحيان بنفس

---

(٣٢) ابن النجار ، ذيل تاريخ بغداد ، الورقة ٣٦-٣٧ .
(٣٣) ابن الفوطى ، تلخيص مجمع الآداب ، ج٤ قسم ٣ ، ص٣٣٣ .
(٣٤) ن.م. ص٣٦٨ .
(٣٥) ن.م. ج٤ قسم٢ ص٧٧٩-٧٨٠ .
(٣٦) ابن الفوطي ، ج٥ ، ص٣١٥ .
(٣٧) تحفة النظار ، ج١ ، ص١٠٩ .
(٣٨) ن.م. ج١ ، ص١٣٩ .
(٣٩) ن.م. ج١ ، ص١٤١-١٤٢ .
(٤٠) نزهة القلوب ، ص٤٥ .

وظائف المسجد والمدرسة التعبدية والتعليمية كما يتخذ فندقا للمسافرين من الطلبة والمتزهدين وهو بسبب انتشار روح التصوف أخذ يجتذب مختلف الطبقات خصوصا العامة ويتخذ مركزا للاجتماع وقضاء الوقت ومقبرة لاصحابه ومريديه وقد كان يعيش على الاوقاف التى يحبسها عليه مؤسسوه واصحابه او الغلات التى يزرعها قاطنوه بايديهم • والزاوية مسجد صغير او مصلى يلجأ اليه احد الزهاد فيلتف حوله صوفية وفقراء ولذلك فهى ليست فى حقيقتها الانوع من انواع الربط •

واخبار هاتين المنشأتين غزيرة ابتداء من القرن السادس الهجرى • فمحمد بن عبدالله بن محمد طبيب مصري استوطن بغداد وصاهر ابا القاسم عبدالرحمن الصوفي وسكن عنده برباط الزوزنى ولما توفى سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م دفن بمقبرة الرباط المذكور[٤١] • والحسن بن عسكر الصوفي المتوفي سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م من اهل واسط من قرية شافيا كان ابوه شيخها له بها رباط للفقراء[٤٢] والحسن بن عبدالله الرومي (ت ٥٩٩هـ/١٢٠٢م) أحد الزهاد المنقطعين أصحاب الزوايا قدم بغداد وسكن بمسجد على دجلة ثم انتقل الى رباط والده الناصر لدين‌الله بالمأمونية[٤٣] ومحمد بن علوان الصوفي (ت٦٠٣هـ/١٢٠٦م) من اهل تكريت قدم بغداد واقام مدة برباط الزوزني وسمع به الحديث من جماعة[٤٤] • وفخرالدين عمر بن اسحق الدورقي وزير الشرابى انشأ رباطا فى واسط ورتب فيه مقرئا واماما واجرى عليهم الجريات اليومية والشهرية وتوفى سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م[٤٥] •

وفي العهد الايلخاني ظلت الربط والزوايا تقوم بوظائفها القديمة نفسها• فقد توفى الشيخ الزاهد محمد بن السكران سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م ودفن فى

---

(٤١) ابن الدبيثي ، ج١ ، الورقة ٥٦ •
(٤٢) ن٠م٠ ج٢ ، الورقة ١٦٩ •
(٤٣) ن٠م٠ ج٢ ، الورقة ١٦٥ •
(٤٤) ن٠م٠ ج١ ص١٠٧ •
(٤٥) تلخيص مجمع الآداب ، ج٤ قسم٣ ، ص٢٦٨ •

رباطه في ناحية المباركيّة في الجانب الشرقي من بغداد وجاء في سيرته انه سكن تلك الناحية فى اول امره يزرع بيده وينفق من ذلك على الواردين عليه ثم انه انشأ مأوى للفقراء واقام رباطا هناك اوقفه على الفقراء وزرع الى جانبه بستانا فيه نخيل وشجر وانضم اليه فى ذلك اخرون يزرعون بايديهم ويقيمون بأود من يجتازون بهم ثم انه ترك العمل اخيرا لاصحابه وانقطع للعبادة[٤٦] وقد وردنا في أخبار محيي‌الدين ابي الفضل محمد بن ابي الفوارس (ت ٦٧٤هـ/١٢٧٥م) انه عين بعد واقعة بغداد شيخا برباط سوسيان[٤٧] وجاء ان الصاحب جمال‌الدين علي بن محمد رتب فخرالدين يوسف بن شمس‌الدين القلمي شيخا بزاويته التى استحدثها بمحلـــة الدينارية سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م[٤٨] وعندما زار ابن بطوطة مدينة النجف سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م ذكر ان بازاء القبر الشريف المدارس والزوايا والخوانق وعندما زار قرية ام عبيد قرب واسط وجد فيها رواقا فيه الاف الفقراء وعندما زار البصرة نزل برباط مالك ابن دينار[٤٩] .

(ج)

يصعب على الباحث جدا التوصل الى قواعد عامة تحدد ما كان يسيطر على حياة الانسان اليومية في هذه الفترة من النوازع والضوابط لسعة تلك الحياة وتعقدها وقلة ما وصلنا عنها من اخبار ولان اكثر معلوماتنا جاءت فيما كتبه مؤرخون غلب التفكير الديني على ثقافتهم واشتدت عنايتهم بتدوين الاخبار الدينية ولكننا مع ذلك نستطيع ان نميز الخاصتين الآتيتين فى سلوك اهل ذلك العصر .

اولا : ان حياة غالبية الناس كانت نزاعا بين متطلبات الحياة اليومية التى

---

(٤٦) الحوادث الجامعة ص٣٦٤ .
(٤٧) تلخيص مجمع الآداب ج٥ ص٤١٤ .
(٤٨) ن٠م٠ ج٤ قسم٣ ص٤٥٠ .
ص ٤٥٠ .
(٤٩) تحفة النظار ج١ ص١٠٩ ، ١١٤ ، ١١٥ .

لا تخضع لرقابة الدين او الضمير من جهة والتفكير بالعالم الثانى ويوم الحساب وما يحمله الانسان من الاثام والذنوب من الجهة الاخرى . فاخبار العصر تحمل الكثير من حروب تكاد تكون مستمرة بين ولاة المسلمين وامرائهم تستهدف التوسع وتحقيق المغانم وعن ثورات الاعراب وقطعهم طريق الحجاج وغزواتهم للمدن والقرى وعن تزايد عدد اللصوص ونشاطهم وحرب المحلات وما كان يجرى فيها من سفك للدماء ونهب للاموال وعن أموال ضخمة تنفق على حفلات الختان والزواج[٥٠] ومن الجهة الاخرى تطالعنا مؤلفات وضعها امثال ابن الدبيثي وابن النجار وابن الساعي وغيرهم عن كثرة المساجد والمدارس والربط والزوايا وعناية الحكام بانشائها والانفاق عليها وشدة اقبال الناس عليها حتى ان المسجد يكاد يكون فى اكثر الاحيان قلب المدينة او المحلة او القرية والمحور الذى تدور حياة السكان حوله وقد مر بنا ان الترابط شديد بينه وبين السوق ويبدو ان الانسان مهما بعد به الغرور واندفع فى تيار الخطأ والفجور كان يقف ليتدبر الاخرة ويسرع الى طلب المغفرة وتسيل دموعه عند سماعه واعظا يذكره بالحساب والعقاب فتجده فى صراع نفسي ومد وجزر من العواطف والانفعالات ولعل خير صورة لذلك ما جاء فى سياحة ابن جبير عن اهل بغداد فى اسواقهم وجوامعهم فقد قال (واما اهلها فلا تكاد تلقى منهم الا من يتصنع بالتواضع رياء ويذهب بنفسه عجبا وكبرياء ...) الى ان يقول (يتبايعون بينهم بالذهب قرضا وما منهم من يحسن لله قرضا ، فلا نفقة فيها الا من دينار تقرضه ، وعلى يدى مخسر للميزان تعرضه ، لا تكاد تظفر من خواص اهلها بالورع الضعيف ولا تقع من أهل موازينها ومكاييلها الا على من ثبت له الويل فى سورة التطفيف) ومن الجهة الاخرى تعرض لجوامع المدينة واستمع الى مواعظ أئمتها ووصف أثرها في النفوس فقال عن الشيخ رضي الدين القزوينى رئيس الشافعية (فكان مجلسه مجلس علم ووعظ ... ظهرت فيه البركة والسكينة ولم تقصر عن ارسال عبرتها فيه

---

(٥٠) انظر الفصل التالى .

النفس المستكينة ولا سيما آخر مجلسه فقد سرت حميا وغطه الى النفوس حتى اطارتها خشوعا وفجرتها دموعا وبادر التائبون اليه سقوطا على يده ووقوعها ، فكم ناصية جز وكم مفصل من مفاصل التائبين طبق بالموعظة وحز ..) ووصف مجلس ابن الجوزي وقال عن تأثيره في نفوس الحاضرين (الى ان علا الضجيج وتردد بشهقاته النشيج واعلن التائبون بالصياح وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح ، كل يلقي ناصيته بيده فيجزّها ويمسح على رأسه داعيا له ومنهم من يغشى عليه فيرفع فى الاذرع اليه ، فشاهدنا هولا يملأ النفوس انابة وندامة ويذكرها هول يوم القيامة ..) ووصف مجلسا آخر له وعقب على ذلك ببيان اثره على الجالسين فقال (فأرسلت وابلها العيون وابدت النفوس سر شوقها المكنون وتطارح الناس عليه بذنوبهم معترفين ... وطارت الالباب والعقول وكثر الوله والذهول)[٥١]. ثانيا : اتساع حركة التصوف وتزايد الرغبة فى التزهد والاستسلام للقدر والميل الى النواحى العاطفية من الدين والايمان بالاولياء ونسبة الكرامات والاعمال الخارقة اليهم وانتشار الخرافة بين العامة كشكل من اشكال التدين السطحى.

فمن امثلة انتشار التصوف والميل الى التزهد والانصراف عن الدنيا ان الحسن بن هبة الله بن محمد بن علي الملقب بفخر الدولة بن الوزير ابي المعالي ابى سعد (ت ٥٧٨هـ/١١٨٢م) وهو من بيت مشهور بالرياسة احب الصوفية وتشبه بهم فى ملبسه واخلاقه وحج كثيرا وبنى مدرسة للفقهاء الشافعية شرقي بغداد ورباطا للصوفية قربها ومسجدا متصلا بذلك وجامعا يصلي فيه الجمعة ورباطا للنساء ووقف لها من املاكه ما يكفي لعمارتها والقيام بمؤنة من يقيم بها[٥٢] وعمر بن مسعود البزاز (ت ٦٠٨هـ/١٢١١م) كان له دكان يبيع فيه البز ثم انه ترك ذلك وانقطع الى زاوية له الى جانب مسجد بالجانب الغربي وانضاف اليه جماعة من الاصحاب والاتباع فاشتهر اسمه وقصده الناس للزيارة والتبرك وكثر حوله الفقراء فصار الناس يقصدونه بالنذور والصدقات والهبات وتاب عليه كثير من مماليك الخليفة الترك

---

(٥١) رحلة ابن جبير ص٢٠٤-٢١١ .
(٥٢) ابن الدبيثي ج٢ ، الورقة ١٧٨-١٧٩ .

الخواص ولبسوا منه الخرقة[٥٣] وفلك الدين ابو نصر محمد بن سيف الدين ايدمر المستعصي الامير الكاتب ، من ابناء الامراء والاعيان رتّب بعد وفاة هولاكو خازنا في الديوان ثم ترك العمل وحلق رأسه وتزهد وتوفي سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م[٥٤] .

وقد ادت المبالغة فى نسبة الكرامات الى المتصوفة والزاهدين الى نتائج خطيرة لعل أهم مثل لها نشوء الطائفة العدوية نتيجة لتقديس الشيخ عدي ابن مسافر بن اسماعيل الاموي (ت ٥٥٥هـ = ١١٦٠م) وكان عبدا صالحا انقطع الى جبل الهكارية من اعمال الموصل واقام له هناك زاوية ومال اليه اهل تلك البلاد وبالغوا في اعتقادهم فيه حتى جعلوه قبلتهم التي يصلون فيها وذخيرتهم في الآخرة وعندما توفي دفن في زاويته وصار قبره من المزارات المعدودة والمشاهد المقصودة[٥٥] . وقد أشار اليه ابن العبري فى معرض حديثه عن حوادث سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م فقال ان اكراد الموصل يعتبرونه بمثابة نبي[٥٦] . ولعل هذا الاعتقاد قد اشتد في العصور التالية وصار النواة التي تكون حولها دين اليزيدية .

ويبدو ان التديّن السطحي صار أكثر امتزاجا بالخرافة بين عوام العهد الايلخاني ففي ٦٧١هـ/١٢٧٢م رأى احد سكان بغداد ان ولدا من اولاد الحسن – ع – مدفونا في موضع معين من بغداد وشاع الخبر بين الناس فنبش الموضع ووجد فيه قبر وتبرع احد الموسرين بمال فعمر الموضع وحضر كثير من الناس لزيارته ونذرت له النذور[٥٧] . وفى ٦٧٧هـ/١٢٧٨م فى الليلة التاسعة من شهر رمضان رأى الناس نورا متصلا بالسماء وفي صبيحة اليوم التالي ادعى احدهم انه رأى قبرا فيه احد اولاد الحسن بن علي (ع) بمحلة الهروية فاسرع الناس لزيارته وتواترت اخبار العوام بعد ذلك برؤية المنامات وقيام المرضى وفتح أعين العميان وما شابه

---

(٥٣) ابن النجار ، الورقة ١٢٢ .
(٥٤) تلخيص مجمع الآداب ج٤ قسم٣ ص٥١٢–٥١٤ .
(٥٥) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ج٢ ص٤١٧–٤١٨ .
(٥٦) التاريخ السرياني ، المصدر المار ذكره ، ص٢٥٧ .
(٥٧) الحوادث الجامعة ، ص٣٧٣ .

ذلك وبطلت معايش الناس واشغالهم فأمر صاحب الديوان بنقل كل من وجد له قبر يشبه ذلك الى مشهد موسى الكاظم وبذلك سكن العوام[٥٨] .
وعندما مر السائح ابن بطوطة بمدينة النجف سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م ذكر ان في ليلة السابع والعشرين من رجب يؤتى بالمقعدين من العراقيين وفارس والروم الى الضريح فاذا مضى من الليل نصفه او ثلثاه أو نحو ذلك قام الجميع أصحاء من غير سوء وان هذه الكرامة صحت عند أهل المدينة[٥٩]
وعند زيارة السائح المذكور لقبر الولي ابي العباس أحمد الرفاعي في قرية أم عبيد قرب واسط حل هناك في رباط يضم آلاف الفقراء وبعد صلاة العصر ضربت الطبول والدفوف وأخذ الفقراء في الرقص وبعد تناول الطعام وصلاة العشاء أخذوا بالذكر واعدوا أحمالا من الحطب اشعلوها وأخذوا يدخلون في وسطها يرقصون ومنهم من يتمرغ فيها ومنهم من يأكلها بفمه حتى أطفاؤها . وقد قال ان الطائفة الاحمدية مخصوصون بذلك حتى ان منهم من يأخذ الحية العظيمة ويقطع رأسها بأسنانه[٦٠] .

(٥)

ان نوعية العقوبات الشائعة في عصر من العصور وأساليب تنفيذها وخصوصا عقوبة الموت تلقي ضوء مفيدا على طبيعة المجتمع فالشدة في غير محلها قد تخفي وراءها عدم ثقة الحكام برعيتهم وقلة احترامهم للقيم الدينية والانسانية وعدم تقدير المحكومين لادارة حكامهم وشكهم في احقيتهم في الحكم وقد تدل على بدائيّة في التفكير وعنف في العاطفة وضعف في الوازع النفسي الداخلي . ومع ان الشريعة الاسلامية كانت هي القانون السائد أيام العباسيين والايلخانيين وهي تجيز عقوبة الموت لمن يستحقها فان تنفيذ هذه العقوبة كان يصحبه في كثير من الاحيان قسوة

---

(٥٨) ن٠م٠ ص٤٠٤ـ٤٠٥ .
(٥٩) تحفة النظار ج١ ص١١٠ .
(٦٠) ن٠م٠ ج١ ص١١٤ .

شديدة وتمثيل وتشهير لا ترتضيه القيم الاسلامية . وقد كان العوام وخصوصا في بغداد يتدخلون في تنفيذها ويتلذذون بسفك الدماء والتمثيل بالمحكوم عليهم .

كان بين العقوبات الشائعة القتل صلبا وتوسيطا وتقطيع الايدي والارجل والطواف بالمجرم والتشهير به . ففي ٦٠٢هـ/١٢٠٥م قتل رجل يسمى ابن الدباغ أمه بضرب رأسها بالارض حتى الموت فقبض عليه وسلم الى الشحنة فأمر أن يصنع به ما صنع بأمه فضربت رأسه بالارض وهو يستغيث حتى مات[٦١] وفي نفس السنة نسب الى ابي الغنائم نصر بن ساوا النصراني الناظر في أعمال دجيل ودقوقا انه قتل الامير علاءالدين تامش الناصري بالسم فقبض عليه وصلب بعد ان قطعت يداه ورجلاه وعلق مقابل دار الأمير المذكور ثم طيف به المحال مسحوبا وأحرق[٦٢]. وفي ٦٠٤هـ/١٢٠٧م قتل شخص يسمى ابن حسان قتله رجلان احدهما يسمى براها والآخر يسمى عليك حيث ضربوه عدة ضربات بالسكين فهرب هذا ودخل دارا وصعد الى سطحها ولكن جماعة من العوام تسوروا عليه والقوه على رأسه من السطح وشدوا في رجله حبلا وسحبوه وهو حي ثم القوه في دجلة ثمّ اخرجوه واحرقوه وقد قبض على براها وعليك وقتلا توسيطا[٦٣] . وفي ٦٣٧هـ/١٢٣٩م نقب قوم حبس الوزير وخرجوا ولكنهم عرفوا وقبض عليهم فصدر الامر بقطع ايديهم وارجلهم من خلاف[٦٤] وفي ٦٥٣هـ/١٢٥٥م نبشت امرأة في مقبرة معروف الكرخي وعرف النباش فكبس عليه ووجدت عنده عدة أكفان فعوقب بقطع يديه وتعليقهما في حلقة واشهاره في بغداد[٦٥] .

وفي العهد الايلخاني كانت العقوبات تشبه ما مر ذكره ولكن تنفيذها

---

(٦١) ابن الساعى ، الجامع المختصر ج٩ ص١٦٦ .
(٦٢) ن.م. ص٢١٩ .
(٦٣) ن.م. ص٢٢٦-٢٢٨ .
(٦٤) الحوادث الجامعة ص١٢٦-١٢٧ .
(٦٥) ن.م. ص٣٠٦-٣٠٧ .

ازداد خشونة ووحشية واشتدت مشاركة العوام في تنفيذها والتفرج عليها وكانت ابشع القتول تعود لاسباب سياسية نتيجة للمؤامرات التي كانت يحيكها الحكام بعضهم للبعض الآخر ومن أمثلة العقوبات ان امرأة احبت في ٦٦٦هـ/١٢٦٧م أحد أصحاب شحنة بغداد وكان غلاما امرداً مليحاً فذاع الأمر وأمر الشحنة بقتلها فأخرج الغلام الى سور بغداد وضرب له وتد في الارض وأقعد عليه فمات ثم قتلت المرأة[٦٦] وفي ٦٧٧هـ/١٢٧٨م زعم جماعة من المقربين الى الشحنة بأن صاحب الديوان علاءالدين عطا ملك وطائفة من أهل بغداد يكاتبون سلاطين الشام ولما فحص الأمر ثبت كذبهم وقبض عليهم الصاحب علاءالدين وعاقبهم معاقبة شديدة فمن ذلك ان احدهم صنعت له حجلة سمر عليها ووضع له مسخرة يصفعه بنعل ويروحه به ويبول عليه والناس يجرون الحجلة بالحبال في الاسواق والدروب في جانبي بغداد حتى آخر النهار حيث قطع رأسه ووضع على خشبة وطيف به[٦٧] وفي ٦٧٩هـ/١٢٨٠م اتفقت امرأة مع أحد الرجال على قتل زوجها فقبض عليها وغرقت وسمّر قاتل زوجها[٦٨] . وفي نفس هذه السنة اتفق مملوك مع صديق له على قتل سيده فسمر المملوك وصلب رفيقه ثم حط المملوك بعد ثلاثة أيام وعولج في المارستان فسلم[٦٩] . وعندما غضب علاءالدين عطا ملك على مجدالدين بن الهذيل الواسطي (ت ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م) قبض عليه وثقب انفه وجعل فيه خيطا وأمر به فطيف به في الاسواق[٧٠] . وفي ٦٨١هـ/١٢٨٢م سلم السلطان أحمد بن هولاكو مجد الملك اليزدي مشرف ديوان المماليك سابقا الى عدوه علاءالدين عطا ملك صاحب ديوان العراق فعاقبه معاقبة شنيعة تولى ذلك ابن اخيه شرف الدين هرون الجويني فقطعت اطرافه ووزعت على البلاد وسلخ رأسه وارسل الى

---

(٦٦) ن٠م٠ ص٣٦١ .
(٦٧) ن٠م٠ ص٤٠١-٤٠٢ .
(٦٨) ن٠م٠ ص٤١٣ .
(٦٩) ن٠م٠
(٧٠) تلخيص مجمع الآداب ج٥ ص١٣٨-١٣٩ .

بغداد وشوى الخربندية لحمه وأكلوا منه وشربوا الخمر في قطعة من رأسه[٧١] .

شرب الخمر :

لم يكن شرب الخمر أمرا غريبا في القرن الاخير للدولة العباسية وان كنا لا نستطيع تقدير مدى انتشاره بين المسلمين . ففي ٥٧٧هـ/١١٨١م تصلنا الاخبار عن كثرة المنكرات ببغداد حتى ان صاحب باب النوبي أقام جماعة لاراقة الخمور وأخذ المفسدات[٧٢] وقد كان بين أفراد الجيش العباسي من يشرب الخمر فالامير داود بن محمد بن بكر الكردي كان من جملة الزعماء وأرباب المعاشات السنية ولكن مواظبته على الخمر أدت الى مرضه وموته في ٦٤١هـ/١٢٤٣م[٧٣] وقد عزل عمادالدين محمد بن ابي فراس الحلي شحنة الكوفة المتوفى سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م بسبب معاقرته الخمر واهماله الامور[٧٤] . ويبدو ان شرب الخمر قد ازداد في العراق أيام الايلخانيين لغلبة المغول على البلاد ووجود امراء وجنود لهم يتعاطون شربها . وكانت هناك حانات الخمر ومحلات للخواطىء في بغداد حيث تردنا في أخبار سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م ان السلطان ابا سعيد أراق الخمور وابطل الحانات وانه في ٧٢١هـ/١٣٢١م خرب البازار وزوج الخواطيء وعاقب في ذلك أشد معاقبة[٧٥] . وكانت الضرائب على الخمر والفاحشة تعطى بالضمان فالغاها أبو سعيد سنة ٧٣٤هـ/١٣٣٣م[٧٦] .

كان الصيد والسعي على الاقدام من أسباب اللهو في أواخر العهد العباسي وقد وردتنا عن المستعصم بالله آخر خلفاء بني العباس أخبار صيود كان يخرج اليها في ابهة كبيرة تتقدمه السرادقات والخيم والدواب والمرافقين وفي

---

(٧١) الحوادث الجامعة ص٤١٩ .
(٧٢) ابن الاثير ، الكامل ج١١ ص١٩٤ .
(٧٣) العسجد المسبوك ، الورقة ١٦٤ .
(٧٤) تلخيص مجمع الآداب ج٤ قسم٢ ص٨١٣ .
(٧٥) ابن كثير ، البداية والنهاية ج٤ ص٩٧-٩٩ .
(٧٦) ابو الفداء ، المختصر فى اخبار البشر ج٤ ص١١٧ .

٦٤٤هـ/١٢٤٦م سار متصيدا الى واسط وارسل صيوده بعد ذلك على مائة وخمسين بغلا فرقت على أرباب الدولة والحاشية وفي ٦٤٦هـ/١٢٤٨م مضى متصيدا الى دجيل والانبار وارسل عند عودته صيودا كثيرة ذهب جزء منها الى الوزير وأرباب الدولة[٧٧] . وكان صيد السباع من الرياضات الشعبية التي يقوم بها شباب المحلات في بغداد وقد خرجت لصيد السباع سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م أجواق في كل محلة بين يدي كل منها اللعابة بالدفوف والزمور والمغاني والملاهي وساروا مجتازين عمود البلد[٧٨] .

وكان الصيد رياضة ضرورية عند ملوك المغول يتدربون فيها على الحرب والضرب بالسلاح وفي أيام الايلخانيين قدم محمود غازان الى العراق سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م وسار الى أعمال الحله وقوسان متصيدا[٧٩] وفي ٦٨٦/ ١٢٨٧م اشتد اهتمام عوام بغداد بقتل السباع حتى شبت بسبب ذلك فتن وحروب بين المحلات فتدخل الديوان وامر بحرقها ومنع الناس من الخروج لقتلها[٨٠] .

---

(٧٧) العسجد المسبوك ، الورقة ١٧١ـ١٧٤ .
(٧٨) الحوادث الجامعة ص١٧٥ .
(٧٩) ن.م. ص١٧٥ .
(٨٠) ن.م. ص٤٥٣ .

الفصل الواحد والعشرون
الطبقات الاجتماعية

ادت التطورات المعقدة التي مر بها المجتمع العراقي فى عهد بني العباس خصوصا بعد ضعف سلطة الخليفة واستيلاء الجند الاتراك على السلطة الحقيقية وقيام دول اعجمية في مختلف انحاء الامبراطورية خارج جزيرة العرب وتسلط البويهيين والسلاجقة على الحكم وظهور المدن الكبيرة خصوصا بغداد كبوتقة حلت فيها مختلف العناصر والقوميات التي تضمها دار الاسلام وكثرة الرقيق وما ادى اليه من اختلاط فى الدماء والثقافات حتى ان الخلفاء العباسيين المتأخرين كانوا كلهم من اولاد الاماء ، وغلبة الروح الاسلامية وهي أمميّة بطبيعتها ، ادى كل ذلك وغيره الى زوال الشعور بالتفوّق الذي كان يحس به العربي ازاء العناصر الاخرى والقرشي ازاء بقية العرب كما ضعفت ولكن لم تختف تماما أهمية النسب كعنصر من عناصر القيادة الاجتماعية والسياسية •

وقد اصبحت اكثر الالفاظ شيوعا على السنة الكتاب والمؤلفين للتعبير عن التمييز الاجتماعي هي الخواص والاعيان والكبراء من جهة والعامة والعوام والسوقة من الجهة الاخرى وكلها الفاظ غامضة مائعة لا تعبّر عن تمايز طبقي محدود المعالم بل عن تقدم اجتماعي او سياسي او اقتصادي تجتمع كل مقوماته فى كثير من الافراد والفئات • والسبب فى ذلك ان المجتمع العراقي لم يكن طبقيا بل كان واسعا مطاطا مفتوحا أمام ذوي الكفاءة والتقدم في ميادين الحكم والعلم والتدين والمال • يعرّف الجوهرى الخاصة بانهم خلاف العامة[1] ويعرف الزبيدي العين بانه كبير القوم جمعه أعيان

---

(١) اسماعيل بن حماد الجوهرى ، الصحاح ، ج٣ ، ص١٠٣٧ •

وهم الاشراف والافاضل[٢] ويقول ايضا ان السوقة بالضم خلاف الملك وهم الرعية التي تسوسها الملوك سمّوا بذلك لان الملوك يسوقونهم فينساقون لهم[٣] . ويعيد الفيروزابادي تعريف الجوهري للخاصة ويضيف اليه ان الخاصة هو الذى اختصصته لنفسك[٤] . وقد وصف المؤرخ ابن العبرى احد الاطباء المعاصرين له بانه (خدم الخليفة المستعصم واختص به وطب حرمه واولاده وخواصه)[٥] وقال ابن الطقطقي عن مؤيد الدين ابن العلقمي وزير الخليفة المستعصم بالله ان (خواص الخليفة جميعهم يكرهونه ويحسدونه) وانهم ، اي خواص الخليفة كانوا (مستولين عليه وكلهم جهال من أراذل العوام)[٦] .

يقول ابن الساعي وهو مؤرخ عراقي عاش خلال العهدين العباسي والايلخاني فى حوادث سنة ٦٠٠هـ/١٣٠٣م فى معرض الاذن لرسول ملك غزنة بالوعظ عند باب بدر انه اذن للناس بالحضور (فحضر الاعيان من الفقهاء والصوفية)[٧] ويقول في حوادث سنة ٦٠٥هـ/١٢٠٨م عن قدوم رسول الملك العادل الايوبي ان الامر صدر الى الناس بالخروج لتلقّيهم (فخرج وجوه الناس من الولاة والفقهاء والصوفية)[٨] . وفي صفحات الكتاب المسمى (وفيات الاعيان) للقاضي ابن خلكان وهو عراقي فى اصله مآت من سير اشخاص من حرف مختلفة ودرجات اجتماعية متباينة بينهم الخلفاء والسلاطين والملوك والامراء والوزراء والعلماء والكتاب والشعراء والصوفية وغيرهم وكلهم ، طبقا لعنوان الكتاب ، من الاعيان .

وفي كتاب ذيل تاريخ بغداد لابن الدبيثي المعاصر للخليفة الناصر

---

(٢) محمد مرتضى الحسينى الواسطى الزبيدى الحنفى ، تاج العروس من جواهر القاموس ج٩ ص٢٨٩ .
(٣) ن.م. ج٦ ص٣٨٨ .
(٤) المحيط ، ج٨ ، ص٢٩٠ .
(٥) تاريخ مختصر الدول ، ص٢٧٣ .
(٦) الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص٣٣٨ .
(٧) الجامع المختصر ، ج٩ ، ص١١٩ .
(٨) ن.م. ص٢٥٩ .

لدين الله مآت الاشخاص بينهم الفقيه[٩] والصوفي[١٠] والمقرىء ومؤدب الصبيان والضرير المؤدب الذي له معرفة بالفرائض والحساب[١١] والحاجب[١٢] والوكيل بباب القضاة[١٣] والمدرس بمشهد ابي حنيفة[١٤] والهاشمي الخطيب بجامع الرصافة[١٥] والضرير النحوي[١٦] ومن ينتمي الى بيت مشهور بالكتابة والتناية والتميّز[١٧] ومن ينتمي الى بيت الخطابة والعدالة والرواية[١٨] والمحتسب[١٩] والقاضي[٢٠] وأحد الموسرين من ذوي الاموال[٢١] وغيرهم • ولعل المعجم التاريخي الضخم الذي وضعه عبدالرزاق ابن الفوطي البغدادي وهو من خيرة مؤرخي العراق في العهد الايلخاني وقد ضم اشخاصا من العهدين العباسي الاخير والايلخاني بينهم الكثير من معاصريه ـ لعل في هذا المعجم خير صورة عمن كان يراهم المؤلف اعيان العصر وقادته فهو يضم بالاضافة الى الخلفاء والسلاطين والملوك والامراء العديد من الادباء[٢٢] والمقرئين[٣٢] والوعاظ[٢٤] والمحدثين[٢٥]

---

(٩) ج١ ، الورقة ٢٢٦ •
(١٠) ن•م• الورقة ١٢٨ •
(١١) ن•م• الورقة ١٤٦ •
(١٢) ن•م• الورقة ٢٣٥ •
(١٣) ن•م• الورقة ١٨٧ •
(١٤) ن•م• ج٢ ، الورقة ٦٧ •
(١٥) ن•م• الورقة ١٣٤ •
(١٦) ن•م• الورقة ١٩١ •
(١٧) ن•م• الورقة ١٦٥ •
(١٨) ن•م• ج١ ، الورقة ١١٨ •
(١٩) ن•م• الورقة ٩٥ •
(٢٠) ن•م• الورقة ٩٤ •
(٢١) ن•م• الورقة ٢٠ •
(٢٢) تلخيص مجمع الآداب ج٤ قسم١ ص٤٤ ، ٥٩ ، ٥٩٥ ، ٥٩٧ ••• الخ •
(٢٣) ن•م• ص٤٦ـ٦١ •
(٢٤) ن•م• ص٥٧ •
(٢٥) ن•م• قسم ٢ ص١٠٧٥ •

والكتاب[٢٦] والصوفية[٢٧] والصيدلانيين[٢٨] والاطباء[٢٩] والتجار[٣٠] ونقرأ في الكتاب الموسوم بالحوادث الجامعة ومؤلفه عاش في عهد الايلخانيين وأرّخ عصر المستنصر بالله والمستعصم بالله والايلخانيين حتى سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م، وفيات رجال بينهم ساعي مشهور بالعدو[٣١] وملك[٣٢] وشاعر[٣٣] وصوفي[٣٤] وفقيه[٣٥] ومدرس في المستنصرية[٣٦] وطبيب[٣٧] وساعاتي[٣٨] .

هؤلاء هم قادة المجتمع او الطبقة العليا فيه أو خاصته أو اعيانه بنظر أهل العصر وكتابه وهم ينتمون الى مجموعات متباينة تباينا كبيرا من حيث السلطان أو المال او العلم أو الحرفة ولكن أهمهم ينتمون الى أحد الفئات الثلاث الآتية :

اولا ـ الهاشميون وهم اعلى طبقة اجتماعية وسبب ذلك قرابتهم من الخليفة رئيس الدولة الاعلى ونسبهم الرفيع الذى يربطهم بالنبي والذي يضفي عليهم صفة دينية فى عصر كان الدين فيه اهم منظم للحياة وكانوا خلال العصور العباسية المتأخرة ينتظمون في نقابتين نقابة العباسيين ونقابة الطالبيين ورئيس كل نقابة شخصية كبيرة من شخصيات الدولة يشغل منصبا كبيرا من مناصبها يرعى مصالح مرؤسيه ويحكم بينهم ويعين النقباء في مختلف مدن البلاد . وكان كثير من الهاشميين يشغل مناصب كبيرة أو صغيرة

---

(٢٦) ن.م. ص٦٨٢ ، ٧٢٣ .
(٢٧) ن.م. قسم ١ ص ١٤ ، ٢٣ .
(٢٨) ن.م. قسم ١ ص ٤٣ .
(٢٩) ن.م. قسم ٣ ص ٢١٩ .
(٣٠) ن.م. قسم ٣ ص ٢١٩ .
(٣١) ص ٢٥ .
(٣٢) ن.م. ص٢٦ .
(٣٣) ن.م. ص٥١ـ٥٢ .
(٣٤) ن.م. ص٧٤ .
(٣٥) ن.م. ص١٣٣ .
(٣٦) ن.م. ٤٢٦ .
(٣٧) ن.م. ص ٤٣٣ .
(٣٨) ن.م. ص٤٤٤ .

في الدولة تدر عليه الاموال ولكنهم لم يكونوا يحتكرون الحكم باستثناء الخليفة والقليل من اولاده او اقاربه الذين ينحصر فيهم منصب الخلافة حتى لم يحدث فى العصور العباسية الاخيرة ان اشغل احد العباسيين منصب الوزارة بعد الشريف ابي القاسم علي بن طراد الزينبي وزير الخليفة المسترشد بالله المتوفى سنة ٥٢٩هـ وندر ان اشغل احد العباسيين فى هذه الفترة مناصب خطيرة ذات نفوذ كبير بل ان اكثر الوظائف التي كانوا يشغلونها هي الخطابة فى جوامع بغداد خصوصا الكبيرة منها ووظائف اخرى ثانوية فكان أحمد بن محمد العباسي الحويزي (ت ٥٥٠هـ/١١٥٥م) قد خدم في عدة اشغال منها النظر في ديوان واسط[٣٩] وأحمد بن يوسف الهاشمي (ت ٥٥٩هـ/١١٦٣م) أحد الحجاب بالديوان العزيز[٤٠] وأحمد بن علي الهاشمي المعروف بابن الزوال (ت ٥٨٦هـ/١١٩٠م) قاضيا بدجيل[٤١] • ومحمد بن يوسف بن محمد الهاشمي (ت ٦٠٣هـ/١٢٠٦م) أحد الحجاب بالديوان العزيز[٤٢] وكان لقب الشريف يطلق على العباسيين كما كان يوسم كثير منهم بأنه من بيت الخطابة والعدالة والرواية او بيت بيت معروف بالشرف والنسب او من بيت مشهور بالعلم والصلاح[٤٣] وغير ذلك من النعوت اما العلويون فكانت علاقتهم بابناء عمومتهم العباسيين طيبة في هذا العهد وقد اشغل منهم السيد نصير الدين ناصر بن مهدى العلوى الرازي منصب الوزارة ايام الخليفة الناصر لدين الله واشغل آخرون مناصب اخرى مهمة فكان علي بن يحيى بن الصلايا العلوي (ت ٥٩٨هـ/١٢٠١م) ناظرا لمعاملات دجيل[٤٤] وفي ٦٢٤هـ/١٢٢٦م ولّى الخليفة المستنصربالله الحسن ابن علي بن حمزة المعروف بابن الاقساسي الكوفي نقابة الطالبيين ثم اضاف

---

(٣٩) ابن الدبيثي ، ج١ ، الورقة ٢١٣ـ٢١٤ •
(٤٠) ن•م• الورقة ٢٣٧ •
(٤١) ن•م• ج٢ الورقة ٣٨ •
(٤٢) ن•م• ج١ الورقة ١٧٤ •
(٤٣) ن•م• ج١ الورقة ١١٨ ، ٢٧٣ ، ج٢ ص١٦٩ •
(٤٤) ابن الساعى ، الجامع المختصر ج٩ ، ص٩٠ •

اليه الاشراف على المخزن وفي عهد الظاهر بامر الله (ت ٦٢٢هـ/١٢٢٥م) كان هبةالله الموسوي صاحب المخزن[٤٥] وقد اشغل علاءالدين هاشم ابن علي بن المرتضى (ت ٦٤٠هـ/١٢٤٢م) عدة مناصب منها صدرية المخزن وصدرية واسط وعرض الجيش[٤٦] .

ثانيا ـ امراء المماليك : وهم الرقيق المعتقون وكانوا طبقة حاكمه لها نفوذ وادرارات واسعة من المال والمتاع وسبب نفوذهم انهم كانوا قادة جيش الخليفة وحرسه الخاص وكان الكثير منهم يشغل مناصب ادارية كبيرة مثل حكام الاقاليم وامراء الحج وما اشبه ذلك وتعود ثقته بهم الى انهم كانوا امتدادا لشخصه لأنهم رقيقه في الاصل لذلك كانوا عيونه وايديه وكان حكمهم للبلاد يعنى حكمه المباشر في عصر كانت فلسفة الحكم في واقعها لا تعدو عن اعتبار البلاد شبه عقار لرئيس الدولة . وكانت كتابات المعاصرين تشير اليهم باسم الامراء بعكس افراد العائلة العباسية الذين كانوا يسمون بالاشراف وكان كثير منهم مقربا جدا الى الخليفة حتى ان بعض اولادهم كانوا يختنون مع اولاده . وقد مر السائح المغربي ابن جبير ببغداد ايام الخليفة الناصر لدين الله سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م واشار اليهم بقوله : (ورونق هذا الملك انما هو على الفتيان والأحابش المجابيب منهم فتى اسمه خالص وهو قائد العسكرية كلها ابصرناه خارجا احد الايام وبين يديه وخلفه امراء الأجناد من الاتراك والديلم وسواهم ... وله القصور والمناظر على دجلة[٤٧] وقد كان الامير خطلبا بن سوبكتين (ت ٥٩٦هـ/١١١٩م) دزدارا اي حاكما لقلعة اربيل ثم نقل الى شحنكية البصرة[٤٨] . وكان الامير طغرل بن عبدالله التركي مقطع البصرة[٤٩] وفي ٦٠٥هـ/١٢٠٨م كان أمير الحاج هو مجاهد

---

(٤٥) العسجد المسبوك ، الورقة ١٣٩ـ١٤٠ .
(٤٦) تلخيص مجمع الآداب ج٤ ، قسم ٢ ، ص١١٠٨ ـ ١١٠٩ ، العسجد المسبوك ، الورقة ١٥٩ .
(٤٧) رحلة بن جبير ، ص٢١٣ .
(٤٨) ابن الساعي ، الجامع المختصر ، ج٩ ، ص٤٢ .
(٤٩) ن.م. ص٢١٥ .

الدين ياقوت الناصري[٥٠] وفي ٦٢٨هـ/١٣٣٠م كان أمير الحاج هو شمس الدين اصلان تكين[٥١] وفي ٦٣٨هـ/١٢٤٠م رتب الامير آقسنقر الناصري حاكما لاربيل[٥٢] وكان قائد جيش الخليفة المستعصم بالله الذي حارب المغول في جانب الكرخ سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م وهزم على ايديهم هو مجاهد الدين ايبك بن عبدالله الجركي المستنصري الدويدار الصغير الذى يطلق عليه ابن الفوطي لقب أمير الامراء[٥٣] ومن الأمثلة المهمة على قرب هذه الفئة من الخليفة ان ابن الخليفة المستعصم بالله المسمى ابو المناقب المبارك ختن سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م وختن معه احد احفاد المستنصر بالله وكشلوخان ابن الدويدار الصغير مجاهد الدين ايبك والاميران عبدالله واسحق ابناء الدويدار الكبير الطبرسي الظاهري وزنكي بن الامير محمد بن قيران . وفيما عدا الاموال الطائلة التي انفقت مع الامراء الصغار استدعى كشلوخان وشرّف بالامارة وحمل وراءه سيفان وكان عمره آنذاك تسع سنين ثم استدعى ولدا الامير الطبرسي الظاهري وخلع عليهما خلعة الامارة أيضا والحقا بالزعماء[٥٤] .

ثالثا ـ عائلات كبيرة غير هاشمية ترد الاشارة اليها بمثل العبارات الآتية :ـ

(من بيت مشهور بالفضل والعلم والرياسة والتقدم) و (من بيت مشهور بالكتابة والتناية والتميّز) و (من بيت العدالة والخطابة والرواية) و (من بيت القضاء والولاية والتقدم) و (من البيت الأثيل) ومن بيت الحكم والقضاء والفهم) و (من أولاد التجار والاماثل) و (من بيت السيادة والوزارة والتقدم والرياسة) و (من اولاد العدول ومن اكبر البيوتات

---

(٥٠) ن٠م٠ ص ٢٧٠ .
(٥١) الحوادث الجامعة ص٢٥ .
(٥٢) ن٠م٠ ص١٤١ـ١٤٢ .
(٥٣) تلخيص مجمع الآداب ج٥ ص٦٩ـ٧٠ .
(٥٤) العسجد المسبوك، الورقة ١٨٠ ، وقد حدث مثل ذلك سنة ٦٤٤هـ (١٢٤٦م) بختان ولدين من اولاد الخليفة المستعصم بالله حيث ختن معه ثلاثة من اولاد المماليك الامراء : ن٠م٠ الورقة ١٦٩ .

بالعراق) وما اشبه ذلك • وميزة هذه العوائل ان احد افرادها ابدى كفاية بالعلم او التصوف او الثقافة العامة او المال وحذا بعض اولاده او اقاربه حذوه فكسبت عائلته احترام الحكام والجمهور واختير احدهم الى منصب القضاء أو الادارة أو دخل في سلك صغار موظفي الخليفة فتقدم بعد اثباته مقدرة واخلاصا وربما وصل الى منصب قاضي القضاة او الوزير او ما أشبه ذلك فكان بذلك سببا في تقدم افراد متعددين من اقاربه اثبتوا ما اثبته من الكفاية واذا ما دام ذلك اكثر من جيل واحد صارت العائلة علما تتجه اليه انظار الحكام ومركزا من مراكز القيادة الاجتماعية • والامثلة على ذلك عديدة نجتزىء منها بما يلي :

آل المخرمي : وكان جدهم الاعلى يسمى بندار استوطن محلة المخرم فى بغداد فعرف بها • وكان منهم حفيده المبارك بن علي المخرمي فقيها عالما وعدلا ثقة درّس وافتى وولى قضاء باب الازج فى بغداد وكان نزها • وقد دخل عز الدين يحيى بن المبارك المخرمي في وظائف الدولة العباسية ناظرا ومشرفا في أعمال السواد وكان كيّساً متواضعاً وحتى وفاته سنة ٦٣٧هـ/١٣٣٩م كان ابنه فخرالدين سعيد المبارك هو صاحب الديوان[٥٥] •

آل الناقد : وكان اول من اشتهر منهم محمد بن علي بن احمد بن الناقد التاجر المتوفي سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م سافر الى الشام وخراسان وما وراء النهر وتولى ولايات جليلة منها وكالة والدة الخليفة الناصرلدين‌الله سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م اضيف اليه النظر في المظالم فحسن حاله ونبه ذكره[٥٦] وقد عين ولده جمال الدين ابو الحسن عبد الله بن الناقد حاجبا بالديوان ثم نقل حاجبا في المخزن ثم عين صدرا بالمخزن وتوفي سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٥م وعين اخوه نور الدين يحيى أحد حجاب الديوان • ولكن واسطة العقد في هذه العائلة هو نائب الوزارة أيام المستنصربالله والمستعصم بالله أبو الازهر

---

(٥٥) الحوادث الجامعة ، ص١٣٨-١٣٩ ؛ تلخيص مجمع الآداب ، ج٤ قسم ٢ ص٣٨٣-٣٨٤ •

(٥٦) ابن الدبيثي ، ج١ ، الورقة ١٠٤ •

نصيرالدين بن الناقد الذي نشأ في الثروة وتلقى تعليماً جيدا واشتغل بالانشاء والرسائل وعرف بالرأي والتدين[٥٧] .

آل الدوامي : وأصل العائلة من باب الطاق وهي محلة كانت قريبة من مشهد ابي حنيفة وأول من اشتهر منهم الحسن بن علي بن الحسن بن الدوّامي الذى كان وكيلا لبعض الامراء العباسيين وسمّي بالدوّامي لخدمته احدى نساء الخليفة القائم بأمر الله المتوفي سنة ٤٩٧هـ/١١٠٣م المسماة بالدوامية[٥٨] وقد شغل حفيده فخرالدين ابو علي الحسن بن هبدالله بن الحسن الدوامي منصب حاجب الحجاب سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م ثم ولي صدرية المخزن سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م ثم عزل سنة ٥٩٠هـ/١١٩٣م[٥٩] وفي اواخر الدولة العباسية وعند سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م كان تاج الدين علي بن الدوامي حاجب الباب[٦٠] وهو منصب يقابل مدير شرطة بغداد .

آل الدامغاني : وأصل العائلة من دامغان من ايران وقد استوطنوا بغداد ايام الخليفة القائم بامر الله وقد اشتهر منهم عدد كبير من القضاة وقضاة القضاة وصاروا من اكبر واشهر العوائل في القرون الاخيرة من الدولة العباسية منهم قاضي القضاة أبو عبدالله محمد (ت ٥١٥هـ/١١٢١م) بن الحسن بن احمد بن علي بن محمد بن علي الدامغاني وكان ابن قاضى وحفيد قاضي وأبو جده قاضي قضاة[٦١] ومنهم محمد بن علي بن أحمد الدامغاني أبو الفتح بن قاضى القضاة ابى الحسن كان ينوب في الحكم خلال ولاية ابيه الثانية في القضاء وقد توفى سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م[٦٢] وفي عهد الخليفة المستعصم بالله وحتى سقوط بغداد على يد هولاكو كان فخر

---

(٥٧) العسجد المسبوك ، الورقة ١٦٥ .
(٥٨) ابن الدبيثي ، ج٢ الورقة ١٦٣ .
(٥٩) تلخيص مجمع الآداب ، ج٤ قسم ٣ ، ص١٥٣-١٥٤ .
(٦٠) الحوادث الجامعة ، ص٣٣٢ .
(٦١) ابن الدبيثي ، ج١ ، الورقة ٤٢ .
(٦٢) ن٠م٠ الورقة ٩٤ .

الدين احمد بن محمد الدامغاني هو صاحب ديوان بغداد اى وزير المالية فيها وقد تنقل في الوظائف الكبيرة وولي صدرية عرض الجيش واخيرا ولي ديوان الزمام سنة ثمان واربعين وستمائة[٦٣] .

ان الهاشميين وقادة الجيش والعائلات الكبيرة لم يكونوا طبقة ارستقراطية تحتكر الحكم وتورثه الي اولادها واحفادها جيلا بعد جيل باستثناء الخليفة وقليل من أولاده وأقاربه كما لم يكن هناك ارتباط ضروري بين ملكية الارض والحكم مثل ما كان عليه الحال في اوروبا المعاصرة ولم تكن هناك القاب نبل متوارثة ما عدا لقب شريف الذى كان يطلق على العباسيين ولم يكن يعني شيئا كبيرا وكان القليل من الهاشميين من المتنفذين والاغنياء وغالبيتهم فقيرة او متوسطة الحال ولم يكن الفقر او الحرفة المتواضعة أو الأصل غير العربي يمنع الفرد من التقدم في وظائف الدولة والوصول الى أعلى الدرجات باستثناء الخلافة وكان كثير من العباسيين يمتهنون حرفا متواضعة ولا يعيشون في محلات خاصة متميزة في بغداد ولا يدفنون في مقابر أو مناطق خاصة فكان أحمد بن علي بن عيسى الهاشمي(ت ٥٩٠هـ/١١٩٣م) من أهل الحريم الطاهرى وكان أحد القراء بالترب الشريفة بالرصافة أى بمقبرة الخلفاء العباسيين . وعندما توفي دفن بباب حرب[٦٤] وكان اشرف بن ابي المظفر الهاشمي من أهل القرن السادس الهجري وكيلاً بباب القضاء أي محامياً[٦٥] . وكان الحسن بن علي بن محمد الهاشمي من أهل القرن السادس الهجري يسكن محلة الكرخ (ت ٥٦٥هـ/١١٦٩م) ويتولى الخطابة بجامع محلة التوثة وكان محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الهاشمي من أهل شارع الرقيق وأحمد بن هبةالله بن عبدالقادر الهاشمي(ت٥٦٨هـ/١١٧٢) يسكن بباب البصرة[٦٦] وكان العلويون منتشرين في مختلف انحاء العراق

---

(٦٣) تلخيص مجمع الآداب ، ج٤ ، قسم ٣ ، ص٩٩ .
(٦٤) ابن الدبيثي ، ج١ الورقة ٢٠٥ .
(٦٥) ن.م. ج١ ، الورقة ٢٥٨ .
(٦٦) ن.م. ج١ ، الورقة ٢٣٥-٢٣٦ .

وخصوصا في المشاهد المقدسة في النجف وكربلاء ومشهد موسى الكاظم ويتلقون الاحسان والصدقات مثل فقراء العباسيين ففي ٦٣٣هـ/١٣٣٥م امر الخليفة المستنصربالله بتفريق ثمانية آلاف دينار من مال الطبق منها الف دينار لفقراء العباسيين والف دينار لفقراء الطالبيين والف دينار للشرفاء (أي العباسيين) المقيمين في دار الشجرة من حريم دار الخلافة والفان لفقراء العلويين المجاورين لمشهد علي[٦٧] وفي السنة التالية أمر الخليفة نفسه نقيب الطالبيين بتفريق ثلاثة آلاف دينار على العلويين المقيمين في مشهد علي والحسين وموسى بن جعفر[٦٨] وفي ٦٤١هـ/١٢٤٣م في غرة شهر رمضان ، أمر الخليفة المستعصم‌بالله بفتح دور الضيافة في المشهد الكاظمي للعلويين المقيمين هناك ولفقراء العباسيين ولاولاد الخلفاء المقيمين في دار الشجرة[٦٩] .

وكان قادة الجيش العباسي وهم أقرب الطبقات الى الخليفة غالبيتهم من المماليك المعتقين اشتروا بالمال وتنقلوا عن طريق البيع او الهدايا من يد الى يد وادخلوا الجيش او الوظائف الحكومية فوصلوا أعلى مناصب الدولة فالامير جمال‌الدين قشتمر الناصري (٦٣٧هـ/١٢٣٩م) كان في أول أمره لقطب‌الدين سنجر الناصري ثم انتقل الى الخليفة المستنصربالله فجعله سر خيل على جماعة المماليك ثم خوطب بالامارة وأخيرا سلمت اليه الحلة ثم اضيفت اليه شحنكية واسط وظل مع وظائفه هذه مقدما على العساكر[٧٠] والأمير باتكين الرومي الناصري (ت ٦٤٠هـ/١٢٤٢م) كان أول امره مملوكاً لعائشة ابنة الخليفة المستنجدبالله اشتغل بالعلم وحفظ القرآن ودخل الجيش ثم سلمت اليه البصرة ثم عيّن والياً على اربيل[٧١] . والامير شرف‌الدين اقبال الشرابي (ت ٦٣٥هـ/١٢٣٧م) كان في أول أمره مملوكا لعزالدين نجاح الشرابي انتقل الى زوجته بعد وفاته واهدته هذه الى الخليفة الظاهر بأمر

---

(٦٧) العسجد المسبوك ، الورقة ١٥١ .
(٦٨) الحوادث الجامعة ، ص٩٥ .
(٦٩) العسجد المسبوك ، الورقة ١٦٢ .
(٧٠) الحوادث الجامعة ص١٣١-١٣٣ .
(٧١) ن.م. ص١٨٠-١٨٣ .

الله وعندما تسلم المستنصر بالله الخلافة جعله شرابيا ثم رتبه سر خيل العسكر وقد افلح في ضم أربيل الى مملكة الخليفة بعد وفاة صاحبها وصار مقربا الى الخليفة المستعصم بالله وقائدا لجيوشه وقد ابدى مقدرة كبيرة في محاربة قوات المغول سنة٦٣٥هـ/١٢٣٧م[٧٢] .

وكان كثير من وزراء الدولة العباسية وكبار موظفيها من عائلات فقيرة تشتغل بمهن متواضعة . فكان يحي بن هبيرة أحد وزراء المقتفي بالله (٥٥٣ ـ ٥٥٥هـ) = (١١٥٨ ـ ١١٦٠م) أصله أكاراً أي عاملاً زراعياً من قرية تسمى الدور من أعمال دجيل لاقى في صباه الشدائد والفقر[٧٣] وكان مؤيدالدين محمد بن أحمد بن القصاب أحد وزراء الناصر لدين الله (٥٧٥ـ ٦٢٢هـ) = (١١٧٨ ـ ١٢٢٥م) أعجمي الاصل أبوه قصاب يبيع اللحم في بغداد ولكن مؤيدالدين كان شاباً ذكياً وطموحاً اشتغل بالعلم والادب وبرع في الحساب والمقاسمات[٧٤] وكان أبو بكر يحي المعروف بابن المرأة المتوفى سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م من اصل متواضع فكان أبوه يتولى المدبغة ولكن ولده احب التصرف أي وظائف الحكومة فتدرج فيها حتى صار كاتب الشرطة بباب النوبي[٧٥] وكان محيي الدين ابو المظفر بن البوقي ب ٦٣١هـ/ ١٢٣٢م من واسط ومن اولاد الفقراء ولكنه تدرج في وظائف الحكومة حتى صار صدر خوزستان أي حاكمها[٧٦] .

وكانت حكومة المستعصم بالله لا تقوم على قومية واحدة فكان الخليفة نفسه عربيا هاشميا وكان وزيره مؤيدالدين بن العلقمي عربيا أسديا وصاحب ديوانه اى وزير ماليته فخرالدين احمد بن محمد بن الدامغاني فارسي الأصل وقائد جيشه مجاهدالدين الدويدار الصغير شركسيا واحد أكبر

---

(٧٢) ن٠م٠ ص٣٠٩ .
(٧٣) الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص٣١٢ .
(٧٤) ن٠م٠ ص٣٢٤ .
(٧٥) ابن الساعى ، الجامع المختصر ، ج٩ ص ٤٠ .
(٧٦) الحوادث الجامعة ص٦٠ .

قواده أبو المظفر الحسن بن محمد بن كركرديا[٧٧] .

وبالرغم من غموض كلمات خاصة وعامة وما اشبهها وعدم وجود حواجز تقسم الناس الى طبقات اجتماعية متدرجة متباينة في حقوقها وامتيازاتها فان الثروة – على ما يبدو – لم تكن موزعة توزيعا عادلا . بل كان قدر كبير منها مركزا بايدى الخليفة وخاصته من قادة الجيش والموظفين ومن يلوذ بهم . بينما كان العلماء وطلاب العلم وامثالهم ، وهم من الاعيان فى نظر اهل العصر يعيشون فى فقر . والحقيقة لم ترد الا أخبار قليلة عن ثروات كبيرة بأيدى اناس من غير الحكام والموظفين مثل علي بن هبةالله ابن علي بن سهلان (ت ٥٤١هـ/١١٦٥م) الذي كان ذا مال وضياع ونعمة وافرة[٧٨] والحسن بن علي بن محمد (ت ٥٦٦هـ/١١٧٠م) الواسطي الذي كان من بيت مشهور بالتناية أي ملكية الضياع والمزارع . وعمار بن محمد ابن الحسن التاجر (ت ٥٧٤هـ/١١٧٨م الذي كان يسكن بغداد وكان ذا ثروة واسعة[٨٠] وفي ٦٤٢هـ/١١٤٧م فقد أحد التجار ابنتين له وجاريتين وخمسة آلاف دينار وزركشا ومصاغا[٨١] وفي ٦٤٦هـ/١٢٤٨م فقد تاجر آخر مبلغ ألف دينار من صندوقه[٨٢] . ومن الجهة الاخرى كان الخليفة العباسى يملك عقارات خاصة وأقرحة اى بساتين وقرى يقوم على ادارتها والاشراف عليها وادارتها موظفون خاصون وتقدم له اموالا طائلة[٨٣] . وفي ٦٥٠هـ/١٢٥٢م وقع حريق فى بعض دور الخلافة استخرج بعد اطفائه ما يزيد على مائتي ألف دينار[٨٤] . وفي ٦٣٤هـ/١٢٣٦م تزوج مجاهدالدين

---

(٧٧) تلخيص مجمع الآداب ج٤ ، قسم ٣ ، ص٣٤ .
(٧٨) ابن النجار ، ذيل تاريخ بغداد ، الورقة ٦٥ .
(٧٩) ابن الدبيثي ، ذيل ج١ الورقة ١٦٥ .
(٨٠) ابن النجار ، الورقة ٨١ .
(٨١) الحوادث الجامعة ص١٩٤ .
(٨٢) ن.م. ص٢٣٤ .
(٨٣) تلخيص مجمع الآداب ج٤ قسم٣ ص٢٨٨–٢٨٩ .
(٨٤) العسجد المسبوك ، الورقة ١٨٢ .

أيبك الدويدار الصغير وكان احد خواص الخليفة المستنصر بالله آنذاك وعندما دخلت العروس دار زوجها نثر عليها خادم لزوجها مبلغ ألف دينار وعندما توجه زوجها الى داره مارا بباب البدرية احد دور الخلافة نثر عليه خادم من خدم الشرابي أحد قواد الخليفة مبلغ أربعة آلاف دينار[٨٥] وفي ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م تم زفاف أحد امراء المماليك المسمى بدرالدين بن ايدمش على ابنة أمير آخر من أمراء المماليك فاعطاه الخليفة المستنصر بالله ليلة زفافه مبلغ ثلاثة آلاف دينار[٨٦] . وفي ٦٤٤هـ/١٢٤٦م ختن ولدان من أولاد الخليفة المستعصم بالله وانفقت من أجل ذلك أموال طائلة وقدمت خلع عديدة ومن ذلك انه نثر على الاميرين ذهب بمبلغ الف دينار التقطه الحاضرون ثم نثر اقبال الشرابي قائد الخليفة مبلغ الف دينار ايضا . وكان مجموع ما خرج من المال خلال الظهر الذي تم فيه الختان ما يزيد على مائتي الف دينار[٨٧] . وفي ٦٥٠هـ/١٢٥١م ختن ولد آخر للمستعصم بالله ومعه أحد ابناء عمه وثلاثة من اولاد المماليك فانفقت في سبيل ذلك اموال كبيرة منها صندوق فيه فاخر الثياب والزركش نفذ مع ابن عم الامير قيمته ثلاثة الاف دينار مع سبعة اكياس فيها سبعة الاف دينار بينما نفذ مع احد ابناء المماليك المختونين صندوق فيه ستة آلاف دينار[٨٨] وفي ٦٥٤هـ/١٢٥٦م ختن ولدان للامير عبدالعزيز بن المستنصر بالله وأقيمت من أجل ذلك دعوة انفق فيها خمسون ألف دينار[٨٩] . وفي نفس السنة أمر علاءالدين أبو بكر بن **شمس الدين** قيران الظاهري وجعلت معيشته اي راتبه الف دينار وعندما طلب زيادة على ذلك جعلت معيشته اربعة آلاف دينار[٩٠] وقد تزوج علاء الدين الطبرسي الظاهري (ت ٦٥٠هـ/١٢٥٢م) احد أمراء المماليك أيام

---

(٨٥) الحوادث الجامعة ص٩٣ .
(٨٦) ن.م. ١٤٢ .
(٨٧) العسجد المسبوك الورقة ١٦٩ .
(٨٨) ن.م. ص١٨٠ .
(٨٩) ن.م. ص ١٨٨ .
(٩٠) تلخيص مجمع الآداب ج٤ قسم٢ ص١٠٢٤ .

المستنصر بالله من ابنة بدرالدين لؤلؤ صاحب الموصل على صداق مبلغه عشرون الف دينار • ووهب له الخليفة ليلة زفافه مبلغ مائة الف دينار وأقطعه قوصان فكانت تدر عليه في كل سنة مبلغ مائتي ألف دينار وكان هذا الامير كريما وهابا للخيل حتى قال كاتب ديوانه ان مجموع ما اهداه منها منذ تأميره سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م الى وفاته سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م بلغ تسعة آلاف وخمسمائة ونيف وسبعين فرسا[٩١] • وهناك أمثلة عديدة على رواتب قادة الجيش العباسي نجتزيء منها بما يلي :

أمر فلك الدين ابو نصر بوزابه بن عبدالله التركي الناصرى سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م ووظف له كل سنة ستة آلاف دينار وتوفى شابا[٩٢] وكانت اقطاعات الامير فلك‌الدين أبو المظفر محمد بن محمد بن فلك‌الدين صنقر ابن عبدالله التركي الناصري الامير (ت ٦٤٤هـ/١٢٤٦م) تنيف على مائة ألف دينار[٩٣] وفي ٦٤٤هـ/١٢٤٦م خلع على الامير فخرالدين البهلوان بن فلك الدين محمد بن سنقر وقرر له في كل سنة ثلاثة آلاف دينار[٩٤] وكان راتب الامير فتح‌الدين ابو المظفر الحسن بن محمد بن كر فى كل سنة أربعة عشر ألف دينار[٩٥] يضاف الى ذلك ان ابا الازهر بن الناقد نائب الوزارة فى أول عهد المستعصم بالله توفى سنة ٦٤٢هـ/١٣٤٤م ووجد فى خزانته صندوق مملوء ذهبا قيل ان فيه مائة ألف دينار[٩٦] •

هذا من جهة ومن الجهة الأخرى فتحت المدرسة المستنصرية سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م وخصص لكل مدرس فيها غدا عن الطعام مبلغ اثنى عشر دينارا ولكل معيد ثلاثة دنانير عدا عن الطعام ولكل شيخ فى دار القرآن

---

(٩١) العسجد المسبوك ، ص١٨١ •
(٩٢) تلخيص مجمع الآداب ، ج٤ قسم ٣ ص٤٩٣ •
(٩٣) ن•م• ص ٥١٧ •
(٩٤) ن•م• ص١٣٧ •
(٩٥) ن•م• ص٣٤ •
(٩٦) الحوادث الجامعة ، ص٢٩٢ •

الملحقة بالمدرسة مبلغ ثلاثة دنانير عدا عن الطعام ولكل معيد في دار القرآن دينار واحد وعشرة قراريط عدا عن الطعام ولكل صبي من المتلقنين ثلاثة عشر قيراطا عدا عن الطعام[٩٧] وعلى ذلك ـ اذا اتخذنا المال ـ وحده مقياسا لتقسيم الناس الى خاصة وعامة كان الخليفة وقليل من العباسيين والعلويين وقادة الجيش وموظفو الدولة وكبار التجار واصحاب العقارات والضياع هم الخاصة وهم اقلية ضئيلة وبقية السكان وهم غالبية العباسيين والعلويين والفقراء والعلماء والصوفية وطلاب العلم وأهل الحرف وصغار الملاكين والفلاحون وغالبية الجنود ، من العامة . ولكن المال لم يكن الاساس الوحيد لهذا التقسيم بنظر أهل العصر لان العلم والتدين كانا من أهم أسباب التقدم والقيادة الاجتماعية بل ربما كانا أهمها جميعا يأتي بعدهما النسب والمشاركة في الحكم ونوعية الحرفة .

كان الرقيق أدنى الطبقات الاجتماعية ينظر اليه كنوع متميز من المتاع ولكن معاملة اسياده له كانت حسنة وكانت أبواب التقدم مفتوحة أمامه بعد عتقه خصوصا لمن كان يعمل منه في جيش الخليفة وكان كثير من الرقيق في العهد العباسي الاخير من الاحباش[٩٨] والشركس[٩٩] والهنود[١٠٠] والافرنج[١٠١] وكان الخليفة يملك عددا كبيرا منهم يعملون حرسا خاصا له وجيشا دائميا لمملكته وكان امراؤهم المعتقون وهم قادة الجيش العباسي يملكون مماليك خاصين بهم ومثل ذلك الوزراء وكبار الموظفين والاغنياء خصوصا التجار[١٠٢] . وكان لرئيس فراشي دار الخلافة عبدالغني بن فاخر (ت٦٤٨هـ/١٢٥٠م) دار فيها عدة حجر في كل حجرة جارية وخادم[١٠٣] . وكان لاحد نصارى بغداد مملوك مسلم قتله سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م فوقع الاقتصار على الاكتفاء

(٩٧) العسجد المسبوك ، ص١٤٩ .
(٩٨) الحوادث الجامعة ص٩٤ .
(٩٩) تلخيص مجمع الآداب ج٥ ص٦٩ ـ ٧٠ .
(١٠٠) الحوادث الجامعة ، ص٢٣٤ .
(١٠١) الجامع المختصر ج٩ ص٤٠ .
(١٠٢) ن.م. ص ١٨٢ ؛ الحوادث الجامعة ص٢٣٤ .
(١٠٣) الحوادث ، ص٢٥١ـ٢٥٢ .

بتخليده السجن لانه مسلم عملا بمذهب الشافعي وأحمد[١٠٤] • وكان للسيد حرية واسعة في التصرف برقيقه ضمن احكام الشريعة الاسلامية فعندما تمردت طائفة من مماليك الخليفة سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م طالبين زيادة اجورهم القيت جماعة منهم في السجن وعندما طالب زملاءهم باخراجهم منه اجابهم الشرابي قائد جيش الخليفة : (انهم مماليكنا نعمل بهم ما نريد)[١٠٥] • ولكن الاشارات التاريخية تدل ان عدد الرقيق في العراق كان قليلا وانه يبدو ان الحكام والاغنياء هم وحدهم الذين كانوا يملكون عددا منه •

وفي العهد الايلخاني المغولي اصاب التغير تركيب المجتمع العراقي فيما يتعلق بالصفوة او الاعيان منه بظهور سيطرة الامراء المغول كفئة صغيرة وازدياد سيطرة الايرانيين وتساوى المسلمين واهل الذمة امام السلطان الى أيام محمود غازان ولكن المفاهيم الطبقية ظلت على حالها وكان قادة المجتمع بنظر المعاصرين هم السلاطين والامراء والحكام والعلماء ورجال الدين والتجار والاغنياء • وبينما كان الخليفة رأس المجتمع العراقي ورمز وحدته وقوته السياسية يتلوه عدد من اقاربه وقادة جيشه حل السلطان الايلخاني محله ولكنه كان بعيدا عن العراق على الاكثر يقضي غالب ايامه في ايران وكان غير مسلم الى أيام محمود غازان باستثناء السلطان تكودار أحمد • وقد زال الامراء العباسيون وزال قادة الجيش العباسي المماليك اصحاب النفوذ الكبير والثروة الطائلة بصورة كاملة كطبقة اجتماعية • وحل محلهم امراء المغول وقادة جيوشهم وخواتينهم ووزراءهم وولاتهم ولكن اكثر هؤلاء كانوا يقضون أوقاتهم في ايران ومع ذلك فان العلويين ظلوا طبقة اجتماعية محترمة ذات نفوذ كبير في بعض الاحيان واخذ قليل من العباسيين يظهرون بعد هدوء الاحوال وابتعاد ايام الفتح كفئة محترمة يرتبط وجودها بذكريات الدولة العباسية وأيامها وصبغتها الدينية واذا اردنا ان نستعرض أعيان العصر او خاصته تقودنا أخباره الى الفئات الاتية :

---

(١٠٤) ن٠م٠ ص٧٣ ٠
(١٠٥) ن٠م٠ ص١٦٨ ـ ١٦٩ ٠

١ ـ الامراء المغول ٢ ـ الحكام الاعاجم ٣ ـ العلويون ٤ ـ عائلات قديمة مارست الحكم ايام العباسيين واستمرت على ذلك ايام الايلخانيين ٤ ـ عوائل جديدة شاركت فى حكم البلاد وعباسيون وعلماء دين واغنياء • اما العامة فقد ظلوا اكثرية الشعب الكبرى ترد الاشارة اليهم فى حوادث الشغب والجهالة وقد ازدادت أحوالهم سوء لازدياد ثقل الضرائب وتدهور اقتصاد البلاد واتساع الخراب فيها •

لانعرف عدد من سكن العراق من المغول بعد الفتح ولكن الاخبار الضئيلة التى وصلتنا عنهم تشير الى ان عددهم كان صغيرا لم يغير فى تركيب السكان ولم يكوّن طبقة اجتماعية كبيرة منهم • لقد كان فى العراق حامية مغولية عددها أيام هولاكو ثلاثة آلاف فارس[١٠٦] وفي ٦٨١هـ/١٢٨٣م كان الامير المغولى أرغون فى العراق ومعه عشر الاف جندى يشتون فى بغداد ويعيشون في سياه‌كوه[١٠٧] يضاف الى ذلك ان وظيفة الشحنة أو الحاكم العسكرى صارت خاصة بالمغول بعد قتل على بهادر الخراسانى سنة ٦٦١هـ/ ١٢٦٣م فكان منهم قرابوغا وتوكال بخشى وتتارقيا وتاولدار[١٠٨] وغيرهم •

كانت المؤثرات الايرانية على العراق قديمة تعود الى ما قبل الفتح الاسلامى وقد استمرت بعده واشتدت ايام سيطرة البويهيين والسلجوقيين والايلخانيين المغول وقد اتخذ هؤلاء ايران قاعدة لحكمهم واخذوا يذوبون فى ثقافتها ويتخذون من الكثير من الايرانيين مساعدين لهم فى حكم امبراطوريتهم التي كنا العراق جزءا منها حتى يمكن القول ان الايرانيين صاروا طبقة متنفذة مهمة فى حكم العراق • كان اول شحنة مغولى اى حاكم عسكرى فى بغداد بعد فتحها هو علي بهادر الخراسانى وكان عماد الدين عمر بن صدرالدين محمد القزوينى احد اعيان قزوين هو الذى دبر اعادة تعمير بغداد بعد فتحها وترميم مساجدها ومدارسها ومشاهدها

(١٠٦) جامع التواريخ ، ج٢ ص٧١٤ـ٧١٥ •
(١٠٧) ن•م• ص٧٨٩ •
(١٠٨) الحوادث الجامعة ص٣٤٩ ، ٣٥٢ـ٣٥٧ •

وربطها واعادة الجرايات على علمائها وصوفيّها[١٠٩] . وفي ٦٥٧هـ/١٢٥٩م عين هولاكو احد عظماء الفرس الذين جاءوا فى معيته وهو علاءالدين عطا ملك الجوينى صاحب ديوان العراق اى واليه وحاكمه وقد ظل علاء الدين بمنصبه هذا ما يزيد قليلا على اثنين وعشرين سنة وفى ٦٨٢هـ/١٢٨٢م عين شرف‌الدين هرون بن الصاحب شمس‌الدين محمد الجوينى صاحب ديوان العراق وهو ابن اخي علاءالدين وفى ٦٨٥هـ/١٢٨٦م وصل ناصرالدين قتلغ شاه الصاحبى مملوك علاءالدين عطا ملك الجوينى بغداد وقد عين مشرفا بالعراق[١١٠] وفي٦٩٣هـ/١٣٩٣م أمر السلطان الايلخاني كيخاتوشمس‌الدين محمد التركستاني المعروف بالسكورجي بالسفر الى العراق وقد عيّنه والياً عليه[١١١] وفي٧٠٣هـ/١٣٠٣م قدم بغداد مبارزالدين‌ملكشاه بن‌مكي الديلمي وتولى العمل بنهر عيسى[١١٢] وهناك كثير غير هؤلاء وقد كان نصيرالدين الطوسي هو المتولى خلال حياته لاوقاف الامبراطورية الايلخانية وقد قدم بغداد سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م للنظر فى أمر أوقاف العراق[١١٣] وخلفه ابناؤه بعده . وفى ٧١٥هـ/١٣١٥م دخل بغداد علاءالدين عبدالرحيم بن محمد القزويني‌ثم المراغي وقد عين قاضي قضاةالعراق[١١٤] وقد كثر الحكام‌الفرس بالعراق ممن نجد اسماءهم فى مراجع العصر المهمة مثل الحوادث الجامعة وجامع التواريخ وتلخيص مجمع الآداب مما لا داعي للاطالة فيه حتى قال القلقشندى بانه لما انقرضت الخلافة العباسية استولت المغول والاعاجم على بغداد[١١٥] .

استعاد العلويون الكثير من نفوذهم واحترامهم في العراق بعد

---

(١٠٩) تلخيص مجمع الآداب ج٤ ، قسم ٢ ، ص٨٠١ .
(١١٠) الحوادث الجامعة ، ص٤٢٨-٤٤٨ .
(١١١) ن.م. ص٤٧٥ .
(١١٢) تلخيص مجمع الآداب ، ج٥ ص٤٠ .
(١١٣) الحوادث الجامعة ص ٣٥٠ .
(١١٤) تلخيص مجمع الآداب ، ج٤ ، قسم٢ ص١٠٢٦-١٠٢٧ .
(١١٥) صبح الاعشى ج١ ص٩٤ .

الاحتلال المغولي بفترة قصيرة وظلوا ينتظمون في نقابات منتشرة في مدن العراق المهمة يرأسهم نقيب العلويين في بغداد الذي لم يعد مع ذلك يعتبر أحد أكبر موظفي الدولة كما كان عليه الحال أيام الدولة العباسية . ففي ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م في اول العهد الايلخاني عيّن عزالدين ابن الموسوى العلوى نائب الشرطة . وفي ٦٦٤هـ/١٢٦٥م توفي النقيب علي بن طاووس وكان قد ولي النقابة سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م[١١٦] وفي ٦٦٧هـ/١٢٦٨م عيّن النقيب تاج الدين علي بن الطقطقي العلوي صدرا بالاعمال الحلية[١١٧] . وفي ٦٦٢هـ/ ١٢٦٢م تولى مجدالدين بن جميس العلوي الواسطي نقابة واسط . وفي ٦٧٧هـ/١٢٧٤م توفي النقيب جمال الدين محمد بن طاووس بالحلة[١١٨] وفي ٦٧٤هـ/١٢٧٤م توفي ركن الدين بن نقيب الموصل محي الدين محمد بن حيدر[١١٩] وفي ٦٧٨هـ/١٢٧٩م توفي كمال الدين علي بن جمال الدين أحمد ابن الصلايا العلوي المدائني نقيب الاسرة العلوية بالمشهد الحائري[١٢٠] وفي أيام السلطان غازان كان أمير الحاج في العراق هو زيد بن علي الحسنى[١٢١] وعند زيادة السائح ابن بطوطة للعراق في أواخر العهد الايلخاني مرّ بالنجف واشار الى نقيب العلويين فيها وسماه نقيب الاشراف وقال انه مقدم من ملك العراق ومنزلته رفيعة يحكم المدينة حيث لا وال فيها غيره ولا مغرم فيها للسلطان ولا لغيره وان له ترتيب الامراء الكبار في سفره[١٢٢] .

أما العائلة العباسية فقد قضى هولاكو على أكثر من كان منهم في بغداد أيام الفتح وطارد من بقي من أفرادها على قيد الحياة ولكن عودة الحياة الطبيعية

---

(١١٦) الحوادث الجامعة ص٣٣٣ ، ٣٥٠-٣٥٦ .
(١١٧) ن.م. ص٣٦٢ .
(١١٨) ن.م. ص٣٨٢ .
(١١٩) ن.م. ص٣٨٦ .
(١٢٠) تلخيص مجمع الآداب ج٥ ص٤٢٠ .
(١٢١) ن.م. ج٤ قسم٢ ص١٥٤ .
(١٢٢) تحفة النظار ج١ ص١١٠-١١١ .

الى البلاد واستقرار الحكم الايلخاني المغولي فيها أخذت تنسي الحكام أمرهم مما ساعد طائفة منهم على الظهور وربما العودة الى اوطانهم بعد تشريد وخوف ومع انهم زالوا كعائلة حاكمة فان جزء من احترام الناس لهم أخذ بالعودة فقد وصف محيي الدين بن شرف الدين يحي بن هبة الله العباسي النقيب (ت ٦٧٣هـ/١٢٧٤م) بأنه من بيت العلم والجلال والفقه والعدالة وأنه أُسر في واقعة بغداد سنة ست وخمسين وعمره تسع سنين ولكنه خلص من الاسر وعاد الى بغداد واستنيب في القضاء في الجانب الغربي من بغداد وولي رباط مشيخة الشونيزي ثم تدريس الحنفية بالمدرسة المستنصرية وجعل نقيبا على من بقى في العراق من بني العباس[١٢٣] وورد اسم عباسي آخر هو مجد الدين اسماعيل بن ابراهيم محمد العباسي السامري النقيب بانه (من أعيان سادات العباسيين بالعراق والبيت المبارك ومجد الدين واسطة قلادتهم ورئيس سادتهم وانه ولي النقابة على من تخلف من بني العباس في العراق سنة عشر وسبعمائة)[١٢٤] وذكر نفس المصدر ان عز الدين محمد بن جلال الدين الهاشمي البغدادي العدل وهو من البيت المعروف بالعدالة والرياسة والجلالة توكل للامير المغولي قتلغ بوقا وولي المدرسة النظامية وفي ٧١٢هـ/١٣٢١م تولي المدرسة المستنصرية وشكرت ولايته[١٢٥] وفي سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م سأل خواجه شرف الدين بن الصاحب شمس الدين محمد الجويني صاحب ديوان الممالك عمه علاء الدين عطا ملك صاحب ديوان العراق ان يزوجه من رابعة ابنة ابي العباس أحمد بن الخليفة المستعصم بالله فتم عقد الزواج في بغداد بموافقة أمها التي كانت كانت زوجة عمه علاء الدين وقد حضر العقد قاضي القضاة وجماعة العدول والمشايخ وكتب كتاب الصداق بهاء الدين بن الفخر

---

(١٢٣) تلخيص مجمع الآداب ج٥ ، ص٤٢٢-٤٢٣ .
(١٢٤) ن.م. ص١١٠ .
(١٢٥) ن.م. ج٤ قسم١ ص٣٣٤ .

عيسى الأربلي المنشىء وكان مليئا بعبارات المديح والتبجيل للخليفة المستعصم بالله وحفيدته[١٢٦] .

فوض هولاكو امر تنظيم ادارة العراق بعد رحيله من بغداد بعد الفتح سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م الى جماعة من العراقيين كان منهم الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي وفخرالدين ابن الدامغاني صاحب ديوان المستعصم بالله ونجم الدين عبدالغني ابن الدرنوس مستشاره وتاج الدين علي بن الدوامي حاجب الباب وغيرهم فعين هؤلاء الصدور والنظار وغيرهم ومنهم فخرالدين المبارك بن المخرمي الذى خدم الخلفاء العباسيين فى عدة وظائف منها صاحب ديوان بغداد،وقد رتب في أول العهد الجديد صدرا لدجيل والمستنصري[١٢٧] . وعندما توفي مؤيد الدين ابن العلقمي بعد اشهر قليلة عين مكانه ابنه عزالدين محمد فتوفي هذا فى السنة التالية ٦٥٧هـ/١٢٥٩م ووصفه ابن الفوطي بانه (من بيت السؤدد والفضل والتقدم فى جليل المناصب . كان كاتبا كاملا فصيح الانشاء)[١٢٨] وعندما توفي تاج الدين علي بن الدوامى صدر الاعمال الفراتية بعد فترة قصيرة عين عوضه ابنه مجدالدين حسين ثم نقل الى وظائف اخرى منها اشراف الحسلة وعند وفاته سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م وصفه صاحب الكتاب الموسوم بالحوادث الجامعة بانه (من البيت الأثيل المشهور خدم والده وجده الخلفاء) وانه كان (فاضلا عفيفا يقول الشعر)[١٢٩] وقد عين حفيد لمجدالدين ابن الدوامى يسمى مجدالدين ابو الفضل محمد بن شمس الدين احمد ابن الدوامى البغدادى فقيها للطائفة المالكية فى المدرسة المستنصرية[١٣٠] يضاف الى ذلك يبدو ان عائلة الدامغانى القديمة ظلت تحتفظ بمن يمثلها فى العهد الايلخانى وتعتبر احدى العوائل الكبيرة خلاله فمجدالدين ابو المظفر الحسين بن محمد بن احمد بن الدامغاني

---

(١٢٦) الحوادث الجامعة ص٣٦٨ـ٣٧٠ .
(١٢٧) ن.م. ص١٣١ـ٣٣٣ ، ٣٥٦ .
(١٢٨) تلخيص مجمع الاداب ج٤ قسم٢ ص٣٣٢=٣٣٣ .
(١٢٩) الحوادث الجامعة ص٤٤٤ـ٤٤٥ .
(١٣٠) تلخيص مجمع الآداب ج٥ ص٢١٩ .

حفيد صاحب ديوان الخليفة المستعصم بالله تولى المدرسة التتشية ووصفه ابن الفوطى بانه (من بيت الرياسة والتقدم والفضل والعدالة والقضاء والعلم)[١٣١] وهناك عدد آخر من العراقيين عملوا في خدمة المستعصم بالله واشغلوا مناصب في أيام الايلخانيين[١٣٢] وآخرون اشغلوا بعض المناصب أيام الإيلخانيين ووردت الاشارة الى انهم من بيوت قديمة معروفة[١٣٣] .

ولكن كل من ذكرنا من الاعاجم والعلويين والعباسيين والعوائل القديمة التي شاركت في الحكم خلال العهد الايلخاني لم يكونوا طبقة ارستقراطية تحتكر الحكم لنفسها جيلا بعد جيل وقد كان العلويون منتشرين فى مختلف المدن خصوصا في المشاهد المقدسة يتلقون الاحسان فيها من الحكام[١٣٤] . وظل المجتمع العراقى مفتوحا مطاطا غير طبقى والامثلة على ذلك كثيرة منها ان شمس الدين علي بن الاعرج (ت ٦٧٦هـ/١٢٧٧م) كان في أصله حمالا ثم اخذ يبيع الغلة والتمور فى الخانات ثم تولى تمغات بغداد وكان أميا وأثرى ودخل وظائف الحكومة وملك المماليك من الترك والروم وغيرهم[١٣٥] . ونورالدين احمد بن الصياد التاجر عين صدر الاعمال الواسطية سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م[١٣٦] وسعد الدولة اليهودي البغدادى (ت٦٩٠هـ/١٢٩١م) الذى اشغل ثانى منصب فى الدولة الايلخانية ايام السلطان أرغون وهو صاحب ديوان الممالك اى رئيس وزراء الامبراطورية وعين اقاربه حكاما فى بغداد والموصل وغيرها[١٣٧] .

هؤلاء وغيرهم من رجال العلم والدين والصوفية هم اعيان المجتمع العراقى وقادته واصحاب النفوذ فيه اما العامة وهم اكثرية الشعب فترد

---

(١٣١) ن٠م٠ ص١٢٩-١٣٠ .
(١٣٢) الحوادث الجامعة ص٤١٨-٤٤٣ ؛ تلخيص مجمع الآداب ج٥ ص١٣٨-١٣٩ .
(١٣٣) تلخيص مجمع الاداب ج٤ قسم ١ ص٤٧٧ ، قسم ٢ ص٦٨٧ ، ج٥ ص٢٢٦-٢٢٧ .
(١٣٤) انظر ص٢٥٦-٢٥٧ .
(١٣٥) الحوادث الجامعة ، ص٣٩٥ .
(١٣٦) ن٠م٠ ص٤٤٤ .
(١٣٧) انظر ص٢٠١-٢٠٤ .

الاشارات اليهم ايام الاضطرابات والشغب واصفة اياهم بالجهل والميل الى الفوضى والخرافة فمن ذلك ثورة عوام بغداد على الجاثليق الذى حاول تغريق نصرانى اسلم ومحاولتهم البطش بابن كمونة اليهودى الذى صنف كتابا طعن فيه بالاسلام ومشاركتهم بمعاقبة عدد من المجرمين السياسيين ومبالغتهم فى تقديس الاولياء وتمسكهم بالجوانب السطحية العاطفية من الدين وتعرضهم لاهل الذمة عندما امر السلطان غازان بالباسهم الغيار وغير ذلك مما ورد في اثناء الفصول السابقة من هذه الرسالة[١٣٨] . والحقيقة لا يمكن وضع حد فاصل بين الخاصة والعامة حتى ليبدو ان الناس كلهم كانوا من العامة أيام الاضطرابات السياسية او ان مظاهر الفوضى والعنف لم يكن يقوم بها الا طوائف صغيرة من العامة من الافضل ان نسميها الغوغاء وهم اقلية من السكان .

ولكن مطاطية المجتمع العراقي لم تكن تمنع تركيز المال في أيدي قليلة من السلاطين والامراء والخواتين والوزراء والولاة والحكام وهذا ما يفسر لنا شدة الضرائب المفروضة على السكان وتعسف الحكام فى جبايتها واتخاذهم اساليب القسر والارهاب فى جمعها وانفاقهم المبالغ الطائلة على مسراتهم وملذاتهم مما كان سببا واضحا من أسباب خراب البلاد وتدهورها[١٣٩] . كان للسلطان الايلخانى مشتى بأرجان بظاهر تبريز ومصيف فى قرباغ فى ايران . ففى مشتاه قصور لاكابر الامراء والخواتين اما عامة هؤلاء فكانت لهم زروب من القصب كالحظائر ينصبون معها الخركاوات والخيام حتى تصير مدينة متسعة يحرقونها اذا ما ارتحلوا دون ان يبالوا بما ينفقون عليها اما مصيفه ففيه قرى ممتدة اذا نزل فيها السلطان والامراء والخواتين انشأت فيها الجوامع والاسواق المتنوعة التي كان يوجد بها ما يوجد في المدن الكبار[١٤٠] .

اما رواتب الامراء والوزراء والخواتين فكانت عظيمة ضخمة يكاد

---

(١٣٨) انظر ص١٩٤-١٩ ، ٢٤١-٢٤٢ .
(١٣٩) انظر ص١٠٧-١١٩ .
(١٤٠) القلقشندى ، صبح الاعشى ج٤ ، ص٤٢٦-٤٢٧ .

بعضها لا يصدق فراتب أمير التومان (أي عشرة آلاف) أيام هولاكو زاد على عشرة الاف دينار ثم تزايد بعده حتى صار احيانا اكثر من نصف مليون دينار • وكان راتب جوبان القائد الاكبر للسلطان ابى سعيد اخر سلاطين الايلخانيين يزيد على ثلاثة ملايين دينار • أما راتب أمير ألف فكان حوالي الف دينار وراتب امير المائة ومن دونه حوالى مائة دينار • اما كبار الخواتين فكان يبلغ راتب الواحد منهم حوالي المليون دينار في السنة • وكان للوزير حوالى المليون ونصف المليون دينار فى السنة اما الخواجكية وارباب الاقلام فكان يزيد راتب بعضهم على الثلاثمائة دينار[١٤١] •

وقد اتهم مجد الملك اليزدى مشرف الممالك ايام السلطان اباقا بن هولاكو (٦٦٣ - ٦٨٠هـ) = (١٢٦٤ - ١٢٨١م) علاءالدين عطا ملك صاحب ديوان بغداد بانه استحوذ على ممالك بغداد وأعد لنفسه تاجا لا يليق الا بالملوك وان له خزائن ودفائن لا تحصى فاعتقل علاءالدين ودفع ثلاثمائة تومان ذهبا أى ثلاثة ملايين دينار لتخليص نفسه ولكنه طولب بأكثر من ذلك[١٤٢] وعندما جلس أباقا خان على سرير الملك سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٤م وزع على الامراء والخواتين كثيرا من النقود والجواهر والثياب الثمينة[١٤٣] • وفي ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م تزوج الخواجه هرون بن شمس الدين الجوينى صاحب ديوان الممالك من رابعة حفيدة المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين وكان صداقها مائة ألف دينار[١٤٤] • ومن الوجهة الاخرى ورد السلطان محمود غازان بغداد سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م واجتمع فى المدرسة المستنصرية باعيان بغداد ومنهم الشيخ زين الدين الآمدى فأعجب به ورسم له بمرتب قدره ثلاثمائة درهم في الشهر[١٤٥] •

---

(١٤١) ن٠م٠ ج٤ ، ص٤٢٥-٤٢٦ •
(١٤٢) جامع التواريخ ، ج٢ ، ص٧٧٥-٧٧٧ •
(١٤٣) ن٠م٠ ص٧٤٣ •
(١٤٤) الحوادث الجامعة ، ص٣٦٩ •
(١٤٥) صلاح الدين الصفـدى ، نكت الهميان فى نكت العميان ، ص٢٠٦ •

مراجع الكتاب

المخطـــــوطات :

(أ) العربيـــة :

ابن الدبيثي ، أبـو عبدالله محمد بن سعيد الواسطي (ت٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م) ، التاريخ المذيل به على تاريخ ابن السمعاني ، ج ١ و ٢ (نسخة مصورة غير كاملة موجودة في معهد الدراسات الاسلامية العليا في جامعة بغداد) .

ابن النجار ، محب‌الدين ابو عبدالله محمد بن محمود (ت ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م) ، ذيل تاريخ بغداد مدينة السـلام (نسخة مصورة في معهـد الدراسات الاسلامية العليا في جامعة بغداد وهي جزء فقط من الاصل) .

الجزرجي ، أبو الحسن علي بن الحسن (ت ٨١٢هـ/١٤٠٩م) ، العسجد المسبوك ، ج ٢ (نسخة مصورة تضمها مكتبة المجمـع العلمي العراقي) .

الصفدي ، صلاح‌الدين بن أيبك (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م) ، الوافـي بالوفيات ، ١٥ جزءً (نسخة مصورة محفوظة في المكتبة المركزية لجامعة بغداد) .

الغياثي ، عبدالله بن فتح‌الله (كان حيّاً سنة ٨٨٣هـ/١٤٧٨م) ، التاريخ الغياثي .

(ب) المخطوطـــات الافرنجية :

El-Fil, Muhammed Rashid, The Historical Geography of Iraq Between the Mongolian and Ottoman Conquests, 1258-1534. Phd. Dissertation, Reading University, 1959.

المطبـــــوعات :

(أ) العربيـــة :

ابن أبي أصيبعة ، موفق‌الدين أحمد بن القاسم بن خليفة (ت ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م) عيون الانباء في طبقات الاطباء (المطبعة الوهبية ، ١٨٨٢م) .

ابن أبي الحديد ، عزالدين أبو حامد عبدالحميد بن هبةالله المدائني (ت ٦٥٦هـ/١٢٥٨م) شرح نهج البلاغة ، خمسة أجـزاء ، (دار مكتبة الحياة – بيروت ، ١٩٦٣) .

ابن ابي الوفـاء ، محيي‌الـدين عبـد القـادر محمـد بن محمّد القرشي الحنفي المصري (ت٧٧٥هـ/١٣٧٣م) ، الجواهر المضية فى طبقات الحنفية (مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية ، حيدر آباد ، الهند) .

الحنفية (مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية ، حيدر آباد) .

ابن الأثير ، عزالدين محمد بن محمد بن عبدالكريم (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) ، الكامل في التاريخ ، تسعة أجزاء (مطبعة الاستقامة بالقاهرة) .

ابن بطوطة ، محمد بن عبدالله بن ابراهيم اللواتي الطنجي (ت٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) ، تحفة النظار في غرائب الامصار وعجـائب الاسفار ، جـزءان (القاهرة ، ١٩٣٨) .

ابن تيميه ، شيخ الاسلام ابو العباس تقي‌الدين أحمد بن عبدالحليم الحراني (ت ٧٢٨هـ/١٣٢٨م) ، مجـموعة الرسـائل والمسائل ، ج١ ، (مطبعة المنار بمصر ١٣٤١م) .

ابن جبير ، محمد بن أحمد الكناني الاندلسي (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م)، رحلة ابن جبير ، تحقيق دكتور حسين نصار (دار مصر للطباعة) .

ابن تغري بردي ، أبو المحاسن جمال‌الدين يوسف (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م) ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ١٢ جزء (القـاهرة ١٩٢٩ – ١٩٥٦) .

ابن الجوزي ، عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي (ت ٥٩٧هـ/

١٢٠٠م) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، خمسة أجزاء ، ط ١ ، (مطبعة دائرة المعارف الاسلامية ، حيدر آباد الدكن ، الهند ١٩٥٩م) .

ـــــــ ، (منسوب اليه) ، مناقب بغداد ، باعتناء بهجت الأثري (مطبعة دار السلام ، بغداد ١٣٤٢هـ) .

ابن حجر ، أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م) ، الدرر الكامنة في أعلام المائة الثامنة ، ٤ أجزاء (حيدر آباد ١٩٤٥ - ١٩٥٠م) .

ابن خرداذبة ، أبو القاسم عبيد بن عبدالله (ت في حدود ٣٠٠هـ/ ٩١٢م) ، المسالك والممالك ، باعتناء دى غويه (بريل ، ليدن ، ١٨٨٩م) .

ابن خلدون ، عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م) ، العبر وديوان المبتدا والخبر ، ط ٢ ، سبعة مجلدات (بيروت ، ١٩٥٦-١٩٦١م) .

ابن خلكان ، أبو العباس شمس‌الدين أحمد بن محمد (٦٨١هـ/ ١١٢٨٢م) ، وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان ، ستة اجزاء ، تحقيق محمد محيي‌الدين عبدالحميد ، ط ١ (نشر مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٣٦٧هـ) .

ابن رسته ، أبو علي أحمد بن عمر (كان حياً سنة ٢٩٠هـ/٩٠٢م) ، الاعلاق النفيسة ، ج٧ (ليدن ، ١٨٩١م) .

ابن الساعي ، ابو الطالب علي بن أنجب تاج‌الدين (ت ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م) ، الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير ، عني بنشره الدكتور مصطفى جواد ج ٩ (المطبعة السريانية الكاثوليكية ، بغداد ، ١٩٣٤م) .

ابن سعيد المغربي ، علي بن موسى (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م) ، بسط الأرض في الطول والعرض ، تحقيق الدكتور خوان فرنيط خينيس .

ابن سينا ، الشيخ الرئيس أبو علي الحسن بن عبدالله (٤٢٨هـ/ ١٠٣٦م) ، القانون في الطب ، ٣ أجزاء (القاهرة ١٢٩٤هـ) .

ابن شاكر الكتبي ، محمد بن أحمد (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢) ، فوات الوفيات ، جزءان (مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٥١) .

ابن الصابوني ، جمال‌الدين محمد بن علي (ت ، ٦٨٠هـ/١٢٨١م)، تكملة اكمال الكمال ، حققه وعلق عليه الدكتور مصطفى جواد (مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٥٧م) .

ابن طاووس الحسني الحسيني ، رضي‌الدين ابو القاسم علي بن موسى (ت ٦٦٤/١٢٦٥م) ، كشف الحجة لثمرة المهجة (المطبعة الحيدرية في النجف ١٩٥٠م) .

ابن الطقطقى ، محمد بن بن طباطبا العلوي (ت ٧٠١هـ/١٣٠١م) ، الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية (بيروت ، ١٩٦٠) .

ابن عبدالحق ، عبدالمؤمن (ت ٧٣٩هـ/١٢٣٨م) ، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، ٣ أجزاء ، تحقيق علي البجاوي ، ط ١ (دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٤م) .

ابن العبري ، غريغوريوس ابو الفرج اهرون الطبيب (ت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) ، تاريخ مختصر الدول (المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٨٩٠م) .

ابن عنبة ، أحمد بن علي (ت ٨٢٨هـ/١٤٢٤م) ، عمدة الطالب في انساب آل ابي طالب (النجف ، ١٩٦١) .

ابن العماد الحنبلي ، ابو الفلاح عبدالحي (ت ١٠٨٩/١٦٧٨م) شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ٨ أجزاء (مكتبة القدس ، القاهرة ، ١٣٥٠ - ١٣٥١هـ) .

ابن الفقيه ، ابو بكر أحمد بن محمد الهمداني (ت ٣٦٥هـ/٨٧٨م)، مختصر كتاب البلدان (ليدن ، ١٣٠٢هـ) .

ابن الفوطي ، كمال‌الدين عبدالرزاق (ت ٧٢٣هـ/١٣٢٣م) ، تلخيص

مجمع الآداب في معجم الألقاب ، ج ٤ ، قسم ١ ـ ٣ ، تحقيق الدكتور مصطفى جواد ، ١٩٦٢ ـ ١٩٦٥م .

ـــــــ ، ج ٥ ، تصحيح وتعليق الحافظ محمد عبدالقدوس القاسمي ، ١٩٤٠ .

ابن قطلوبغا ، أبو العدل زين الدين قاسم (ت ٨٧٩هـ/١٤٧٤م) ، تاج التراجم في طبقات الحنفية (مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٦٢) .

ابن القفطي ، جمال‌الدين ابو الحسن (ت ، ٦٤٦هـ/١٢٤٨م) ، تاريخ الحكماء (ليبسك ، ١٣٢٠ هـ) .

ابن كثير ، اسماعيل بن عمر الدمشقي (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م) ، البداية والنهاية في التاريخ ، ١٤ جزء (مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٣٢) .

ابن مماتي ، أسعد (ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م) ، قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطية (مطبعة مصر ، القاهرة ١٩٤٣) .

ابن الوردي ، زين‌الدين عمر (ت ، ٧٥٠هـ/١٣٤٩م) ، تتمة المختصر في أخبار البشر ، جزءان (المطبعة الوهبية ، القاهرة ، ١٢٨٥هـ) .

ابو شامة ، شهاب‌الدين ابو محمد عبدالرحمن بن اسماعيل المقدسي الدمشقي (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦م) ، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين ، ط ١ ، ١٩٤٧ .

ابو الفداء ، عمادالدين اسماعيل صاحب حماة (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م)، تقويم البلدان (باريس ، ١٨٤٠م) .

ـــــــ ، المختصر في أخبار البشر ، (دار الكتاب اللبناني ، بيروت).

ابو يوسف ، يعقوب بن ابراهيم (ت ١٨٢هـ/٧٩٨هـ) ، الخراج ط٢ (المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٥٢هـ) .

اخوان الصفاء ، رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء ، ٤ اجزاء (مطبعة دار

بيروت ودار صادر ، ١٩٥٧م) .

أدي شير رئيس اساقفة سعرد الكلداني الآثوري ، تاريخ كلدو وآثور ، جزءان (المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩١٢ - ١٩١٣م) .

الأربلي ، عبدالرحمن سنبط فنيتو (ت ٧١٧هـ/١٣١٧م) ، كتاب خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك (مطبعة القديس جاورجيوس للروم الأرثذوكس ، ١٨٨٥م) .

الاصطخري ، أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي (ت ٣٤١هـ/ ٩٥٢م) ، مسالك الممالك (دي غوية ، بريل ، ليدن ١٩٢٧ م) .

الف ليلة وليلة ، ط ١ ، مقابلة وتصحيح الشيخ محمد قطة العدوي ، اعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد ، جزءان ، (مطبعة بولاق ١٢٥٢هـ) .

بابو اسحق ، رفائيل ، احوال نصارى بغداد في عهد الخلافة العباسية (مطبعة شفيق ، بغداد ، ١٩٦٠) .

ـــــــ ، تاريخ نصارى العراق (مطبعة المنصور ، بغداد ، ١٩٤٨م) .

البغدادي ، زين الدين ابو الفرج عبدالرحمن بن شهاب الدين أحمد ، (ت ٧٩٥هـ/١٣٩٢م) ، كتاب الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب ، جزآن (مطبعة السنة المحمدية ، ١٩٥٢) .

التطيلي الأندلسي ، بنيامين بن يونه (٥٦٩هـ/١١٧٣م) ، رحلة ، ترجمها عن الأصل العبري وعلق على حواشيها وكتب ملحقاتها ، عزرا حداد (المطبعة الشرقية ، بغداد ١٩٤٥) .

جواد ، الدكتور مصطفى والدكتور أحمد سوسه ، دليل خارطة بغداد (مطبعة المجمع العلمي ، ١٩٥٨م) .

حبيب زيّات ، الخزانة الشرقية ، ٤ أجزاء (المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٤٦ - ١٩٤٨م) .

حتّي ، الدكتور فيليب والدكتور أدورد جرجي والدكتور جبرائيل جبور ، تاريخ العرب مطول ، ٣ أجزاء (بيروت ، ١٩٥٣ - ١٩٦١م) .

حسن ، الدكتور حسن ابراهيم ، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ٣ اجزاء (مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٢-١٩٦٤م).

حسنين ، عبدالمنعم ، سلاجقة ايران والعراق (القاهرة ، المكتبة الفيضية ، ١٩٥٩م) .

الحوادث الجامعة ، المنسوب لعبدالرزاق بن الفوطي ، تحقيق الدكتور مصطفى جواد (بغداد ، ١٣٥١هـ) .

الحلي ، العلامة جمال‌الدين الحسن بن يوسف (٧٢٦هـ/١٣٢٥م) ، كشف اليقين في فضائل أمير المؤمنين (المكتبة الجغرافية ، النجف الاشرف).

حمدي ، حافظ أحمد ، الدولة الخوارزميّة والمغول (دار الفكر العربي ، ١٩٤٩م) .

ـــــــ ، العالم الاسلامي قبيل الغزو المغولي (دار الفكر العربي ، ١٩٥٠) .

الحيدري البغدادي ، ابراهيم فصيح (كتب سنة ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م) ، عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد (مطبعة دار البصري ، بغداد) .

الخفاجي ، عبدالمنعم ، بنو خفاجة وتاريخهم السياسي والأداري (المنيرية ، ١٩٥٢) .

خسرو علوي ، ناصر ، سفرنامه ، ترجمه وعلق عليه الدكتور يحيى الخشاب ، ط ١ (القاهرة ، ١٩٤٥) .

الخلف ، الدكتور جاسم محمد ، محـــاضرات في جغرافية العراق الطبيعة والاقتصادية والبشرية ، ط ٢ (القاهرة ، ١٩٦١م) .

خيرالله ، الدكتور أمين أسعد ، الطبّ العربي (المطبعة الاميركانية ، بيروت ، ١٩٤٦م) .

الدوري ، الدكتور عبدالعزيز عبدالكريم ، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجرى(مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٤٨م) .

ـــــــ ، دراسات في العصور العباسية المتأخرة (مطبعة السريان ، بغداد ، ١٩٤٥م) .

الديار بكري ، حسين بن محمد بن الحسن (ت ٩٩٠هـ/١٥٨٢م) ، تاريخ الخميس في أحـــوال أنفس نفيس ، جـــزءان (المطبعة الوهبية ، القاهرة ، ١٢٨٣هـ) .

دير هاكوبيان ، الدكتور موسيس ، حالة العراق الصحية في ربع قرن (مطبعة الاتحاد ، الموصل ، ١٩٤٨) .

الذهبي ، الحافظ شمس‌الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) ، دول الاسلام ، جزءان (مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن الهند ، ١٣٦٤هـ) .

الرازي ، أبو بكر محمد بن زكريا (ت ، ٣١٣هـ/٩٢٥م) ، كتاب الحاوي في الطب ، ٩ أجزاء ، ط ١ (مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ـ الهند ، ١٩٥٥ ـ ١٩٦٠) .

الريّس ، محمد ضياءالدين ، الخراج في الدولة الاسلامية ، ط ١ (مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ١٩٥٧م) .

الزبيدي ، محب‌الدين أبو الفيض محمد مرتضى الحسيني الواسطي الحنفي ، تاج العروس من جواهر القاموس ، ط ١ ، عشرة أجزاء (المطبعة الخيرية بجمالية مصر ، ١٣٠٦هـ) .

زيدان ، جـــرجي (ت ، ١٣٣٣هـ/١٩١٤م) ، تاريخ آداب اللغـة العربية ، ٤ أجزاء (دار الهلال ، القاهرة) .

ـــــــ ، تاريخ التمدن الاسلامي ، ٥ أجزاء (دار الهلال ، القاهرة).

سبط ابن الجوزي ، شمس‌الدين ابو المظفر يوسف بن قزأوغلي بن عبدالله البغدادي (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م) ، مرآة الزمان ، ط ١ ، (مطبعـة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ، الهند ، ١٣٧٠هـ) .

السبكي ، أبو نصر عبدالوهاب بن تقي‌الدين (ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م) ، طبقات الشافعية الكبرى ، ٦ أجزاء ، ط ١ (المطبعة الحسينية ، القاهرة ، ١٣٢٤هـ) .

السلامي ، محمـد بن رافع (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) وانتخبه التقي الفاسي المكي ، تاريخ علماء بغداد المسمى منتخب المختار ، صححه وعلق على حواشيه المحامي عباس العزاوي (مطبعة الاهالي ، بغداد ، ١٩٣٨) .

السيوطي ، جلال‌الدين عبدالرحمـــن بن ابي بكر (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م) ، تاريخ الخلفاء أمير المؤمنين القائمين بأمر الامة ، تحقيق محمد محيي‌الدين عبدالحميد ، ط ٢ (مطبعة السعادة ، مصر ، ١٣٧٨هـ) .

سوسه ، الدكتور أحمد ، ريّ سامراء في عهد الخلافة العباسية ، جزءان (مطبعة المعارف ، بغداد) .

ـــــــ ، فيضانات بغداد في التاريخ ، ثلاثة أجـزاء (مطبعة الأديب البغدادية ، ١٩٦٣ ـ ١٩٦٦م) .

ـــــــ ، أطلس بغداد ، تاريخي وجغرافي (بغداد ، ١٩٥٢م) .

شيخ الربوة ، شمس‌الدين ابو عبدالله بن محمد بن أبي طالب (ت ، ٧٢٧هـ/١٣٢٦هـ) ، كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر (ليبزج ، ١٩٢٣م) .

الشيزري ، عبدالرحمن بن نصر (ت ٥٨٩هـ/١١٩٣) ، نهاية الرتبة

في طلب الحسبة ، باعتناء الباز العريني (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٦) .

شهبندر ، الدكتور عبدالغني ، الوقاية من الامراض المعدية (بيروت ، ١٩٢٩م) .

الصابي ، أبو اسحق ابراهيم بن هلال (ت ٣٨٤هـ/٩٩٤م) ، المختار من الرسائل ، باعتناء شكيب ارسلان ، ج ١ (المطبعة العثمانية في بعبدا ، ١٨٩٨م) .

الصابي ، أبو الحسن هلال بن المحسن بن ابراهيم بن هلال (ت ٤٤٨هـ/١٠٥٦م) ، رسومن دار الخلافة ، تحقيق ميخائيل عواد (مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٦٤م) .

الصفدي ، صلاح‌الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م) ، نكت الهميان في نكت العميان (المطبعة الجمالية ، مصر ١٩١١م) .

عمرو بن متّى ، أخبار فطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل (روما ، ١٨٩٦م) .

العلوجي ، عبدالحميد ، تاريخ الطب العراقي (مطبعة اسعد ، بغداد ١٩٦٧م) .

العزاوي ، عباس ، تاريخ الضرائب العراقية (بغداد ، ١٩٥٩م) .

ـــــــ ، تاريخ النقود العراقية (بغداد ، ١٩٥٨م) .

ـــــــ ، التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان (بغداد ، ١٩٥٧م) .

ـــــــ ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ج ١ ، حكومة المغول (بغداد ، ١٩٣٥م) .

ـــــــ ، تاريخ الادب العربي في العراق ، جزءان (مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٩٦١ - ١٩٦٢م) .

عواد ، كركيس وعبدالرحمن العلوجي ، جمهرة المراجع البغداديـ (مطبعة الرابطة ، بغداد ، ١٩٦٢م) .

غنيمة ، يوسف رزق الله ، نزهة المشتاق في يهود العراق (مطبعة الفرات ، بغداد ، ١٩٢٤م) .

فضل‌الله الهمداني ، رشيدالدين ، جامع التواريخ ، مج٢ ج١ ج٢ ، ترجمة محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوي وفؤاد عبدالمعطي الصياد ، القاهرة .

الفيروزآبادي ، مجدالدين محمد بن يعقوب (٨١٧هـ/١٤١٤م) ، القاموس المحيط ، ٤ أجزاء (مطبعة شركة فن الطباعة ، القاهرة ، ١٩١٣م).

القلقشندي ، أحمد بن علي بن أبي اليمن القاهري الشافعي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) ، صبح الأعشى في صناعة الانشا ، ١٤ جزء (مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٢٢م) .

القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م) ، آثار البلاد وأخبار العباد (دار صادر ، دار بيروت ، ١٩٦٠) .

الكازروني ، ظهيرالدين أبو الحسن علي بن محمد (ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م) ، مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية ، تحقيق كوركيس عواد وميخائيل عواد (مطبعة الارشاد ، بغداد ، ١٩٦٢م) .

الـكلداني ، القس بطرس نصري ، كتاب ذخيرة الأذهان في تواريخ المشارقة والمغاربة السريان ، جزءان(الموصل ، مطبعة دير الآباء الدومنيكيين، ١٩٠٥ - ١٩١٣م) .

لسترنج ، غي ، بغداد في عهد الخلافة العباسية ، ترجمه عن الانكليزية وعلق عليه بشير يوسف فونسيس (المطبعة العربية ، بغداد ، ١٩٣٦م) .

ـــــــ ، بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، (مطبعة لرابطة بغداد ، ١٩٥٤م) .

المقدسي البشاري ، محمد بن أحمد (٣٧٥هـ/٩٨٥م) ، أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، تحقيق دى غويه (مطبعة بريل ، ليدن ، ١٩٠٦م) .

المقريزي ، تقي‌الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) ، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، جزءان (مطبعة بولاق ، ١٢٧٠هـ) .

ـــــــ ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ٦ أجزاء ، تحقيق محمد مصطفى زيادة (دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٣٦م) .

ـــــــ ، البيان والأعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، تحقيق الدكتور عبدالمجيد عابدين (القاهرة ١٩٦١) .

ماري بن سليمان ، أخبار بطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل (روما ، ١٨٩٩م) .

متز ، آدم ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، جزءان ، ترجمة محمد عبدالهادي أبي ريدة ، ط ٣ ، (مطبعة لجنة التأليف والترجمة، ١٩٥٧م) .

ممفورد ، لويس ، المدينة على مرّ العصور ، أشرف على ترجمته الدكتور ابراهيم نصحي (القاهرة ١٩٦١م) .

المجوسي ، علي بن العباس (كان حياً سنة ٣٨٤هـ/٩٩٤م) كامل الصناعة الطبية ، جزءان (المطبعة الكبرى ، ١٢٩٤هـ) .

النسوي ، محمد بن أحمد (ت ٦٣٩هـ/١٢٤١م) ، سيرة السلطان جلال‌الدين منكوبرتي (القاهرة ، ١٩٥٣) .

النصيبي ، أبو القاسم (ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م) صورة الأرض ، ج٢ (مطبعة بريل ، ليدن ، ١٩٣٨م) .

النقشبندي ، ناصر ، الدينار الاسلامي في المتحف العراقي (مطبعة الرابطة ، بغداد ، ١٩٥٣م) .

النويري ، شهاب‌الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م) نهاية الارب في فنون الادب (صدر منه ١٨ جزء) ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٩ - ١٩٥٥) .

الوتري ، الدكتور هاشم والدكتور معمر الشابندر ، تاريخ الطب في العراق (بغداد ، ١٩٣٩م) .

الهروي ، أبو الحسن علي بن أبي بكر (ت ٦١١هـ/١٢١٤م) ، الأشارات الى معرفة الزيارات ، عنيت بنشره وتحقيقه جانين سورديل - طومين (دمشق ، ١٩٥٣م) .

الهمداني ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) ، صفة جزيرة العرب (مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٥٣م) .

اليونيني ، موسى بن محمد الحنفي(ت٧٣٦هـ/١٣٣٥م) ، ذيل مرآة الزمان ٤ أجزاء (حيدر آباد ، ١٣٧٤ - ١٣٧٥هـ) .

ياقوت الحموي الرومي ، شهاب الدين ابو عبدالله (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م) ، معجم البلدان ، خمسة اجزاء (دار صادر ، دار بيروت ١٩٥٥ - ١٩٥٧م) .

(ب) الكتب الفارسية :

علاءالدين عطا ملك الجويني (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م) ، تاريخ جهانكشاي ، ٣ أجزاء (ليدن ، ١٩١١ - ١٩٣٧) .

حافظ ابرو، شهاب‌الدين عبدالله بن لطف‌الله بن عبدالرشيد الخوافي (ت ٨٣٨هـ/١٤٣٤م) ، ذيل جامع التواريخ رشيدي (شركة تضامني علمي ، تهران ١٣١٧هـ) .

خوندمير ، غياث‌الدين بن‌همام‌الدين، دستور الوزراء ، باتصحيح‌ومقدمة سعيد نفيسي (تهران ، ١٣١٧هـ) .

الشيرازي ، شهاب‌الدين عبدالله بن فضل الله ، وصاف الحضرة (ت ٧٣٥هـ/١٣٣٤ - ٥ م) ، تجزية الأمصار وتزجية الأعصار ، ط • بومبي ، ١٢٤٩هـ •

فضل‌الله بن عمادالدولة ، رشيدالدين (ت ٧١٨هـ/١٣١٨م) ، تاريخ مبارك غازاني ، داستان غازان ، بسعي واهتمام كارل يان (لندن ، ١٩٤٠م) •

ـــــــ ، جامع التواريخ ، جزءان ، بكوشش دكتر بهمن كريمي (تهران ، ١٣٣٨م) •

(ج) الكتب الافرنجية :

Arnold, Sir Thomas and Alfred Guillaume, The Legacy of Islam (Oxford, 1931).

Baron, Salo Wittmayer, A social and Religious History of the Jewes, 2nd Edition, 8 vols (Columbia University Press, New York).

Bonné, Alfred, The Economic Development of the Middle East (London, 1945).

———, State and Economies in the Middle East (London, 1940).

Bretschneider, E., Medieval Researches from Eastern Asiatic Sources, 2 Vols (London, Kegan Paul, Trench, Trubner and Co. Ltd).

D'Ohsson, M. Le Baron C., Historie Des Mongols, Depuis Tchinguiz-Khan Jusqu'A Timour Bey ou Tamerlan, 4 vols (La Haye et Amsterdam, 1934-1935).

The Encyclopaedia of Islam, 1st and 2nd Editions.

Browne, Edward G., A Literary History of Persia,

4 Vols (Cambridge at the University Press, 1951-1953). Encyclopaedia Britannica, 24 Vols, 1965.

Grousset, René, L'Empire Des Steppes (Paris, 1952).

Contenau, Georges, Every Day Life in Babylon and Assyria (London, 1955).

Huc, M. L'abbé, Christianity in China, Tartary and Thibet, 2 Vols. (London, 1857).

The Jewish Encyclopedia, New York and London Funk and Wagnalls Company, 1902), 12 Vols.

Juvaini, 'Ata-Malik, The History of the World Conqueror, 2 Vols, Translated by J.A. Boyle (Manchester University Press, 1958).

Komoroff, Manuel, Editor, The Travels of Marco Polo (The Modern Library, New York).

Levy, Reuben, The Social Structure of Islam (Cambridge University Press, 1962).

Lokkegaard, Frede, Islamic Taxation in the Classic Period (Copenhagen, 1950).

Mustawfi of Qazwin, Hamd-Allah, The Geoographical Part of the Nuzhat-Al-Qulub, Trnslated by G. Le Strange, (Leyden, 1919).

M. Minovy and V. Minorsky, Nasir Al-Din Tusi on Finance, Bulletin of the School of Oriental Studies, Vol 10, (Uiversity of London, 1940-1942).

Thomas Malthus, Julian Huxley, Frederick Osborn, On Population (A Mentor Book, Pubished by the New American Library), New York, 1960.

Prawdin, Michael (Translated by Eden and Cedar Paul), The Mongol Empire (London, 1953).

Sassoon, David Solomon, A History of the Jews in Baghdad, (Letchworth, 1949).

المجـــــلات :

(أ) العربيـــة :

مجلة غرفة تجارة بغداد ، ١٩٤٣ .

مجلة سومر ، مج١٨ ١٩٦٢ ، مج٢٠ ١٩٦٤ .

مجلة المشرق ، مجلة كاثوليكية شرقية تبحث في العلم والأدب والفن ، بيروت ، السنة الخمسون ، ١٩٥٦ .

(ب) الافرنجيـــة :

Journal of the Economic and Social History of the Orient, Vol. VI.

Journal of Semitic Studies, Vol. 6, No. 2.

The Listener, 1965.

فهرس لأهم الاعلام والمدن والقبائل

(أ)

الاجود ، قبيلة : ١٧٠ .

الاشرف ، صاحب دمشق : ١٥

الايلخانيون : ٣ ، ٣٣ ، ١٤٣ ، ١٤٧ ، ١٥١ ، ١٦٩ ، ١٧١ ، ١٧٥ ، ٢٥٠ .

الافغان: ١ .

الاسماعيلية : ١٨ ، ٣٢ ، ٣٧ ، ٤٩ .

الأنبار : ٥١ ، ٥٩ ، ٥٧ .

آسيا : ١ .

آسيا الصغرى : ٢ ، ٧ ، ١٥ .

اسماعيل ، الملك الصالح : ٥٨ .

أسد : ١٦٨ ، ١٧١ .

ابن برجم ، سليمان شاه : ٥٠ .

ابن أبى الحديد ، عز الدين عبدالحميد : ٢٧ .

ابن الاثير : ١ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥٣ .

ابن تيمّية ، العلامة : ٤ .

ابن البجلي ، سراج الدين : ٨١ .

ابن بطوطة : ٦٢ ، ٩٧ ، ١٤٠ ، ١٦١ ، ٢١٦ ، ٢٢٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ .

ابن الجوزي ، شرف الدين : ٤٩ .

ابن الجوزي ، سبط : ٢٦ .

ابن خلدون ، عبدالرحمن بن محمد ، ٢٨ .

ابن الدامغاني ، فخر الدين صاحب الديوان : ٥٤ ، ٦٦ .
ابن جبير ، السائح : ٦٣ ، ٩٦ ، ١٢٧ ، ١٥٢ ، ٢١٦ ، ٢١٧ .
ابن الساعى : ١٠٠ .
ابن سعيد المغربي : ٩٨ ، ١٦٣ .
ابن السواملي ، ابراهيم بن محمد التاجر : ١٠٥ .
ابن الصلايا ، تاج الدين محمد : ٣١ ، ٣٢ ، ٣٩ .
ابن طاووس ، رضي الدين على بن موسى : ٣٨ .
ابن الطقطقي : ١٤ .
ابن العلقمي ، مؤيد الدين محمـــد بن احمد الوزير : ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٤٢ ، ٦٦ .
ابن العبرى ، ابو الفرج : ٣٦ ، ٤١ ، ٢٤٨ .
ابن فضل الله العمرى : ٦٣ .
ابن فضلان ، محمد بن يحيى الشافعي : ١٨٤ .
ابن كرّ ، فتح الدين : ٥٠ ، ٥١ .
ابن الناقد ، ابو الازهر أحمد ، نائب الوزارة : ٢٧ .
ابن الماشعيري ، مهذب الدولة : ٧٦ .
ابن المطهّر الحلي ، العلامة جمال الدين : ١٠٤ ، ١٨٢ .
اباقا بن هولاكو ، سلطان الايلخانيين : ٧٠ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٣ ، ١٠٣ ، ١١٣ ، ١٧٥ ، ٢٢٦ .
ابو سعيد ، سلطان الايلخانيين : ١٤٣ ، ١٩٦ .
ابي حنيفة ، محلة : ٢٢ .
أحمد (تكودار) بن هولاكو ، سلطان الايلخانيين : ٨٤ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٩٣ .
أحمد بن عمران ، نجم الدين : ٦٦ .
أذربيجان : ١٢ ، ٤٤ ، ٧٩ .
أذينا ، الامير : ٧٦ .

أربيـل : ٨ ، ٩ ، ٣٢ ، ٥٩ ، ٦٥ ، ٧٩ ، ٨٨ ، ٩٨ ، ١٢١ ، ١٣٠ ، ١٦١ ، ١٦٦ ، ١٨٥ .
أرقيو نويان : ٥٨ .
أرغون بن اباقا ، سلطان الايلخانيين : ٤٤ ، ٤٧ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ١١٧ ، ١٤٧ ، ١٨٨ ، ١٩٣ ، ٢٠١ ، ٢٦٤ .
اقبال الشرابى ، شرف الدين ، قائد الخليفة : ١٠ ، ١١ .
آل ابي علي ، ١٧٠ .
آل ابي مالك : ١٧٠ .
آل تميم : ١٧٠ .
آل دعيج : ١٧٠ .
آل رفيع : ١٧٠ .
آل سرّية : ١٧٠ .
آل شرود : ١٧٠ .
آل عقيل : ١٧٠ .
آل مسافر : ١٧٠ .
أوغوتاي بن جنكيز خان ، الخاقان المغولي : ٥ ، ٧ ، ٨ ، ١٦ .
ايران : ١ ، ٢ ، ٥ ، ١٣ ، ١٣٣ ، ١٤٢ ، ١٩٧ .

(ب)

باب الأزج : ٢١ ، ٦٠ ، ٦١ .
باب البصرة : ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٨ .
باب كلواذى : ٦١ .
باب النوبي : ٢١ .
باجسرا : ٩٨ .
باتكين الرومي ، الامير : ٩ .
بادرايا : ٦ .

باصفرا : ٨٨ .
باقدارا : ١٢٨ .
باكسايا : ٦ .
بايجو نويان ، ٥٠ .
بايدو ، الامير المغولى : ٨٥ ، ١٤٥ ، ١٩٤ .
البت : ١١ .
برج العجمي : ٥٢ .
بركاي خان بن جوجى : ٣ .
بشير ، نهر : ٥١ .
بعقوبا : ٦ ، ٥١ ، ٩٨ .
بغداد : ١ ، ٣ ، ٥ ، ٨ ، ٩ ، ١١ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٩٥ ، ١٢١ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٥٥ ، ٢١٢ ، ٢٢٦ .
البصرة : ٩٢ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ١٠٠ ، ١٢٩ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ٢١٢ ، ١٤٤ ، ١٧٧ .
بدرالدين لؤلؤ ، امير الموصل : ١٧ ، ٢٨ .
البطائح : ٥٧ ، ٩١ .
بكر بن وائل : ١٦٨ .
بنو حمدان : ١٥٦ ، ١٧٢ .
بنو شيبان : ١٧٢ .
بنو عامر : ١٧٣ .
بنو لام : ١٧٠ .
بنو المنتفق : ١٧١ .
البندنيجين : ٧٩ ، ١٠٠ ، ١٣٠ .
البندنيجى ، عبدالمنعم أقضى القضاة : ٧١ ، ٧٢ .
البوازيج : ٨٨ .
بيت خوريدا : ١٩٠ .

(ت)

التاجيّة ، المدرسة : ٢٢ .

تامرا : ٩١ .

تبريز : ١ ، ١٣٣ .

التشية ، المدرسة : ٦٢ .

تتارقيا ، الشحنة : ٧٥ .

تجتكاي ، القائد المغولى : ٩ .

التطيلي ، بنيامين بن يونة : ١٩٨ ، ٢٠٠ .

تركستان : ٢ ، ١٣٣ .

تكريت : ٢ ، ٦ ، ١٠ ، ٩١ ، ٩٩ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٦٦ .

تميم : ١٧٠ .

توكال بخشي ، الشحنة : ٧٥ .

(ج)

جرماغون نويان : ١٠ ، ٤٥ ، ٥٠ .

الجزيرة ، بلاد : ٤ ، ١٢ .

جلولاء : ٥٢ .

جلال‌الدين منكوبرتي ، سلطان خوارزم : ٥ ، ٨ ، ١٥ ، ٤٢ .

جمال‌الدين قشتمر ، القائد : ٩ .

جنكيز خان ، الفاتح المغولي : ١ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٧ ، ٨ ، ١٤ ، ٤٥ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٨٧ .

جورجيا : ١ .

جوبان ، القائد : ١٠٦ .

الجويني ، علاءالدين عطا ملك صاحب ديوان بغداد : ٥٠ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٥ ، ٨٢ ، ١٠٣ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٣ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ .

جيحون ، نهر : ٤٨ ، ١٣٥ .

(ح)

حديثة الموصل : ٩٠ .
حرّان : ١٨ .
حربى : ٥١ ، ١٢٨ ، ١٣٠ .
حزّة : ١٣٠ .
حمص : ١٨ .
حلب : ١٠ .
الحلة : ٣٥ ، ٥٧ ، ٨٠ ، ٩٦ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٥٥ ، ١٦٦ ، ٢٠٨ .
حلوان : ٢ ، ٥١ ، ١٥٣ ، ١٦١ ، ١٨٦ .

(خ)

خانقين : ١٠ ، ١١ .
خدابنده ، سلطان الايلخانيين : ١٨٢ .
خراسان : ٥ ، ١١ ، ٤٤ ، ٧٩ ، ١٣٩ .
الخطا : ١٣ .
الخضريين ، محلة : ٢٢ .
خفاجة : ١٣٩ ، ١٧٣ ، ١٧٦ .
الخوارزمية ، الدولة : ٧ .
خوارزم : ١ ، ٢ ، ٤ ، ١٢ .
خوزستان : ٢ ، ١٣ ، ٥٧ ، ٦٥ ، ١١٥ ، ١٢٧ .

(د)

دار الشجرة : ٦٢ .
دار القز : ١٣٠ .
دجـلة : ٩٠ ، ٩١ .

دجلة العوراء : ٩٢ •
دجيل ، نهر : ١١ ، ٥١ ، ٩١ ، ٩٤ ، ١٥٣ •
الدستجرداني ، جمال‌الدين : ٦٨ ، ٨٢ •
دقوقا : ٦ ، ٨ ، ١١ ، ٩٩ ، ١٠٠ •
دمشق : ١٨ ، ١٤٥ •
الديار بكري ، الشيخ حسن : ٣٢ •

(ر)

راذان : ٦ ، ١١ •
ربيعة : ١٦٩ •
رشيدالدين فضل‌الله ، الوزير والمؤرخ : ٢٠ ، ٣٦ ، ٦٠ •
الرصافة ، محلة : ٢٢ •
روسيا : ١ ، ٢ •
الرها : ١٨ •

(ز)

الزاب الكبير : ٩١ •
الزاب الصغير : ٩١ •
زبيد : ١٧٠ •

(س)

سامراء : ١ ، ١٥١ •
سبن : ١٢٨ •
السبكى ، تاج‌الدين : ٣١ •
السري : ١٤٠ •

سعد الدولة اليهودي ، صاحب ديوان الممالك : ٦٨ ، ٧٦ ، ٨١ ، ٢٠١ - ٢٠٣ .
السلجوقيون : ٥ ، ١٥٩ .
السلطانية : ١٣٣ ، ١٣٥ .
سمرقند : ٤٧ .
سنبس : ١٧٠ .
سنجار : ٨ ، ٧٩ ، ١٦٧ .
سورية : ٣ ، ٧ ، ٣٥ ، ١٤٠ .
السيب : ١٤٤ .
سيحون ، نهر : ٣ .

(ش)

شارع دار الرقيق ، محلة : ٦٠ .
الشام : ٤ ، ٢٢ ، ٥١ ، ١٤٠ ، ١٤٦ .
شقحب ، موقعة : ١٤٦ .
شهربان : ٩٨ .
شهرزور : ٩ ، ١١ .

(ض)

صرصر : ٩١ .
صلاح الدين الايوبى : ٤ ، ٦ .
الصين : ١ ، ٢ ، ١٣٣ ، ١٤٠ ، ١٤١ .

(ط)

طاشقند : ١٣٥ .
طرسوس : ١٤٣ .

طغرل الثانى ، السلطان السلجوقى : ١٣ ٠
الطوسي ، نصيرالدين : ٥٠ ٠
طوس : ١٣٥ ٠
طي : ١٦٩ ، ١٧٠ ٠

(ظ)

الظاهر بأمرالله ، الخليفة : ١٤ ، ١١٠ ، ١٨٦ ٠

(ع)

عانه : ٢ ، ٧٤ ، ٩٧ ، ١٧٨ ٠
عبادان : ٩٠ ٠
عبادة : ١٧٣ ٠
عبدالغنى بن الدرنوس : ٢٠ ٠
عبدالمنعم البندنيجى : ٦٦ ٠
العتابية ، محلة فى بغداد : ١٢٨ ٠
عضدالدين المبارك بن الضحّاك ، استاذ الدار : ٢٦ ٠
عطا ملك الجوينى ، علاءالدين : ١٤ ، ٥٠ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٥ ، ٨٢ ، ١٠٣ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٣٣ ، ٣٤٠ ٠
عراق : ٢ ، ٣ ، ٨ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٩٠ ، ١١٥ ٠
العراق العجمى : ١٣ ، ٤٤ ، ٧٩ ٠
عقيل : ١٧٦ ٠
عكبراء : ٩١ ٠
على بهادر ، الخراسانى ، شحنة بغداد : ٥٩ ، ٦٦ ٠
علاءالدين محمد بن تكش : ٥ ٠
العلث : ١٥٢ ، ١٥٨ ٠
علي بن الدوامى ، تاجالدين : ٦٦ ٠

عمر بن الخطاب (رض) ، الخليفة : ٩٥ ٠
عين جالوت : ٣ ، ١٨ ٠
عيسى ، نهر : ٥١ ، ٩١ ٠

(غ)

غازان ، محمود ، سلطان الايلخانيين : ٦٦ ، ٧٩ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٢٣ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ٢٦٣ ٠
غايرخان : ١٣٣ ٠
غزيّة : ١٧٠ ٠

(ف)

الفاو : ٢ ٠
فردريك الثانى ، امبراطور المانيا : ٧ ٠
الفرات ، نهر : ٩٠ ٠
فلسطين : ٧ ٠
فلك‌الدين محمد بن علاءالدين الطبرسى الدويدار الكبير : ٢٤ ٠

(ق)

القبيبات : ٦٠ ، ٦١ ٠
قراح ابن رزين ، محلة : ٦٠ ٠
قراح ابي الشحم ، محلة : ٦٠ ٠
قراح القاضي ، محلة : ٦٠ ٠
قراح ظفر ، محلة : ٦٠ ٠
القرامطة : ١٥٩ ٠

القريّة ، محلة : ٢٢ •
قطب‌الدين سنجر ، ٢٢ •
قطب‌الدين اليونيني : ١٧ ، ٢٨ •
قطفتا ، محلة : ٢٢ ، ٣٦ •
قطيعة العجم : ٦٠ •
قرابوغا ، الشحنة : ٥٧ ، ٥٩ ، ٧٥ •
قره‌قورم : ٤٦ •
قيراقوز ، المؤرخ الارمني : ٥٥ •
قهستان : ٤٨ •

(ك)

كتبوغانويان : ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٣ •
كش ، مدينة : ٤٧ •
كربلاء : ١٧٨ ، ٢٥٧ •
الكرخ : ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٣٤ ، ١٣٠ ، ١٧٨ •
كرمنشاه : ٥٠ •
الكفل : ١٩٨ ، ١٩٩ •
الكنيسات : ٨٩ •
الكوفة : ٥٧ ، ٩١ ، ٩٨ ، ١٢١ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٩٧ •
كوثى ، نهر : ٩١ ، ٩٥ •
كوكا الكا : ٥٧ •
كيخاتو ، سلطان الايلخانيين : ٢٤ ، ١٤٥ ، ١٧٦ •
كيخسرو ، غياث الدين : ١٠ ، ٤٨ •
كيقباد بن كيخسرو : ٦ •
كيوك خان ، الخاقان المغولى : ١٦ ، ٣٥ ، ٤٤ •

(م)

المأمونية ، محلة : ٢١ ، ٦٠ .
ماردين ، ٨ .
ماركوبولو : ١٣١ ، ١٣٨ .
مار متّى : ١٩٠ .
مانغوخان ، الخاقان المغولى : ٣ ، ٣٥ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ .
ما وراء النهر : ١ ، ٥ ، ١٣٩ .
مظفر بن الطراح ، فخرالدين : ٨٠ .
مظفر القزوينى ، سعدالدين : ٦٩ .
المستنصربالله ، الخليفة العباسي : ٩ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٣٠ ، ٣١ ، ١٢٠ ، ١٥٧ .
المستنصرية ، المدرسة : ١٥ ، ٢٢ ، ٦٣ .
المستعصم‌بالله ، الخليفة العباسى : ١١ ، ١٢ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٠ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٥٧ ، ٩٤ ، ١٠٣ ، ١٢١ ، ١٧٥ ، ٢٢٤ ، ٢٣٥ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٨ .
مسعود بك ، الوزير الاعظم : ٤٧ .
المستوفى القزوينى : ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٨٠ .
المقتدية ، محلة : ٦٠ .
محمد بن تكش ، خوارزمشاه : ١٣ ، ١٣٤
محمد بن قلاوون ، السلطان : ١٤٣ ، ١٤٦ .
منغوليا : ١٣٣ .
المنتفق : ١٧٥ .
الموصل : ٨ ، ٧٩ ، ١٤٦ ، ١٥٧ .

(ن)

ناصر خسرو : ١٥٦ ، ١٧٩ .

الناصر لدين الله ، الخليفة : ١٣ ، ١٤ ، ٣٧ ، ٤١ ، ١١٠ ، ١٦٠ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ .
النجف : ١٣٥ ، ١٣٩ ، ١٧٧ ، ٢٥٧ .
نرس : ١٢٨ .
نهر المعلّى : ٦٠ ، ٦٢ .
نهر الملك : ١٥٣ .
النساطرة : ١٨٨ ، ١٩٢ .
النسطوري ، المذهب : ١٨٤ .
النصيرية : ١٧٨ ، ١٨٠ .
النظامية ، مدرسة : ٢٤ ، ٦٢ ، ٦٣ .
نصيبين : ٨ .
نوروز ، الامير : ٧٩ .
النهروان : ١٥١ ، ١٥٦ ، ١٥٩ .
النيل : ٣ .
نيسابور : ٣٤ ، ١٣٥ .

(و)

واسط : ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٢٥ ، ١٣٥ ، ١٤٤ ، ١٨٢ .
وصّاف الحضرة ، عبدالله بن فضل‌الله الشيرازي : ٢٩ ، ٤١ ، ٥٥ .

(هـ)

هرمز : ١٣٦ .
الهند : ٢ ، ١٣٠ .
هولاكو : ١ ، ٣ ، ٧ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٢ ،

٥٥ ، ٥٧ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٧ ، ٨١ ، ١١٨ ، ١٢٤ ، ١٢٩ ، ١٦٩ ،
٢٣١ .
هيت : ٥٩ ، ١٥٦ .

(ي)

يابالاها : ١٩٣ .
يحيى القزويني ، امام‌الدين : ٦٩ .
اليزدي ، مجدالملك مشرف الممالك : ٧٠ ، ٧٩ ، ٨٣ ، ٢٧٠ .
يساورنويان : ١٠ .
اليعقوبي ، المذهب : ١٨٤ .

محتويات الكتاب

المقـــدمة	أ ـ ى
الباب الاول : الاحتلال المغولى للعراق	١ ـ ٦٤
الفصل الاول : ظروف الغزو المغولى ومقدماته ومسئوليّة الخلفاء العباسيين عنه	١ ـ ٢٥
الفصل الثانى : الوزير مؤيدالدين بن العلقمي يتهم بالخيانة	٢٦ ـ ٤٣
الفصل الثالث : وقائع الفتح المغولى للعراق	٤٤ ـ ٦٤
الباب الثانى : الادارة الايلخانية فى العراق	٦٥ ـ ٨٩
الفصل الرابع : نظم الادارة ووظائفها	٦٥ ـ ٧٦
الفصل الخامس : الاحوال الادارية العامة	٧٧ ـ ٨٩
الباب الثالث : الاحوال الاقتصادية	٩٠ ـ ١٤٧
الفصل السادس : نظام الري	٩٠ ـ ٩٤
الفصل السابع : الزراعة	٩٥ ـ ٩٨
الفصل الثامن : ملكيات الاراضى والاقطاع	٩٩ ـ ١٠٦
الفصل التاسع : الضرائب	١٠٧ ـ ١١٩
الفصل العاشر : النظام النقدى	١٢٠ ـ ١٢٥
الفصل الحادى عشر : الصناعة	١٢٦ ـ ١٣٢
الفصل الثانى عشر : التجارة	١٣٣ ـ ١٤٧
الباب الرابع : الاحوال الاجتماعية	١٤٨ ـ ٢٧١
الفصل الثالث عشر : السكان والمدن	١٤٨ ـ ١٦٧
الفصل الرابع عشر : القبائل العربية	١٦٨ ـ ١٧٧
الفصل الخامس عشر : الشيعة	١٧٨ ـ ١٨٢
الفصل السادس عشر : المسيحيون	١٨٣ ـ ١٩٦
الفصل السابع عشر : اليهود	١٩٧ ـ ٢٠٥
الفصل الثامن عشر : الاحوال الصحية	٢٠٦ ـ ٢٢٠

الفصل التاسع عشر : الغذاء والمجاعات ٢٢١_٢٢٨
الفصل العشرون : نظم ورسوم ٢٢٩_٢٤٦
الفصل الواحد والعشرون : الطبقات الاجتماعية ٢٤٧_٢٧١
مراجع الكتاب ٢٧٢_٢٨٨

ملاحظة : معذرة للقارىء الكريم ، لقد سقط عنوان الباب الرابع وهو (الاحوال الاجتماعية) ص١٤٨ .

جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥٢	٨	المنابر	المناير
٦٧	٢٢	واحد وعشرين	اثنين وعشرين
١٠٢	١٧	الناصر	الناصري
٢٢٤	١٧	الدقيق الخبز	الدقيق والخبز

*PB-39115
5-01T
CC

Date Due

Demco 38-297

NYU - BOBST
31142 00206 8198
DS76 .K5
al-Iraq fi ahd al-Mughul al-Il

Iraq Under The Mongol Ilkhanids (1258—1335)

By

Ja'far Hussain Khasbeg (Phd)
Professor of History
In the University of Baghdad

BAGHDAD

Al-'Any Press, January, 1968

ثمن النسخة ٨٠٠ فلساً